مؤلفة الكتب الأكثر مبيعًا وفقًا لصحيفة نيويورك تايمز

كيري مانيسكالكو



مملكة الملعونين



مملكة الملعونين



التعرف على فروعنا

نرجو زيارة موقعنا على الإنترنت www.jarir.com

للمزيد من المعلومات الرجاء مراسلتنا على: jbpublications@jarirbookstore.com

الطبعة الأولى 2024

حقوق الترجمة العربية والنشر والتوزيع محفوظة لمكتبة جرير

ARABIC edition published by JARIR BOOKSTORE.


t.me/twinkling4

من أجلك دائمًا، عزيزي القارئ.

كتب جيمي باترسون للشباب

سلسلة James Patterson Presents

مملكة الأشرار بقلم كيري مانسيكالكو

Stalking Jack the Ripper

Hunting Prince Dracula

Escaping from Houdini

Becoming the Dark Prince

Capturing the Devil

Kingdom of the Wicked

Gunslinger Girl

Twelve Steps to Normal

Campfire by Shawn Sarles

When We Were Lost

Swipe Right for Murder

Once & Future

Sword in the Stars

Girls of Paper and Fire

Girls of Storm and Shadow

Girls of Fate and Fury

You're Next by Kylie Schachte

Daughter of Sparta

It Ends in Fire

Tides of Mutiny

Freewater

Hopepunk

سلسلة Confessions

Confessions of a Murder Suspect

Confessions: The Private School Murders

Confessions: The Paris Mysteries

Confessions: The Murder of an Angel

سلسلة *Crazy House*

Crazy House

The Fall of Crazy House

سلسلة *Maximum Ride*

The Angel Experiment

School's Out—Forever

Saving the World and Other Extreme Sports

The Final Warning

MAX

FANG

ANGEL

Nevermore

Maximum Ride Forever

Hawk

City of the Dead

سلسلة *Witch & Wizard*

Witch & Wizard

The Gift

The Fire

The Kiss

The Lost

Cradle and All

First Love

Homeroom Diaries

Med Head

Sophia, Princess Among Beasts

The Injustice

للعروض الحصرية والمقاطع الدعائية وغيرها من المعلومات, زر موقع

jimmypatterson.org.

أجيء

لآخذك

وأعبر بك إلى العالم الآخر

حيث الظلام الأبدي

لنبقى هناك

وسط الحرارة المتقدة

والجليد القارس.

– دانتي أليجيري، الجحيم

في ليلة صيفية باردة على غير العادة، وفي قلب
عاصفة هوجاء، وصلت التوأمتان. ومع ذلك، لم تكن
تلك بداية حكاية خرافية ساحرة. فمن كانوا يراقبون
وينتظرون عرفوهما من خلال الإشارات؛ فإحداهما
ستضحي بحياتها الفانية، بينما ستبيع الأخرى روحها.
تجادل شيوخ السحرة بشأن الطرائق والأسباب، لكن
الجميع اتفقوا على حقيقة واحدة، ألا وهي: التوأمتان
نذير حلول عصور مظلمة. والآن، بينما تحولت واحدة
منهما إلى غضب مستعر، وأبصرت عرش إبليس،
وسكنت الأخرى بلا قلب، محاطة بالموت من كل
مكان، تهامس الآخرون بنبوءة جديدة؛ نبوءة لعنت
كلتا الساحرتين والشياطين على حد سواء.

-- من كتاب تعاويذ «دي كارلو» السري

فيما مضى

في فجر يوم ملعون، أخذ أحد الملوك يسير بخطى واسعة بين جنبات قلعته، وكان دبيب خطواته يتردد على طول الممر، جاعلًا الظلال ذاتها تتوارى بعيدًا خوفًا من أن يلمسها. لقد كان في مزاج عاصف، يزداد سوءًا كلما دنا *منها* . لقد كان يشعر برغبتها في الانتقام قبل أن يدلف إلى هذا الجناح من القلعة بوقت طويل؛ إذ كانت تموج تلك الرغبة كحشد ناقم على أعتاب قاعة عرشه، لكنه لم يكترث بهذا الشعور كثيرًا. لقد كانت الساحرة بلاءً على أرضه.

بلاءً سيجتثه من جذوره دون توانٍ.

انبثق جناحا لهب أبيضان فضيا الطرفين من بين كتفيه فور أن فتح الأبواب المزدوجة على مصاريعها. واحتكا بالحائط، فكادا يشطران الخشب إلى نصفين، لكن الساحرة الدخيلة لم ترفع بصرها، إذ كانت تتمدد في خمول على العرش؛ أو بالأحرى على *عرشه*.

أخذت تمسد ساقها، دون أن تنظر ناحيته، كما لو كانت حسناء تدلل معشوقها بلطف، وكان رداؤها مفتوح الجانب على جسدها، كاشفًا عن بشرتها الناعمة من أخمص قدمها حتى نهاية ساقها.

قال الملك: «فلتنصرفي من هنا».

حينئذ انتبهت الساحرة إليه، وقالت: «كان الحديث معك دون جدوى ولا منطق ولا معنى، والآن لديَّ عرض جديد لك»، أخذت تتحرك بطريقة تبرز مفاتن جسدها تحت قماش ردائها الشفاف، وصارت نظرتها متثاقلة بينما راحت ترمقه في جرأة.

أدرك الملك مبتغاها، فعقد ذراعيه، والرفض مرتسم على صفحة وجهه. فلم يُخلَق بعد من يقدر على إيقاعه في شرك نزواته، ولا هي كذلك.

كرر قائلًا: «فلتذهبي من هنا، ارحلي قبل أن *أجبرك* على ذلك».

ردت الساحرة: «*فلتحاول*». وبحركة رشيقة عجيبة، هبت واقفةً على قدميها، وثوبها الفضي الطويل يتألق كسيف مسلول وسط السماء. حينئذ لم يعد هناك مجال لأية محاولة أخرى للإغواء. قالت: «فلتتجرأ وتلمسني، وحينها سأدمر كل عزيز عليك يا جلالة الملك».

في تلك اللحظة صارت نبرة صوتها مفعمة بالسخرية، كما لو كان الملك غير جدير بلقبه، أو بأدنى قدر من الاحترام.

وهنا أطلق الملك ضحكة تضج بالتهديد شأنها شأن الخنجر المصوب نحو عنقها النحيل؛ إذ لم تكن وحدها من تتمتع بالسرعة الخاطفة.

قال هامسًا: «يبدو أنك مخطئة، فليس لديَّ عزيز. أريد أن أراك خارج مملكتي قبل هبوط الليل، وإن بقيت هنا إلى حلول هذا الوقت، فسأفك وثاق كلاب الجحيم. وحالما يفتكون بك، سيُقذف بما تبقى منك في بحيرة النيران».

ترقَّب الملك لعله يشم رائحة خوفها، لكنها تقدمت على حين غرة إلى الأمام، ناحرة عنقها بنصل الخنجر في حركة خاطفة وحشية. ومن ثم تدفقت الدماء فوق ثوبها، متناثرة على الأرض الرخامية المصقولة، مغرقة كفي الملك. فما كان منه إلا أن مسح خنجره من الدماء، وهو يطبق على فكيه.

ابتعدت الساحرة عنه، غير عابئة بقلادتها الدامية الجديدة، وقد صارت ابتسامتها أكثر بشاعة، ومن ثَم اندمل الجرح من تلقاء نفسه دون أن يترك أثرًا.

سألته قائلة: «هل أنت على يقين من ذلك؟ ألا يوجد ما تصبو إليه؟» وحينما لم ينبس ببنت شفة، تأجج غضبها. ثم قالت: «لعل ما يقولونه حقيقي على أية حال. فصدرك المدرع ذاك لا يسكنه قلب». أخذت تدور حوله، وأطراف ثوبها تقطُر دمًا يلطخ الأرض التي كانت نقية لامعة منذ برهة فحسب. وإذا بها تقول: «ربما يجدُر بنا أن نشق عن صدرك ونلقي نظرة بين ضلوعك».

وبمجرد أن نظرت إلى جناحي اللهب العجيبين الأبيضين المشوبين باللون الفضي على ظهره، تحوَّلت ابتسامتها العريضة إلى نظرة ضارية. لقد كان الجناحان سلاحه المفضَّل، وكان ينتعش بالحرارة الشديدة التي تجعل أعداءه يفرون هلعًا، أو يجثون أمام قدميه وهم يذرفون الدمع أنهارًا.

بإشارة خاطفة من أصابعها، تحوَّل الجناحان إلى لون الرماد، ثم اختفيا دون أثر.

أصابه الذعر وهو يحاول دون جدوى أن يعيدهما إلى ما كانا عليه.

قالت: «ها هي خدعة حقيرة كإبليس ذاته».

كان صوتها شابًّا وعجوزًا في الوقت ذاته، بينما ألقت لعنتها عليه. وحينئذ أخذ الملك يكيل لها السباب. كان ذلك سبب سفكها الدماء؛ فقد كان قربانًا لإحدى آلهتها عديمة الخلق.

قالت الساحرة: «منذ اليوم فصاعدًا، ستكتسح اللعنة هذه الأرض. وستنسى كل شيء عدا ما في قلبك من كراهية. ولن يمسي في عالمك أي مكان للحب أو العطف أو الخير. ولكن ذات يوم ستتغير هذه الحال. وحينما تتذوق السعادة الحقيقية، أقسم أنني سآخذ كل ما تحب أيضًا».

بالكاد استطاع الملك أن يسمع كلمة واحدة مما قالته الساحرة ذات الشعر الأسود؛ إذ كان مشغولًا باستعادة جناحيه لكن دون جدوى. وأيًّا كان ما فعلته بهما، فها هو يفقد سلاحه الثمين دون أمل في استعادته.

كادت الرغبة في الانتقام القاني تغشى بصره، لكنه تمالك نفسه بفضل قوة إرادته. إن قتل الساحرة لن يجديه نفعًا الآن، خاصةً إن كان يريد أن يُبقي على أي أمل له في استعادة ما سُرق منه.

أطلقت الساحرة صيحة غريبة، كما لو كانت تشعر بالإحباط كونه لم يطلق الوحش الكامن داخله لكي ينتقم منها، وشرعت في الابتعاد. لم يشغل الملك نفسه بملاحقتها. وعندما راح يتكلّم كان صوته هادئًا وكئيبًا كعتمة الليل. فقال: «أنت مخطئة».

توقفت، وألقت نظرة إلى الوراء من فوق كتفها النحيلة، فقال الملك: «يمكن أن يكون إبليس حقيرًا، لكنه لا يخدع، وإنما يساوم».، قال ذلك وهو يبتسم بخبث.

للمرة الأولى بدت الساحرة مترددة. لقد كانت تظن أنها الأكثر مكرًا وفتكًا. ونسيت قاعة عرش مَن تلك التي تقف بين جنباتها، ذاك المخلوق الملعون البائس. ولكم يسعده كثيرًا أن يذكّرها بذلك.

لقد كانت تلك «مملكة الأشرار»، وهو مَن كان يحكمها بأسرِها.

سألها قائلًا: «هل تودين أن تعقدي صفقة؟».

الأول

لم يكن الجحيم كما توقعتُ.

متجاهلة أن الأمير الغادر راث - أمير الغضب - كان بجواري، أخذتُ نفسًا هادئًا متقطعًا إذ كان الدخان الناجم عن السحر الشيطاني الذي سخره لنقلنا إلى هنا - إلى الحلقات السبع - يحيط بنا.

وفي اللحظات العابرة التي سافرنا خلالها من الكهف في باليرمو إلى هذه المملكة، راودتني رؤى كثيرة عن وصولنا، كل واحدة منها أبشع من الأخرى. وفي كل رؤيا، كنت أرى شلالًا من النيران والكبريت يتدفق نحو الأسفل. وكان اللهب يتأجج بما يكفي لحرق روحي، أو صهر لحمي عن عظامي. وعقب كل تلك الرؤى، سرَت في جسدي رعدة مباغتة.

وسط الدخان والضباب اللذين لا نهاية لهما، لم يكن بمقدوري سوى أن أتبيَّن الجدران المنحوتة من حجر كريم معتم عجيب امتدت على مرمى البصر. كانت تلك الجدران إما زرقاء قاتمة، أو سوداء اللون، كما لو أن أكثر أعماق البحر عتمةً طفت وعلت إلى ارتفاع خرافي ثم تجمدت في مكانها.

سرت القشعريرة من أخمص قدمي حتى طرف رأسي. لكنني قاومت الحاجة إلى نفخ هواء الزفير في يديَّ لأبعث الدفء فيهما، أو أن ألجأ لراث طلبًا للراحة. فهو لم يكن صديقي، وقَطعًا لم يكن ملجئي وملاذي، بل كان

تمامًا كما زعم شقيقه إنفي - أمير الحسد. أي الأسوأ بين أمراء الشر السبعة على الإطلاق.

لقد كان مسخًا وسط الوحوش.

لم أستطع أن أسمح لنفسي قط بنسيان ما كان عليه. لقد كان أحد الأشرار؛ تلك المخلوقات الخالدة التي تسرق الأرواح من أجل إبليس، مخلوقات منتصف الليل الأنانية التي حذرتني جدتي منها، أنا وشقيقتي التوأم، وحثتنا على الاختباء منها طيلة حياتنا. أما الآن فها أنا أعدُّ بكامل إرادتي بالزواج من ملكها - برايد أمير الكبر- للتخلص من إحدى اللعنات. أو بالأحرى هذا ما جعلت هذه المخلوقات تصدقه.

لقد أمسى حزام الخصر المعدني الذي أعطاني إياه زوجي المستقبلي في مستهل هذه الليلة باردًا على نحو لا يُحتمَل من أثر هذا الهواء قارس البرودة. وكانت طبقات ثوبي الداكن ذي اللمعة خفيفة للغاية بما لا يتيح أي قدر من الحماية أو الدفء، كما أن حذائي لم يكن سوى شرائط من الحرير الأسود مشبوكة في نعلين من الجلد الرقيق.

لقد سرى الجليد في أوصالي. ولم يسعني سوى أن أظن أن ما أنا فيه هو مكيدة شريرة أخرى حاكها لي عدوي لإرباكي.

طافت بقايا أنفاسي المتكاثفة قبالة وجهي كالأشباح الشاردة المتطايرة، التي تزعج الإلهة في الأعلى. لقد كنتُ في الجحيم حقًا. ولولا وصول الأمراء الأشرار إليَّ أولًا، لقتلتني نونا ماريا لا محالة. خاصةً بعد أن علمت جدتي أنني منحت برايد روحي، وأنني عقدت تلك الصفقة التي لا رجعة فيها مع إبليس.

حينئذ ومضت في عقلي صورة الصحيفة التي جعلتني رهينة بيت برايد. ولم أستطع أن أصدق أنني وقَّعتُ على العقد بالدماء. فعلى الرغم من ثقتي السابقة بخطتي التي تطمح إلى اختراق هذا العالم، والانتقام لمقتل شقيقتي، فقد شعرتُ بأنني غير مستعدة إطلاقًا حينها فيما كنت أقف هناك.

ولكن إلى أين تشير «هناك» بالضبط؟ لم يبدُ أننا عقدنا الصفقة داخل أي من البيوت الملكية السبعة. ولا أعلم لِمَ ظننتُ أن راث سيسهِّل هذه الرحلة عليَّ.

تساءلتُ: «هل نحن في انتظار وصول خاطبي؟».

لكن الصمت كان سائدًا.

فتململت في قلق.

كان الدخان لا يزال يحيط بي، ويجعل رؤيتي مشوشة، وحينما رفض شيطاني الحارس الحديث، شرع عقلي يعذبني بالكثير من المخاوف العجيبة؛ إذ كل ما علمته هو أن برايد ينتظر ملاقاة عروسه وجهًا لوجه.

أرهفتُ السمع محاولةً أن أميِّز أي صوت ينم عن اقتراب أحد عبر الدخان، بيد أنه لم يكن هنالك سوى صوت دقات قلبي المحمومة.

لم أسمع صرخات المعذَّبين والملعونين إلى الأبد. فقد أحاط بنا صمت مطبق يحبس الأنفاس. وشعرت بالكآبة، كأنما تلاشى أي بصيص أمل منذ ألف عام، ولم يبقَ سوى سكون اليأس القاتل. كان من السهل في هذه اللحظة أن أستسلم، وأتمدد غارقة في الظلام. كانت تلك المملكة تمثل الشتاء بكل قسوته وعظمته الباردة المميتة.

كل هذا ونحن لم نعبر الأبواب بعد...

انتابني الهلع، واجتاحتني رغبة محمومة في أن أعود إلى مدينتي - بنسيم بحرها المنعش وأهلها الودودين - كنت أشتاق إليها بشدة حتى إنني شعرت بألم الحنين يمزق صدري. لكنني حسمتُ أمري، وسأمضي في طريقي، أيًّا كانت العواقب، ما زال قاتل فيتوريا الحقيقي حرًّا طليقًا. قد عزمت أن أخطو عبر أبواب الجحيم ألف مرة لكي أعثر عليه. وتغيَّر مكاني، لكن غايتي القصوى ثابتة كالجبال.

أخذت نفَسًا عميقًا، لكي تهدأ جوارحي.

وأخيرًا تبدد الدخان، كاشفًا عن لمحتي الجلية الأولى للعالم السفلي.

كنا بمفردنا في كهف، يشبه ذاك الذي تركناه، وكان عاليًا يُشرِف على البحر في باليرمو، وهو المكان الذي أقمت فيه حلقة العظام، واستدعيت راث للمرة الأولى منذ نحو شهرين، لكن حينها كانت حالي مختلفة تمام الاختلاف عن تلك المثيرة للغثيان في الأرض البعيدة.

من مكان ما فوق رؤوسنا لمع عدد من البقع بضياء القمر الفضي. لم تكن باهرة لكنها كانت كافية لنرى الأرض المقفرة مبعثرة الصخور وهي تتلألأ بالصقيع.

وعلى بُعد عدة أمتار، انتصبت بوابة عالية مهيبة، لا تختلف كثيرًا عن الأمير الصامت الواقف بجواري. وكانت ثمة أعمدة - منحوتة من الزجاج البركاني الأسود على هيئة أناس يُعذَّبون ويُقتَلون بطرق وحشية - تحيط ببابين مشيدين بأكملهما من الجماجم، سواء أكانت بشرية، أم حيوانية، أم شيطانية. وكانت لبعضها قرون، وللبعض الآخر أنياب معقوفة. وكانت جميعها شنيعة المنظر، لكن نظري استقر على ما افترضت أنه المقبض؛ إذ كان عبارة عن جمجمة حيوان أيل ذي قرون هائلة الحجم يكسوها الصقيع.

حينئذ تحرك راث، شيطان الحرب القوي خائن روحي. وارتسمت في عينَيَّ نظرة استياء عابرة، إذ تتبعته وهو يسير، وكنت معتادة نظرته النافذة؛ تلك النظرة الباردة ذاتها على وجهه. كنت أرغب حينها في أن أقتنص قلبه من بين ضلوعه، وأن أطأه بقدمي علّه يخفق *بنبضة* من العاطفة. فأي شيء سيكون أفضل من اللامبالاة الباردة التي كانت تليق به حينذاك.

التفت نحوي في اللحظة التي راقت له. فقد كان مخلوقًا أنانيًا، كما حذرتني نونا تمامًا. وقد كنتُ حمقاء حينما صدَّقت العكس.

أخذنا يحدق أحدنا إلى الآخر مدة طويلة.

هنا، في ظلال العالم السفلي، كانت عيناه الذهبيتان القاتمتان تلمعان كالتاج المُوشَّى بالياقوت على رأسه. وكلما طال بقاء نظراتنا حبيسة داخل حلبة القتال، تسارعت نبضات قلبي. ثم أحكم قبضته على يدي قليلًا، فأدركتُ حينها فقط أنني كنت ممسكة بيده في توتر بالغ. فتركتها ومشيتُ مبتعدة.

لم أدرِ أكان منزعجًا أم مسرورًا أم غاضبًا كذلك؛ فالتعبير المرتسم على وجهه ظل كما هو؛ إذ بقي نائيًا بنفسه كما كان حينما عرض ذاك العقد مع برايد منذ بضع دقائق. وإذا كان يرغب في أن تجري الأمور هكذا بيننا، فلا بأس. فأنا على أية حال لم أحتَج إليه أو أرِده. وفي الواقع، أود أن أقول ليته يذهب إلى الجحيم دون توانٍ، لكننا نجحنا في ذلك معًا.

أخذ يراقبني وأنا أحاول كبح جماح أفكاري. فأجبرت نفسي على أن أبدو هادئة وباردة، وهو الشعور الذي كنت بعيدة عنه تمامًا. لقد كان خبيرًا في سبر غَور المشاعر؛ لذا ربما ذهبت كل محاولاتي عبثًا. فنظرتُ إليه نظرة فاحصة.

باذلة قصارى جهدي لمحاكاة الأمير الشيطاني، استجمعتُ نبرة صوتي الأكثر غطرسة، وقلت: «أظن أن هذه هي بوابة الجحيم سيئة السمعة، أليس كذلك؟».

قطَّب جبينه كما لو كان يسألني هل هذا التوقع هو أفضل ما جادت به قريحتك.

حينئذ جاش داخلي الغضب، وحل محل الخوف الذي كان يعتريني. وسألته قائلة: «هل إبليس عملاق وشديد المحال إلى حد أنه يقابل ملكته المستقبلية هنا؟ أم الخوف يعتريه من الكهف الرطب؟».

كانت ابتسامة راث حينها مفعمة بالحدة والسرور الشرير. وقال: «إنه ليس كهفًا، بل هو مكان مهجور خارج الحلقات السبع».

وضع راث يده على ظهري، ووجَّهني إلى الأمام. صُدمت من شعوري الطيب إزاءه، ومن فعله اللطيف الحاني، فتسمرت مكاني. انزلق الحصى أسفل أقدامنا لكن دون صوت. وباستثناء أصواتنا، كان السكون مسيطرًا تمامًا إلى حد أنني فقدتُ توازني. فسندني راث قبل أن نمضي في طريقنا.

همس راث بالقرب من أذني: «إنه المكان الذي تخاف النجوم أن تدخله»، وكان نفَسه الدافئ متناقضًا تمامًا مع الهواء قارس البرودة. فسَرَت رعدة في

جسدي. ثم أردف قائلًا: «لكن إبليس لا يخاف من دخوله *أبدًا*. إنه يُخضِع الظلام، والخوف أيضًا».

مرَّر أنامله على ظهري، فغمرني المزيد من القشعريرة. وحبستُ أنفاسي. ثم استدرتُ وأزحت يده بعيدًا.

قلتُ له: «فلتأخذني لأرى برايد، لقد سئمتُ من صحبتك».

ضجت الأرض تحت أقدامنا. وقال: «لم تظهر كبرياؤك عند حلقة العظام تلك في الليلة التي سكبت فيها الدماء واستدعيتني. لم يظهر سوى غضبك وانفعالك».

قلت: «ربما يكون ذلك صحيحًا، يا *سمو الأمير*، لكن العقد الذي وقعتُ عليه ذكر «بيت برايد»، أليس كذلك؟».

اقتربتُ منه، فتسارعت دقات قلبي حين اقتحمت حرمه. كانت حرارة جسده تشع حولي كأشعة الشمس، دافئة وفاتنة. لقد ذكَّرتني بالوطن. فصار الألم في صدري حادًّا منهكًا. حينئذ شحذتُ لساني كنصل حاد وصوبته مباشرة نحو قلبه الجليدي، آملةً أن أخترق الجدار الذي أقامه ببراعة بيننا. وسواء أكنت مخطئة أم مُحقة، كل ما أردته هو جرحه مثلما جرحني خداعه.

قلت: «لهذا السبب اخترتُ إبليس، لا أنت. تُرى كيف تشعر الآن، وأنت تعلم أنني فضَّلت العيش مع مسخ إلى الأبد على أن أخضع نفسي *لك* مجددًا، أيها الأمير راث؟».

خفض بصره، وركزه على شفتيَّ، وأطال النظر. فتراءى في عينيه وميض ساحر، بينما تبادلنا النظرات بيننا. ربما لم يعترف بذلك، لكنه رغب في تقبيلي. وحينئذ ذممت فمي في عبوس؛ وأخيرًا تخلَّى عن تلك اللامبالاة الباردة. ولحظه العاثر صرتُ محرمة عليه.

حدق إليَّ لحظة أخرى، ثم قال في هدوء قاتل: «هل اخترتِ إبليس؟».

أجبتُ: «أجل».

كنا قد تقاربنا الآن حتى شعر كل منا بأنفاس الآخر. ورفضت أن أبتعد. وكذلك هو.

قال وهو يستل خنجره من داخل سترته: «إذا كان هذا هو ما تريدينه، فلتعلنيه في هذا العالم، ففي الواقع إذا كنت متأكدة من أمر إبليس، فلتقسمي قسم الدم. وإذا كان الكِبر حقًا خطيئتك المفضلة، فأنا أرى أنك لن ترفضي».

كان التحدي يشتعل في عينيه بينما يمد يده بالخنجر، موجهًا مقبضه نحوي. اختطفته منه، وغرزتُ حافته المعدنية الحادة في طرف إصبعي. عقد راث ذراعيه وهو يرمقني بنظرة باردة؛ إذ لم يعتقد أنني سأتم هذا العمل. ربما كان السبب كبريائي اللعينة، لكن يبدو أيضًا أن مزاجي كان يشتعل غضبًا بينما وخزتُ إصبعي، ثم أعدتُ إليه الخنجر الأفعواني. لقد وقَّعتُ بالفعل على عقد برايد، وما من مبرر للتردد الآن؛ لقد سبق السيف العذل.

قلت: «أنا، إيميليا ماريا دي كارلو، أختار إبليس بمحض إرادتي».

سقطت قطرة واحدة من الدماء على الأرض، معلنة العهد دون رجعة. وحوَّلتُ انتباهي إلى راث، فوجدتُ طيفًا مشتعلًا في أعماق عينيه، لكنه أشاح بوجهه بعيدًا قبل أن أستكشف ماهيته. ودس الخنجر في سترته، ثم شرع في المسير نحو البوابة، تاركًا إياي وحيدة على حافة المجهول والعدم.

فكرت في الفرار، لكن لم يكن هناك مهرَب.

جُلت بناظرَيَّ في الأرجاء مجددًا، ثم هرعتُ إثر الأمير الشيطاني، حتى صرت حذوه. ولففت ذراعَيَّ حول نفسي محاولةً في يأس أن أهدئ من شدة الرجفات المتزايدة، لكن لم يفلح ذلك إلا في جعلي أشد ارتعادًا. لقد أخذ راث دفأه معه، والآن عاود حزام الخصر المعدني انغراسه في جلدي بشدة. وإذا بقينا هنا في الخارج مدة أطول، فسأتجمد حتى الموت. فما كان مني سوى استحضار ذكريات الدفء والسلام.

لقد شعرتُ بمثل هذا البرد مرة واحدة فحسب - في شمال إيطاليا - كنت آنذاك صغيرة ومفتونة بالثلوج، وكنتُ أظن أنني حالمة، والآن صرتُ أرى الحقيقة، ولقد كانت خطيرة يشوبها شيء من الجمال.

مثلها مثل رفيق دربي الحالي.

اصطكت أسناني كأنها مطارق صغيرة، فكانت مصدر الجلبة الوحيد وسط هذا الخواء. وتساءلت حينها: «كيف يمكننا أن يسمع بعضنا بعضًا؟».

أجاب: «لأنني أريد ذلك».

يا له من وحش متعجرف! أطلقت شهقة مرتجفة. وكنت أقصد أن أبدو حانقة، لكنني خشيت أن تكون قد فضحت مدى شعوري بالبرودة. عندئذ ظهرت من الهواء الرقيق عباءة مخملية سميكة، وانسدلت من تلقاء نفسها على كتفيَّ. لم أدرِ من أين جلبها راث، ولم أكترث بذلك.

جعلتُ العباءة أكثر إحكامًا، وأنا ممتنة لدفئها. كدتُ أنبس بكلمة شكر للأمير الشيطاني، لكنني توقفت برجفة عميقة سريعة. ذلك أن فعل راث لم ينبع من العطف، أو من الشهامة. فقد تصورت أنه فعل ذلك على الأغلب للتأكد من عدم موتي بعد أن أضحى على وشك تنفيذ مهمته.

وعلى ما أذكر، من شأن تسليم روحي لبرايد أن يمنح راث حريته من العالم السفلي. وهو الشيء الذي قال عنه ذات مرة إنه أمر لا يقدَّر بثمن.

لا بد أن ذلك كان أمرًا رائعًا بالنسبة إليه. لقد انتهت إقامته في الوقت الذي كانت إقامتي ستبدأ فيه بالضبط. وكل ما كان عليه فعله هو خيانتي ليحقق لقلبه أغلى أمانيه.

اعتقدتُ أنني فهمت ذلك على أكمل وجه.

واصل راث المسير صوب البوابة، ولم ينظر نحوي مجددًا. ثم ضغط بيده على العمود الأكثر قربًا إلينا، وهمس بإحدى الكلمات بلغة غريبة، لم أسمعها لانخفاض صوته. حينئذ انبثق ضوء ذهبي من راحة يده، وتدفق إلى قلب الحجر الكريم الأسود.

بعد لحظة انفتحت البوابة ببطء، وسمعت صريرها، لكنني لم أستطع رؤية ما يقبع وراءها، فخطرت على بالي كل ألوان الفظائع والأهوال. لم يقدِّم الأمير الشيطاني دعوة رسمية، بل سار نحو الفتحة التي صنعها دون أن يُعنى بالتأكد من سيري خلفه.

أخذت نفسًا عميقًا وأرهفتُ حواسي. إذ بغض النظر عما كان ينتظرنا، لا بد أن أفعل ما يتحتم عليَّ لتحقيق غايتي. فتدثرت بعباءتي داخل عباءتي، وتقدمت إلى الأمام.

توقف راث على أعتاب العالم السفلي، وأخيرًا أولاني عطفه بنظرة ثانية. غير أن التعبير المرتسم على وجهه كان أقسى من نبرة صوته، التي جعلتني أتجمد في مكاني.

قال: «أود أن أحذرك».

قلتُ مستهزئة: «إننا على وشك دخول الجحيم، ألا تظن أن خطاب التحذير متأخر بعض الشيء؟».

بدا جادًّا، وقال: «في الحلقات السبع ثمة ثلاث قواعد يجب أن تلتزمي بها. أولًا، لا تكشفي عن مخاوفك الحقيقية أبدًا».

وعلى أية حال لم أكن أنوي ذلك، ولكنني تساءلتُ: «ولمَ؟».

أجاب: «هذا العالم سينقلب رأسًا على عقب ليعذبك». هممتُ بأن أتحدث، لكنه أشار بيده لأصمت، ثم أردف: «ثانيًا، تحكَّمي في رغباتك، وإلا فإنهم سيسخرون منك بالأوهام الممزوجة بالواقع. وأنت قد تجرعت من هذه الكأس عندما قابلت لاست - أمير الشهوة. إن كل رغباتك ستتضخم عشرات المرات هنا، خاصة عندما ندخل إلى ممر الخطايا».

قلت: «ممر الخطايا»، لم أقصد التساؤل، لكن راث أجاب على أية حال قائلًا: «يخضع رعايا هذا العالم الجدد إلى الاختبار لمعرفة أي بيت ملكي تتفق معه خطيئتهم الغالبة. وسوف تشعرين بانفعالات معينة مثارة بينما تمرين عبره».

قلت: «لقد وافقت على منح برايد روحي. فلمَ أحتاج إذن إلى معرفة أنسب مكان لي؟».

أجاب راث: «أرجو أن يطول عمرك لتعرفي الإجابة بنفسك».

ابتلعتُ عدم ارتياحي المتنامي. فكثيرًا ما حذرتني نونا من أن الأنباء السيئة تأتي على ثلاث مراحل، ما يعني أن الأسوأ لا يزال في الطريق. حينئذ قال: «أما القاعدة الثالثة فهي ...»

حينها أنزل بصره نحو إصبعي الذي وخزته، وقال: «كوني حذرة عندما تعقدين صفقات بالدم مع أمير الجحيم. وتحت أي ظرف لا تعقدي اتفاقًا مع إبليس. فلتدعيه وشأنه، إذ إن الأحمق فقط هو من يواجهه أو يتحداه».

أطبقتُ أسناني بقوة. إذن بدأت ألاعيب الخداع الحقيقية. وذكّرني تحذيره على نحو مبهم برسالة في كتاب تعاويذ أسرتنا، فتساءلت كيف عرفت أنا وشقيقتي تلك المعلومات. أبعدتُ هذه الأفكار من خاطري، وركزت بدلًا من ذلك على غضبي المتعاظم.

لقد كان يؤجج مشاعري دون شك بقوته التي تحمل اسمه، ما زاد من غضبي. قلت: «إن التضحية بروحي لم تكن جيدة بما يكفي؛ لذلك تلجأ إلى الخداع. وعلى الأقل أنت ثابت على مبادئك».

قال: «ستعلمين ذات يوم أنني أسديت إليك خدمة».

لم أعتقد ذلك. وقبضت أصبع يدي المجروح، فنظر رات في عينَيَّ مجددًا، ولاحت ابتسامة على طرفَي ثغره الساحر. لقد أحس بثورة غضبي المتفاقمة لا محالة.

ذات يوم ليس ببعيد سأجعله يدفع ثمن ذلك.

بادلته ابتسامة خادعة، وأنا أتخيَّل لذة شعوري حينما أحطمه في نهاية المطاف. حينها تجمد وجهه ومال برأسه، كما لو كان يقرأ جميع أفكاري وانفعالاتي ويقسم في صمت أن يرد بالمثل. ففي هذه الكراهية كنا متحدَين.

ومع عدم تخفيف حدة نظرته، بادلته الإيماءة، ممتنةً لغدره. وكانت تلك المرة الأخيرة التي أقع فيها فريسة لأكاذيبه. فإذا حالفني الحظ، فستكون هذه بداية سقوطه وإخوته الأشرار وانتصاري عليهم. ويجب عليَّ أن أؤدي دوري ببراعة، وإلا ستنتهي بي الحال جثة هامدة مثل بقية العرائس من الساحرات.

سرتُ متجاوزة إياه ومددت الخطى عبر بوابة الجحيم كما لو كنتُ أمتلكها. وقلت له: «فلتأخذني إلى بيتي الجديد. فأنا مستعدة لأتبادل التحية مع زوجي العزيز».

الثاني

من ظلمة الكهف خرجنا إلى سهوب جليدية متلألئة على قمة جبل.

طرفتُ بعينَي لأتخلص من صدمة الضياء الباهر المباغت، ثم أبصرتُ هذا العالم القاسي الوحشي. فلتحل عليَّ لعنة الآلهة. لقد كان هذا المكان شاسع البُعد عن الوطن.

لم يكن هناك لا بحر ولا دفء ولا شمس متوهجة. ووقفنا وسط درب خاوٍ منحدر تكسوه الثلوج، لا يكاد يتسع لاثنين ليسيرا به جنبًا إلى جنب.

هبتِ رياح قارسة البرودة عبر الممر الجبلي الوعِر، فمزقت عباءتي. ومن خلفنا أُغلقت البوابة مطلقةً صريرًا تردد صداه عاليًا عبر جنبات الجبال المكسوة بالثلوج. أصابتني الجلَبة غير المتوقعة بالتوتر، فقد كان هذا هو الصوت الصاخب الأول الذي أسمعه خارج الفراغ الذي كنا به، وما كان يمكن أن يبدو أكثر شؤمًا مما كان عليه.

استدرتُ إلى الخلف، وفؤادي يرتعد، فأبصرت السحر الشيطاني وهو ينبثق من أعماق هذه الأرض، ويسعى كالحية على البوابة حتى قمتها. وكانت الكَرمات البنفسجية المائلة للزرقة المكسوة بالأشواك هي ذاتها، التي اعتصرت مفكرة فيتوريا، أخذت تلتف وتنبثق من محاجر العيون وعظام الفكوك، وظلت تتلوى حتى شعبت الجماجم الشاحبة بلون جليدي عجيب.

حبس الهواء قارس البرودة أنفاسي. لقد وقعتُ في فخ العالم السفلي، محاطةً وحدي بالشرور. فتصرفت من منطلق الخوف واليأس، وهما كافيان لإيقاع المصائب. ولكن فور تذكري جثمان شقيقتي التوأم المدنس دفنتُ هذا الشعور في باطن الأرض المتجمدة.

قلت: «لقد أخبرتني بأن البوابة معطلة». وكان ثمة نبرة سخرية في صوتي. واستطردت: «وأن الشياطين ينسلون من خلالها، إذ يستعدون لشن حرب على الأرض».

فقال: «لقد أعيد قرن هاديس».

قلت: «بالطبع».

لقد كانت قرون إبليس ضرورية لغلق البوابة. وعلى ما يبدو يستطيع أي أمير شيطاني أن يسيطر عليها؛ لكنني لم أكن أعلم ذلك لأطلب التوضيح من راث. وكانت تلك طريقة أخرى ليتحايل راث على قاعدة «عدم القدرة على الكذب عليَّ مباشرة» التي تضمنها استدعائي إياه.

ذلك إذا كان ما قاله صحيحًا.

زفرت نفَسًا، وتراجعت إلى الخلف، وأنا أمعن النظر في المشهد الممتد أمامي. على يميننا كان ثمة منحدر عمودي حاد منحوت في اليابسة المكسوة بالصقيع. وعلى مرمى البصر – عبر ضباب كثيف أو عاصفة بعيدة – أبصرت بجهد جهيد أبراج قلعة سامقة تشير بأصابع الاتهام عالياً نحو السماء.

قلت، كأنما هناك غصة في حلقي: «هل هل يسكن برايد هناك؟» تراءى الغرور على قسمات وجه راث قبل أن يعيدها إلى اللامبالاة مجددًا. وقال: «الحلقة الأولى هي مقاطعة لاست. فلتعتبري أن الحلقات السبع تشبه تلال روما السبعة. وكل أمير يحكم منطقته، أو القمة الخاصة به. لا يمكن رؤية حلقة برايد من هنا؛ وهي تقع قرب الوسط، على مقربة من بيتي».

إن قُربي من عرين لاست جعلني غير مرتاحة؛ ذلك أنني لم أستطع نسيان تأثيره الشيطاني عليَّ، وكيف أنني تماديت في حب راث، وتجرعتُ الكثير من

شراب عسل التفاح، وأخذت أرقص دون أن أعبأ بشيء بينما يسفك قاتل ما دماء الساحرات.

كما لم أنسَ يومًا مشقة العودة إلى وعيي بعد أن سحب لاست قواه بقسوة، تاركًا إياي مخلوقة هشة جوفاء. ولولا تدخُل راث، لربما كنت حبيسة ذاك المكان المظلم الساحق حتى الآن.

كدت أشعر باليأس وهو يغرس نصله في عنقي، يسحبني ويستدرجني كي أستسلم له. فتظاهرت بأنني ألقيت بالخوف المتعاظم أسفل حذائي، وأخذت أسحقه.

كان راث يراقبني من كَثب، ونظرته متأججة بالاهتمام الشديد. ربما كان ينتظر أن أجثو على قدميَّ وأتوسل إليه ليعيدني إلى وطني. ولكن إذلال نفسي بين يديه كان يحتاج ما هو أكثر كثيرًا من مجرد الوقوف في أشد زوايا الجحيم صقيعًا.

أقررتُ وأنا أستدعي نظرةً مستلذة من الشيطان: «كنتُ أظن أن الطقس سيكون أكثر دفئًا، النار والكبريت وتأثيرهما».

قال: «إن الكائنات الفانية لديها حكايات للعبرة والعظة عن الآلهة والمسوخ ومَن صنعها، لكن كما ترين، الحقيقة مختلفة تمامًا عما سمعته».

شتت انتباهي عن مواصلة التساؤل صوت طقطقة خافت. وعلى جُرف شاهق على يسارنا، كانت تنتصب بضع أشجار جرداء الأغصان، تتمايل وسط الرياح القطبية، وتصدر فروعها حفيفًا خافتًا حين احتكاك بعضها ببعض. شيء بها ذكرني بالعجائز الشمطاوات وهن يجلسن معًا وينسجن بإبر من العظم. وأكاد أقسم أنه عندما دققت النظر رأيت هيئة أجسادهن المبهمة. طرفت عيناَي فاختفت الصورة. وبعدئذ على الفور سرت زمجرة خفيضة مع الرياح.

ألقيت نظرة خاطفة على راث، لكن لم يبدُ أنه يلاحظ المشهد الغريب، أو يسمع أي صوت يلفت الانتباه. لقد كان يومًا طويلًا للغاية ومشحونًا عاطفيًا، فشرد خيالي من كل حدب وصوب؛ لذا نفضتُ المشاعر المرتبكة بعيدًا.

استرسل راث قائلًا: «هذا هو ممر الخطايا»، فأيقظني من هواجسي دون أن يدري. «وإن سحر التخطي محرَّم على هذا الجزء من الأرض في المرة الأولى التي تعبرين فيها إلى داخل هذا العالم، لذا عليك أن تنتقلي سيرًا على الأقدام».

سألت: «هل عليَّ أن أفعل ذلك بمفردي؟».

ركز راث انتباهه نحوي، وقال: «كلا».

أطلقت نفسًا هادئًا بتمهل. وشكرت القدر على النعم البسيطة. وقلت: «لمَ يتحتم على الناس أن يمروا من هنا؟».

أجاب راث: «إنها وسيلة تساعد القادمين الجدد لكي يتحالفوا مع الذين يتشاركون معهم في خطيئتهم السائدة».

أخذت أفكر في ذلك، ثم قلت: «إذا كنتُ أميل نحو الغضب، فالأنسب لي هو بيت الغضب»، فأومأ الأمير إيجابًا. «ومن تستميلهم خطايا أخرى ... هل ستزعجهم بيوت الشياطين الآخرين؟ فلنفترض أن عضوًا في بيت الكسل ينسجم مع بيت الكسل، هل سيفضحه البيت الآخر بشكل ما؟».

أجاب راث: «لن يفضحه بالضبط، ولكنه شيء شبيه بذلك. إن البشر الفانين يربطون أنفسهم بالأطراف والمنافع السياسية. والأمر هنا قريب الشبه بذلك، لكننا نتفق في الرذائل».

سألت قائلة: «هل يخضع الشياطين والبشر للاختبار بالطريقة نفسها؟».

حينئذ بدا أن راث يتخير كلماته بدقة، إذ قال: «معظم البشر الفانين لا يصلون إلى ممر الخطايا أبدًا، ولا إلى الحلقات السبع. وإنما يميلون إلى حبس أنفسهم على جزيرتهم المنفصلة خارج البوابة، عند الشاطئ الغربي. إنها عقوبة ذاتية بصورة ما».

«ألا تسجنهم بعيدًا في سجن اللعنة؟».

«الجزيرة هي السجن. إنهم يعيشون في واقع من صُنع أيديهم. ويستطيعون الرحيل في أي وقت. ولكن معظمهم لا يفعل ذلك، إذ يحيون ويموتون على جزيرتهم ثم يبدأون من جديد».

لقد كان جحيمًا بطريقته الخاصة. قلت: «قالت نونا إن الساحرات النجميات كُن الحارسات بين العوالم. فلمَ يحتاج الفانون والأشرار إلى الحراس ما داموا لا يرحلون مطلقًا؟».

أجاب راث: «ربما يراقب الحراس كائنات أخرى بخلاف الأرواح الفانية وإخوتي».

كان غامضًا ومحبِطًا كعهده دائمًا. لكنني واصلتُ الإلحاح قائلة: «ما زلت لا أفهم لِمَ يجب أن أخضع لاختبار على الإطلاق».

«إذن، أقترح أن تنصتي لتحذيري السابق، وتركزي على النجاة بحياتك».

قال ذلك بنبرة متحدية آمرة لكي يوقفني عن طرح المزيد من الأسئلة. وأنا كنتُ متوترة بشدة حتى أجادله فيما يقول. لقد كان التهديد بالموت معلقًا فوق رأسي، قريبًا ومظلمًا كالغيوم المتجمعة. والأمير الأحمق ركز نظرته الثاقبة نحوي مجددًا، تاركًا إياها تخترق منحنيات جسدي الناعمة.

لم أكن أرتدي تميمتي - إذ لا تزال بحوزته - لذلك لم يكن من الصعب معرفة إلى أين يوجِّه بصره. ومع كوني مغطاة بالعباءة كذلك، أقسم أنني شعرت بحرارة نظراته كأنها تلامس بشرتي.

تلاشت أفكار الموت. وسألته: «هل هناك خطب ما يتعلق بصدريتي؟».

أجاب: «يبدو أن اختبارك قد بدأ. كنت أتفحص عباءتكِ».

تنفستُ ببطء ومنعتُ نفسي من إطلاق وابل من السباب الذي تبادرت كلماته إلى ذهني.

حينئذ ابتسم راث ابتسامة مصطنعة كأنما أسعده غيظي أيما سعادة. وبينما لم تزل الابتسامة على وجهه، تحرك بخفة نازلًا الممر الجبلي المنحدر، بخطوات ثابتة على الرغم من الثلوج.

لم أستطع أن أصدق ... هل كان حقًّا يمهد الثلج حتى أتمكن من السير بحذائي الرقيق؟ ها هي أخلاق الشياطين الراقية تظهر من جديد.

لقد كان مستعدًّا دون رَيب لفعل أي شيء ليراني بين يدَي برايد في سلام.

وفيما يتعلق بتلك الخطيئة تحديدًا - أي الكِبر - رفعتُ ذقني، وأصبحت نبرة صوتي وطريقة تصرفي أكثر شموخًا مما يطمح إليه أي ملك أو ملكة فانية ولِدَت لتحكم. ولِمَ لا أشعر بالسمو؟ لقد كنتُ على وشك أن أحكم العالم السفلي، وحان الوقت لكي يُظهر راث بعض الاحترام لملكته. قلت له: «أنا قادرة تمامًا على السير بمفردي. بمقدورك أن تنطلق في طريقك الآن».

قال: «لم أكن أعلم أنك من النوع الذي يعرِّض نفسه للخطر لكي يحفظ كبرياءه».

رددتُ قائلة: «إذا لم أستطع أن أسير في الثلج دون مساعدة، فسأقطع عنقي في الحال وأنهي كل شيء. أنا لا أحتاج إليك أنت ولا إلى أي أحد ليأخذ بيدي. وفي الواقع، أود أن تتركني لحالي. سأكون أفضل من دونك».

عندئذ توقف عن السير، ونظر إليَّ من فوق كتفه. ولم يعد هناك دفء ولا ضيق على وجهه. وقال: «فلتقاومي ممر الخطايا إذن، وإلا سأتركك لغرورك الصارخ. فالمرء يكون أكثر عرضة للوقوع فريسة لخطيئة ما عندما يُظهر سماتها مبكرًا. وهذا هو تحذيري الأخير، وكل ما أستطيع أن أسديه إليك من نصح. فإما أن تنصتي إليه كما هو أو لا تعبئي به».

أطبقتُ على أسناني، وبذلتُ قصارى جهدي لأسير على خطاه. وكلما تعمقتُ أكثر داخل العالم السفلي، شعرتُ كما لو أن الشظايا الباقية من ذاتي تذهب أدراج الرياح رويدًا رويدًا. ولم أستطع أن أقاوم التساؤل عما إذا كان سيبقى مني أي شيء آلفه حينما أعود لوطني.

وكما لو كان الغضب يجيب عن تساؤلاتي القلقة، وجدته يتأجج في صدري طيلة سيرنا أميالًا في صمت. ولا شك في أن راث كان محور اختباري آنذاك. وكان اختبارًا مألوفًا، فمرحبًا به. وعلى الرغم من أنه كان ينبغي أن أتأكد من أن تحالفي مع برايد هو الأفضل، فقد انشغلتُ بغضبي بينما شققنا طريقنا هبوطًا، وعبرنا جدولًا متجمدًا، وتوقفنا بالقرب من بقعة منبسطة أوسع قليلًا تطل على سلسلة جبلية أصغر حجمًا.

كانت مجموعات الأشجار دائمة الخضرة، التي تشبه في صورتها أشجار العرعر والأرز الموجودة في كتاب تعاويذ نونا، منتشرة في شكل نصف دائرة حول الركن الشرقي الأقصى حيث توقفنا.

وفوق الأشجار، تسابقت الغيوم الغاضبة في جنبات السماء. وأخذ البرق يضرب بشدة كأنه لسان وحش هائل، وتبعه بعد لحظة هزيم الرعد. ودون أن تطرف لي عين، أخذتُ أراقب الكتلة المظلمة التي تندفع نحونا. لقد شهدتُ الكثير من العواصف، لكن لم يكن أي منها أسرع من الآلهة الساعية للانتقام. لقد بدت كما لو أن الجو نفسه مسكون بالجن.

أو لعل هذا العالم سخط على ساكنته الجديدة، وها هو يعلن رفضه إياها. لقد كان يشبه راث كثيرًا.

وبعد بضع دقائق، توقفنا عن سيرنا.

وقال راث: «هذا يكفي».

خلع راث سترته، ووضعها بحذر على فرع منخفض. فاتضح أنني كنت على خطأ منذ قليل؛ إذ لم يكن خنجره موضوعًا داخل سترته، بل كان يرتدي جرابًا جلديًّا على كتفه فوق قميصه الأسود، وقد لمع مقبض الخنجر الذهبي فيما كان يستدر. فك راث أزرار كمّيه، وأخذ يثنيهما سريعًا، ثم شرع يجمع فروع الشجر المغطاة بالجليد.

سألته: «ماذا تفعل؟».

أجاب قائلًا: «أبني مأوى. فإذا لم ترغبي في أن تنامي وسط العاصفة، فإنني أقترح أن نجمع بعض الفروع الخضراء ونزيل الجليد من عليها. وسنستخدم ما تجمعينه للاضطجاع عليه».

«إنني لن أنام معك». وذلك لعدة أسباب، أهمها أنني كنت مخطوبة لأخيه - وبغض النظر عن مسألة البقاء على قيد الحياة - شككتُ فيما إذا كان إبليس سيكون مسرورًا إذا استلقيتُ بجوار أمير شيطاني آخر.

كسر راث فرعًا من أقرب شجرة أرز، ثم نظر إليَّ قائلًا: «إنه قرارك»، وأشاح بذراعه. «إنني لن أسهر على رعايتك عندما تصابين بالمرض». ثم

وجَّه إليَّ نظرة حادة. وأردف قائلًا: «إن كنت لا ترغبين في التجمد حتى الموت، أقترح أن تتحركي على عجل».

لم أكن أود أن يتمثل اختياري في الاختيار بين راث أو برايد - أو في أية خطيئة أخرى مجددًا - فكبحت أية اعتراضات أخرى في حلقي، وذهبتُ أبحث عن الفروع. وجدت بعضها على بُعد بضع خطوات من حيث كان راث يعمل، وأزلت عنها كتل الثلوج بأسرع ما أمكنني. ومن المدهش أنني كنتُ أتحرك بسرعة الأمير الشيطاني نفسه. وخلال لحظات كنتُ قد جمعت أكثر مما يمكنني حمله. وكان ذلك جيدًا إذ كانت أصابعي تتحول للون الأحمر وتصبح متيبسة من أثر البرد والبلل.

فور أن جمعت كومة من الفروع، سحبتها إلى موقع مخيمنا. وكانت الغيوم تتراكم في غضب، مكونة دوامة، وراح الرعد يهز الأرض هزًا. ولم يتبقَّ أمامنا سوى دقائق معدودة قبل أن تتساقط علينا القطرات القوية الأولى، ذلك إن كنا محظوظين. وكان راث قد أقام بالفعل كوخًا دائريًّا صغيرًا أسفل واحدة من الأشجار الأكثر كثافة، وكان منهمكًا في دفع الثلوج أعلى وحول الفروع التي غرسها في الأرض. وكانت الجدران الخارجية عبارة عن ثلج صلب، أما السقف فبُني من الفروع، وكان علينا أن نستلقي منثنين على جنبينا في وضع يجعل الكوخ كافيًا لنا. ولم أستطع تخيُّل أنني سأقضي الليل في كوخ مصنوع من عطايا الشتاء، لكن راث بدا مقتنعًا بأننا سنكون في أمان.

نظرت إلى الأعلى، ووجدت أن الشجرة الخضراء الكبيرة التي تظللنا توفر حماية إضافية. كان حقًّا اختيارًا ذكيًّا للموقع.

دون أن يلتفت، مد راث ذراعه، وقال: «فلتعطني الفروع».

فعلت كما أمر، على الرغم من أنه كان صارمًا في طلبه، أخذتُ أناوله فرعًا تلو آخر، وأنا أتخيل في كل مرة أنني أهوي به على رأسه. وضعها راث مصطفة، وتأكد أن الأرضية مغطاة بطبقتين من تلك الأفرع الخضراء.

كان يتحرَّك بخفة ورشاقة، كما لو قام بذلك العمل ألف مرة من قبل. وربما يكون قد فعل حقًا. فلم تكن روحي هي الوحيدة التي سرقها في سبيل إبليس، لكنني سأكون الأخيرة.

بمجرد أن وضع الفرع الأخير على الأرض، شرع في فك أزرار قميصه، وكان حريصًا على تجنب الجراب الجلدي، إذ ظل يرتديه. وقد برزت عضلاته المفتولة بينما يخلع قميصه، ولم أتمالك نفسي من التحديق إلى صورة الحية التي التفت إلى الأعلى وحول ذراعه وكتفه اليمنى. لقد بدا أكبر وأكثر وضوحًا وجاذبية حينذاك.

ربما لأن بشرته بدت قاتمة مقارنة بشحوب هذه الأرض، ولأن الخطوط الذهبية اللامعة بدت أكثر تألقًا.

تنحنحتُ ثم قلت: «لمِ تخلع ملابسك؟ هل تأثرت أنت أيضًا بالسحر هنا؟».

رفع بصره، وكان العرق يبلل شعر حاجبيه القاتم، ما جعله يبدو بشريًا فانيًا.

قال: «فلتخلعي حزام خصركِ».

«أفضِّل ألا أفعل». ورمقته بنظرة مرتابة. «بحق النيران السبع، ماذا تظن أنك فاعل؟».

«أمنحك شيئًا لترتديه حتى لا تتجمدي وأنت ترتدين هذا الحزام المعدني». مد يده بقميصه لكنه سحبها قبل أن أمسك به، وعيناه تلمعان بالبهجة. وأردف: «إلا إذا كنت ترغبين في النوم بلا ملابس. فالأمر يرجع إليكِ».

تأجج وجهي غضبًا. وقلت: «لمَ لا تصنع بالسحر المزيد من الملابس وحسب؟».

فقال: «إن أي استخدام للسحر خلال رحلتك الأولى عبر ممر الخطايا يُعد تجاوزًا».

«ولكنك جلبت لي عباءة بالسحر».

«كان ذلك قبل أن نعبر إلى داخل العالم السفلي الحقيقي».

«إذن، ماذا سترتدي أثناء نومك؟».

تحوَّل التعبير المرتسم على وجهه إلى تعبير شرير محض، بينما رفع أحد حاجبيه، ويا للعجب.

لعنتُ هذا العالم وإبليس، ودلفت إلى كوخنا المبني من الثلوج، وأخذت القميص الذي عرضه عليَّ. فخلعت عباءتي على عجل، ووضعتها على الأرض. وتحلَّى راث بأخلاق النبلاء، وخرج من الكوخ، وظل وقتًا يكفي لارتداء سترته مجددًا، ثم نظر إليَّ نظرة عابرة حينما عاد وانكمش داخل الكوخ الصغير. وذلك من منطلق دماثة الخلق.

اختلجت شفتاه بينما التوى جسدي وأنا أحاول أن أفك الرداء الغبي دون أن ألمس جسده. لكن الرداء لم يتزحزح، وكذلك راث. حدَّقتُ إلى الشيطان كما لو أنه السبب وراء الورطة التي أعانيها. وبدا مسرورًا للغاية بغضبي، هذا الهمجي.

قلت أخيرًا: «أحتاج إلى مساعدتك، لا يمكنني أن أفكه بمفردي».

فحص الأمير الجهنمي حزام خصري بحماس بالغ كما لو كنتُ طلبت منه أن يلقي قصيدة على ضوء البدر، لكنه لم يرفض طلبي. وقال: «فلتستديري».

قلت: «لا تحاول أن تبدو سعيدًا للغاية، وإلا سأظن أنك معجب بي».

«يجدر بك أن تكوني ممتنة لذلك؛ إذ سيكون إعجابي بكِ وبالًا عليكِ».

تذمرت قائلة: «ولِمَ؟ هل ستفسدني على جميع الأمراء الشيطانيين الآخرين؟».

أجاب: «شيء قريب من ذلك».

تبسَّم وأفسح لي المجال لكي أتمكن من الالتفاف. وتحركت أصابعه بخفة عبر الشرائط المتقاطعة حتى أسفل ظهري، وهو يسحبها ويحلها بدقة بالغة. أمسكتُ بالناحية الأمامية لحزام خصري لكي أحافظ على نفسي من الانكشاف، بينما سقط الظهر بعد ذلك بلحظة، كاشفًا بشرتي، فلامسها الهواء قارس البرودة.

لم أتخلص من أي حزام خصر بهذه السرعة من قبل. فإما أن حواسه الخارقة ساعدته، أو أنه خبير في خلع ملابس النساء.

ودون سابق إنذار، تراءى بمخيلتي مشهد حميمي له مع رفيقة أخرى، بوضوح وتفصيل مسهب، كما لو كان مشهدًا حقيقيًا.

خيم عليَّ شعور كئيب مظلم لمجرد التفكير في ذلك. وأطبقت على أسناني، وتدفق فجأة على روحي سيل من الاتهامات بينما استدرتُ. ولو لم أكن أعلم حقيقة مشاعري جيدًا، لظننتُ أنني ...

قال راث الذي اكتشف بسهولة تغيُّر مزاجي: «أنت تشعرين بالحسد».

وجهت إليه انتباهي قائلة: «فلتتوقف عن قراءة مشاعري».

كان التعبير على وجهه جامدًا، إذ اختفت أية لمحة مرح أو شر ساخر. وهبَّ واقفًا في صلابة كما لو كان يجبر نفسه على أن يصبح صنمًا من الجليد. وبات من الواضح أن فكرة لمسي بتلك الطريقة كانت مثيرة للاشمئزاز.

قال: «لن يكف ممر الخطايا عن اختبارك». ولاحظ الوهج الذي خضَّب وجنتيَّ بالحمرة، لكنه لم يعلِّق عليه. وتحوَّل تركيزه برهة إلى عنقي قبل أن يعيده إلى عينيَّ. وأردف: «فلتكبحي جماح انفعالاتك قدر المستطاع. ولتعلمي أنها ستشتد منذ هذه النقطة فصاعدًا. إذ فضلًا عن الخوف، يعيش هذا العالم على كلٍّ من الخطيئة والرغبة على حد سواء».

تساءلتُ: «أليست الرغبة هي نفسها الشهوة؟».

أجاب: «كلَّا، بإمكان المرء أن يرغب في الثروة، أو النفوذ، أو المكانة، أو الصداقة أو الثأر كذلك. والرغبات غايات أكثر تعقيدًا من مجرد الخطايا. أحيانًا تكون صالحة، وفي أحيان أخرى تعكس فقدان الأمان. إن هذا العالم يتأثر بمن يحكمونه. وبمرور الزمن صار يتلاعب بنا جميعًا».

وهنا، تراجع إلى الخلف، وهو يتحاشى النظر إلى عينيَّ، وخلع تاجه، ثم استلقى عند حافة الأفرع، وابتعد حتى واجه الناحية الأخرى. ودون حراك أيضًا، كنا نائمين أحدنا بقرب الآخر، ولم يكد يفصل بيننا سوى قدر راحة اليد.

هل كنتُ *حسودًا* بالفعل عندما طاف ذاك المشهد بمخيلتي؟

إنها لفكرة سخيفة، خاصة بعد خيانته، لكن الشعور المرير بالغيرة لم يكن قد فارقني. تلفظت باللعنات في أعماقي، وركزتُ بصورة أكبر على السيطرة على انفعالاتي. فآخر ما أردته هو أن يقحمني هذا العالم في تلك الخطايا الحاكمة السبع من خلال اللعب على أوتار مشاعري.

أسقطتُ حزام الخصر المعدني، أو بالأحرى أداة التعذيب، وسحبتُ قميصه. لقد كان فضفاضًا على جسدي، لكنني لم أبالِ. وكان دافئًا ومفعمًا بشذا الأمير. النعناع، والصيف، ولمحة رجولية صارخة.

ألقيت نظرة سريعة على راث. وكان نصفه العلوي عاريًا على الرغم من الزمهرير. وفضلًا عن سرواله الضيق، كان يرتدي جراب الخنجر فحسب حول كتفه. كان مقدرًا لها أن تكون ليلة طويلة بائسة. وقلت: «ألن ترتدي سترتك مرة أخرى؟».

قال: «فلتطردي تلك الأفكار الدنيئة عني، ولتحصلي على قسط من الراحة».

قلت: «كان يجب عليَّ أن أقتلك حينما سنحت لي الفرصة».

استدار نحوي ليتفحصني، وكانت نظرته متمهلة ومنعطفة، بينما عبرت من عيني، فوق انحناء وجنتيَّ، واستقرت على شفتيَّ. وبعد برهة، قال: «فلتنامي».

تنهدتُ، ثم انكمشتُ على الأرض، وسحبت العباءة فوق جسدي كأنها دثار. وسرعان ما امتلأ المكان الضيق بأريج الأرز والصنوبر. وفي الخارج راحت الرياح تعصف. وبعد لحظة، هاجمت حبيبات البرد مأوانا، لكن لم تخترقه.

ظللت مستلقية هناك برهة، وأنا أرهف السمع لصوت أنفاس الشيطان التي أمست بطيئة ومنتظمة الإيقاع. وفور أن تأكدت من نومه، اختلستُ النظر نحوه مرة أخرى؛ فوجدته يغط في سبات عميق كما لو كان وحشًا مفترسًا خالي البال. أمعنتُ النظر في الحبر اللامع على كتفيه، وكانت خطوطه اللاتينية شاحبة لم تزل، وبعيدة بحيث لا يمكن فك طلاسمها.

وفي لحظة تهور مني تُناقض عقلي الراجح، سمحتُ لنفسي بالانسياق خلف الفضول حيال الشيء القيم المهم بالنسبة إليه إلى حد رسمه على جسده بصفة دائمة. كنت أريد أن أميط اللثام عن روحه، وأن أقرأه كأنه كتاب مفتوح، كاشفة عن أعمق أسراره وحكاياته التي أوصلته لما هو عليه.

لكنني كنت حمقاء.

حاولت ألا ألاحظ زحف وشمنا المتطابق بأناقة إلى ما بعد مرفقه آنذاك أيضًا. وذكّرني الهلالان المزدوجان، والأزهار البرية، فضلًا عن الحيات بمشهد في حكاية خرافية رُسِم على جدار منزلنا. إنه شيء ما عن الآلهة والمسوخ.

حاولت باستماتة أن أغض الطرف عن رغبتي في اقتفاء أثر وشمه، أولًا بأطراف أناملي، ثم بثغري، لأستكشفه.

ولم أسمح لنفسي بالتفكير تحديدًا في أنني كنت الشخص الذي أحبَّه راث وتودَّد إليه.

أبعدتُ هذا الخاطر الدنيء المُخزي عن ذهني بعد أن صدمتني بشاعته.

ما أخبث ممر الخطايا المخادع ذاك! بات من الواضح أن اختباري تمثَّل في الشهوة حينئذ، تلك الشهوة المُنصبَّة على ذلك الرفيق الأخطر من أي وحش جهنمي يجوس في الخارج، متعطشًا لسفك دمي. لا أعلم كم مضى من الوقت، لكن النوم عرف طريقه إلى أهدابي أخيرًا.

بعد حين، أفقتُ من سباتي. وكانت العاصفة قد اشتدت، لكن لم تكن هي ما أيقظني. فقد داعب نَفَس دافئ عنقي بنفحات منتظمة. وفي وقت ما أثناء الليل لا بد أنني اقتربتُ من الشيطان. ومن المثير للدهشة أن أيًا منا لم يتحرك.

كان راث مستلقيًا خلفي، وإحدى ذراعيه الثقيلتين تحيط بخصري كما لو كان يتحدى أي لص قد يجرؤ على سرقة ما يزعم أنه ملك له. كان ينبغي أن أسرع بالابتعاد، وليس فقط من باب الاحتشام والتهذيب. ذلك أن القرب منه على هذا النحو يعد لعبًا بالنار التي اكتويتُ بلهيبها من قبل، لكنني لم أرغب

في التحرك. لقد أحببت الإحساس بذراعه تلامس جسدي، والتف ملمسه وشذاه حولي مثل حية مريعة. لقد أردتُ أن يزعم أنني ملك له، مثلما أردت أن يكون *ملكًا لي*.

فور أن راودني هذا الخاطر، توقف راث عن التنفس بثبات. فتزحزحت إلى الخلف، لأقرِّب نفسي منه، وأنا ما زلتُ راغبة في مزيد من الوصال.

أحكم قبضته عليَّ قليلًا، ثم قال: «إيميليا ...»

رددتُ قائلة: «نعم».

نغمة صوتي الساحرة والاشتياق الذي لم أستطع إخفاءه جعلانا نبقى ساكنين. تعجبتُ من نفسي لتردد هذه المشاعر داخلي. ففي وطني تُعلم النساء أن تلك المشاعر مخزية وشريرة. أما الرجال فيطلقون العنان لنزواتهم دون أن ينعتهم أحد بالأشرار. أجل، يمكن أن يُوصفوا بالخلاعة والخداع، لكن دون أن ينبذهم أحد.

إن الرجل متعدد النزوات كان يُمدح ويقدَّر، بينما يجب أن تبقى النساء بريئات عفيفات.

لكنني لم أكن بشرية، كما لم أنتمِ إلى طبقة النبلاء - التي عانت قيودًا أكثر من تلك التي عانيتُها يومًا - لكننَي نشأت على تلك المبادئ ذاتها.

ومع ذلك، أنا لم أعُد في العالم البشري الفاني، ولم تعُد قواعده تحكمني.

سرت بي رعدة مفاجئة، ولم أدرِ أكانت من الحماس أم من الخوف من التخلص من تلك القيود في ذلك المكان. ربما كنتُ أعلم، وربما هذا ما أخافني. لقد رغبتُ في شيء جرى تحذيري منه. وآنذاك، كان كل ما عليَّ فعله هو الترحيب به. لقد حان الوقت لكي أكون جريئة وشجاعة.

بدلًا من أن يحكمني الخوف، كان يمكنني أن أصير شجاعة، بداية من الآن. فاستكنتُ بجوار راث، وقد اتخذت قراري.

قال: «إن قلبك ينبض سريعًا للغاية».

أحسستُ بدفء مشاعره، ولكن يجب ألا أستسلم لتلك المشاعر، على الرغم من رغبتي في أن يحبني وحدي.

إن زوجي المستقبلي لن يقبل بتلك المشاعر، لكنني لم أكترث لذلك. ولعلني لن أسعى من الآن فصاعدًا إلا إلى رضائي أنا فحسب، وليذهب الباقون إلى الجحيم. فإذا كنت سأصبح ملكة على هذا العالم، فسأحتضن كل شيء به - خاصة ذاتي الحقيقية - إلى أقصى درجة.

همس راث قائلًا، وصوته ينساب كالحرير: «أخبريني».

قلت بصوت متهدِّج: «أخبرك بماذا؟».

قال: «بأنني خطيئتك المفضلة».

في تلك اللحظة لم أكن متيقنة بأنني أستطيع أن أنطق بجمل مكتملة. لقد ضايقني راث من قبل، لكنه لم يَغوِني قط. والآن فرت جميع الأفكار الحكيمة من عقلي، ولم أعد أشعر بالخجل أو القلق، ولم يكن من سبيل إلى مقاومة إغوائه.

بعد أن استسلمتُ له وهتفت باسمه، إذا به يقول بصوته الرخيم: «مع أن الوهم الذي تعيشينه الآن يطيب لي، فإنني أرى أن ترتدي ملابسك؛ لأن الحرارة جاوزت حد التجمد».

انتفضتُ جالسة، ورحت أطرف بعينيَّ في الظلام، تُرى ما الذي حدث في الحال بحق النيران السبع؟

مضت لحظة لالتقاط أنفاسي، وأخرى لمعرفة الاتجاهات من حولي. وكانت العباءة ملقاة على الأرض، وكنتُ أرتجف بفعل الهواء الجليدي.

أخذتُ أحدق إلى البقعة الدافئة الخالية بجواري، وأنا مرتبكة. قلتُ: «هل هناك خطب ما؟»، ربما منعنا ارتباطنا حديث العهد ببيت برايد من تقرُّب أحدنا من الآخر. ثم أردفت: «هل انتهكنا قاعدة ما؟».

قال راث: «لقد حاولتُ أن أحذرك». لكنني لم أستطع أن أرى وجهه، بل سمعت صوت همهمة تنم عن ابتسام مفعم بالرضا والغرور - والرجولة الطاغية أيضًا - تتداخل مع نبرة صوته، فبدأت أجراس الخطر رنينها، ثم أردف: «إن اشتياقك سيسخر منك ويلقيك في غياهب النسيان إن لم تتمكني من التحكم فيه. إن هذا العالم هو عالم الخطيئة والرغبة. وهو يتغذى على

الرذائل التي تسكن ذاتك، كما يحيا البشر على الهواء والماء. فإذا فقدت السيطرة لحظة واحدة، فسينقض عليك. وليس كما تتوقعين دائمًا. فمثلًا، إن كنت تفكرين في الكراهية، فربما يختبرك ليرى إن كان العكس هو الصحيح».

قلت: «أنا -» يا للهول. وأخيرًا أدرك عقلي الذي أعمته الرغبة ما حدث من فوره. لقد قال راث إنه كان وهمًا. ولكنه كان أشبه بالكابوس. دفنتُ وجهي المشتعل خجلًا بين كفي، متسائلة عما إذا كانت هناك تعويذة ألجأ إليها لأختفي في الحال. وتساءلت: «إذن لم يكن أي من هذا حقيقيًا، أليس كذلك؟».

جاء صوته عميقًا وقاتمًا وسط الظلام: «ثمة شيء واحد يمكنني أن أعدك به، وهو أنك لن تشكي *أبدًا* في لمستي الحقيقية لك عندما أُقدم على ذلك».

ارتميتُ على جانبي، وأنا مفعمة بالإحباط والخجل والغضب لاستسلامي لمشاعري، ولو حتى لحظة واحدة، قائلة: «ها هو الغرور عينه».

قال: «من يسمعك الآن لا يراك منذ لحظات وأنت ...».

قلت: «فلتتجرأ وتكمل هذه الجملة، وأنا أعدك بأنني سأقتلك في نومك اللعين أيها الشيطان».

أطلقت ضحكة راث المكتومة خيالي صوب حفر الجحيم المتقدة مجددًا. وظل عقلي الغادر يعيد الكلمات نفسها دون ملل. لقد قال *عندما* يلمسني وليس *إذا* لمسني. كما لو كان خطط لجعل ذاك الوهم المخزي حقيقة في المستقبل. ومضى وقت طويل قبل أن يغلبني النوم مجددًا.

لكن هذه المرة لم أحلم بالأمير المُحرَّم وهو يغويني.

بل حلمت بقتل عنيف شرس. وبامرأة جميلة ذات عينين براقتين تصرخ بلعنة الانتقام في منتصف أحلك الليالي ظُلمة.

أكثر ما في الأمر إزعاجًا كان شعوري بأنني أعرفها. وكانت لعنتها موجهة ضدي.

الثالث

شقّت خيوط الفجر طريقها داخل مأوانا الصغير. ولم أكن على يقين بالساعة التي نحن فيها. فقد بدا هذا العالم عالقًا في غسق لا ينتهي. وربما يرجع ذلك إلى القدوم السريع للعاصفة التالية. وحتى الآن كان «تلبُّد الغيوم» هو الحالة المفضلة للجو هنا. وكما لو كان إثباتًا لنظريتي، تعالى عويل الرياح على البُعد، ما جعل الدم يتجمد في أوصالي.

تحركت زاوية الضوء قليلًا وقال راث: «لقد حان وقت الرحيل»، فأيقنتُ أن النهار قد حل بالفعل. انتظرت أن يسخر الأمير المتعجرف مما حدث منذ بضع ساعات، لكنه لم يُشِر إلى الأمر من قريب أو بعيد.

لعله كان مجرد حُلم داخل حلم.

دفعني ذاك الرجاء إلى أن أنهض من سريرنا المؤقت. ورحتُ أتقلَّب يمنة ويسرة، وأمدِّد عضلاتي المتألمة. ولم تكن تلك الليلة أسوأ الليالي التي قضيتها، لكنها لم تكن مريحة على أية حال. وكل ما كنت أحتاج إليه حينها هو حمام دافئ، وتبديل ملابسي، ووجبة طيبة.

وعند التفكير في الطعام، قرقرت معدتي بصوت مرتفع إلى حد أن راث التفت نحوي، وهو يقطب جبينه بعض الشيء. وقال: «لم يعد أمامنا الكثير لنصل إلى غايتنا، لكن نظرًا إلى طبيعة الأرض، من المرجح أن نصل بعد هبوط الليل».

قلتُ: «سأصمد».

بدا راث مرتابًا حيال ذلك، لكنه أبقى على فمه المزعج مُطبقًا.

حدقت في تجهم لحزام الخصر المعدني، وشرعت في حل أزرار قميص الشيطان، عسى أن أرتدي الرداء البائس سريعًا حتى نرحل. وبينما كنت أستطيع أن أبقى على قيد الحياة دون طعام بعض الوقت، فإنني في النهاية قد أصاب بالصداع، إذا طال الوقت على الحد المعقول.

وكانت فيتوريا مثلي تمامًا. ذلك أن أبانا اعتاد مضايقتنا بزعمه أن السحر يحرق الطاقة باستمرار، ما يستدعي منا تناول الغذاء وتعويض هذه الطاقة المستنفدة، وكم كان رائعًا أننا كنا نمتلك مطعمًا. وكانت نونا تهز رأسها، وتطرد أبانا بعيدًا قبل أن يُطعمنا الحلوى.

شب في قلبي حينئذ نوع مختلف من الألم. ومع أنني حاولت أن أصرفه، كانت الأفكار المتعلقة بالطعام تتحوَّل إلى أفكار عن «البحر والكرمة»، وهو اسم مطعم أسرتنا الصغير.

لقد مرت بي هزة عاطفية خاطفة جعلتني أتألم في صمت. وكنت أفتقد أسرتي كثيرًا مع أنني لم أقضِ في العالم السفلي سوى ليلة واحدة. ربما مر الوقت على نحو مختلف هنا؛ لذا من الممكن أن تكون قد مرت ساعة واحدة في عالمي، أو أقل من ذلك.

كنت أرجو أن تكون نونا قد نجحت في العثور على مخبأ آمن للجميع. فقد كان فقد شقيقتي التوأم كارثيًا، وكان حزني لا يزال قويًا بما يكفي لإغراقي إذا سمحت له بالطفو فوق غضبي وسخطي وقتًا طويلًا. وإذا ما فقدتُ أحدًا آخر... نحيتُ تلك الوساوس جانبًا، ودفنتها في قلبي، وركزتُ على خوض ما تبقى من اليوم. فتسللت إلى فكري خاطرة جديدة.

سألت: «أين أنطونيو؟» وأخذت أراقب راث بدقة. لكنه إذا أراد أن يخفي عواطفه، فما كنت لأستطيع أن أقرأ الكثير من أفكاره. وأردفتُ: «إنك لم تخبرني قط إلى أين أرسلته».

أجاب راث قائلًا: «إلى مكان آمن».

لم يسهِب في الحديث كثيرًا، ولعل ذلك كان الأفضل في الوقت الراهن. فقد كانت لدينا أشياء أهم لنركز عليها، مثل الخروج من ممر الخطايا دون أن نقع مرة أخرى في المحظور، ثم تقديمي رسميًّا إلى برايد وبلاطه الملكي.

سيكون هناك الكثير من الوقت في المستقبل للحديث مع أنطونيو، وهو الأداة البشرية التي سخَّرها أحد الأمراء الشيطانيين لقتل شقيقتي. وهو نفسه الشاب الذي حلمت بأنني أتزوجه قبل أن أعرف حقيقة كراهيته الساحرات.

أثناء مسارعتي بالاستعداد للذهاب، جذبت بشدة زرًّا من قميصي المستعار، فشعرت بالإحراج من منظر القماش المنسل؛ إذ كنت أعلم مدى عناية رفيق دربي بالتفاصيل المتعلقة بالملبس، ولهذا هيَّأت نفسي لسماع محاضرة طويلة. نظرتُ إليه، والاعتذار على شفتي، لكنني فوجئت عندما أومأ راث برأسه، مبقيًا على الكلمات في حلقي قبل أن أنطقها.

قال: «فلتحتفظي به». ثم ارتدى سترته السوداء. قطَّبت حاجبيَّ، وسرعان ما لاحظ ريبتي التي لم أحاول إخفاءها، ثم أضاف: «إنه مجعد ومهترئ. لا أريد أن يراني أحد هكذا».

قلت: «إن مراعاتك مشاعر الآخرين لا تضاهى. سوف ينشى عليَّ».

تفحصتُ سترته. لقد كان القماش الفاخر يبرز كتفيه العريضتين، وعضلات صدره وتقاسيمها الدقيقة القوية. لا شك في أنه كان يفضِّل أن يظهر شبه عارٍ على أن يرتدي قميصًا مجعدًا أمام أيٍّ من رعايا الشيطانيين. وكدتُ أمتعضُ من غروره، لكنني نجحت في أن أبقي على تعبير وجهي دون تغيير.

لاحظت حينئذ شيئًا لم ألاحظه ليلة أمس؛ وهو أنه يرتدي تميمتين، وعند رؤيتي الأولى تفجر الغضب داخلي، لكنني كتمتُ مشاعري، إذ كان يكفيني ما لاقيته من اختبارات في يوم واحد.

أحكم راث تثبيت الزر الذي يعلو سرواله، تاركًا جذعه المنحوت ظاهرًا، بالإضافة إلى جزء ضئيل من جرابه الجلدي. لم يكن الخنجر الشيطاني

الحاد هو سلاحه الأقوى - إذ كانت نظرة واحدة إلى جسده كفيلة بجعل أي كائن يتردد في أن يمد يده نحوه.

لمعت عينا راث بسرور ماجن عندما لمح ما جذب انتباهي. وقال: «هل تريدين أن أحل الأزرار مجدداً؟».

قلتُ: «فلتسيطر على غرورك. لقد كنت أفكر في مدى إعجابك بنفسك، ليس إلا».

قال: «لقد كانت مشاعرك تميل نحوي ليلة أمس».

رفعتُ رأسي في عزة. وكان بإمكانه أن يشعر بالكذب؛ لذلك لم أنشغل بالدفاع عن نفسي كثيرًا. وقلت: «إن ذلك لا يعني أنني أحبك، إنه وهم فحسب».

قال في برود: «اعتقدت أن مشاعرك لن تميل نحو أحد تكرهينه».

«من يدري؟ ربما يتسبب هذا العالم ومكائده في ذلك».

«كذب».

«حسنًا، ربما كنت وحيدة وخائفة، وأردت أن ألهو بك».

عندئذ أدخلت القميص في تنورتي. كان أكثر دفئًا، وكنت أرغب في ترك الحزام المعدني. فانحنيتُ لألتقط حزامي الأفعواني وثبته حول خاصرتي.

كان راث يتابع حركاتي وسكناتي، وعيناه الذهبيتان تقيمان كل هذا. ومن الغريب أنه بدا مهتمًا فعلًا بإجابتي.

سألته: «لمَ أنت مهتم على أية حال؟».

قال: «إنني أتساءل عمَّ تغير؟».

أجبته: «أولًا، إننا في العالم السفلي». فضاقت عيناه، باحثًا عن أثل كذبة في كلامي. وأردفت قائلة: «فلتدعني أوضح أي سوء فهم. إنك ساحر للغاية، وفي بعض الأحوال عندما أفقد صوابي أميل إليك، لكنني لن *أحبك* مطلقًا. فلتستمتع إذن بوهم الليلة الماضية وخداعها - فهي لم تكن ولن تكون سوى محض خيال».

بادرني بابتسامة ساخرة، بينما ارتدى تاجه، ثم قال: «سنتحقق من ذاك الأمر».

قلت: «من الممتع أن نتحدى، لكنني أربأ بنفسي أن أنحدر إلى مستواك».

اشتعلت نظرته غضبًا، فذكّرتني بنيران خامدة على وشك أن تتضرَّم من جديد. وقال: «أظن أنك ستستمتعين بكل لحظة تنحدرين فيها إلى مستواي. وكل زلة من سقوطك ستجعل نبضات قلبك تتسارع، وركبتيك ترتجفان. ألا تريدين أن تعرفي لماذا؟».

قلت: «إطلاقًا».

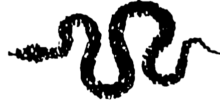
هامت على وجهه شبه ابتسامة مزعجة. ومال نحوي، وهمس قائلًا: «تكمن جذور الحب والكراهية في العاطفة». وقرَّب شفتيه من أذني. فحبست أنفاسي من شدة قربه، والدفء الذي يشع منه. ثم ابتعد لينظر في عينيَّ، ثم إلى ثغري. وقال: «عجيب، كيف يصبح الخط الفاصل بين الحب والكراهية مبهمًا ضبابيًّا بمرور الوقت».

انفلتت تنهيدة من بين شفتي الخائنتين. وقبل أن أنتبه لحركته، انسل خارجًا من مأوانا الصغير. فسرت مني رعدة بطول جسدي. لم يكن البرد هو ما هزني؛ وإنما التصميم الذي لاح في عينيه. كما لو أنني أعلنتُ الحرب، ورفض هو الاستسلام والانسحاب من المعركة. لم يكن واضحًا إذا كان يُلمِح إلى عدم حبي إياه، أو استسلامي له. لكن استفزاز قائد الحرب يعني إثارة المتاعب على أية حال.

بينما سحبت عباءتي، تذكَّرت تحذيرات نونا من الأشرار، وكيف أنه إذا جذب أحد انتباه واحد من الأمراء الشيطانيين؛ فلن يُثنيه شيء عن السيطرة عليه.

إن الطريقة التي نظر بها راث إليَّ جعلتني أعتقد صدقًا بوجود هذه الحكايات. وعلى الرغم من تصريحه السابق بأنني آخر مخلوق في كل العوالم يمكنه أن يحبه، وحقيقة أنني مخطوبة لأخيه الآن، فلا شك في أن شيئًا جوهريًّا قد تغير في الأمر.

فلتكن الآلهة في عوننا نحن الاثنين.



انقضى الصباح سريعًا، واقترب الوقت بنا من الظهيرة. وبدأ هبوب العواصف الثلجية المنيفة الهوجاء، ثم انقشعت سريعًا كما هبت. وعندما ظننتُ أن الجو اعتدل أخيرًا، انهمر الجليد علينا.

علقت بوجهي خيوط شعري السوداء المتجمدة، وتيبست عباءتي، فصارت كأنها طبقة ثانية من الجلد على بشرتي. لقد كنت متجمدة وبائسة بصورة لم أشهدها من قبل في بيتي على الجزيرة الدافئة. وكانت أجزاء مختلفة من جسدي، إما تؤلمني وإما تلسعني من أثر الجليد، فضلًا عن أنني فقدت الإحساس بقدميَّ منذ مدة طويلة. فتمنيتُ ألا أفقد إصبعًا أو ثلاثة من أصابع قدمي بسبب لسعة الصقيع.

حينما شعرتُ ببوادر اليأس تتسلل إلى داخلي، استجمعتُ قواي، واندفعت إلى الأمام، وأنا منحنية الهامة، إذ ما برحت الرياح العاصفة تهب وتقصفني. لكنني أبيتُ أن أخضع لأحوال الطقس القاسية. وأنا ما زلت على مشارف مهمتي. فما كانت شقيقتي لتستسلم قط في طريق الثأر لي.

وهيهات أن يقدر الجليد على إضعاف عزيمتي الآن.

ربما فعل هذا الممر ما هو أكثر من اختبار نزوعي لاقتراف الخطايا؛ فلعل هذا الطقس المنيف ليس سوى اختبار للعزم والتحمُّل، والتضحية في سبيل من نحبهم. لكنني أعدُّ كلًّا من الأمراء الشياطين وهذا العالم بأسره بمعرفة نتيجة هذا الاختبار في أقرب وقت.

أما راث، فإما أنه مارس سحرًا ما، وإما أن الطقس لم يجرؤ على المساس بذاته الملكية. فلم يتأثر شعره بالرياح، وظلت ملابسه جافة. وإذا لم تكن نظرته المتعجرفة تجاه الرحلة قد أثارت الحنق داخلي بالفعل، فإن إذعان

الجو لإرادته كان كافيًا لقتلي غيظًا آنذاك. لقد كان من الظلم أن أراه على أحسن ما يرام، بينما بدوت أنا كحطام سفينة يقطُر الماء منه، بعد أن جرفه الموج نحو الشاطئ بعد أشهر طويلة من بقائه في عمق البحر.

في الأوقات القليلة التي لم ينهمر فيها الجليد أو البرد، أو مزيج شنيع منهما معًا، كان الضباب الكثيف قارس البرودة يحيط بنا كأنه نذير شؤم من كل حدب وصوب. وكنتُ على وشك أن أظن بوجود قوة عليا تستمتع بتعذيب المسافرين واللهو بهم.

أخذ الوقت يمتد ويمتد، على الرغم من عدم ظهور الشمس على الإطلاق. فكان ثمة ظلال رمادية فحسب تشوب صفحة السماء. ونادرًا ما تحدثنا أنا وراث بعد حديثنا في الصباح، وكنت مرتاحة تمامًا لذلك. فقريبًا سأكون في عرين برايد.

بعد نحو ساعة أو ساعتين من رحلتنا، سرت رجفة في جسدي، لم أتمكن من السيطرة عليها، وكلما حاولت أن أتحكّم في عضلاتي، أعلنت عن المزيد من تمردها.

دائمًا ما نصحتنا نونا بالبحث عن الجانب المشرق في أي موقف، وحيث، أن الطقس المريع يستنزف قواي المعنوية والجسدية، فقد عفاني ممر الخطايا من المزيد من الاختبارات.

سرعان ما علا صوت ارتعادي إلى حد جذب انتباه راث. فألقى عليَّ نظرة لتقدير الموقف، ثم زم شفتيه، وأسرع الخُطى. أخذ يصيح ويحثني على الاستمرار في التحرك، والإسراع، ورفع قدميَّ عن الأرض. أعلى، أسرع، هيا تحركي. لقد كان قائد حرب قويًا، فأمكنني أن أتخيَّل مدى كراهية جنوده إياه بسبب التدريبات التي يُخضعهم لها.

بينما شرعت الإبر والأشواك في وخز جسمي من رأسي حتى أخمص قدمي، أخذت أشتت انتباهي بلعبة جديدة. ربما كان ممر الخطايا يشجعني، إذ تصورت جميع الطرق التي يمكن لراث أن ينزلق خلالها فوق جرف عالٍ، ويرتطم بالصخور الوعرة. بل رأيت ذلك بجلاء منقطع النظير ...

كنت سأهرع خلفه، بينما تتسارع نبضات قلبي، وأنا أتتبع الأفرع المكسورة والدمار الذي خلّفه وراءه، وجسده الضخم يصطدم بعنف بكل شيء في طريقه نحو الأسفل. وفور أن أصل إليه، أجثو على ركبتيَّ، وقد انقطعت أنفاسي. ثم أعبث بدمائه الدافئة، أجثو أرسم قلوبًا ونجومًا صغيرة في الدم المُتخثر.

نظر راث نحوي، من فوق كتفه، وقد قطب جبينه، قائلًا: «لمَ تبتسمين باستخفاف؟».

أجبته قائلة: «إنني أتخيَّل أنني أخضِّب العالم بدمائك».

قال: «هذا يفسر النظرة المتسامحة التي تعلو وجهك». ابتسم الأمير الهمجي مفتول العضلات، ومن ثم توقف ممر الخطايا عن دفعي نحو الشراهة في التشفي من راث. وقبل أن أطلق العنان لنفسي، قال: «هل أخبرتك من قبل بأن غضبك يشبه نوازعي الشخصية الدنيئة؟».

كلا، لم يخبرني. لكن لا شك في أن الشيطان الذي يدير الحرب يمكن أن يثيره أي صراع. ثم تنفستُ بعمق، محاولة أن أهدئ من غضبي والحنق الذي لا يزال يسيطر عليَّ، وقلت: «إذا كنت تريد أن تحافظ على سلامتك، أقترح أن تغلق فمك».

قال: «بمجرد أن تتوقفي عن التفكير في سلامتي، أقترح أن تتحركي بسرعة أكبر. فلا يزال أمامنا طريق طويل لنقطعه، وأنت تبدين كما لو أنك شبه ميتة».

«إن موهبتك في جعل النساء يفقدن وعيهن من السعادة تأتي في المرتبة الثانية مباشرة بعد سحرك وفتنتك أيها الأمير راث».

اتسعت فتحتا أنفه، وبذلتُ جهدًا مضنيًا لإخفاء الضحكة على وجهي. ما جعل غضبه أكثر عمقًا. ولم يسخر راث مني مجددًا بضع ساعات، ولكن ليس بدافع الاكتئاب، بل كان متوترًا. وقد راودني شك قوي في أنه كان قلقًا أكثر مما بدا عليه. فبذلتُ قصارى جهدي لأسايره، ولأركز على الغاية النهائية بدلًا من الحاضر البائس. لقد سرنا في طريقنا ونحن ننحدر عبر الممر الغادر،

والوقت يمر ببطء شديد. وبدأت أنزلق أكثر، وأحاول أن أسيطر على نفسي قبل أن أسقط على الحافة.

أخذ راث يحملق إليَّ مستفزًا غضبي بما يكفي لأمضي قُدمًا إلى الأمام. لم أكن متأكدة متى لاحظت ذلك، لكن الإحساس بنظرته أزعج حواسي المشوشة. وكان راث قد تقدَّم في المسير عني بمسافة كبيرة، ليتأكد من أن الطريق يمكن عبوره، حينما شعرت بأن الوخز البسيط يتحوَّل إلى ألم شديد منتظم لم يعُد يمكنني تجاهله.

توقفتُ عن السير، واستمر صوت انسحاق الثلج هنيهة قبل أن يسود سكون مطبق. لقد جُلتُ بنظري في الأرجاء في تمهل. وكانت الأشجار مصطفة في هذا الجزء من الطريق، والأغصان متدلية تحت ثِقل الثلج الكثيف، ما جعل الرؤية فيما وراء تلك الأشجار مستحيلة في هذا القسم المعتم من الغابة. وراحت أغصان الأشجار المُثقلة تصدر صريرًا وأنينًا. وانسحق المزيد من الثلج مصدرًا جلبة عالية.

امتزجت أنفاسي بالضباب، وتردد صدى صوت الفروع المتكسرة المتهاوية في الفراغ المسكون بالأشباح. فتلفَّتُ حولي وتجمدتُ في مكاني.

عندئذ أبصرتُ مخلوقًا عملاقًا يشبه الكلب ذا ثلاثة رؤوس يحدق إليَّ، ورؤوسه مائلة، وآذانه الست منتصبة. كان فراؤه أبيض بلون الثلوج المتساقطة، وعيونه في زرقة الأنهار الجليدية. لقد كانت تلك العيون العجيبة تحملق إليَّ، وأحداقها تتسع ثم تضيق.

لم أتنفس بعمق خشية استفزاز هذا المخلوق فيهاجمني. كانت أنيابه في حجم سكاكين الطعام، وحدَّتها كذلك. وأخذ المخلوق يتشمم الهواء، وأوشك واحد من أنوفه المبتلة على ملامسة عنقي بينما قرَّب رأسه الأوسط.

كتمت صيحة، بينما اقترب خطوة أخرى، رانت إليَّ هاتان العينان الزرقاوان بـ ...

قبل أن أتمكن من الصراخ طلبًا للنجدة، ففغر أفواهه، وأطبق جميع فكوكه كما لو كان يتأهب لعضي، لكنه غيَّر رأيه، لصدمته وصدمتي على السواء. هز

هذا المخلوق رؤوسه، ولممت عيونه، ثم سار مبتعدًا. يبدو أن الوحش الضاري أقر بوجود تهديد أكبر. أما أنا فتسمرتُ في مكاني، وحدقت إليه في ذهول، بينما تراجع نحو الغابة، دون أن يرفع عيونه من عليَّ وهو يزمجر بصوت خفيض.

لم أستطع أن أتنفس مجددًا سوى بعد اختفائه عن ناظريَّ، لكيلا أترك انطباعًا شجاعًا عني في العالم السفلي. قلت: «يا للهول، ما كان ذلك؟».

قال راث: «إذا كنت قد انتهيت من اللعب مع الجرو، فأذكركِ بأننا يجب أن نكمل رحلتنا».

قلت: «جرو؟».

أدرتُ رأسي صوب الأمير الشيطاني. فوجدتُه يقف على بُعد خطوات، وذراعاه القويتان معقودتان، وعلى وجهه ابتسامة ساخرة مثيرة للغضب، ودون أن يعرض المساعدة، لا شيء سوى السخرية في موقف كان يمكن أن يتحول إلى شيء بشع في غمضة عين. إنه شيطان بالفعل.

قلتُ: «لقد كان بحجم حصان صغير!».

رد قائلًا: «نعم بالتأكيد، فهو لا يستمتع بأن يركبه أحد».

قلت وأنا أحاول أن أقف وأزيح الثلج عن عباءتي، كما لو لم أكن أشعر بالبرد وقد ابتللت بما يكفي: «يا لسعادتي! كان من الممكن أن أنهش حتى الموت».

قال: «هناك بضعة شياطين منعزلين يعتبرون الغابة والأراضي النائية وطنًا لهم. وكلاب الجحيم هي أقل ما يجب أن يشغلك. والآن إذا كنتِ قد انتهيت من الاستعراض المأساوي، فلننطلق، يكفينا ما أضعنا من وقت».

بالطبع حريٌّ بالشيطان أن يسمي كلب الجحيم ذا الرؤوس الثلاثة جروًا، ويقول إنني أستعرض وأبالغ فيما يتعلق بمواجهة ذاك المخلوق. مشيت مجهدة بجواره، وأنا أغمغم بكل الكلمات البذيئة التي أسعفتني ذاكرتي بها. وحفزتني ضحكته اللعينة لإسراع الخطى، خوفًا من أن يتفتق ممر الخطايا عن المزيد من الأفكار الشنيعة.

مضينا في طريقنا، دون المزيد من المواجهات البرية لحسن الحظ. وكان التحدي الأكبر الذي يواجهنا هو العاصفة الهوجاء. فأقسمتُ في صمت على ألا أعتبر الثلج شيئًا شاعريًا مجددًا أبدًا.

حينما ظننتُ أن شتاءنا العاصف قد أوشك على نهايته، ظهر جبل شاهق آخر من قلب الضباب. فاضطررت إلى أن أميل إلى الخلف قدر استطاعتي ومع ذلك لم أرَ قمته.

أطلقتُ حينها أنينًا خافتًا. فلم يكن هناك مجال لأقدر على جذب جسدي المتجمد لتسلق هذا الجبل الهائل. أحسست بمزيج من الدوار والإنهاك، أو لعله الخوف من المرتفعات. فخطر على بالي أن أتهاوى جالسة في الحال، فلا ضير من اغتنام دقائق قليلة للراحة.

كان راث يسرع السير أمامي، تاركًا إياي أتأمل هلاكي شبه المحقق. ومثلما وضع يده على بوابات الجحيم، وضع راحة يده على الصخر. فإذا بضوء ذهبي يومض، بينما أمر الجبل في هدوء أن يطيعه.

أو ربما كان يهمس مهددًا أحد آلهة الجحيم الذين يدينون له بمعروف ما.

كنت بعيدة بحيث لا يمكنني سماعه، وضحكت ضحكة مكتومة عند التفكير في مطالبه المحتملة. لكنني أطلقت ضحكة مدوية عندما انزلق جزء من الجبل للخلف، كأنه باب راث الشخصي. وبالطبع، لقد حقق الجبل كل أمانيه. ولِمَ لا؟

ليته أمر العاصفة بالخضوع والهدوء مثلما فعل مع كلب الجحيم منذ برهة. فلعلها أطاعته وانطلقت في الجهة المعاكسة.

ولسبب ما، جعلني المشهد أنحني من شدة الضحك، إلى حد أن الدموع سالت على وجنتي. وبعدئذ بلحظة، نسيت المضحك في الأمر؛ إذ هطل الجليد في ندف أثقل. وتباطأت نبضات قلبي، بل انقبض قلبي ذاته. فشعرت بأن روحي تفارق جسدي، أو أنني أسافر إلى جزيرة نائية.

وقف راث أمامي في لحظة، ويداه القويتان تمسكان بذراعي. ولم أدرك أنني كنتُ أترنح إلا بعد أن سندني. بل بعد مساعدته كذلك استمر كل ما يحيط بي يدور بجنون، فأغلقت عينيّ، ما زاد الحال سوءًا.

فتحتهما مجددًا، وحاولتُ أن أركز على نقطة محددة للتخفيف من الشعور بالدوار.

فهام وجه راث العابس أمامي.

وجدته يمعن النظر بي وهو متجهم. ولو كنت قادرة لعبَّرت عن استيائي من تفحصه إياي لمعرفة ما ينتابني؛ إذ لا يتمتع الجميع بنعمة الوسامة الملائكية، بينما يتسكعون في الجحيم. وحينئذ زم شفتيه.

ربما أكون قد نطقت الجزء الأخير بصوت مرتفع.

حيث قال راث: «ربما عليَّ أن أحملك بقية الطريق. فإذا كنت تعلقين على مظهري الساحر، فلا بد أن تكوني مريضة للغاية».

قلت: «كلّا. *على الإطلاق*».

عندئذ سرت مترنحة نحو الفتحة التي أحدثها في الجبل، وأنا أتوق إلى الخلاص من الثلوج. وتمكنتُ من السير خطوتين فحسب داخل النفق المظلم قبل أن تُرفع ساقاي من تحتي، وتلتف حول كتفي ذراع دافئة مفتولة العضلات، فأجدني أحمل إلى المكان المنشود.

أخذتُ أتلوى؛ إذ شعرت بالإهانة لحملي كأنني دمية بالية، أو طفل لا حول له ولا قوة. ولم يهتز راث لمحاولاتي الإفلات من قبضته. فبصفتي الملكة المقبلة للأشرار، لم يكن هذا هو الانطباع الأول الذي أود تركه: شبه فاقدة الوعي، وأكاد أتجمد من البرد، ومستسلمة تمامًا لأحد الأمراء الشيطانيين.

لقد قال راث ذات مرة إن القوة هي كل شيء في هذا العالم، حتى أثناء هذياني، كنت أعلم أن التخلي عن قوتي، ولو لحظة واحدة، سيجعلني صيدًا سهل المنال.

قلت: «فلتنزلني في الحال».

قال: «سأفعل».

تراجع رأسي إلى الخلف، واستقر عند الزاوية بين كتفه ورأسه. وكان دافئًا على نحو ممتع، لكنني قلت: «أعني الآن».

قال راث: «حسنًا، أدرك ذلك تمامًا».

كان العالم يترنح ويمسي أكثر حلكة مع كل خطوة يخطوها. ثم صار من الصعب أن أظل متيقظة. شعرت بأن جلدي متيبس بصورة غريبة. وكان كل شيء قارس البرودة. إن النوم سيخلصني من كل ذاك العذاب. فضلًا عن أنني يمكن أن أحلم. أحلم بشقيقتي وحياتي قبل استدعائي لشيطان، وبالزمن الذي اعتقدت فيه بحماقة أن الحب والكراهية بعيدان فيما بينهما بُعد الأرض عن السماء.

قلت: «أكرهك». والكلمات تنساب من ثغري أبطأ من المعهود عادة. «أكرهك من كل قلبي».

رد قائلًا: «وأعلم هذا أيضًا تمام العلم».

قلت: «لا ينبغي أن يراني زوجي المستقبلي على هذا النحو».

شعرت بابتسامته دون أن أراها. وقال: «بما أنني أعرفك، فأثق بأنه سيرى منك ما هو أسوأ كثيرًا».

قلت: «شكرًا لك». يا له من وغد! استكنتُ إلى دفئه، وتنهدتُ، فلقد تضاءلت آمالي، وتمثلت في مجرد إنزالي على الأرض. كنت أود أن أستريح دقيقة فحسب. وسألته: «هل تظن أنني سأعجب به؟».

لم تتعثر خطوات راث مطلقًا، لكنه أمسك بي بقوة أكبر، وقال: «ستكشف الأيام كل شيء».

غفوتُ، ثم انتفضت مستيقظة بعد مرور ما رجوت أن يكون لحظة أو لحظتين ليس إلا. ففي وسط ظلام النفق وإيقاع خطواته الثابت كان من الصعب أن أظل مستيقظة. وتزاحمت الأفكار اللامعقولة والذكريات في رأسي، وأفلتت من بين شفتي.

قلت: «لقد قلت إنك لن تفعل».

قال: «أفعل ماذا؟».

راح صدى صوته يرتج في صدري، وكان مريحًا. ومن ثم استندت بوجنتي إلى صدره، أنصتُ إلى تسارع نبضاته، أو لعلها كانت أمنية فحسب. شع الدفء من بشرته على نحو يكاد يكون مؤلمًا. قلت: «تمتني بي. لقد قلت إنك لن ...»

لم يُجِب. ولم أتوقع أن يفعل. فهو لم يكن رقيقًا أو عطوفًا. بل كان جامدًا وقاسيًا يحركه الغضب والنيران. كان يفهم الحرب والتخطيط العسكري والمعارك. ولم تكن الصداقة من بين اهتماماته. خاصة الصداقة مع ساحرة. لم أكن في نظره سوى مهمة مكلف بإنجازها، وعد قطعه لأخيه، لا أكثر ولا أقل. كنت أدرك ذلك، حتى إن كان يؤلمني في أعماقي. وكانت لديَّ أهدافي ومخططاتي الخاصة. وما كنت لأتردد لحظة في تدمير أي كائن يجرؤ على الوقوف في طريقي.

ولو كان هو.

أخيرًا غلبني النوم، فاسترخيت بين ذراعي رأث. ولعله يفاجئني بالتسلل إلى بيت برايد عبر مدخل سري لتجنب أي شياطين فضوليين. ولم يسعني إلا أن أرجو أن يغدِق عليَّ بعض العطف.

ومن مكان بعيد، أكاد أقسم أنني سمعته يهمس: «لقد كذبت».

الرابع

«هل ماتت؟» احتجتُ دقيقة لإدراك ما يحدث، لكنني تعرفت على الصوت. كان صوت أنير، مساعد راث الأول من بني البشر. أجابه الأمير الشيطاني بلهجة بذيئة تضمنت كلامًا بشعًا، كأنه يقول *بالطبع لا، أيها الأبله اللعين*. قال أنير: «التمس لي العذر. فإنها تبدو ميتة دون ريب. ربما يجدُر بك أن تدَع القدَر يجري في مجراه؛ ولن يلومك أحد إذا توقف قلبها. أو حتى ...».

قال راث: «فلتصمت. إذ لا أذكر أنني طلبت رأيك».

تفحَّصت أصابع قاسية عنقي، وسحبت رسغي. وحاولتُ أن أعتدل جالسة، لكنني كنت مربوطة بشيء جامد كالصخر، وثابت لا يتزحزح. قال أنير: «يا سمو الأمير، علينا أن نستدعي كبيرة الممرضات. لا أعتقد أن هذا ...»

رد راث: «فلتحضر قدحًا من الماء الدافئ وأغطية في الحال».

حينئذ شعرتُ بأن بشرتي قد غُمسَت في النار، وتركَت لتحترق. كان تجرُّع شرابًا دافئ، أو وضع دثار عليَّ آخر شيء أريده. شعرت بأن السلاسل التي تقيدني سياطًا تجلدني، ثم تحررت من واحدة منها، فمسحت شعري إلى الخلف. إذن إنهما ذراعان لا سلاسل. كان راث لا يزال يحملني. وحاولت أن أفتح عينيَّ لكنني لم أستطع. ثم أحسستُ بأنه سار خطوات قليلة، ثم وضعني على سرير، أو على الأقل هذا ما تمنيته.

يعني هذا أن ... قلبي انخلع حينها. ويعني هذا أننا في قلعة إبليس بلا ريب. دفعني الهلع للتشبث بذراعه حينما حاول أن يبتعد. فعلى الرغم من تظاهري السابق بالشجاعة، لم أكن أرغب في أن أبقى وحدي مع ملك الشياطين. وعلى الأقل لست وأنا في هذه الحال. قلت: «كلا كلا ...»

قال راث: «لا تتحركي كثيرًا، وإلا سيتوقف قلبك».

استنشقت نفسًا حادًّا بصعوبة قائلة: «إن آدابك في معاملة المريض ...»

قاطعني قائلًا: «تقصدين بشعة، أليس كذلك؟ أنا لست طبيبًا. فلتؤجلي شكواك لما بعد، إنك تعانين حالة بسيطة من هبوط الحرارة». وقد خلّص راث نفسه برفق من قبضتي المميتة ثم تراجع. وأكاد أقسم أنه طبع قبلة على جبيني المشتعل قبل أن ينهض من على السرير تمامًا. لكنه عندما تحدث، كانت نبرة صوته قاسية ما جعلني أشك فيما إذا كانت تلك القبلة حقيقية. وقال لي: «فلتبقي مستريحة».

عندئذ شعرت بأن ملابسي تتمزق. ففتحتُ عينيَّ على اتساعهما بينما صعقتني الصدمة. كان راث يميل على جسدي، ويشق ملابسي المتجمدة نصفين، كما لو كانت أرق من رقع الكتابة الجلدية. التنورة والقميص والحزام. وسرعان ما هب الهواء البارد على جلدي المشتعل.

كدت أتأوه من فرط الارتياح، بينما يقوم هو بسحب ملابسي الرطبة من تحتي ويطرحها جانبًا.

كنت أريد أن أنتزع لحمي بأظافري، وأغمر جسدي في حوض من الجليد. ويا له من أمر عجيب بالنظر إلى أنني كنت أتجمد منذ برهة قصيرة. أغمضت عينَيَّ على الرغم مني، وفضلًا عن كفاحي لم أستطع أن أفتحهما مجددًا. وحينئذ راودت خاطري صور غريبة، وتراءت الذكريات مبهمة مشوشة وسط ضباب كثيف، ربما من أثر احتضار عقلي. أو لعلها تكون رؤى مستقبل لن أعيشه أبدًا، تسخر مني، وتتلاعب بي من تماثيل وزهور، نيران وقلوب في جرار، وجدار من الجماجم.

لم يكن ثمة شيء منطقي.

قال راث: «إيميليا ... فلتبقي معي»

رفع راث يدي، وبث الدفء في أناملي، وهو يدلّكها برفق. لكنه لم يفلح في إبقائي يقظة، إن كان هذا ما أراده. وقد غمرني سلام يحُث على النعاس، واسترخيتُ من أثر لمساته، وأخذت الذكريات والصور الغريبة تتلاشى من مخيلتي. حرك أنامله في عناية من أصابعي إلى رسغي، ثم ببطء انتقل إلى ساعدي فمرفقي، قبل أن ينتقل إلى يدي الأخرى.

فور أن أنتهى من بث الحيوية في أناملي بفضل لمساته الرقيقة، تحرك نحو أسفل السرير، ثم رفع كاحلي بإحدى يديه، ودلك بيده الأخرى أصابع قدمي مثلما فعل في أنامل يدي. ومسَّد بباطن أصابعه ربلة قدمي، فتأوهتُ في نعومة بينما ضغط عليها بالقدر الكافي لعلاج الألم الذي حل بها.

طرق أحد ما الباب، فأمره راث بترك كل شيء في الخارج. ثم سمعت وقع خطوات عبر الغرفة، وبابًا يُفتَح ثم يُصفَع مغلقًا، ثم عاد وغطّاني برفق بأنعم قماش مسَّ جسدي ذات يوم.

حينئذ أطلقت صرخة مكتومة؛ إذ شعرت كأنما صَبَّ الكيروسين فوقي، ثم أشعل عودًا من الكبريت. فما كان مني إلا أن ركلت الدثار، فأطلق الشيطان همهمة مُحبَطة.

قال راث: «توقفي». ثم هدأني وشد الدثار عليَّ مرة أخرى. وشعرت بثقَل يستقر بجواري بعد لحظة. والتفت حولي ذراعان قويتان، بينما استقر ذقنه على رأسي، مطوِّقًا إياي بساقه.

شعرتُ كأنه لهيب، وقد كنت أحترق بالفعل. فحاولت أن أنسلَّ من تحته، وأنا أريد أن أصل إلى الأرض. كنت أرغب في أن أزحف تحت ألواح الأرضية، وأن أدفن نفسي عميقًا مثل حيوان يقضي سُباته الشتوي. لكن قبضة راث لم تخُنه قط، فقد كنت محاصرة بجسده. وفي ظل قوته الخارقة، ما كان لأي قدر من المقاومة أن يجدي نفعًا، إذا ما أصرَّ على الإبقاء عليّ هكذا. لكن التشبث

بالخلاص جعلني أحاول - فأصبحتُ مثل هرة متوحشة تشهر مخالبها فيمن يحاول حبسها.

كانت ذراعا راث مثل حزامين من الصُّلب.

قلت: «فلتفك وثاقي».

قال: «كلا».

صرخت قائلة: «ألم تتعلم أية أساليب أكثر تهذيبًا لمعاملة النساء؟».

أجاب بيرود: «فلتظلي على قيد الحياة هذه الليلة، وسأحترم رغباتك».

استنكرت ما قاله وقلت: «لكنك لا تفهم ...»، لقد أصابني الجنون والهياج لرغبتي في التحرك. فأحكم وثاق ذراعيه حولي، لكن دون أن يؤلمني ولو قليلًا. قلت: «أريد أن أكون في الأرض. يجب أن أهبط إلى باطنها الآن».

قال: «هذا عرَض شائع لانخفاض حرارة الجسم. وسيزول هذا الإحساس عندما تهدئين مجددًا». ثم مد إحدى ذراعيه خلف كتفي، ورفع رأسي بعض الشيء، وأردف قائلًا: «فلتحتسي هذا الآن».

كانت نبرته تنمّ عن أنه سيسد أنفي، ويجبرني على تجرُّعه إن لم أستجب له. فهو لم يكن ممرضة رقيقة بأي حال من الأحوال، ومن ثم احتسيتُ رشفة من شراب دافئ في تردد، ثم صرخت. كان كل شيء ساخنًا للغاية. أراح راث رأسي على وسادة، ثم شد غطاء آخر على جسدي ببطء. كان خفيفًا كالريشة، لكنه آلمني بشدة مع ذلك. واشتد الألم حتى صار يفتك بي.

أطبقتُ على أسناني في محاولة لإيقاف اصطكاكها. ولحسن الحظ، لم تمر سوى لحظات بعد احتساء الشراب، حتى صرت أتردد بين فقدان الوعي واستعادته. وتعجبتُ مما وضعه في الشراب ليجعلني ناعسة وغير قادرة على الشعور بالتهديد. إن كان يريدني ميتة، لترك الطبيعة تتولى هذا الأمر.

بعد مُضي بعض الوقت، أخرجتني حركة ما من معركتي الحامية للوصول إلى صفاء الذهن؛ إذ كنت قد نسيت من أنا، ومع من. وبرق ضوء دافئ على ظل قامة فارعة.

دققتُ النظر، متعجبة ممَن أرسل ملاكًا إلى هنا. ثم تذكَّرت. إذا كان الكائن السماوي الذي يحدِّق إليَّ ملاكًا، فإنه صار شيئًا آخر عندئذ، شيئًا يجب الخوف منه وتجنبه، شيئًا يجعل الأفئدة تخفق، والركب تصطك.

كان مُحرمًا كتفاحة حواء، لكنه أكثر جاذبية.

فيما يشبه الحلم، أخذت أراقب راث وهو يقوم بأدق المهام. فكان يعيد ملء القدح بالشراب الدافئ، ويساعدني على احتسائه، حتى سرَت بأوصالي حرارة حلوة. فشعرت بالسلام والسكينة، على النقيض تمامًا من الجحيم المستعر الذي كنت أعانيه منذ قليل. وبالَغ في الحرص على تدفئتي بالمزيد من الأغطية. ووضع الحطب في مدفأة ضخمة تقع في الجهة المقابلة لسرير حالك السواد، ملاءاته بيضاء فضية كالشهُب. وكانت مألوفة لي على نحو غريب مع أنني لم أرها مطلقًا.

تقلبتُ على جانبي لكي أواجهه، وحدقت إلى قطرة عرق لامعة على بشرته المكشوفة. إذ أثناء الليل كان قد خلع التميمتين. وكان يلتحف بالأغطية مثلي، وذراعاه تضمانني في ارتياح، والدفء يشع منه. كان استثنائيًا، وذلك لا يشمل مظهره الخارجي فقط.

حوَّلت نظرتي إلى عينيه. فرأيت نقاطًا سوداء منتشرة في قزحيتي عينيه الذهبيتين كالنجوم الصغيرة المحيطة بحدقته. فأخذ يمعن النظر إليَّ، وأنا أدقق في ملامحه، وصار يتفحص وجهي كما أفعل تمامًا. فتساءلت تُرى ماذا رأى عندما نظر إليَّ، وكيف كان شعوره.

قلت بصوت متهدِّج ناعم: «أعتقد أحيانًا أنني أود أن أكون صديقتك، على الرغم من الماضي. ولعله ينبغي لنا أن نفكِّر في تحقيق التحالف بين بيتينا المنفصلين».

أطبق فكيه، كما لو كانت مجرد فكرة الصداقة أو التحالف أمرًا مروعًا.

ثم قال: «فلتستريحي».

كانت نيران المدفأة قد أشعَّت بالحرارة في الغرفة، فثقلت أجفاني، وانطبقت كما لو كان راث أمرها فأطاعته. فأضحى العالم ضبابيًا. وقلت:

«راث ...»، كنت أودُّ أن أقول «شكرًا لك» لكن الكرى سرق الكلمات من بين شفتي.

تحدث راث بنبرات هامسة خافتة. ومسِّد شعري مبعدًا إياه عن وجهي بيده الكبيرة ذات الوشم. وأحسست كما لو كان يشاركني سرًّا، بل سرًّا خطيرًا. إنه شيء على قدر الأهمية بحيث، يمكن أن يغيِّر واقع حياتي إلى الأبد. آويتُ إليه محاولة أن أرهف السمع. فدوَّى صوته داخلي كعاصفة بعيدة، محاولًا أن يوقظ شخصًا ما قبل أن يضل في غياهب الكَرى من جديد.

لم أقدر على إدراك أي شيء، واستسلمتُ للنوم مجددًا.



حينما استيقظتُ ثانية، كان مكان راث على السرير خاليًا. ومن دون جسده الضخم وتجهمه الدائم، وعنايته الصارمة، بدت الغرفة فسيحة للغاية.

غرفة.

حينئذ شهقتُ شهقة حادة، وانتبهت على الفور.

لقد زال عني الهذيان، وبدا الواقع كأنه جبل يهوي فوق هامتي.

إذن لقد أخذني راث إلى ... لم أكن متأكدة. لم أتحقق جيدًا من المكان الذي كنتُ فيه أمس. مسحتُ آثار النوم عن عينيَّ، وأمعنتُ النظر في أبراج نجمية متناثرة. ولم يكن هذا المشهد متوقعًا قط.

طرفت بعينيَّ مدققة النظر، فرأيت أن السقف مرسوم ليبدو مثل صفحة سماء مليئة بالنجوم، مع أن ذلك لم يكن حقيقيًا أيضًا؛ إذ بعد الفحص الأدق، اتضح أن الأبراج ما هي إلا أضواء ضئيلة تتلألأ بنعومة في سقف ملون بالأزرق الداكن.

جُلتُ بناظريَّ في أرجاء الغرفة، فوجدتها رحيبة وأنيقة.

كانت جدرانها بيضاء كالثلج الناصع، ومزينة بالزخارف والنقوش، أما المدفأة الضخمة المواجهة للسرير، فكانت حوافها من الفضة التي عكست ألسنة اللهب على سطحها البرّاق. وكان ثمة مرآة مزخرفة كبيرة للغاية معلقة فوق المدفأة. وانتصب على كلا جانبي رف المدفأة شمعدانان فضيان. ووضعَت مجموعة أخرى مماثلة لهما على الجدار خلف السرير. وقد دُهشت لرؤية الفضة لا الذهب المفضَّل لدى راث، مع أنني شككتُ في أن المعدن الذي أمامي كان ذهبًا أبيض في واقع الأمر.

على الأرضية، فُرشت سجادة زرقاء قاتمة متناسقة للغاية مع لون السقف، وبدا كما لو كان السرير منحوتًا من الأحجار الكريمة المحيطة بأبواب الجحيم نفسها. وفوق السجادة القاتمة وضعَت سجادة صفراء منسوجة بخيوط من الذهب. وقد بدت جميع الأقمشة ناعمة وفاخرة، وفاح منها في رقة شذا عبق الشتاء البارد وعبير المسك.

في الطرف الأقصى من الغرفة، اصطف في أناقة طقم مكوَّن من مقاعد ومنضدة زجاجية على هيئة زاوية. ولولا انعكاس اللهب المتقد على أطرافها لما انتبهت إليها مطلقًا. وبجوار المدفأة انتصبت عاليًا خزانة هائلة للتحف مصنوعة من الخشب القاتم. وعلى أبوابها نُحتَت زهور ونجوم وأفاع صغيرة. أما المقابض، فكانت على هيئة هلالين. وقد ذكراني برمز الآلهة الثلاثي، ولكنه غير مكتمل. وبجوار الخزانة كان ثمة باب يؤدي إما إلى غرفة أخرى وإما إلى ممر.

كان هذا المكان على النقيض تمامًا من القصر المهجور الذي استولى عليه راث في مدينتي.

التفتُ حولي، فوجدت على يساري بابًا آخر يُفضي إلى غرفة استحمام، كما اتضح من تناثر الماء. وبجواره علقَت لوحة قماشية ضخمة، إطارها من الفضة، ومزخرف كالمرآة التي تعلو المدفأة، ولا شك في أن كل هذا تكلف ثروة باهظة.

ظهرت في اللوحة غابة مسحورة مستوحاة من صفحات حكاية خيالية. ومنح اللونان الأخضر والبني الزيتيان العميقان المنظر المرسوم حيوية. كما تناثرت الأزهار ذات الألوان الغامقة في مقدمة اللوحة. والتفّت نباتات اللبلاب حول جذوع الأشجار الضخمة.

حملت أشجار الفاكهة ما لذ وطاب من التفاح والرمان الممتلئ الذي يكاد ينفجر بالبذور، فضلًا عن أشجار الحمضيات المتنوعة. وجثم الضباب فوق التربة بالقرب من وسط اللوحة، بينما كسا الصقيع بتلات الزهور على يمينها. وكانت ألوان الفنان داكنة غير لامعة. وكان المشهد نابضًا بالحياة، ومتجمدًا في الوقت نفسه. إذ سكن الصيف جانبًا من اللوحة، بينما أطل منها جليد الشتاء على الجانب الآخر.

كانت حديقة موسمية لم أرَ مثيلًا لها في الحياة الواقعية. لهذا انتابتني رغبة مُلحة مفاجئة في معرفة الفنان الذي رسمها، إذ تمَلّكني الفضول حيال مصدر إلهامه بهذه التحفة النادرة، وما إذا كانت مستوحاة من مكان حقيقي، لأنها إن كانت كذلك، ما ترددت في أن أزوره. لكن أولًا

عندئذ مال بصري إلى الأسفل، فرأيت نفسي؛ كانت ملابسي ممزقة منذ محاولة راث الجنونية لتدفئتي، وتخلصه من معظمها، لا أدري أين. فتنهدتُ، وجذبت أغطية السرير بشدة، محاولة ربطها على هيئة ثوب مؤقت.

فإذا بصوت أحد ما يغمغم.

دلّ تصاعد وتيرة نبضاتي على هويته قبل أن أنظر إليه. ثم تسارعت بصورة محمومة في اللحظة التي التقت فيها عيوننا.

كان راث متكئًا على إطار الباب، فيما كان شعره الحالك أشعث ورطبًا، ومرتديًا حُلّة جديدة تناسبه إلى حد الكمال، والتعبير على وجهه يميل إلى التأمل. لقد تفحصني على مهلٍ بنظرة حادة دقيقة. وكان يتدلى من بين أطراف أصابعه ثوب أسود مطرز بزهور برية. وقال: «ها أنت قد استيقظت».

قلت: «يا لك من رجل قوي الملاحظة».

قال: «فلتتحلَّي باللطف. فأنا الوحيد الذي يمتلك رداء لك».

تحوَّل انتباهي إلى الرداء المقصود. وكنت في موقف ضعف لا محالة، وهو ما نويت إصلاحه على الفور. فسألته: «أين نحن؟».

أجاب: «في غرفة نوم، على ما يبدو».

يا له من أحمق مثير للضجر! سألت مجددًا: «هل هي غرفتك؟».

هزَّ رأسه نافيًا دون مزيد من الإيضاح. فأخذتُ أعُد إلى عشرة في صمت. وانتظر رات، وهو يزم شفتيه، كما لو كان إزعاجي هو هوايته وتسليته المفضَّلة.

إذا كان راغبًا في الشجار، فعلى الرحب والسعة. ولكن عندما تذكرت ما قاله عن أن الغضب يجعلني جذابة عقدتُ لساني. ثم سألته قائلة: «هل نحن في بيت برايد؟».

- «كلا، هذا بيت رات».

- « ولكن العقد ...»

- «هل ترغبين في الذهاب إلى هناك؟» كانت نبرته محايدة ومتحفظة.

بدا السؤال كأنه فخ، ولم أرغب في أن أقع في شرَك أي أمير شيطاني مبكرًا هكذا، هذا إن كنت أرغب في ذلك على الإطلاق. وقلت بصعوبة: «لقد تعهدتُ بالدم».

قال: «تلك ليست إجابة عن سؤالي».

كان كمن أجاب نيابة عني. لكنني اقتطعت صفحة من كتاب أسراره. وسدَّدت نحوه سؤالًا مضادًا: «وهل ستغيِّر رغبتي شيئًا؟ لقد وقعت بالفعل، سبق السيف العذل».

كرر سؤاله: «هل ترغبين في الذهاب إلى هناك؟» بالطبع لم أكن أرغب في الذهاب أو البقاء حيث أنا. وإنما أردتُ أن أنجز المهمة التي أتيت من أجلها، ثم أعود إلى موطني. وكلما كان ذلك أسرع، كان أفضل. وأطبقت شفتيَّ، غير راغبة في الإجابة بصوت مرتفع، وأجبرت نفسي على التفكير في قول لائق. شعر رات بمشاعري وأكاذيبي. وكانت لديَّ نظرية أود اختبارها. وضاقت عيناه وهو يتفحَّص وجهي، باحثًا عن الحقيقة المخفية وراءه. ثم سألني: «هل ما يدور في ذهنك، يعني موافقتك؟».

أومأتُ إيجابًا.

لاحت على وجهه أمارات انفعال نادرة، لكنه استعاد رباطة جأشه سريعًا، وعبر الغرفة في بضع خطوات واسعة. ولو لم أكن أنظر إليه من قرب، إذن لما تمكنت من رؤية رد فعله العابر. والآن صار الغضب يقذف بالشرر من عينيه، لكنه مجرد قناع لإخفاء جرحه.

قال: «لا تقلقي. فور أن يستفيق أخي لنفسه من حفلاته الماجنة ولهوه الذي لا يكاد ينتهي، وحالما يخفت كِبره اللعين، ويسمح لي أخيرًا بدخول مملكته المقيتة، سأنفّذ الجزء الأخير من الاتفاق».

كنت واثقة بأن مملكة كل منهما مقيتة بأسلوبها الخاص، لكنني لم أشغل نفسي بذكر ذلك. فقلت: «هل يجب أن توجَّه إلينا دعوة؟».

أجاب: «إذا كنت لا تريدين أن تنشب عداوة بين بيتينا، فلا بد أن نُدعَى».

حفظتُ هذه المعلومة في ذاكرتي. فلا شك أن الأمراء المتناحرين سيشتتون الانتباه عن الأفعال التي تبدو أكثر براءة، كالنميمة ونشر الشائعات. قلت: «إذا دخلت مقاطعته دون إذنه، فهل يُعَد هذا تهديدًا؟ حتى إن كان تلبية لطلبه؟» أومأ راث بالإيجاب. فاسترسلتُ: «لكن هذا غير منطقي. هل لأنه الملك، ويرغب في تذكيرك بمقامك؟».

قال راث: «إن شَغل المناصب الملكية ليس إلا لهوًا وترويحًا عن النفس لدى البعض هنا».

لم أعتبر ذلك إجابة واضحة عن أسئلتي. فالأمير راث هو أحد الأمراء السبعة الأقوياء المُهابين، قائد الحرب وخبير الحماية والدفاع. حينئذ انبثقت في ذهني فكرة ماكرة. فأظهرت الاهتمام السطحي بالأمر، وأخفيتُ ابتسامتي. لقد كان لدى راث الكثير من الأقنعة في ترسانة أسلحته. وآن الأوان لإضافة بعضها إلى مجموعتي الشخصية.

قلت: «بصفتي عروسه، ماذا لو قررتُ أن أذهب إليه وحدي؟ ألستُ فعليًّا عضوًا في بيت برايد؟ وإن كان الأمر كذلك، لا أرى ضرورة لأن تنطبق هذه القاعدة عليَّ. إلا إذا كان لم يزل وفيًّا لزوجته الأولى، ولكن هذا غير ممكن

وفقًا لما تصفه به من المجون كما تزعم. إنني واثقة بأنه سيرحب بي بوصفي عروسه».

شككت في أن راث لاحظ هذا، لكن الغرفة بردت قليلًا. لقد تطرقت إلى نقطة فاصلة.

قال راث: «إن برايد سيرحب بك وبأي أحد آخر مفتون به في الوقت نفسه. هذا إن كان راغبًا في فعل ذلك، وإن سمحت بذلك في الليالي التي ستقضينها معه. وإن كنت أقترح أن تتظاهري بأنه الحبيب الأسمى، وإلا فإنك ستجرحين كبرياءه، وتجدين نفسك في النهاية بمفردك».

كنت مذهولة، ونسيت بذور الشقاق التي كنت أحاول غرسها، فقلت: «لا يمكن أن تكون جادًّا. أسيرغب برايد في حبيبة أخرى معي؟ لا أفهم ذلك؟».

تردد راث لحظة، ثم قال: «من حين لآخر، يميل أخي إلى تعدد العشيقات».

قلت: «في الوقت نفسه؟» شعرت بأن وجهي يشتعل، بينما أومأ هو إيجابًا في بطء.

قال: «إن تلك النزوات لا تعد مخزية أو خاطئة هنا يا إيميليا. فالانجذاب والرغبة جزء من القانون الطبيعي للحياة. إن البشر الفانون يضعون قيودًا على مثل تلك الأشياء، لكن أمراء الجحيم لا يفعلون».

- «لكن الشهوة ... ماذا عن نفوذه؟ إنها تُعَد خطيئة، هنا أيضًا».

- «لقد تلاعب أخي بسعادتك على الأغلب، وبكل الأشياء التي تسبِّب كل أشكال المتعة والمرح. وإن اختبارك في عاطفة معينة يعني عادة أنها شيء يشعر هذا العالم بأنك تواجهين مشكلة حياله». أمال راث رأسه، ثم أردف: «أخبريني عما تخشينه في علاقتك بزوجك المستقبلي».

شعرتُ بعدم الارتياح لمناقشة هذا الأمر وأنا وحدي مع راث، فقلتُ: «إن هذا الأمر لا يخصك، ولا يليق أن أتحدث عن علاقتي بزوجي، خاصة معك أنت».

ألقى راث بالرداء قريبًا على السرير، وعلى وجهه تعبير بارد. ثم قال: «أنت مَدينة لي بكونك على قيد الحياة، فقد أنقذتك مرتين وفق حساباتي، ومع ذلك لم تعبّري ولو بكلمة عن امتنانك وشكرك».

نبرة صوته جعلت الدماء تغلي في عروقي. فتساءلتُ إذا كان يعلم أن سحره يتسرب ويؤثر فيَّ بقوة. ربما كوني داخل بيت الخطيئة الخاص به فاقم من حنقي، بالإضافة إلى إدراكي أن الخبرة تنقصني تمامًا في جوانب معينة. إنني لم أفكّر في علاقتي الزوجية مع برايد، ومهامي المنزلية التي يجب عليَّ إتمامها، فشعرت حينها بأنني داخل مصيدة. وكان غضبي المشتعل يحتاج إلى التنفيس عنه، فبدا راث فريسة مناسبة.

قلت: «هل تستجدي دائمًا الشكر الجزيل لقيامك بالتصرف اللائق الكريم؟ لقد بدأت أشك في أن خطيئتك هي الكبر في الحقيقة، لا الغضب. إن ذاتك هشّة دون شك. ربما عليَّ أن أجثو عند قدميك، أو أن أقيم حفلة على شرفك. تُرى هل سيرضي هذا غرورك؟».

قال: «فلتحذري أيتها الساحرة».

قلت مستهزئة: «وإلا ماذا؟ هل ستبيع روحي إلى مَن يدفع سعرًا أعلى؟ لقد فات الأوان. ودعنا لا ننسَ أنه لولاك ولولا خداعك ما كنت هنا الآن، أكاد أتجمد حتى الموت، وأقلق حيال علاقتي الزوجية بشقيقك، فضلًا عن عشيقاته!».

- «أنت من اخترت بيت برايد».

- «لمَ ما زلتَ هنا من الأساس؟ كنت أظن أنك سترحل في اللحظة التي حصلت فيها على حريتك. ألم تعذبني بما يكفي؟ أم أن مهمتك لن تكتمل إلا بإتمام زواجي؟ إذا كان هذا ما تنتظره، فأنا واثقة بأن برايد سيدعوك لتشهد على زواجنا، وعلى أنني أصبحت ملكة صغيرة صالحة».

إذا كانت الكراهية يمكن أن تُختصَر في نظرة واحدة، فقد أطلّت تلك النظرة من عينيه آنذاك.

ما كان منه إلا أن قال: «ثمة ملابس لك في الخزانة. ارتدي ما تشائين. ولتفعلي ما تشائين، ولتذهبي حيث تريدين في هذه القلعة. وإذا ما قررت أن تغادري بيت راث، فأتمنى لك حظًا طيبًا. سأعود عندما يرسل برايد دعوة. وإلى ذلك الحين، انعمي بمساء طيب *يا سيدتي*».

خرج راث غاضبًا من الغرفة، ووقع خطواته يتردد وهو يتجه إلى غرفة أخرى قبل أن ينفتح باب ثم يغلَق، ثم سمعت هزيم صوته بالقاعة في الأسفل. وأطلقت حينها نفسًا مفعمًا بالإحباط.

لقد أشعل هذا الشيطان غضبي كما لم يفعل أحد من قبل.

يا له من وحش بائس! كيف يجرؤ على مطالبتي بالحقيقة، بينما لم يصارحني هو بها في المقابل. انتظرت حتى تهدأ نبضات قلبي من تلقاء نفسها. لقد كنت ممتنة لكل ما فعله ليلة أمس. ولو كان منحني فرصة، لكنت أخبرته بتقديري وعرفاني بجهوده. لكن لم يكن عليه أن يدلّك قدميَّ، فلم تكن لهذا علاقة بلسعة الصقيع، وكل ما فعله معي برقة وحنان.

تنهدت قائلة: «فلنذهب إلى الجحيم نحن الاثنين». لم أكن أقصد أن أثور غاضبة هكذا، أو أن أتحدث عن الكهف، لكن المشاعر كانت تتراكم مكونة جرحًا في داخلي. وكان من الأفضل كيُّ هذا الجرح والانتهاء من أمره.

على الرغم من تصاعد حدة جدالنا، حققت تجربتي الصغيرة نجاحًا جزئيًّا؛ فراث استطاع فقط اكتشاف كذبي يقينًا عندما تحدثت. وتلك خدعة يمكن أن أضيفها إلى سجل قدراتي العقلية.

ألقيتُ نظرة على الباب، وفكرتُ في مطاردته لكي ألوي عنقه، أو لأُقبِّله، فكلاهما سواء، لا يهم؛ إذ ما يهم هو إنهاء هذه النزاعات. وفي سبيل إماطة اللثام عما حدث لفيتوريا، كان عليَّ أن أفصل نفسي عنه في النهاية. وربما كان عليَّ أن أبدأ على الفور. فلم أكن أعرف جميع قواعد عالم الشياطين وآدابه، لكنني صرتُ أعرف على الأقل أن الأمراء لا ينتهك بعضهم حُرمة ممالك بعض. إذن فبمجرد ذهابي لبيت برايد، ما كنا سنتمكن أنا وراث من رؤية بعضنا مجددًا، ولو برهة قصيرة.

لقد قال سيدتي!

أي عبث هذا؟

عندئذ استقر انتباهي على الرداء، فخيَّم شعور غريب على قلبي، وسارع من نبضاته. ولم ألاحظ الرداء بينما حمله الشيطان عبر الغرفة، لكن الزهور المطرزة عليه كانت مثل وشومنا.

كان اللون الأرجواني الفاتح يرمز إلى خطبة كنت فرضتها عرَضًا بيننا، حينما استدعيته للمرة الأولى. لقد علم خلال لحظات ما فعلته، ولم يتكبَّد مشقة إخباري بالحقيقة. وقد اكتشفتُ الأمر بعد عدة أسابيع من أنير. في الليلة التي عثرنا فيها على ساحرة أخرى مقتولة في أحد الأزقة. أقسم راث أنه كان سيخبرني، وأنه كان ينتظر حتى يثق أحدنا بالآخر بما يكفي للكشف عن زواجنا الوشيك، لكنني شككت في الأمر.

كل شيء فعله كان محسوبًا، وكل حركة لم تكن عفوية. وكانت ثمة ألاعيب لا يزال يقوم بها، ومخططات سرية لم أكتشفها بعد. ربما كانت متعلقة بمقتل شقيقتي، وربما لا. وبغض النظر عن مدى حفظه أسراره، فبطريقة أو أخرى كنت سأكتشف ما الذي كان يسعى وراءه حقًّا. ولو كنت علمت أي شيء عن راث، فهو أنه على استعداد للسير إلى ما لا نهاية في سبيل تحقيق مآربه.

نظرت إلى ذراعي الموشومة. وكنت أظن أن الوشم المتطابق سيتلاشى حينما أنطق بتعويذة من أجل فسخ الخطبة في تلك الليلة نفسها. ولكنها لم تفلح.

على الرغم من السحر المعطَّل، ظل الوشم ينمو كأنه بذور غُرسَت ورُوِيَت، بل غذِّيت بأجزاء منا؛ بحيَّاته وزهوري، والهلالين التوأمين داخل حلقة النجوم. كانت تلك الرسوم بمنزلة تذكير دائم بانعدام خبرتي وبكذبه القائم على الإسقاط والتجاوز.

أمعنت النظر في فروع الأزهار وأوراقها الرقيقة المطرزة على الثوب، فوجدت القماش حريريًّا ورائعًا. وكان جميلًا للغاية، وما كنت لأختار سواه

لنفسي لو توفر لديَّ المال الكافي لامتلاك مثل هذا الثوب الفاخر. وكان راث يعرف ذلك. بل كان يعرفني.

ربما أكثر مما كنت أقِّر به وأفصح عنه. ومع ذلك، كان راث لا يزال يمثل لغزًا بالنسبة لي.

أخذت الثوب، ونهضتُ من السرير، ووقفت أمام المدفأة ذات اللهب المتوهج. ومنذ ساعات فحسب كنت على حافة الموت، وبشرتي تحترق من الجليد وليس النار. فمكث بجواري طيلة الليل، يحتضنني ويدفئني. لم يكن جسده في برودة الجليد كما زعمت نونا في قصصها عن الأشرار. وكان بإمكانه أن يرسل في طلب معالج ملكي للاضطلاع بتلك المهمة.

وكان يمكنه أيضًا أن يتركني لأموت مثلما اقترح أنير. لكنه لم يفعل.

قرَّبت الرداء من وجهي، وتشممت شذا راث المتغلغل في نسيجه، ثم ألقيتُ به في النيران دون تردد.

الخامس

«ماتت بسبب خزانة الملابس»، كانت تلك هي المرثية المقدَّر لها أن تُكتَب على شاهد قبري، والفضل في ذلك يعود إلى هوَس راث بالملابس الأنيقة والأقمشة التي لا مثيل لها. كان هناك الكثير للغاية من الفساتين، والتنانير، والصديريات، وأحزمة الخصر، والأردية الطويلة، والجوارب، والأثواب التحتية الرقيقة المنسوجة من الدانتيل، وأثواب النوم الحريرية، والأثواب المنزلية، إلى حد اضطراري إلى دفع البابين المنحوتين بقوة لإغلاق الخزانة. لقد كانت ملابس تزيد كثيرًا على الحاجة.

في منزلي كانت لديَّ حفنة من الفساتين البسيطة المصنوعة من القماش القطني الخفيف، ودون حزام للخصر. فضلًا عن زوجين من الأحذية عبارة عن حذاء خفيف، وآخر طويل بأربطة. وبضعة قمصان وتنانير بسيطة. وكنا أنا وفيتوريا كثيرًا ما نتشارك الملابس لتبدو ملابسنا البسيطة أكثر مما كانت عليه حقًّا.

إن الثياب التي كانت بهذه الخزانة لم تشبه أي ثياب رأيتها في عالم البشر الفانين. ولم يكن ذلك بسبب الصيحات الجريئة الكاشفة التي لم أعتد ارتداءها؛ ولكن لأنها كانت ذات ألوان نابضة بالحياة، ومطرزة بدقة، وذات طبيعة جامحة.

أخذت نفسًا عميقًا، وفتحت الخزانة مرة أخرى. لقد كانت الأحذية متنوعة بين الأخفاف والأحذية ذات الكعوب المنخفضة والأخرى طويلة الرقبة في تشكيلة بألوان قاتمة عديدة، وكانت متراصة في أسفل الخزانة. تباينت ألوانها بين الأسود والرمادي الداكن والكستنائي الغامق والذهبي والأرجواني الداكن والفضي.

عجّت الخزانة بالأشرطة والدانتيل والجلد، والثياب ذات الصيحات الغريبة والخيالية التي تصوّر الأشواك والأفاعي والأزهار والفواكه، والأقمشة اللامعة التي تشبه السماء في الليل. فضلًا عن الحرير المصقول، والحرير الخفيف، والمخمل، ونسيج آخر غاية في النعومة وله وبر رحتُ أملّس به على وجنتي.

أعاد قماش الكشمير ذكرى بعيدة أوشكتُ أن أنساها إلى الحياة، إنها كوخ صغير في غابة متجمدة؛ وعمود من الدخان الفضي يتصاعد في دوائر نحو السماء. همسات ومراجل و... ونونا وهي تمطينا أنا وفيتوريا قفازات من الكشمير، وذلك عندما زرنا صديقتها في شمال إيطاليا ذات مرة. أعجبني القماش حينئذ. وأحببته الآن. سحبتُ الرداء الرمادي المشوب باللون الأرجواني الشاحب وتأملته برهة.

قلت: «يا لروعته!».

إن الأزياء في الحلقات السبع أكثر التصاقًا بالجسم وإظهارًا لتفاصيله من الملابس في عالمي. وهذا الرداء سيناسبني كهذين القفازين، وسيصل طوله إلى منتصف فخذيّ، إذا حالفني الحظ.

إنه فاضح بأكثر مما رأيته يومًا ما من الثياب، فقد كان أقصر من أي رداء نوم مصمم لبائعات الهوى. تساءلت كيف سيبدو عليّ وكلي ثقة بمظهر جسمي وجاذبيته.

فجأة، تخيلتُ ارتدائي هذا الثوب بينما أتشاجر مع الشيطان الذي انتقاه...

... ستظلم نظرته، وهو يرمقني على نحو متمهل غاضب، ما يجعل الدماء تغلي في عروقي. حينئذ سأدفعه بقوة على أقرب سطح صلب، وستتقطع أنفاسه وهو يلمس القماش الناعم، ويفكّر بحذر في حركته التالية.

ربما سينطلق لسانه البذيء ساخرًا مزعجًا، بينما يفكّر في كيفية إغوائي. وسيهمس بكل ألوان الوعود الفاحشة، ما سيثير أعماقي بدلًا من أن يصدمني، ويجعلني أستسلم لإغوائه.

سأخبره بسعادة بأنني لم أعُد خائفة من عواطفي أو راغبة في إنكارها. وأن ذاك الخزي صار آخر ما أشعر به وهو بين ذراعَيَّ.

عندئذ سيُقبّلني ويطلق العنان لمشاعره، برهانًا على وفائه بوعوده الشريرة. وسأحس بمشاعره تسيطر عليَّ بدفئها وقوتها وفتنتها. ومن ثم سأفقد سيطرتي على عواطفي تجاهه، وسأندفع في شوقي إليه.

هززتُ نفسي لأوقظها من الأوهام السحرية التي تعتريها. إن هذا العالم ومكائده يحتاج إلى الكثير من الجهد لاعتياده. ولم يكن الوهم في هذه المرة بالقوة نفسها التي بدت في ممر الخطايا، لكن الإغواء المظلم ذاته خيَّم عليَّ بثقله، واختباره، وإزعاجه.

وها هو تعقيد مزعج آخر. لا بد أن أنتبه جيدًا لأفكاري ومشاعري. وحينئذ أعدتُ الفستان سريعًا، وسحبت ثوبًا منزليًّا، مبعدة التفكير في راث عن خاطري.

كان التفكير في أمير بيت الخطيئة الذي أقيم بين جنباته أمرًا خطيرًا. وبعد أن ارتديت الثوب، ربطت حزامه الحريري حول خصري، ورحت أقلّب في الملابس مجددًا.

أخذت ثوبًا آخر أقرب بعض الشيء في طرازه إلى ملابسي في موطني، ويليق بأميرة أو سيدة نبيلة. كان نصفه العلوي شبيهًا بحزام الخصر، لكن دون أربطة، وكان لونه أسود فاحمًا غير لامع. وله تنورة ملساء ضيقة من الأعلى، وتتسع من عند وسط الفخذ قبل أن تتهادى حتى الأرض. وزُينت أطراف الجزء العلوي والخصر بحاشية من الستان الأسود. وكان هذا الثوب

بعيدًا كل البُعد عن القمصان والتنانير البسيطة التي اعتدتُ ارتداءها في العمل.

عندئذ تملكني الحنين إلى الوطن. فكل ملذات الدنيا ما كانت لتعوّض فؤادي عن الارتياح الذي كان يغمرني وسط عائلتي. فتمنيت لو كنت واقفة في مطبخ مطعم البحر والكَرمة، أستمع إلى المقطوعة الموسيقية المؤلَّفة من الأصوات التي أصدرتها أمي ونونا وشقيقتي بينما كنا نُعد أنواع الطعام. ومن صوت السكاكين وهي تقطِّع الطعام، وأزيز الأواني، وجلبة الملاعق، إلى همهماتنا جميعًا في سعادة ونحن نثرثر معًا في طريقنا من السوق، وأبي والعم نينو، وهما يتجاذبان أطراف الحديث في مرح مع ضيوف المطعم.

حتى إنني تشممت عبق الطعام الشهي يهب من حولي ... وا أسفاه على ذهاب تلك الأيام البسيطة السعيدة بلا رجعة.

سواء أكنتُ على أهبة الاستعداد أم لا، كان عليَّ أن أجسِّد هذا الدور الجديد وأتقنَه. ولا مفر من ذلك حرفيًّا وضمنيًّا، وكان يجب أن أبدأ على الفور.

أخذتُ الثوب، وأسرعت الخطى في غرفة الأمير الذي واجه فشله فيها، ثم توقفت قائلة: «يا آلهتي المقدسة في السماء».

عكست جميع الأسطح تعبير الصدمة المرتسم على وجهي. بدءًا من الأرض، والسقف، والمغطس الفائر، ومنضدة الزينة - كان كل شيء مصنوعًا من البلور الصلب، أو الزجاج الخشن غير الشفاف، أو الذهب الأبيض. وراح ضياء الشموع في الثريا المستديرة يرتجف، فتلألأت جنبات الغرفة في نعومة كأنني عبرتُ من العالم السفلي إلى سطح القمر.

جاءت أطياف الألوان الوحيدة من مجموعة متنوعة من أدوات الزينة المتراصة بنظام على منضدة الزينة، وضمت فُرشًا للعيون والوجه والشعر. فضلًا عن المشابك والتيجان والدبابيس المُرصَّعة بالجواهر.

ناهيك عن براعم زهور لشعري، وقنينات صبغات عديدة من ألوان الشفاه. والتبر الذي يمكن وضعه على وجهي أو جسدي، وزجاجات العطور

الرقيقة ذات اللونين الوردي والأرجواني بدرجاتهما، فضلًا عن ألوان أخرى لم أرَ مثلها من قبل.

وضعتُ الثوب جانبًا، وانتقيت أحد العطور وتنشّقته. فوجدته عطر الليلك، أو ربما كان اللوز مع نفحة من شذا الليمون العطري. لو كانت فيتوريا هنا لعشقت مجموعة أدوات الزينة تلك الثرية بأروع أصناف العطور. سعلت ثم تناولت عطر الليلك. ومسحت رسغَيّ بالقليل منه، ثم فركتهما معًا. وكان عطرًا باهرًا. تنشّقتُ عطرًا آخر ذكّرني بنبات العَسَلة وخشب البتولا وقشدة الخفق المركَزة. وربما نفحة ضئيلة من نبات الجاردينيا أيضًا. وكاد أريج عطر آخر يماثل زهرة الياقوتية، يذكّرني بصبيحة أيام الربيع الغنّاء.

تبسّمت قليلًا لنفسي؛ إذ ساعدني شغف فيتوريا القديم بصنع العطور على تمييز الروائح المختلفة. وخلال دقيقة عابرة، استطعت أن أغمض عينيّ، وأتخيل أنها بجانبي. مرت اللحظة، وعبَر ظل مؤقت لغيمة تسير مسرعة حاجبة الشمس.

تفحصتُ جميع الزجاجات والأغراض التي كان راث قد زوّد بها الغرفة. ولم يفاجئني شيء كالأزهار النضرة. إذ كانت ثمة زهرية بلورية بجوار أدوات الزينة على المنضدة الخاصة بها.

كانت الأزهار العطرة البيضاء، وذات اللون الأزرق الفاتح، والوردية المشوبة باللون الذهبي متراصة حول بعض نباتات السرخس وأغصان الكافور. كانت الزهور جميعها جميلة، مثل تلك التي تزين عالم البشر تمامًا، فيما عدا أنها كانت مكسوة بالجليد.

تشمّمت الأزهار، وتعجبت من نفاذ شذاها عبر الصقيع. ثم مرّرتُ أناملي على البتلات المتجمدة. وتساءلتُ هل كانت الأزهار من بنات أفكار راث، أم أن شخصًا آخر أرسلها.

أتُراه زوجي المستقبلي؟ لكنني توقفت عن التساؤل؛ إذ رأيت أن الأمر لا يهم.

انتقل تفكيري إلى المغطس الزجاجي الفائر؛ الذي كان يشغل وسط الغرفة تمامًا. وبإمكاني أن أسبح من أحد جوانبه إلى الجانب المقابل، بل الدوران فيه أيضًا. كان أحد أكبر الأشياء التي رأتها عيناي يومًا. وقبل النوم كان لا بد أن أسبح فيه. وآنذاك كان ثمة أشياء يجب أن أفعلها، وأسرار يجب أن أميط اللثام عنها، ومجالس حكم سبعة شياطين يجب أن أخترقها على مهل، بدءًا من بيت راث الملكي.

حتى هذا الحين كان العالم السفلي مختلفًا تمامًا عما سمعت عنه في عقيدة البشر الفانين. وكان أمامي الكثير لأتعلمه إن أردتُ التمييز بين الحقيقة والوهم أثناء وجودي في هذا العالم.

لم أمتلك ما يكفي من وقت إلا لحمام سريع. خلعت ردائي، ونزلت إلى الماء، ثم فركت بشرتي وشعري بقطعة صابون كانت موضوعة على قماش قطني مطوي. كانت درجة حرارة الماء مثالية؛ لا ساخنة للغاية ولا باردة، بل كانت دافئة تشجع على الاستجمام. ولذلك أعدتُ التفكير في مسألة الاستحمام السريع، وراودني خاطر قضاء بقية المساء سابحة في النعيم.

لكنني تنهدتُ، وغسلت جسدي، ثم دفعتُ نفسي إلى الخروج من المغطس. وكان القماش القطني الذي وجدته بالقرب من حافة الماء كافيًا للفّه حول جسدي كله.

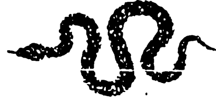
بمجرد أن جففت جسدي جيدًا، التقطت الثوب. فلتباركني الآلهة أنا والأمير الشيطاني الذي انتقى هذه الملابس، فقد كان الثوب يناسبني حتى إنه لا يحتاج إلى مساعدة لارتدائه. ومن ثم رحتُ أضبطه على جسدي، وكان ثمة مشبك وعروة صغيران لإغلاقه عند أعلى الجانب، فشبّكته بسهولة.

عدتُ إلى مخدَعي وأخذت أفتش حتى وجدت حذاء أسود عالي الكعب مزين بمسحوق رمادي لامع، فارتديته. كان على مقاسي بالضبط، مثله مثل الثوب. فلقد كان راث يتحلى بالنزوع إلى الكمال.

عدتُ إلى قاعة الاستحمام، قاصدة تصفيف شعري. لكن نظري وقع على أدوات الزينة. فلم تكن أسرتي تمتلك المال الكافي للإنفاق على وسائل الرفاهية تلك.

عندئذ جلستُ على المقعد البلوري، ووضعت بعض الكحل على خط رموشي العلوي. وحامت أناملي حول باقة جميلة من الأزهار البرتقالية المنسوجة بدقة على دبابيس الشعر. إنني في منزلي ما كنت لأفكر مرتين قبل أن أزيّن بها شعري، لكن هنا ...

انتقيتُ صبغة قانية عنيفة - بلون القتل - ودهنت بها شفتي.



لم تكن خزانة الملابس، وما تحتويه، هي مظهر الترف والبذخ الوحيد الذي اكتشفته.

كان راث قد أسكنني في جناح يليق بالملكات؛ إذ لم تكن لديَّ قاعة استحمام في حجم منزل عائلتي كله على وجه التقريب فحسب، وإنما قاعة معيشة، ومخدع، وقاعة أخرى تبدو مصممة للاستراحة أو استقبال الضيوف، أو لأي من أنشطة الترفيه التي تروق لي. وكانت ثمة أريكة وثيرة تبدو مثالية للاضطجاع وقراءة كتاب شائق. حقًّا لم أكن أدري ما أفعله بكل تلك المساحات.

كان هناك حامل زجاجات، بدت كأنها لمشروبات غالية الثمن، يشغل أحد جدران قاعة الترفيه. فمررت إصبعي على الزجاج البارد، وأنا أمعن النظر في كل زجاجة. وكان الشراب داخلها يحتوي على بتلات أزهار وأعشاب متنوعة مسحوقة. وكانت مُغرية دون شك. تركتها دون أن أفتحها، وأكملتُ جولتي الاستكشافية. كانت جميع القاعات كاملة التجهيزات، وكان الأثاث وثيرًا

ورائعًا وفخمًا وأنيقًا. كان من الواضح أن الأمير الشيطاني يحاول أن يثير إعجابي.

أو ربما كان يحاول أن يعتذر على كل الأحداث المريرة المتعلقة بسرقة الروح التي وقعت بيننا؛ إذ إن الخيانة تكون أخف وطأة إذا مُزجت بالشراب الشيطاني الفاخر، وبالأجنحة الخاصة في القصور المترفة، وبالهدايا باهظة الثمن. على الأقل من وجهة نظره.

ومع ذلك - كما أظن - ربما يظهر الاحترام اللائق بملكته المستقبلية. فمن الواضح أن خطبتي لبرايد جلبت بعض المنافع، ولو حتى في بيت غريمه.

أسرعت الخطى عبر المخدع، قاصدة المخرج الذي وجدته في الردهة. وحينها فكرتُ في أن إصلاحِ ما بيننا يحتاج إلى ما هو أكثر كثيرًا من الأثاث الفخم والأثواب الفاتنة. أولًا، يمكن أن يستهل الأمير لقاءنا باعتذار، ثم ربما نجري حوارًا صادقًا.

كنتُ أود أن أسوي أي خلاف أو توتر تفاقم بيننا قبل أن أغادر إلى قلعة زوجي. فلم أرغب في المزيد من العداء بيننا.

فقد كان لديَّ ما يكفيني من بواعث القلق.

عندئذ سمعتُ طرقًا على الباب في اللحظة التي وضعت فيها يديَّ على المقبض. ففتحته، وأنا متأهبة لغمر راث بوابل من الهجوم بسبب حماقته وسوء تصرفه.

لكنني رأيت أنير، فقلت متعجبة: «آه، لم أتوقع رؤيتك».

قال: «تسعدني رؤيتك مجددًا أيضًا».

كان أنير يحمل في إحدى يديه صينية مغطاة، وفي الأخرى زجاجة شراب. وكان شعره الحالك الطويل معقودًا بأناقة أسفل عنقه، ولمعت ندبته بلون فضي على خلفية بشرته السمراء. وكانت الحُلة التي يرتديها آنذاك أجمل كثيرًا من تلك التي كان يرتديها في أول مرة أقابله في باليرمو. ولم أرَ نصله الشيطاني الفتاك، لكنني كنت أعلم أنه مسلح غالبًا.

قلت له: «لم أقصد...»

قال وهو يطرف بعينيه: «بل تقصدين، لكن لا مشكلة. اعتقدتُ أنك ربما تكونين جائعة، أو ترغبين في احتساء بعض الشراب».

ملت ببصري ناحية الدهليز الحجري البديع ذي الأقواس التي تضاهي أية دار عبادة عظيمة، وكان خاويًا، فسألت أنير: «هل أرسلك أميرك لتتجسس عليَّ؟».

قال: «فلتتناولي بعض الطعام والشراب، ثم لتكتشفي بنفسك. فإنني لا أُبارَى في الثرثرة عندما أفرط في الشراب».

راودني شك قوي في انفلات لسان أنير؛ إذ لا يمكن أن يمنحه راث ثقته أبدًا إن كان يترك الأسرار تتفلَّت من بين شفتَيه لمجرد احتساء بضع زجاجات شراب. قرَّبت أنفي من الزجاجة، قائلة: «ألا ترى أن الوقت لا يزال مبكرًا على الشراب؟».

أجاب: «لقد خيَّم المساء، فقد ظللت نائمة معظم النهار».

لوَّحت بذراعي مرحبة بدخوله، ثم أغلقت الباب وراءه. وضع أنير الصينية والزجاجة على المنضدة الزجاجية في الركن، ثم جذب غطاء الزجاجة، فاندفع الشراب متناثرًا. وكان ثمة فواكه، ولحم مقدَّد، وجبن جاف، وزيتون مملَّح، وخبز محمَّص، وكانت جميع الأطعمة مرتبة بعناية فائقة.

أخذت أحدِّق إلى الوليمة دون أي تعبير على وجهي.

قلت: «لقد تصرف راث كما لو لم يكن معتادًا طعام البشر. فهل هي كذبة أخرى؟».

قال أنير: «كلا». ثم أخرج قدحين من خزانة صغيرة مكسوة بالمرايا بالقرب من المنضدة، وسكب لكلينا كمية وفيرة من الشراب، وأردف: «إنني أخزِّن أغذية من عالم البشر كلما استطعتُ. وغالبًا ما تكون عبارة عن جبن صلب، ولحم مقدَّد، والكثير من المكسرات، والقمح، والأرز؛ أي الأطعمة التي يسهُل تخزينها أو تجفيفها». وناولني قدحي، ثم استرسل قائلًا: «لقد تأكد سموه من إحضاري هذه الحاجيات لك؛ إذ رأى أنك ربما تريدين شيئًا

يذكّرك بوطنك هذه الليلة، ما دمت لست على مقربة من الموت، وتستطيعين الاستمتاع بها».

أخذت القدح، وتشممته قائلة: «أهو الشراب الأحمر، أم شراب الشيطان؟».

قال أنير: «إنه النوع العادي، شراب البشر الأحمر». ثم لامس قدحي بقدحه لنحتسي معًا، وقال: «ستعرفين الفارق عندما ترين شراب الشيطان، فلا يمكن أن يخطئه أحد».

احتسيت رشفة، متغافلة عن تلك المعلومة التي تنذر بالسوء. وقد أعجبني المذاق، فاحتسيتُ المزيد. ثم قلتُ: «يا له من طعام وشراب بشري رائع! هل طُلب منك أن تقلل من حذري وتكسب ثقتي؟ أظن أنك ستتظاهر بالسُكر، وتثرثر ببعض المعلومات التي لا ضرر منها، وقد حددها لك أميرك سلفًا، ثم تنتظر انهمار الأسرار مني في المقابل».

- «هل أنت متشككة دائمًا هكذا؟».

- «إن كان ثمة شيء تعلمته في الفترة الأخيرة، فهو الشك في أي أحد على صلة بعالم الشياطين. فلكلٍ مخططاته وألاعيبه الخاصة. وإذا طرحتُ ما يكفي من الأسئلة، فسأمسك أحدهم في النهاية، وهو متلبس بكذبته المُحكَمَة. ومع ذلك، طبقًا للأمراء، فإنهم غير قادرين على الكذب عليَّ مباشرة. وهذا اختلاق آخر دون شك. أو ربما هذا سبب وجودك هنا؛ إذ *بإمكانك* الكذب نيابة عن راث».

التقطتُ زيتونة من طبق صغير وتناولتها. كانت النكهة المالحة معاكسة بلطف لنكهة الشراب. ثم أخذت القليل من الجبن واللحم والخبز. وكان أنير يراقبني، وعلى وجهه نظرة متأملة، إن لم تكن حزينة بعض الشيء.

استرسلتُ قائلة: «أنا فقط لم أكتشف ما الذي يمكن أن *يريده* مني. إذن لقد فاز».

أخذ أنير يدير الشراب في قدحه، ثم قال: «ما الذي تعتقدين أنه فاز به تحديدًا؟».

قلتُ: «حريته. خداعه الأعظم. وجعلي أبدو حمقاء للوثوق به عندما قال إننا سنعمل معًا». لقد أنهيتُ قدحي، وسكبتُ آخر. وقبل أن أحتسي رشفة منه تناولت زيتونة أخرى، ثم أضفت: «لمَ لا تشرح لي سياسة الشيطان لكي أعرف ما ظفر به أيضًا حينما وقَّعتُ على بيع روحي لإبليس؟».

تساءل: «هل هذا ما أخبرك به؟».

- «أنا ...»، عدتُ بخاطري إلى الليلة التي قبَّلني فيها، حينما كررتُ ما سمعته من إنفي. ولم أستطع تذكر ما قاله راث بالضبط، لكن «إنه لم ينكر الاتهام. وإن لم يكن قلقًا من التلبس بكذبة، فلِمَ لم يخبرني بالعكس؟».

قال أنير مبتسمًا: «الأفعال أبلغ من الأقوال، إن راث يعيش وفقًا لهذا المبدأ».

الأفعال أبلغ من الأقوال. وأطبقتُ فمي ولم أنبس *ببنت شفة*. لقد أحضرني راث إلى العالم السفلي. وجاء حاملًا عقدًا مع برايد. وهو فعل عظيم دون شك. وما كان عليه أن يقول أي شيء. لقد حصلتُ على رسالته، وكانت واضحة وضوح الشمس في كبد السماء. إن راث لم يؤنبه ضميره على استغلالي لمصلحته. لقد قال ذات مرة إنه لا يتورع عن الكذب والغش والسرقة بل القتل في سبيل نيل حريته. إذن، قد كنتُ محظوظة إذ خدعني فحسب، مع أن ذلك لا يعَد عزاءً لي.

سألت أنير: «ما الذي تعرفه عن رفيقة برايد؟ وكيف قُتلَت؟».

قال: «يا له من تغيير مثير - إن لم يكن عنيفًا - لمجرى الحديث»، وأخذ يضع بعضًا من الجبن على شريحة من الخبز المحمص وفي الأعلى شريحة من اللحم المقدد، وأردف: «هل تأخذين بنصيحتي التي لم تطلبيها؟ فلتتبعي أسلوبًا أكثر مواربة عند جمعك المعلومات هنا. إن البيوت الملكية عتيقة ومتمرِّسة، ولا يمنحك ساكنوها أي شيء تطلبينه أو تسألين صراحة عنه. إذ يُعَد ذلك تصرفًا وقحًا وغير مهذب. وفضلًا عن ذلك، هم لا يؤمنون بالعطاء دون الأخذ أو الكسب. فإذا طلبت شيئًا، فيفضَّل أن تكوني مستعدة لدفع المقابل».

عضضتُ شفتي، وأخذتُ أفكر. لقد قدَّم أنير الحقيقة والنصيحة مجانًا. ولو كنت سأقترع على أية صداقة هنا، فلربما عليَّ أن أختاره هو، بغض النظر عن صلته المقربة براث. عندئذ وضعت قدحي على المنضدة.

قلتُ: «لا أدري كيف أعبِّر عن هذا بأسلوب غير متكلِّف أو غير مؤذٍ. فإذا كنتُ صادقة، فلا بد أن أصبح ضحية».

قال: «إنني أفهمك تمامًا، فثمة الكثير الذي يتغير، بل يتغير سريعًا. وأعتقد أنه من الصعب التعامل مع العديد من العواطف».

كان ذلك تغييرًا عجيبًا في مسار الحديث؛ إذ قلت: «لا بد أنك سافرت عبر ممر الخطايا؛ لذا أشك في أنك مضطر إلى الذهاب بخيالك بعيدًا للغاية لكي تدرك ما أقصده».

- «معك حق». أخذ رشفة من شرابه، ثم شرد لحظات، واستطرد: «أنت محتاجة إلى أن تكسبي ثقة الأمراء، وأن تصبحي صديقة لهم. ومن ثم اجعليهم يتآمرون معك، ويبحثون عنك، وفي تلك الحالة سيمنحونك بعض المعلومات المفيدة. وكوني على استعداد دائم للتضحية بسر أو لعقد صفقة. ولتختاري الأسرار التي لا يضرك الإفصاح عنها، أو التي لا يمكن أن تستغَل ضدك. ولتحددي الشروط قبل الموافقة، وإلا فسيتلاعبون بالأمور لصالحهم».

تنهدتُ قائلة: «كنت أرجو أن يكون هنالك حل أسرع».

قال: «أنت متورطة في شيء ممتد عبر عقود من السنوات والعوالم. إذن، ليس هناك شيء سهل أو سريع. والأمر هنا أخطر من سفك الدماء على جزيرتك. لكن إذا بدأت هناك يمكن أن تتعلمي المزيد. فلتضيِّقي نطاق قائمتك، ولتركزي على من تعتقدين أنه يمتلك الإجابات التي تريدين معرفتها. ما المعلومات التي تحتاجين إليها بشدة؟ وما الأكثر فائدة لغايتك القصوى؟».

- «ليست لديَّ خطة معينة، فأنا فضولية فحسب. وإذا كانت زوجة برايد قد قُتلَت، وكذلك كل عرائسه المحتملات التاليات، فإنني أريد تجنُّب المصير ذاته».

- «إذا كان هذا حقيقيًّا تمامًا، فلِمَ حضرت إلى هنا على أية حال؟».

- «أنا هنا لضمان عدم تسلل الشياطين عبر الأبواب. أنا هنا لحماية عائلتي».

لم يجب أنير. فكلانا كان يعلم أن هذا الأمر صحيح جزئيًّا. وإذا كنتُ أرغب في إجابات عن رفيقة برايد، وتفاصيل عن حياتها وموتها، فلا بد أن أذهب إلى برايد. إلا إذا كان مشغولاً في صراع صبياني مع راث بخصوص الذات الذكورية، كما أنني كنتُ محتاجة إلى دعوة.

أنا لم أصل إلى أي شيء مع إنفي، وكان دوره في مقتل شقيقتي لا يزال مبهمًا. وإن اكتشاف هوية قاتل الرفيقة الأولى يمكن أن يكون الطريق الأجدى لحل *لغزي*. كما أنني لم أكذب بصورة كاملة؛ إذ إن معرفة ما حدث لها سيساعدني. ولقد بدا أن أنير يعرف المزيد، لكن الأسلوب الذي صاغ به حديثه لم يدع مجالاً لاقتفاء هذا الخيط من البحث. لكن على الأقل كان هذا مفتاحًا لا يستهان به لحل اللغز.

تساءلتُ: «لمَ اخترت أن تصبح عضوًا في بيت راث؟».

لم يجب أنير على الفور، فندمتُ على سؤالي عن أمر شخصي على الأرجح. ثم تنهد بقوة.

قال أنير: «بعد قتل والدَيَّ، كان غضبي وحنقي عظيمين. وشعر راث بذلك، رأى الدرب الذي وضعت قدمي عليه، فعرض عليَّ التنفيس عن هذا الهياج على نحو مثمر مفيد».

إذن، لم نكن مختلفَين. قلت: «منذ متى وأنت هنا؟».

- «إن الزمن مختلف هنا. فالساعة في عالم البشر يمكن أن تكافئ أسبوعًا، أو شهرًا، أو عقدًا من سنوات هذا العالم. وكل ما أعرفه هو أنه مرَّ بعض الوقت». احتسى أنير جرعة كبيرة من شرابه، وضيَّق عينيه، ثم أردف: «الآن حان دورك، ماذا فعلت له؟».

- «لست متأكدة مما تقصد. أخبرني بما حدث؟».

- «لقد خرج وأسقط جبلًا كاملًا على الحافة الغربية للأرض الخالدة. ومن وقتها والرسائل تنهال علينا من بيت لاست وبيت جلاتوني. فهما يعتقدان أن أيام النهاية حُلّت هنا، ويريدان أن يعرفا ما إذا كنا نستعد للحرب أم لا».

- «لماذا عندما يغضب الرجل تُلام المرأة على سلوكه السيئ؟ فإذا كان راث تصرَّف بحماقة، فمن المؤكد أنه فعل ذلك من تلقاء نفسه. ولا أدري لمَ طبعه صادم هكذا. إنه يمثل بالفعل التجسيد الحي للغضب والحنق. وأنا على ثقة تامة بأنك رأيته وهو غاضب».

ابتسم أنير بتكلف، وهو ينظر إلى قدحه: «أأنت متأكدة من أنه كان غاضبًا؟».

- «وما تُراه سيكون غير ذلك؟».

- «فلتنتقي انفعالًا آخر».

- «هل بإمكاني أن أختار الدناءة المشوبة بالغرور؟».

- «فلتختاري ما تشائين، الأمر يرجع إليك. لكنني لا أظن أنه كان غاضبًا أو مغرورًا». طرف أنير بعينيه السوداوين، وأردف: «أتعلمين، طيلة السنوات التي عرفته فيها، لم يصطحب أي أحد إلى مدينة الجليد». وأيًّا كان السؤال الذي رآه على صفحة وجهي، أوضح قائلًا: «هذا ما يشتهر به بيت راث داخل الحلقات السبع. فكلما كان البيت أقوى، كان أكثر برودة».

فسَّر قوله هذا انتشار الزجاج غير الشفاف والزخرفة البلورية في قاعة الاستحمام الخاصة بي.

قلت: «لن أتأمل كثيرًا في فعله الصالح المفترض. لقد كان عليه أن يصطحبني بسبب العقد. إنه محتاج إلى روحي لكي يفي بدينه».

رد قائلًا: «لكن ذلك تحقق بمجرد عبورك إلى داخل العالم السفلي. وكان بإمكانه أن يتركك وحيدة في ممر الخطايا. وكان *ينبغي* له أن يفعل ذلك». نهض أنير واقفًا بغتة، وتوجَّه نحو الباب في الردهة. ونقر بأصابعه على إطاره، ثم التفت نحوي قائلًا: «إنه الآن في شرفة الطابق السابع. ذلك في

ـحال رغبت في المزيد من الشجار. أعتقد أن ذلك في مصلحته. فالتحدي يقلقه ويزعجه».

بل يعذبه مثل الخنجر المسموم المغروز في القلب مباشرة، دون شك. لقد كان ذلك مغريًا، وربما كان من الممكن أن أفعل ما قاله بالضبط، لو لم أكن لاحظت شيئًا موضوعًا على طرف السرير.

إنه شيء لا ينتمي إلى هذا المكان، ولم يكن هناك منذ بضع لحظات. تمنيتُ لأنير ليلة طيبة، ثم استندتُ بظهري على الباب المغلق، وأنا أعد في صمت دقات قلبي المتسارعة، بينما صوبت نظري إلى القاعة الأخرى بحدة.

إنه الخوف. لقد كان هذا العالم قائمًا على الخوف. وسوف أجتثه من جذوره بكل طريقة ممكنة.

تنفست ببطء، وعددتُ إلى عشرة.

ثم اعتدلت واقفة، وأرجعت كتفي إلى الوراء، وتوجهتُ نحو الجمجمة البشرية.

السادس

«**يعيش ملك الموت**»، كان هذا ما دندنت به الجمجمة فور أن صرت على بُعد خطوات قليلة منها، وكان صوتها مشابهًا على نحو مخيف لصوت شقيقتي التوأم. فتجمد الدم في أوصالي. بدا الأمر كأنما عبرت فيتوريا الحاجز بين الحياة والموت لكي ترسل رسالة، غير أنها كانت خطأ بعض الشيء. «*الروح المنتقمة. الاقتراب من الحرية. العذراء، الأم، العجوز. الماضي، الحاضر، المستقبل، فلتكتشفي الحقيقة*».

قلت متسائلة: «فيتوريا؟»، عندئذ ارتخى الفكان المجردان من اللحم، وتلاشى السحر الأسود الذي كان يمنح الجمجمة الحياة. فابتلعت لعابي بصعوبة، غير قادرة على رفع عيني عن المبعوث الملعون. «فلتساعديني أيتها الآلهة التي في السماء».

كانت كيفية إدخال جمجمة مسحورة خلسة دون ملاحظتي أنا أو أنير أمرًا لا يقل إرباكًا عن السحر المستخدم لبث الحياة فيها. فأنا لم أسمع مطلقًا عن تعويذة تسيطر على عظام الموتى. وبالتأكيد انطوى الأمر على استحضار الأرواح، لكن ليس هذا هو ما بث الحياة في الجمجمة. حتى إنه لم يكن *السحر المحرم*. لقد كان شيئًا مختلفًا؛ شيئًا أكثر رعبًا من السحر المحرم.

تركتُ الجمجمة حيث كانت، وارتميتُ على المقعد الزجاجي، ثم ارتشفت القليل من الشراب، وأطلقتُ العنان لعقلي. أخذت أفكر في دروس نونا عن السحر الأسود، خاصة التعاويذ التي تستخدم الأشياء التي مسها الموت - وكيف أنه ينبغي تجنب الاثنين بأي ثمن. فهي لم تخبرنا قط، ولو مرة واحدة، بقصة عن ساحرة تمكّنت من إعادة الحياة إلى من مات منذ زمن بعيد. حتى لو كان هذا ما حدث، فلا بد أن يكون سحرًا شيطانيًا. ما يعني أن من أرسل الجمجمة كان واحدًا من أمراء الجحيم على الأرجح.

السؤال الآن هو أيهم، ولماذا.

رحتُ أردد الرسالة في ذهني. يعيش ملك الموت، الروح المنتقمة، الاقتراب من الحرية، العذراء، الأم، العجوز، الماضي، الحاضر، المستقبل، فلتكتشفي الحقيقة.

لتبسيط المسألة، وتجنب الهلع من ذاك المبعوث الرهيب، قررتُ فك شفرة الرسالة كلمة كلمة، بدءًا من ملك الموت.

إن كلوديا، أفضل صديقاتي، الساحرة التي مارست عائلتها الفنون السوداء علانية، كانت تستخدم مرآة سوداء وعظامًا بشرية في جلستها الأخيرة لاستدعاء الأرواح، وظل عقلها مسكونًا بأصوات الموتى، كما أنها ذكرت شيئًا عن ملك الموت.

لكنني لم أكن أؤمن بالمصادفات.

نهضت، وأخذت أتجول في أنحاء الغرفة، محاولة تذكر المزيد عن استدعاء كلوديا الأرواح. لقد كانت تلك الليلة مليئة بالرعب، والتفاصيل المبهمة. لقد وجدتها جاثية على ركبتيها في الفناء خارج دار العبادة، وكانت منهارة تمامًا، وفيما هي تهمهم برسائل ليس لها معنى جاءتها من الملعونين، أمرتني بأن أهرب. لكن لم يكن هناك مجال لتركها مع الأخوية المقدسة الخرافية. لقد ذكَرَت شيئًا عن لص ماكر يسرق النجوم ويرتشفها حتى تصير جافة، وقد كان يغدو ويروح.

لا بد أن هذا مستحيل ...

كنت أعرف أربعة أمراء شيطانيين على الأقل يهيمون في أنحاء صقلية في ذاك الوقت، وهم راث، وإنفي، وجريد، ولاست. ولا بد أن أحدهم كان من يُطلق عليه مجازًا ملك الموت. ربما ليس بالمعنى الحرفي، وإنما كاسم مستعار. حينئذ تجمدت في مكاني، وأخذ قلبي ينتفض.

كان هذا الوصف منطبقًا على أمير شيطاني واحد فقط. حتى إنني دعوته باسم سامئيل ذات ليلة - أي ملك الموت وأمير روما - معتقدة أنه وصف بارع له. رمقني بنظرة مرتبكة، قبل أن يحذرني من دعوته بهذا الاسم مجددًا وإلى الأبد. إن الأمير الذي أقصده هو راث.

إنه لم يخف حقيقة كونه قائد الحرب. كما أنه كان شديد العنف. ولو كان هو «الموت»، ربما ما كان ليُختار لكشف جرائم القتل؛ ولعله كان حانقًا من أن أحدًا ما دنس اسمه، وورطه دون رضا إبليس. ويفسر ذلك عدم رغبة برايد في دعوته إلى حلقته. إذن، لقد كان إبليس يعاقبه على عصيانه.

إذا كان ذلك صحيحًا، فإنه يدعو إلى الشك في كل معلومة استقيتها منه. فإذا كان راث قد حذف الحقائق الجوهرية المتعلقة بتورطه، فلا يوجد ما يؤكد إلى أي مدى وصل خداعه.

حككتُ صدغي. إذن أضحى راث المشتبه به الأول في كونه ملك الموت، وكذلك في الجانب الخاص بالغضب والغيظ من الأحجية. بعد ذلك هناك العذراء، والأم، والعجوز. وكان ربط هذا الجزء بجرائم القتل أكثر صعوبة. فطبقًا لتاريخنا، كانت العذراء، والأم، والعجوز ثلاث إلهات يحكُمن السماء، والأرض، والعالم السفلي.

وزعمت أساطير الساحرة العجوز أنهن أنجبن الإلهات اللاتي نقدسهن، وإحداهن - إلهة السماء والشمس - كانت أم لا بريما ستريجا. لقد كانت العذراء والأم والعجوز بالنسبة لنا يعتبرن بمثابة الجبابرة بالنسبة للآلهة في أساطير البشر.

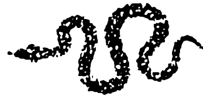
إذا كانت إلهة العالم السفلي - أو أي من الإلهات اللاتي وُلدن في عالمها - حقيقة وليست أسطورة، فمن المرجح أنها امتلكت نوع السحر الذي أحيا

العظام، لكن ما زال سبب إرسالها رسالة غامضة لي يمثل لغزًا. إن الإلهات لم يُظهرن اهتمامًا مطلقًا بتوريط أنفسهن مع الساحرات من قبل. وإنني أشك في إقدامهن على ذلك الآن.

وأيًا كانت مكانة العذراء، والأم، والعجوز، فإنها ليست مستمدة من أسطورة تعلمتها. وأنا لا أبالغ إذا ما اعتقدت أن الشياطين لديهم قصصهم وتاريخهم الخاص بهم.

ما كانت الإجابات لتنبثق من تلقاء نفسها، إذا مكثتُ حبيسة غرفتي؛ لذلك سحبت وشاحًا من خزانة الملابس، والتقطتُ الجمجمة بحذر، لكيلا ألمسها بيدي مباشرة. لكن إذا كانت فيتوريا هنا، لأمسكتها وتراقصت بها عبر الغرفة دون تردد ولو للحظة، لتؤجج قلق نونا فيما يخص ميلها نحو الموتى. كادت ابتسامة أن تتراءى على شفتي قبل أن أبعدها. تلفت حولي، باحثة عن مخبأ للجمجمة، ثم انحنيت وأخفيتها عميقًا داخل خزانة الملابس، ثم أغلقت مصراعيها عليها.

وهكذا حُل الموقف، فنفضت الغبار عن يدي وانطلقتُ افتش أركان بيت راث.



توقفتُ عن عد درجات السلم الحجري التي نزلتها منذ أن وصلت للدرجة الثانية عشرة تقريبًا. وكان كل منبسط رحيب ينتهي بطابق ممتد إلى ما بدا كأنه مئات الأمتار. لا شك أن ما رأيته كان سحرًا خادعًا، إذ لا يمكن أن تكون قلعة راث هائلة الحجم هكذا.

على المنبسط التالي، توقفت لأطل من نافذة ثلاثية مقوسة. فرأيتُ الكثير من المياه داكنة الزرقة تصب في قاع وادي، ودخانًا ينبعث في أعمدة ببطء

من سطح ذاك الوادي. وعندئذ سقط فرع من شجرة قريبة في الماء، فتحوَّل من فوره إلى لهيب مستعر.

قررت عندها ألا أقترب من البحيرة الملعونة إلا إذا كنت أرغب في أن يحترق لحمي على عظامي. ثم تركت النافذة، وسرتُ حتى آخر الدهليز.

كانت القلعة مبنية في معظمها من الحجر الأصفر الفاتح، الذي يشبه الحجر الجيري، وكانت هناك بعض الأجنحة المزينة بالسجاجيد الجدارية الملونة الضخمة. واحتوى هذا الجناح تحديدًا على لوحة تصور ملائكة تخوض معركة مع مخلوقات ممسوخة.

ذكّرتني هذه اللوحة بفن عصر النهضة؛ إذ كانت الألوان عميقة وداكنة في تباين مع خلفية الجدران والأعمدة الباهتة. وكانت الأبواب المنحوتة من العظم تفتح على قاعات للرقص، وغرف نوم مهجورة، وغرف للضيوف. وتوقفتُ خارج مجموعة من الأبواب المزدوجة العالية متأملة نحتها الدقيق. وكانت ثمة أيكة من النباتات المتسلقة والزهور والنجوم تزحف حتى الحواف والقمة، بينما التوت تلك النباتات ذاتها إلى داخل أعماق الأرض أسفل الأبواب.

زينت القسم الأدنى هياكل عظمية، وجماجم، وبقايا تُركت لتتعفن وتفسد.

دفعت الباب، فانفتح، وكتمت شهقة تنم عن الذهول؛ إذ وجدت في الداخل مكتبة لا يضاهيها أي مكان حلمت به يومًا. فسرى الحماس داخلي بينما خطوت داخل الغرفة، وأخذت أحدق إلى صفوف لا نهاية لها من الأرفف الزجاجية.

ابتسمتُ حينها ابتسامة واسعة. ولا بد أن الإلهات كن يبتسمن في الأعلى وهن ينظرن نحوي، لقد كان ذلك هو المكان المثالي لجمع المعلومات عن السحر والأساطير. وقد تعجبت من أغلفة آلاف الكتب المصنوعة من الجلد، الملونة بألوان الجواهر. لقد رتبها أحد ما بناءً على اللون، وتراوحت ألوان تلك الأغلفة بين ظلال اللون الأصفر البراقة وأفتح درجات الأصفر، ثم الأبيض الناصع كالثلج. وينطبق الشيء نفسه على درجات اللون الأحمر والأرجواني،

والأزرق، والأخضر، والبرتقالي، لقد كانت ألوان الطيف غاية في الجمال في قلب محيط من الجليد.

لم أستطع تصور راث وهو يجلس في وقار وسكينة ليقرأ في ليلة هادئة، حتى لو فعل، ما كنت لأتوقع أن يفعل ذلك وسط هرج ومرج من الألوان المحيطة به. ربما كان الخشب والجلد باللونين الأسود القاتم والذهبي اللامع هما الأنسب للإيحاء بالأناقة الرجولية في أبهى صورها. لقد كان هذا

وإذا بصوت يقول: «إنها السماء. تُقارب السماء لكن ليست مملة مثلها».

استدرت إلى الخلف، فإذا بيد تضغط على قلبي المضطرب. وقلت: «من الوقاحة اختلاس النظر إلى الناس هكذا. كنت أظن أن الأمراء الشيطانيين يتحلّون بأخلاق رفيعة».

قال راث: «إننا كذلك، في أغلب الأحوال». وأخذ يطوف بناظريه في وقاحة على ردائي الخالي من الحمالات، شعرت بآلام مبرحة في كل موضع من بشرتي يلامسه الرداء الحريري. وراودني الشك في أن إمعانه النظر بي يتعلق بالتأكد من أنني أبدو كأنني ملكة حقيقية، وأنني لن أحرج نفسي أمام أي عضو في بلاطه، ولا يتعلق بأي شيء آخر. أردف قائلًا: «إن مكتبتي الشخصية تقع في الطابق الأدنى».

قلت: «إذن دعني أخمن   هل هي بألوان الجحيم؟ الأسود والذهبي ومكسوة بالجلود؟».

- « بل الكثير من النيران والسلاسل وأدوات التعذيب أيضًا». ثم ابتسم ابتسامة خاطفة كشفت عن أسنانه، وكانت خطيرة وساحرة، فما كانت سوى نوع جديد من أسلحته التي شحذها حتى الكمال. بل ربما كانت الأكثر فتكًا بين ترسانة أسلحته، وبخاصة هنا، وقال: «عندما تواتيك الشجاعة الكافية، سأريك إياها».

تقلصت معدتي قليلًا عند التفكير في السلاسل، والأماكن المظلمة، وراث. وقلت: «أعتقد أن وصف مكتباتك بالجنة والجحيم يناسبك من حيث المبالغة». سرتُ نحو الأسفل عبر ممر مليء بظلال كتب زرقاء متنوعة،

والشيطان يتبعني. احتجت إلى التوقف عن النظر إلى تلك الابتسامة، وإلا لانتهز هذا العالم هذه الفرصة السانحة، فسأته: «هل تسلمت رسالة من أي من إخوتك؟».

- «لقد عبَّر كل من إنفي ولاست وجريد عن رغبتهم في استضافتك، ولقد تلقينا بطاقات الدعوة منذ قليل». قال ذلك وهو يحافظ على نبرته الهادئة، ما أثار تعجبي. مضيفًا: «إنهم طلبوا حضورك تحديدًا في احتفالاتهم بعيد الذئب. وأتوقع أن يفيق سلوث وجلاتوني من انغماسهما في الملذات قريبًا، ومن ثم سيرسلان دعوتيهما أيضًا».

لقد كان لوبركاليا، أو مهرجان الخصب، يوم عطلة منذ عهد ما قبل الرومان، ويعني تقريبًا «عيد الذئب»، حيث كان البشر يضحون بالماعز، ثم يدهنون جباه الأثرياء بالدم المُراق، بينما يقطع البعض أجزاء من هذه الذبائح ثم يركضون عراة في الشوارع، وهم يقذفون المتفرجين بقطع اللحم. وإذا كان الاحتفال الشيطاني شبيهًا بذلك، فأنني أفضّل ألا أحضره.

قلت دون أن ألتفت ورائي: «هل ستقيم احتفالا؟».

عندئذ ظهر أمامي بسرعة خارقة - أظن بغرض الاستعراض - متكئًا على أحد الأرفف. فلم أقاوم التحديق إليه. كانت حُلّته مموهة بظلال فاحمة السواد، فذكّرتني بوقت الليل، وأغطية السرير الحريرية، واللقاءات السرية، وبأشياء ينبغي ألا أفكر فيها.

قال: «كلا، أنتظر لأرى ما سيفعله برايد».

- «هل أرسل إليك دعوة؟».

- «كلا».

- «إذن، لمَ تنتظر لترى ما سيفعله؟».

- «إن هذا العيد إحدى المناسبات القليلة التي يُدعى فيها جميع الأمراء السبعة إلى المملكة ذاتها. ثم تُقضى ثلاثة أيام في الاحتفالات الصاخبة - حفلات العشاء، ورحلات الصيد، وحفل تنكري، ثم المأدبة. ونحن نحدِّد

مكان الاحتفال بناءً على عاملين. هما أين يختار ضيف الشرف أن يذهب، ومن الذي يقرر الأمير الأعلى مكانة استضافته؟».

- «ألا تتمتعون جميعًا بمكانة متماثلة؟» أومأ راث برأسه، دون توضيح. فكتمتُ إحباطي داخلي، وتساءلت: «ماذا لو لم يختر ضيف الشرف الأمير ذا المكانة الأعلى؟».

- «إنهم دائمًا ما يختارونه. وإذا لم يفعلوا، فيحثهم أي بيت ينتمون إليه على ذلك وبقوة. كما أن الرفض يعد إهانة خطيرة، ولقد أسفر بالفعل عن بضع مجازر دموية على مدى القرون المنصرمة». وللحظة عابرة بدا راث متعطشًا لمعركة حامية الوطيس. ثم ارتسم على وجهه تعبير متأمل. وأردف: «يبدو أن جميع الأمراء يعانون موجات مفاجئة من الرغبة في اقتراف الخطايا الأخرى».

حينئذ تجمدت نظراتنا. لقد أدركت ما يقصده. إن راث كان يعتذر عن شجاره السابق. وهذه الحقيقة كانت بمنزلة عرض للسلام، أهداه راث إليَّ. وكان بإمكاني أن أرفضه، ونواصل عراكنا، أو أقبله، ونمضي قدُمًا في طريقنا.

واصلتُ نزولي عبر الممر، وأنا أجيل فكري في موضوع معين أود إثارته، لكنني تظاهرت بعدم الاكتراث لتجنب إثارة الشكوك.

تساءلتُ قائلة: «لمَ تحتفلون بمناسبة تعود إلى ما قبل الرومان على أية حال؟».

أجاب ساخرًا: «كم من البشر يعتقدون أن طقوسنا وشعائرنا لم تلهمهم على الإطلاق، حتى إنهم لم يتمتعوا بالتهذيب والكياسة التي تجعلهم يحافظون على التواريخ والممارسات الصحيحة».

توقفتُ عن تدقيقي في الأشياء الظاهرية، وتفحصته بدقة. وقلت: «لم تخبرني بهذا؟ هل يتحوَّل كل أمير من أمراء الجحيم إلى ذئب عملاق يعوي في ليالي اكتمال القمر؟ ربما عليَّ أن أقلق من أن أجدك تلهث في غرفة نومي قبل الاحتفال بالعيد».

- «إننا نرتدي أقنعة ذئاب بالفعل، لكنني لن ألهث عندك، إلا إذا طلبت ذلك بلطف».

تماسكت بصعوبة، محاولة إبعاد تفكيري عما يدفعني إليه هذا العالم وهذا الأمير، ثم قلت: «أنت لم تُجب عن سؤالي الأول. لماذا تخبرني بذلك الآن؟».

- «لقد جرى ترشيحك لتكوني ضيفة الشرف» عندئذ غادرت آثار المرح صفحة وجهه، وأضاف: «سيعقد التصويت الشهر المقبل. وأكاد أجزم بأنه سيتم اختيارك؛ إذ إن وصولك مثار حديث الحلقات السبع. وأشك في وجود أحد آخر يحظى بنصف ما تثيرينه أنتِ من اهتمام في موسم الدم الحالي».

يا له من أمر رائع! تساءلت: «هل سأجبر على ذبح الماعز؟».

أخذ راث يحدق إليَّ، ثم قال: «ليس هناك أي ماعز يا إيميليا».

جعلتني طريقة قوله تلك الكلمات غير قادرة على الوقوف على قدميَّ. فسألته: «هل سأكون أنا الضحية؟».

قال: «كلا». فسرى الارتياح في أوصالي لمجرد نطقه هذه الكلمة الصغيرة الجميلة. لكنه أردف: «لكن تضحيتك ستتمثل في الإفصاح عن أكبر مخاوفك أو أسرارك».

- «كلا». كان صوتي هامسًا ومرتجفًا. وكنت أكرهه.

- «بل، أجل». وكان صوته قويًا وصارمًا، وكرهته أيضًا. «وسيحدث ذلك على مرأى ومسمع جميع أمراء الجحيم، وجميع الحاضرين من رعايانا. فالخوف هو مصدر القوة هنا. وكلما كان خوفك أكبر، صارت القوة التي تمنحينا إياها أكبر. كان الأفضل لك لو تضحين بحياتك؛ إذ لو علموا خوفك الأكبر، فإنني أعدك بأنك ستتمنين شيئًا سريعًا ونهائيًا كموت البشر».

السابع

«كلا، أنا أرفض»، كان صوتي صارمًا وقويًا هذه المرة، «لقد قلت إن الخيار متاح أمامي دائمًا».

كان الصقيع يغلف التعبير المرتسم على وجه راث، إذ قال: «انطلاقًا من ردود فعلك الأخيرة، بدأتُ أعتقد أنك نسيت ذاك الحوار الذي دار بيننا».

تساءلتُ قائلة: «أتريد مناقشة ما حدث في الكهف *الآن*؟».

- «كلا، ليس بالتحديد».
- «ستنتهي بنا الحال ونحن نناقشه - لذا فلننته من ذلك الآن».
- «حسنًا». ثم عقد ذراعيه على صدره وأضاف: «ربما تبدئين بتفسير قرارك».

كان يتحدث كما لو كان الخيار متاحًا لي بالفعل، وكانت بصوته مسحة من الغضب المكبوت بصعوبة. ففوجئت كثيرًا، وتراجعت إلى الوراء، وأنا أتفحصه بإمعان. كانت ثمة عضلة تنتفض في فكه، وكانت نظرته حادة وبراقة كالماس. لم يكن راث غاضبًا فحسب، بل كان ثائرًا، إلى حد أنني شعرت بلهيب غضبه يحتدم في المساحة الفاصلة بيننا.

وعلى حين غرة انطلق لساني بما يُعتمل في قلبي: «لقد أردتني أن أرفض برايد».

قال راث: «أنا لم أقل ذلك».

- «لم يكن عليك أن تقول هذا صراحة». وللمرة الأولى ظهرت انفعالاته جلية على وجهه. وسرعان ما حل الانزعاج محل الصدمة الناتجة عما قلته. لو كان فقط وثق بي تلك الليلة، لأضحى الوضع مختلفًا تمامًا. ولربما توصلنا إلى خطة جديدة معًا. لقد أطلق الغضب العنان للساني، فقلتُ: «فلتقُل لي لماذا. إنني أريد أن أعرف لم أردتني أن أرفضه».

- «فلتتوقفي عن الضغط عليَّ يا إيميليا. لقد انتهى هذا الحوار».

- «كلا، لم ينته بعد. هل سيؤذيني؟».

اهتزت الأرفف القريبة منا، وقال: «هل تعتقدين أنني سأسمح بذلك؟».

أجبتُ بصدق: «لا أدري، لا أعرف الحقيقة من الخيال في مخططك الجديد. لقد أحضرتني إلى هنا، إلى هذا العالم، لكي أتزوج أخاك».

- «لا تخلطي اختياراتك بأفعالي».

كان يتحدث كما لو أتيحت أمامي أية خيارات مناسبة. فقلت له: «هل كان يُفترض أن أمكث في بيتي وأشاهد الشياطين وهم يقلبون عالمي رأسًا على عقب؟ وهم يقتلون أو يعذبون عائلتي وأصدقائي، ويواصلون انتزاع الأفئدة من صدور الساحرات؟ أنت تصر على التلميح إلى أنني كنت أمتلك حرية اتخاذ القرار، لكنني لم أكن كذلك ألبتة».

- «بل دائمًا ما كان الخيار متاحًا لك».

- «ليس والساعة تدق، والأبواب تطلق صريرها. لقد كان توقيع العقد مع برايد الخيار الأفضل لإيقاف المذبحة. واتخذتُ القرار في ضوء الحقائق التي أتيحت لي. فإذا كنت قد اقترفت خطأً، أو إذا لم تكن راضيًا - لأي سبب كان - فربما كان حريًا بك أن تتحدث معي تلك الليلة. غير أنك بدلًا من ذلك تسمرت هناك، باردًا وحانقًا، دون أن تنبس ببنت شفة!».

ضاقت عيناه الذهبيتان، وقال: «ألم يدُر بخلدك أنني لم أستطع؟».

- «لم تستطع ماذا؟ ألا تخبرني؟».

- «لم أستطع التدخل».

- «من خلال السحر أو الإرادة الشيطانية؟» فتشتُ عن الإجابة في ملامحه، لكنه كان قد استبدل بانزعاجه ذاك القناع البارد الصامت الذي كان بارعًا في ارتدائه. عندئذ كبحتُ جماح غضبي، إذ لم أكن راغبة في العراك. وأردفتُ: «كنت أظن أن إبليس كان الملعون الوحيد. فهل تلمّح إذن إلى أن ذلك ليس صحيحًا؟ هل ثمة ما يجب أن أعرفه عنك؟».

حينئذ شد يديه على جانبيه، كما لو كان يريد أن يندفع مبتعدًا نحو حلبة للملاكمة، لكي يتخلص من إحباطه وغضبه. وقال: «ربما يجدر بك أن تسألي عائلتك البشرية؛ إذ يبدو أنها تغفل بعض الأجزاء في سردها القصص. فهل تساءلت يومًا عن السبب أيتها الساحرة؟».

- «كيف تجرؤ على التحدث هكذا عن عائلتي ...»

اختفى راث عن طريق السحر وسط غيمة من الدخان، تاركًا إياي أتخبط في حيرتي. فلم تكن عائلتي تخفي أية أسرار. ولقد باحت نونا بكل ما يتعلق بالأشرار، وكذبهم، وتلاعبهم. كما حذرتنا من الفنون السوداء والثمن الذي يجب أن يُدفع مقابل هذا النوع من السحر. وكل ذلك كان صحيحًا.

أسرعتُ الخطى عبر ممر الكتب. وقلتُ لنفسي لا بد أن راث كان مخطئًا أو كاذبًا، أو يخفي جانبًا من الحقيقة. فلقد أخبرتنا نونا بدَيْن الدماء بين الساحرة الأولى - لا بريما ستريجا - وإبليس، وكيف أنه طلب قربانًا يُقتل مقابل شيء سُرق منه.

اتضح أن قرني هاديس، أي التميمتين اللتين مُنحتهما أنا وشقيقتي عند مولدنا، هما هذا الشيء الذي سُرق منه. إنهما قرناه. ولقد أخذهما راث في الليلة التي أحضر لي فيها عقد برايد. واستخدمهما في غلق أبواب الجحيم، كما وعد تمامًا، ثم أخفاهما عني.

نشب الغضب داخلي لكن سرعان ما أفسح المجال للحيرة. لقد كانت نونا تعلم بأمر ساحرات النجوم وقرني إبليس، لكنها لم تخبرنا.

اكتشفت أمر القرنين من دفتر يوميات أختي، وبأمر من راث وإنفي لساحرات النجوم، وإن لم يكن هذا هو الاسم الذي أطلقاه عليهن. فقد كان إنفي يسميني ساحرة الظل.

لم تعترف نونا بمعرفتها بكلا الأمرين حينما واجهتها بما علمته. هذا جعلني أتساءل عن كم الحقائق الأخرى التي لم تكن متعاونة وصريحة بشأنها. لقد تعلمنا أقل القليل من السحر الأرضي؛ طريقة إلقاء تعاويذ بسيطة بمساعدة الأعشاب والأدوات المتاحة، بوصفها طلاسم الحماية، فضلًا عن تعاويذ النوم، والتعاويذ غير المؤذية التي تلاعبت بالندى على الزجاج لجعله ينزلق على سطح ما. وهي أشياء لا تتطلب مهارة كبيرة.

عبارة أو كلمة لاتينية هنا. والقليل من الأعشاب هناك، وكانت التعويذة تُصنع بمساعدة دمائنا السحرية. تُرى ماذا هناك أيضًا عن اللعنة لم أكن أعلمه؟ أو عن سحرنا، فيما يتعلق بهذا الأمر.

أخذت أسير في حلقة مفرغة والثورة تستبد بي. وكلما تفاقم شكّي في كل ما حدث، تدنت قدرتي على التوقف عن اكتشاف المزيد من الحلقات المفقودة في حياتنا. لقد أمضت نونا الكثير من الوقت في تعليمنا أساليب الشياطين، فقط من أجل إعاقة إدراك أي منا قدراتنا الخاصة. فما كان بيدي حيلة سوى التساؤل عما إذا كان من سبب لذلك. لقد كانت نونا فائقة الذكاء، حتى ليستحيل أن تنسى أية دروس مهمة.

لا شك في أن السحر المؤذي توازي أهميته تعويذات الحماية الدفاعية نفسها. لكنها لم تعلمنا قط تلك الأنواع من التعاويذ الجريئة. وفي الواقع، بدا أنها مصممة على حجب ذاك السحر عنا بأي ثمن. تُرى هل كان ثمة خطر سنتعرض له إذا استخدمناه؟

لقد طُلب مني أنا وفيتوريا أن ننصت لكلامها، ونطيعها، ونتبع قواعدها، وإلا لتكبدنا العواقب. إنني لم أرغب مطلقًا في إغضاب نونا أو إثارة المتاعب. لكن فيتوريا كانت دائمًا ما تتجاوز الحد، غير مبالية بالعواقب.

لقد أصابني حديث راث القاسي في الصميم، وترك جرحًا غائرًا، تمامًا كما كان يريد. إن أسلحة راث لم تقتصر على الخناجر والرصاصات والابتسامات الماكرة، أو القبلات الجامحة أيضًا. فقد كانت كلماته قاتلة فتاكة حينما يصوبها نحو الهدف. ولم أستطع الهروب من الشعور المؤلم بأنه ربما كان محقًّا.

كانت هناك ثغرات في تعليمي لم أتمكن من تجاهلها.

بعض التعاويذ كانت تنبثق في ذهني بسهولة كما لو كنتُ أحفظها عن ظهر قلب. والبعض الآخر كان عليَّ أن أتعلَّمه، بيد أنني دائمًا ما كنت أنساه مجددًا. ولم أستطع تذكُّر أين أو كيف اكتشفت تعويذة الحقيقة، فقط في يوم ما أردتُ معرفة الحقيقة فانبثقت تعويذة الإرادة الحرة. غضبت نونا غضبًا شديدًا عندما أخبرتها. وبدلًا من أن أكافأ على إتقان هذا المستوى من السحر، تعرضتُ للعقاب.

سرتُ حتى نهاية الأرفف، ووجدت مقعدًا مخمليًّا ضخمًا، فجلست عليه، وظلَّت فكرة ما تلح على ذهني. ربما لم يكن راث يقصد نونا فحسب.

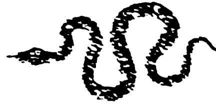
لقد عثرت شقيقتي على كتاب التعاويذ الأول، واستخدمت السحر الشيطاني لغلق دفتر يومياتها، كما أحضرت جريد والمتحولين معًا لأسباب لم أفهمها تمامًا، في ظل حقيقة أن المتجولين والشياطين كانوا أعداء طبيعيين.

أخذت أحدق نحو الأسفل إلى أصابعي، وأنا مذهولة من أنني ما زلت أرتدي خاتم غصن الزيتون الذي كان راث قد منحني إياه. فلويتُ دون وعي الرباط الذهبي حول إصبعي. وتساءلت عما يمكن أن تكون فيتوريا قد اكتشفته أيضًا قبل موتها. هل اكتشفت الحقيقة الكاملة للعنة إبليس ودَيْن الدم؟ ربما كانت تلك المعرفة - أكثر من أي شيء آخر - هي السبب الرئيسي وراء مقتلها.

حينئذ بُعثت ذكرى كانت قد دُفنت عميقًا في ذاكرتي، ثم هامت بعيدًا، كأنها خيط دخان لا يمكنني الإمساك به. وقد خالجني شعور عجيب بأن حقيقة راث ليست كما تظن.

وإذا كان ذلك حقيقيًا ... فمن المحتمل أن قتل الساحرات لم تكن له علاقة ببحثه عن عروس، وأن كل ما ظننتُ أنني أعلمه كان من صُنع الوهم والخداع. نونا، وفيتوريا، وأمراء الجحيم السبعة. وكان أحدهم على الأقل يطلق الأكاذيب.

عندئذ أصبحت أكثر إصرارًا عن ذي قبل على اكتشاف السبب.



أمضيتُ بضع ساعات محبطة، لكنني وجدت أخيرًا ما كنت أبحث عنه. لقد سحبت كتابًا عن بدايات السحر، ثم ارتميتُ على مقعد بجوار ركن مظلم. ورحتُ أجول المكان بناظري؛ فلم يكن ثمة صوت أو إشارة على وجود أي أحد في المكتبة. وبالطبع لم يكن غريبًا أن تقرأ ساحرة كتابًا عن السحر، لكنني لم أرد مع ذلك أن يكتشف كائن من كان قصور تعليمي ونقصه. وهكذا فتحت الغلاف الجلدي البالي، وشرعتُ في القراءة.

طبقًا للساحرة التي ألّفت هذا الكتاب، كان سحرنا شبيهًا بعضلة تحتاج إلى التمرين. فإذا أهملته مدة طويلة، فإنه يضمُر ويضعف. ووصفته كذلك بـ«المورد»؛ أي المنهل الكامن في جوهرنا لنستقي منه، وكأنه معين لا ينضب أبدًا.

يقول غازلو المصير الحكماء إن قوتنا هي نعمة وهبتها الإلهات، ولذلك هي تحاكي قدراتهن بعض الشيء. وستلاحظ بعض السلالات ميلًا أو انجذابًا نحو تعاويذ معينة، خاصة تلك التي تستخدم العناصر الأربعة. ويدل ذلك على الإلهة التي ينبغي على الساحرة أن تقدّسها لكي تعزز هذا اللون من السحر. أما العنصر الخامس الأكثر غموضًا، فيُعتقد أنه الأندر، لكن ذلك يمكن أن يكون خطأ.

توقفتُ عن القراءة لأستوعب تلك المعلومات. لكنني شعرت أيضًا بعاطفة أخرى لم أرغب في التمعن فيها. ولم تكن الشك ولا الغضب، إنما عاطفة متعلقة بكليهما. إن نونا لم تفسِّر مطلقًا من أين نبعت قوتنا، أو كيف كانت تعمل. ربما لم تكن جدتي تعلم بالضبط، لكنني لم أستطع أن أصدق ذلك تمامًا.

كانت تلك أيضًا هي المرة الأولى التي أسمع فيها عن غازلي المصير، وتقديس إلهة واحدة. فلقد عُلِّمنا دائمًا أن نقدسهن جميعًا. حتى إنني فتشتُ في ذاكرتي باحثة عن أية هياكل مقدسة صنعتها نونا لإلهة معينة لكن ذاكرتي لم تسعفني بأي من ذلك. فلعل سحرنا لم يكن متوافقًا مع أي من العناصر الأربعة.

أخذتُ أُقلِّب في صفحات الكتاب سعيًا وراء المزيد من المعلومات عن غازلي المصير، لكن لم يأت الكتاب على ذكر هؤلاء مجددًا. فعدتُ إلى المقدمة، وركزت انتباهي على المورد.

لقد شتتني غضبي من نونا والشك في تعليمنا.

قلت محدثة نفسي: «فلتركزي الآن».

أغلقت عينيَّ، والشك في قدراتي يراودني، وركزت تفكيري، وحاولتُ أن أشعر بمورد القوة الباطني. في البداية لم يكن هناك أي شيء غير معتاد، ثم سرعان ما تلاشى وخبا العالم من حولي. وأمسى أكثر ظلامًا في عقلي. وصرت لا أعرف شيئًا، بل لم أعُد شيئًا، فقد أضحيتُ عدمًا.

تكوَّن داخلي فراغ، وأخذ يتسع ليصبح ظلامًا سرمديًا. ومن ثم أحسست بشعور من أغرب ما يمكن، وهو أن هذا الفراغ ينتظرني لأخطو إلى داخل أعماقه، وبمجرد أن اعترفت بوجوده، غمرني على الفور. وحينئذ صرت أشعر بكل شيء. تقوقعتُ في داخل أعماق ذاتي، بالقرب من قلبي الذي طفق يخفق دون هوادة، ثم توقفتُ. كان سحري قابعًا في سكون هناك. ولم أكن واثقة بكيفية إدراكي ذلك، لكنني عرفت فحسب. استجمعتُ وعيي عن السحر،

محاولة أن أشعر به على نحو أفضل. ففتح شيء عتيق وقوي قليلًا عينًا واحدة، وهاج غاضبًا لإيقاظه.

عندئذ تراجعت بعيدًا عن هذا المكان وأنا أشهق في فزع.

قلت: «يا إلهتي المقدسة ... تُرى ما كان ذلك؟».

أخذت أقلّب صفحات الكتاب، لكن لم يكن به أي ذكر لقوة كالتي تعرضت لها من فوري. لا شك في أنها ليست التراب، أو الهواء، أو النار، أو الماء، أو الأثير. لقد كانت هائلة وحكيمة وقوية بصورة بثت الروع في نفسي. لقد اشتعل غضبها جامحًا بطريقة تسلب الألباب. ولو كان بإمكاني أن أُخضِع تلك القوة لإرادتي، إذن لتمكنتُ من تدمير هذا العالم.

لكنني لم أرد فعل ذلك، فكل ما أردته هو الثأر من قاتل شقيقتي التوأم. حينئذ استنشقت نفسًا عميقًا وأغلقت عينيَّ تأهبًا للمحاولة من جديد.

«آه، معذرة».

رفعت عينيَّ عن كتاب السحر، وأغلقته بصفقة مدوية. فوجدت شابة ذات شعر أسود حالك، وعينين بنيتين تميلان إلى الحمرة، وبشرة بُنية، تنحني لي في أدب. وكانت هناك جماجم لحيوانات صغيرة تتدلى من شعرها الطويل، على نحو يشبه الزهور التي زينتُ بها شعري. وانسدل على جسدها البض فستان نحاسي زعفراني اللون. وكانت تحمل كتابًا عن زراعة الأشجار؛ اختيار غريب، لكنه مثير للاهتمام.

قالت: «لا بد أنك إيميليا. إن البلاط كله لا يتحدث إلا عنك، أنا فاونا».

ابتسمتُ لها على استحياء، معتمدة على حقيقة أن الثرثرة تعني هنا الأمر ذاته الذي تعنيه في سوق موطني. سألتها قائلة: «تُرى ما نوع الشائعات التي تتناقلها الألسنة عني؟».

أجابت: «كالمعتاد؛ شعرك عبارة عن أفاعٍ، ولسانك ليس سوى لسان من نار، وحينما تغضبين تقذفين باللهب كتنانين الجليد الجبارة التي لا ترحم».

وابتسمت ابتسامة عريضة ردًّا على نظرتي المندهشة، ثم أردفت: «إنه مجرد مزاح. فإنهم أذكى من أن يبدأوا نشر الشائعات والأمير راث بين ظهرانيهم.

إنك ضيفته الشخصية، وتتمتعين بالحصانة المطلقة. ولقد عبَّر عن ذلك جليًا. فباعتبارك سيدة البلاط الملكي الشيطاني، سيقتلع الأمير راث لسان من يتجرأ ويذكر اسمك بسوء من جذوره».

قلت: «تمامًا كما سيحدق إليهم حتى يذبلوا ويموتوا إذا أعاقوا مهمته».

بادرتني بنظرة فضولية وقالت: «لقد كان يقصد تهديده في واقع الأمر. وإن السيد ماكادين محظوظ لأنه نجا بلسانه. لكن الأمير توعده بأنه إذا تحدث عنك بسوء مجددًا، فإنه سيقتلع لسانه خارج قاعة العرش، ويعلقه هناك حتى يتعفن، فلولا مكانة ماكادين المرموقة في البلاط لصار مشوهًا الآن».

كان عليَّ أن أذكِّر نفسي بالحفاظ على أنفاسي بينما أتصور هذا المنظر. قلت: «أحقًا؟ هل هدد راث باجتثاث لسان أحد ما؟».

- «إنه ليس تهديدًا أجوف، بل هو تحذير حقيقي. إن سموه لا يتسم بالرحمة مع من يتحدونه. ففي صبيحة اليوم هدم جبلًا على دوميتيوس، نائب قائد قواته». خبت ابتسامة فاونا، وأردفت: «إنهم لا يزالون يبحثون تحت الركام».

لم أجد ما أقوله. فلم يقل أنير سوى أنه سوَّى جبلًا بالأرض، ولم يذكر أن أحدًا سُحق تحته. لقد كان راث أحد أمراء الجحيم، وقائدًا للحرب، وواحدًا من السبعة الجبابرة المُهابين؛ لذلك ينبغي ألا تثير تلك الأنباء دهشتي، فقد عاينت عنفه من قبل.

مع ذلك، أفاد هذا الحادث في تذكيري بحقيقة الشخص الذي كنت أتعامل معه، وبالمكان الذي كنت أسكنه، فأنا بحاجة إلى أن أدير لعبتي بحنكة حينما ينتهي بي المطاف إلى أي من مجالس الأمراء الأخرى.

إن حقيقة إيذاء راث واحدًا من كبار ضباطه ما كانت يجب أن تصدمني. فلربما صب عليه غضبه بعدما تشاجرنا هذا الصباح. وإذا كان هذا هو رد فعله بعد خلاف بسيط، تُرى من سيقاسي ويلات غضبه الجهنمي بعد نزاعنا الأخير؟ لقد أنشب الشعور بالذنب مخالبه عميقًا في جسدي، على الرغم من علمي بأنه لا يد لي في أفعاله كي أشعر بالذنب. لقد كان المسئول الوحيد عما يقترفه بيديه.

سألتُ فاونا: «هل تعلمين لماذا هاجمه راث؟».

أجابت: «أظن أن دوميتيوس اقترح تقديم قلبك الذي ما زال ينبض إلى الجنود. لكن البعض يزعم أنه تفوه بكلمات بذيئة عن أوصافك الجسدية، وعن حُسنك الأخاذ».

- «وماذا عن الآخر؟ ماذا قال؟».

- «لقد تساءل عما إذا كان لدى سموه أية قواعد أخرى تحكم الألسنة، وكيف تُطبق عليك؟»، ثم ترددت لحظات وقالت: «لا يمكن أن يعد أيهما مازحًا في حديثه. لقد كان سموه محقًّا في التصرف سريعًا. فالشيطان الفاسد يُفسد بقية الشياطين».

رائع، كان ذلك أسلوبًا مهذبًا لقول إن الشياطين يوفون بوعودهم، أو يحاولون على الأقل. فأنا، وإن لم أكن متمرسة في استخدام السلاح والقتال، كانت لديَّ بعض المهارات المتعلقة بالنصل، وذلك بفضل الوقت الذي قضيته في المطبخ، وأنا أقطِّع الذبائح. وكنت على اطلاع بالمواضع الحيوية التي يجب استهدافها، وما كنت لأتردد في إصابة من يجرؤ على إلحاق الأذى بي.

نويت أن أطلب من راث سلاحًا في المرة التالية التي سأقابله فيها. وما من شك في أنه كان سيمنحني وسيلة ما للدفاع عن نفسي. فأنا لم أرد أن أعتمد عليه، أو على أي أحد آخر في شأن حمايتي.

قلت لفاونا: «هل كنت تحبين أيًّا منهما؟».

ردت فاونا في ازدراء: «بالطبع لا، ستقابلين من أحبه قريبًا جدًّا. مساء الغد تحديدًا».

راودني الارتياب الممتزج بالرعب، فقلت: «تُرى ما الذي سيحدث غدًا؟».

- «لا شيء فاضح أو مرعب، مجرد مأدبة عشاء بحضور النخبة من بيت راث». قالت ذلك وهي تبتسم ابتسامة عريضة مشرقة. ثم استرسلت: «لا تقلقي، فالأمير راث منع العنف في الحفلات منذ قرن من الزمن على الأقل. والآن، النصال الوحيدة التي نسلِّح أنفسنا بها ليست سوى نظراتنا الحادة.

وكل ما نفعله هو أن نحدّق إلى خناجرنا ونحن نحلم بغرزها في أعدائنا حقًّا. فلتعدي ذلك تمرينًا على المأدبة الوشيكة».

- «لقد سمعت أن ضيف الشرف يجب أن يُفصح عن أحد مخاوفه. فهل بإمكان أحد أن يعرض أن يكون بديلًا لضيف الشرف؟»، إذا كان الأمر كذلك لعقدتُ صفقة مع راث، أو مع إبليس نفسه إذا اضطررت إلى ذلك، «ربما أحد النبلاء مرموقي المكانة؟».

- «حتى إن سُمح بذلك، فلن يتطوع أحد»، حينئذ رمقتني فاونا بنظرة عطف، وتابعت قائلة: «وبالقطع لن يُقدم أي أمير في هذا العالم على مثل هذا الفعل، إذ إنه بذلك سيمنح الأمراء الآخرين قدرًا كبيرًا من السُّلطة». أمسكت فاونا بكتابها بقوة وأردفت: «أنت ما زلت تقيمين في الجناح البلوري، أليس كذلك؟».

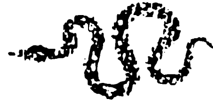
أجبت وأنا أرفع كتفي: «ربما، ثمة الكثير من البلور في غرفتي».

- «رائع. سأقابلك قبل العشاء وأرافقك للأسفل».

أومأتُ برأسي. وهكذا كان يومي الأول في بيت راث كارثي؛ إذ وصلت وأنا مصابة بانخفاض الحرارة، ثم رأيت جمجمة مسحورة، وتشاجرت مع الأمير، واكتشفتُ أسرارًا عن سحري تخفيها عائلتي عني، فضلًا عن نائب قائد جيش راث الذي هُدم جبل فوق رأسه، والتهديد الجديد بعيد الذئب الذي طغا على كل ما سبق.

إن آخر شيء كنت أريده هو الإفصاح عن أسوأ مخاوفي في عالم لن يتورع عن تعذيبي بهذا الخوف. لكن ربما إذا تعلمتُ ترويض قوتي لاستطعتُ حل لغز مقتل فيتوريا والعودة إلى وطني في عالم البشر قبل حدوث ذلك.

أخذت كتاب السحر، وقمت من مكاني قاصدة العودة إلى جناحي؛ لأستعد للغد. وانطلاقًا من معرفتي بنبأ الجبل الذي دُك أرضًا، ولم يراودني شك في أن مأدبة العشاء ستكون أشبه بمعركة حامية الوطيس. ومعركة سأكون محظوظة إذا خرجت منها دون أن يمسسني سوء.



لم ينتهِ بي المطاف إلى الجناح البلوري؛ إذ تملكني الفضول وقررت استكشاف تصور راث للجحيم، وذلك من منطلق التعرف على العدو وعاداته في القراءة.

وجدت درجًا دائريًا بالقرب من مكتبة ألوان الطيف فنزلت عليه في حذر متجهة نحو الظلام الدامس بالأسفل. ولم يكن توقعي المبدئي للأسود والذهبي والجلد ببعيد عن مكتبته الشخصية في الواقع. فلقد وُضعت مقاعد جلدية قاتمة وثيرة أمام مدفأة ضخمة احتلت جدارًا من الحجر المتراص. وكان من الممكن أن أقف منتصبة بسهولة داخل فتحتها ومد ذراعي فوق رأسي دون أن أصل إلى قمتها. وفُرشت أرضية الغرفة في أناقة بأبسطة متعددة ذات ظلال متنوعة من الرمادي الغامق والأسود ذي الخيوط الذهبية.

هنا كانت الأرفف من الحجر البركاني الكريم، وجميع الكتب مغلفة بجلد قاتم. وتدلت من دعامات بارزة ثريا مستديرة ذات أذرع حديدية رفيعة، فألقت بنور بديع على جنبات الغرفة. لقد كان مكانًا مثاليًا للاسترخاء والقراءة أمام النيران المتأججة. حتى إنه كان ثمة دثار مخملي مُلقى دون تنظيم على ظهر أحد مقاعد القراءة.

في تجويف منبثق من المكان الرئيسي المخصص للقراءة، تدلَّت من الجدار مجموعة من السلاسل ذات الأصفاد. وبالفعل، لم يكن راث يمزح، عندئذ صار حلقي جافًا، وسرعان ما حوَّلتُ بصري عن هذا المكان.

لم يكن التعذيب هو أول انطباع يثيره هذا المنظر في ذهني. ولم أُرد أن يسلط هذا العالم سحره الخادع على عواطفي المشتتة مجددًا، فتجولت عبر بقية الغرفة وكلي شغف برؤية كل ما يمكن رؤيته.

كانت الكتب والسجلات المتعلقة بالخطط الحربية، والتاريخ - البشري والشيطاني - بالإضافة إلى طقوس الساحرات وكتب السحر، وبضع مدونات

بخط اليد أيضًا موضوعة في أكوام منظمة على مكتب كبير فخم. كانت باللاتينية ولغة أخرى لم أستطع قراءتها. ولم يكن هنالك شيء يدينه بارتكاب جرائم ولا شيء مفيد. لا شيء عن الإلهات أو سحرهن، ولا عن خرافات الشياطين عن العذراء والأم والعجوز. لا تعاويذ على جماجم أعيدت للحياة أو عظام أخرى.

لا شيء سوى أقلام ومحابر. وحجر خشن تصورت أنه يُستخدم لشحذ النصال.

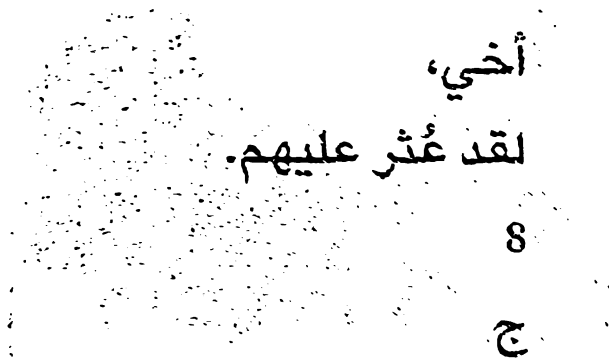
وعلى رف خلف المكتب كانت هناك سبعة مجلدات من السجلات الخاصة بكل من بيوت الشياطين. بل كانت ثمانية مجلدات في الواقع إذ كان الأثر في الغبار يشير إلى شيء معين. ربما كان أحد البيوت غزير الإنتاج بحيث احتاج إلى أكثر من مجلد واحد لتدوين جميع المعلومات. وأيًّا كان السبب، فذاك المجلد كان مفقودًا الآن.

من الواضح أن العناوين كانت وحدها هي المكتوبة باللاتينية؛ إذ إنني قلَّبت صفحات بعض منها لكنني لم أتمكن من قراءة لغتها. كان الإحباط قد جثم على صدري بينما أعدت السجلات إلى مكانها. حقًّا، لم يكن هناك شيء سهل.

لفت انتباهي دورق مملوء بعض الشيء بشراب اللافندر، وقدح مماثل من البلور. ومن منطلق الفضول لمعرفة ما ينغمس راث فيه، سكبت بعض الشراب في القدح وتشممته. كانت رائحته مزيجًا من الليمون والمستخلصات النباتية. تناولت رشفة منه بحذر فجعلتني الحُرقة أحاول سحب الهواء من بين أسناني. كان شرابًا قويًّا يشبه الشراب الكحولي الذي يشربه البشر، لكنه بنكهة الفانيليا، وأحلى منه بعض الشيء. وإذا أضفتُ عليه بعض القشدة والثلج لصار رائعًا. ولعله يساعدني على اجتياز مساء الغد. وهكذا عزمت على الإرسال في طلب زجاجة منه قبل المأدبة.

وضعت الشراب جانبًا، وجلست عند المكتب، عابثة بالأدراج. لكنها كانت موصدة بطبيعة الحال. وكان موضوعًا أسفل نحت نحاسي على هيئة أفعى

افترضت أنه يُستخدم ثقالة للورق ظرف عليه كتابة بخط أنيق. ودون أن أشعر بالذنب على الإطلاق، قرأت الرسالة.



قرأتها مرارًا وتكرارًا، ولكن ذلك لم يُجد نفعًا في فك شفرة هذا السطر الواحد. تصورتُ أن حرف «ج» يمكن أن يرمز إلى جريد، لكنه يمكن أن يرمز إلى جلاتوني أيضًا.

لقد عُثر عليهم، 8. لقد كان كل من إنفي وجريد يبحثان عن قرني هاديس، لكن راث لم يُبدِ اهتمامًا كبيرًا قط بالتمائم. وفضلًا عن ذلك، كان القرنان بحوزة راث حتى سمح لنا برايد بدخول أراضيه.

قلت لنفسي: «إذن ماذا، هل كنت تبحثين عن راث الغامض العزيز جدًّا على قلبك؟».

التقطت ثقالة الورق وقلبتها بين راحتي، لكنها آلمتني.

قلبتها رأسًا على عقب، فبرزت من قاعدتها نتوءات دقيقة حادة ذات شكل هندسي، فاتضح أنها خاتم شمعي، وليست ثقالة للورق، أو ربما تستخدم لكلا الغرضين. وضعتها جانبًا، وتفحصت الرسالة مرة أخرى. فظهر شيء جديد هذه المرة. إنها لم تخاطب أي شخص باسمه؛ ما يعني أنه ما من سبيل لمعرفة ما إذا كان راث هو المرسل إليه المقصود، أم أنه استولى عليها.

ربما كانت هذه الرسالة موجهة إلى إبليس لكي يعلم باستعادة قرنيه. وربما كان حرف «ج» يرمز إلى اسم راث الحقيقي وكان هو من أرسلها. أو لعله

لم يكن بها شيء مهم على الإطلاق وأنا من كنت محبطة إلى حد توهم العثور على أدلة واختراعها.

كذلك لم تذكر الرسالة تاريخًا محددًا؛ لذا لم تكن ثمة طريقة لمعرفة ما إذا كانت تلك الأخبار حديثة العهد أم أنها تاريخ مضى واندثر. إلا إذا كان هذا ما يعنيه رقم 8. كما أنه لم تكن لديَّ فكرة عن كيفية حساب الشياطين للزمن. لقد كنا في أواخر القرن التاسع عشر على الأرض، لكن يمكن أن يكون هذا العالم في القرن الثامن. أو ربما دل هذا الرقم على المجلد الثامن المفقود. وكان من الممكن أن أظل أخمن إلى الأبد.

نحيتُ الرسالة عديمة النفع جانبًا، وتناولت محبرة وقلمًا وبعضًا من جلود الكتابة، واستعدت كتاب بدايات السحر، وقصدتُ غرفتي، وأنا أكثر إحباطًا وضياعًا مما كنتُ عليه من قبل. وكان عليَّ أن أرجو أن يحمل الغد بعض الوضوح، حتى إن جاء على هيئة مشاهدة الشياطين وهم يتعاملون فيما بينهم، ومعرفة كيفية تنقلهم عبر البلاط.

نظرًا إلى انتمائي للطبقة العاملة، لم أحتك من قبل بمجتمعات الأثرياء في موطني؛ لذلك يوم غد سيكون بمنزلة اختبار لقدرتي على الاندماج معهم. إن سيري نحو الثأر سيكون كالسير البطيء على الجمر، لا كالمرور الخاطف عبر الجحيم المستعر. وبحلول الوقت الذي سأغزو فيه بيت برايد، سأكون قد أضحيتُ محنكة في الخداع المتقن.

وعندما يشعر الشيطان المسئول عن مقتل فيتوريا بلهيب غضبي أخيرًا، أرجو أن أكون قد أشعلت النيران في بيت خطيئته حتى يتهاوى رمادًا.

الثامن

بلون الدم الجاف، أو شراب العنب القرمزي الفرنسي المعتق، المخفف في قدح صغير، والمنثور على شريحة من اللحم المغطى بحبوب الفلفل، أخذتُ أدور من جانب إلى آخر أمام المرآة اللامعة العالية. لم أستطع أن أحدِّد الوصف الملائم للون الفريد للثوب الذي كنت أرتديه حينئذ. لو كانت نونا تراني لوصفته بأنه نذير شؤم مخضب بالدماء، ولعكفت على تلاوة الصلوات للآلهة.

لكنني أحببته.

إنني لم أحضر مأدبة عشاء ملكية شيطانية من قبل، والرسالة التي وصلتني مبكرًا صبيحة اليوم بخط راث الأنيق ذكرت أن عليَّ ارتداء ثوب جامح ورسمي. ولقد انطبقت كلتا الصفتين على هذا الثوب؛ إذ كان عبارة عن صديرية مشدودة تكشف عن لون بشرتي البرونزي، وكانت تلك الصديرية الجريئة موشَّاة بجلد الثعبان الأسود الأملس، بينما ظلت أطراف الثوب بذاك اللون القرمزي القاتم. كان ثوبًا مفعمًا بالأناقة الشيطانية في أفخم صورها.

ولأن هذا الثوب بلا أكمام ومكشوف، فقد أظهر وشمي المتلألئ كله. فقررت أن أرتدي قفازين لأخفيه. لم أرتد أية جواهر سوى الخاتم الذي كان راث قد أهداني إياه. ولا شك في أنه سيمثل موضوعًا شائقًا للحديث.

وأرجو أن يحقق الغاية منه على نحو جيد.

لقد كنت أفتقد قرني الفضي الذي ما برحت أرتديه طوال حياتي، لكن كان عليَّ أن أتقبَّل فقدانه لغاية نافعة. ذهبت إلى قاعة الاستحمام، وأخذت أعبث بشعري المسترسل. ففي الأمس كان شعر فاونا طلقًا وجامحًا وجميلًا؛ لذا صففت شعري على نحو مشابه له لكي أتجنب أية عيوب في مظهري. وكانت الخصلات الطويلة الداكنة تنساب على ظهري، بينما تمايلت الخصلات الأقصر المحيطة بوجهي إلى الأمام وأنا أتظاهر بالتحدث مع الضيوف على يميني ويساري.

أنا لم أرد أن أتوارى خلف أي شيء هذا المساء. فأسياد الجحيم وسيداته سيحدقون إليَّ بنظراتهم دون أية حواجز.

وبغض النظر عن مدى خوفي أو اضطرابي، لم أرغب في إظهار تلك المشاعر في العلن.

في درج الحُلي، وجدتُ مشبكًا صغيرًا على هيئة جمجمة طائر، فرفعت الجزء العلوي من شعري للخلف. ووضعتُ المشبك العظمي بشكل جميل في تاجي، وكأنه إكليل للموت، ثم أضفت زهورًا في حنايا هذا التاج الشنيع. وهكذا بدوت أميرة للجحيم، بل ملكته المقبلة.

مع ذلك، بتلك العظام في شعري ولمحة الغضب المكبوت المألوفة في عينيَّ، اعتقدت أنني يمكن أن أرتقي إلى مكانة إلهة الموت والغضب.

عدتُ أدراجي قاصدة مخدعي، لكنني توقفت في منتصف الطريق. فقد أبصرتُ على المنضدة الزجاجية - بجوار قنينة الشراب المتروكة منذ زيارة أنير في الليلة الماضية - جمجمة أخرى.

إنهما تجسيد حقيقي لـ «الدم والعظام».

اقتربت منها وأنا آخذ نفسًا عميقًا لكي أتسلم رسالتها. وعلى الفور تكلمت بذلك الصوت المماثل لصوت فيتوريا نفسه، الذي جعل جسدي يقشعر من أخمص قدمي حتى رأسي. قالت: «*النجوم السبع، والخطايا السبع. الأسفل كالأعلى*».

قلت لنفسي: «أيتها الإلهة في السماء، تُرى ما الذي يعنيه هذا أيضًا؟».

لم أتوقع أن أتلقى إجابة؛ لذا لم يخب أملي كثيرًا عندما لم أتلقَّها بالفعل. تنهدتُ بقوة، إذ كنت أكره الألغاز. إنها أشياء مربكة عديمة الجدوى. وهكذا أخرجت المحبرة والقلم والجلد الذي كنت قد أخذته من مكتبة راث، وكتبت على عجل بعض الملاحظات.

إذا كان أحد إخوة راث يتكبد العناء ليرسل الرسائل عبر الجماجم، فلا بد أنها تعني شيئًا. وإلا فإن أحد الأمراء السبعة يلهو بي لمجرد التخلص من الملل؛ لكنني شككت في ذلك على الرغم من عدم استبعاده تمامًا. ربما كانوا مثيرين للشفقة إلى حد فعل تلك التفاهات.

جماجم مسحورة

الجمجمة الأولى: يعيش ملك الموت، الروح المنتقمة، العذراء والأم والعجوز، الماضي والحاضر والمستقبل، فلتكتشفي الحقيقة.

الجمجمة الثانية: النجوم السبع، والخطايا السبع. الأسفل كالأعلى.

كانت الخطايا السبع هي الأسهل في فك شفرتها؛ إذ من الواضح أنها تعني أمراء الجحيم. أما عبارة *الأسفل كالأعلى* فكانت جزءًا من النبوءة، وكانت أقل وضوحًا. ولم يبدُ أن أحدًا كان متأكدًا تمامًا من معناها. قالت نونا إنها ارتبطت بفيتوريا وبي؛ لأنه كان من المفترض أن نجلب السلام

لكلا العالمين من خلال تضحية عظيمة. ولكن هي أيضًا لم يكن لديها جميع الإجابات. أو على الأقل هذا ما زعمته. إذن من الذي يعرف الحقيقة؟ إن بقية الرسالة ستحتاج إلى بعض البحث.

بدأت فحص سطر جديد مما كتبته، وأنا مصممة على تفسير كل نظرية بوضوح حتى أتمكن من فهمها، أو الإضافة إليها بمرور الوقت. لكن دائمًا ما ساعدني تدوين المعلومات على إدراك الحقائق.

كما أن هذا ما كان يفعله المحققون في الروايات، فهم كانوا يحلون اللغز دائمًا في نهاية الكتاب. وأنا لم أكن خبيرة، لكنني بذلت قصارى جهدي. فكتبت سريعًا أكبر قدر من المعلومات استطعت تذكره عن النبوءة.

<u>*النبوءة*</u>

الأسفل كالأعلى

- *عندما تولد ساحرتان توأمتان، لا بد أن ترتديا قرني هاديس (فيتوريا وأنا)*
   - *تبشّر التوأمتان بنهاية لعنة إبليس.*
- *تعتقد بعض الساحرات أن ذلك يعني استخدام كل من السحر الأبيض والسحر الأسود معًا.*
   - *يعتقد البعض الآخر أن أميرًا من أمراء الجحيم سيقع في حب ساحرة.*

- *إحدى التوأمتين ستحكم الجحيم، والأخرى ستحكم الجنة (كلتاهما ستضطر إلى التضحية).*

انقطعت أنفاسي بينما أعدت قراءة السطر الثاني: *تُبشر التوأمتان بنهاية لعنة إبليس.*

قلت: «يا أيتها الآلهة، لا يمكن ...»

كيف لم نلاحظ جميعنا ذلك من قبل؟ قفزت إلى عقلي الذكريات المتعلقة بجلسة كلوديا لاستحضار الأرواح مجددًا. وكيف «أنه» تجوَّل حرًّا مع استحالة ذلك. إنها لم تعنِ ملك الموت، بل كانت تحذرنا من إبليس. وإذا كنت أنا وشقيقتي قد أنهينا لعنته، فمن المرجح أن ميلادنا هو الذي أبطل السحر الذي يقيده، وليس تصرفًا فعلناه.

ما يعني أنه لم يكن مسلسلًا في الجحيم كما كنا نعتقد.

وأنه لم يبقَ كذلك نحو عقدين من السنوات. فبينما كنت أحقق في مقتل فيتوريا، كان هو حرًّا يفعل ما لا تعلمه سوى الآلهة.

إذن، لماذا كانت جثة أنتونيو بحوزة برايد، ولِمَ أرسل راث لجلبي إلى حضرته؟ ولو لم يكن مجبرًا على تولي الملك في الجحيم، لاستطاع أن يأتي من أجلي بنفسه، وأن يجمع جميع عرائسه المحتملات. لمَ فوَّض راث للقيام بهذه المهمة؟

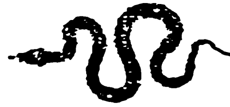
يدل ذلك على أن شكِّي القديم في محله، إنه لم يرد عروسًا مطلقًا، وجرائم القتل ارتُكبت لسبب آخر.

عندئذ سرى الرعب في أوصالي. فنظرت إلى الساعة الجديدة على المنضدة المجاورة للسرير.

لقد رغبت في وجود منضدة وساعة بجوار السرير قبل أن يحل الليل، فظهرتا معًا بصورة سحرية بينما كنت نائمة. لم أعرف ما إذا كانت الغرفة مسحورة حتى تحقق رغباتي، أو ما إذا كان راث قد خمَّن ببساطة ما يمكن أن أحتاج إليه. وكان الاحتمال الثاني هو الأرجح؛ إذ كان اهتمام راث بالتفاصيل

مثيرًا للعجب. كما لو كان لا يجد ما يشغله سوى إرسال المناضد التي توضع بجوار الأسرَّة.

كان من المقرر أن تُقام مأدبة العشاء في منتصف الليل، ولم يتبقَّ أمامي ساعة سوى واحدة قبل هذا الموعد. لكن هذا الوقت كان كافيًا للعودة سريعًا إلى مكتبة الشيطان الشخصية. وكنت قد خططت إلى قضاء الوقت في تسخير مورد السحر الخاص بي وترويضه، لكن يمكن تأجيل ذلك. فقد احتجتُ إلى أخذ السجل الخاص ببيت برايد وجلبه خلسة إلى غرفتي، دون تأخير. وسواء أكان مكتوبًا بلغة الشياطين أم لا، كنت سأجد طريقة لقراءته، حتى إن كنت سأبيع جزءًا آخر من روحي لتحقيق تلك الغاية.



تمكَّنت من دس كل من الجمجمة الثانية والسجل المسروق بجوار الجمجمة الأولى - وأخفيتها جميعًا خلف فستان منفوش - ولم أكد أغلق الخزانة حتى سمعتُ طرقات على الباب. تنهدت في هدوء ثم تلوت صلاة سريعة لإلهة الكذب والخداع، ولم أتمنَّ فقط أن أنجو بحياتي أثناء الليل، بل أن أحقق انتصارًا أكبر مما كنت أحلم به.

تحسست بيدي مقدمة صديريتي، ثم تجاوزت سريري حتى قاعة الاستقبال التي تُستخدم أيضًا قاعة للانتظار.

تمنيت أن يحالفني الحظ، فيعتقد من يراني أن دقات قلبي المتسارعة ناتجة عن توتري بسبب المأدبة الوشيكة.

فتحت الباب فوجدت فاونا، وعلى وجهها ارتسمت ابتسامة عريضة: بدت سعادتها حقيقية، فخف الهم الجاثم على صدري بعض الشيء. وخطر على ذهني أن أعقد معها صفقة لقراءة السجل؛ فلقد كانت شيطانة، ولا شك في أنها تتمتع بالمهارات المطلوبة لقراءة لغة الشياطين.

لكنني لم أكن مستعدة للوثوق بأي منهم بعد.

ودون أن تدرك فاونا تقييمي الصامت للموقف وأفكاري الشاردة، أخذت ترمقني سريعًا، ثم قالت: «إنك تبدين جميلة يا إيميليا».

رددتُ في تحفظ: «وأنت أيضًا». بدت متألقة في رداء فضي كأنه مصنوع من معدن سائل. فخطرت على ذهني صور دروع الصدر التي ارتداها القادة الرومان؛ وكان كل ما تحتاج إليه هو التنورة القرمزية أو الشملة لتكتمل الهيئة. أردفت قائلة: «إن ثوبك يشبه الدرع».

قالت: «من الأفضل أن أحتمي به من نظراتهم الفتاكة». ثم غمزت بعينها، وتراجعت إلى الدهليز، وارتسمت الجدية على وجهها: «هل أنت مستعدة؟ يجب أن نشرع في الذهاب قريبًا. فعلى الرغم من أنه يُتوقَّع أن يصل الضيوف متأخرين بعض الشيء، يمكن أن يثير التأخر المبالغ فيه الحفيظة الملكية».

خفق قلبي. فأنا لم أرَ راث مطلقًا، أو أسمع عنه خبرًا فيما عدا الرسالة المتعلقة بمظهري منذ فترة من الوقت. ولم تكن لديَّ فكرة عن رد فعله نحوي هذه الليلة: ترى كيف سيتصرَّف أمام رعاياه؟ وهل سيتجاهل وجودي، أم سيسخر مني، أم يجلسني في مقعد ضيف الشرف؟

ربما ما كان ليزعج نفسه كذلك بالحضور، أو لعله سيرمي بي إلى الذئاب، ويرى إن كنت متوحشة بما يكفي لأكشر عن أنيابي وأتعامل مع الموقف بمفردي. فبعد مواجهتنا في المكتبة، بدا دون ريب أنه يُضمر الضغينة تجاه عائلتي. وهل هناك طريقة أفضل للانتقام غير تركي وحيدة وسط قاعة تعُج بالشياطين المتعطشين للدماء؟

سألت فاونا: «هل سيحضر راث؟».

«أجل».

جذب الصوت العميق الرخيم انتباهي بمجرد أن نطق بهذه الكلمة. فتطلعت عيناي إلى عينيه. وكان راث واقفًا في الدهليز، مرتديًا حُلَّة سوداء كما يفضل عادة، وقد صارت نظرته غامضة حينما رآني. وكان يرتدي على

رأسه تاجًا من الأفاعي السوداء الممزوجة باللون الذهبي. ولو أن ظلًا فارغًا متوعدًا بُعث إلى الحياة - بمظهر خطير ومغرٍ كالخطيئة -- لكان هو دون شك.

حدثتُ نفسي بأن ظهوره المفاجئ خارج جناحي هو ما سبَّب خفقان فؤادي، وبأنه لا يتعلق بتاتًا بالأمير الوسيم، أو الوميض العدواني في نظرته. تلك النظرة التي كانت مصوَّبة نحوي دون ما حولي، وتوحي بأن النيران لو شبت في ذاك العالم، ما كان ليكترث قيد أنملة. كان ثمة شيء في الطريقة التي حدق بها حتى ...

حينئذ استدارت فاونا لترى من الذي جذب انتباهي، ثم انحنت احترامًا من فورها قائلة: «سمو الأمير».

قال راث: «فلتتركينا».

بنظرة تعاطف خاطفة انسلت فاونا سريعًا عبر الدهليز، واختفت عن ناظريَّ. وفور أن انقطع وقع قدميها بالحذاء ذي الكعب، دنا راث مني، ونظره المتمعن ينزلق من تاج عظام الحيوانات على رأسي إلى خاتمه في إصبعي، ثم إلى الأسفل حتى أخمص قدمي، قبل أن يرفعه لأعلى مجددًا. ريثما انتهى كنت أبذل قصارى جهدي لأحافظ على انتظام أنفاسي.

لم أستطع أن أحدد ما إذا كان الطمع، أو الغضب، أو الشهوة هو ما لاح في عينيه. ربما كان مزيجًا من الثلاثة. بدا حينها كأن العالم السفلي لا يختبر رغباتي ويثيرها فحسب، وإنما يخوض ضدي معركة أيضًا على حين غرة.

عندما انتهى أخيرًا من فحصه الدقيق لمظهري، صب تركيزه عليَّ. فسرت في جسدي رعدة طفيفة حينما التقت نظراتنا وظللنا يرنو أحدنا إلى الآخر.

لم تكن سوى شحنة من الكهرباء الساكنة التي يشعر بها المرء حين تحتك قدماه ويلمس معدنًا في يوم جاف، فيما عدا لا، بل كانت في الواقع أكثر من ذلك.

كان هذا شعورًا يشبه البادرة الأولى لعاصفة هوجاء وشيكة، وأنت في حيرة، أتقف على قدميك ثابتًا أم تركض باحثًا عن ملجأ. كانت الحال كما لو كان الهواء بيننا أمسى ثقيلًا وقاتمًا ينذر بهياج الطبيعة. وإذا أغمضتُ عينيَّ،

فربما استطعت أن أتخيل الرعد يجعل أسناني تصطك ببعضها، بينما تعصف الريح من حولي مهددة بجرِّي إلى قلب دوامة عنيفة والتهامي. كانت عاصفة من النوع الذي يمحو المدن من فوق الأرض، ويدمر العوالم.

لكن راث تحكَّم في كل تلك الفوضى بنظرة قوية من عينيه.

قال: «إنك تبدين كجائحة جميلة».

ضحكت محاولة أن أهدئ من التوتر الغريب الذي ساد بيننا. وجعلني اختياره للكلمات أتعجب من مدى براعته في قراءة عواطفي. إذن لعل أيًّا من أسراري لم يكن في مأمن منه في يوم من الأيام. قلت: «إن حلم كل امرأة أن توصف بكونها كارثة طبيعية».

قال: «إنك ثوران عنيف، أعتقد أن هذا الوصف يناسبك».

لاحت ابتسامة على صفحة وجهه البهي. وطلب مني أن أستدير، فالتفتُّ ببطء لكي يراني من كل النواحي.

كان ظهر الرداء فاضحًا كناحيته الأمامية، إذ كان يكشف جسدي حتى أسفل ظهري. وكان ثمة سلسلة ذهبية رفيعة تصل بين كتفيَّ، وتتدلى متأرجحة كالبندول على ظهري، وكانت تلك هي قطعة الحلي الأخرى التي أرتديها بخلاف خاتم راث.

كنت أرهف السمع، فتهادت إلى أسماعي أخف همسة من أنفاسه، بينما كان يتنفس بحدة، فغمرني شعور شبيه بالرضا.

كنتُ قلقة من أن يخجلني ما انكشف من بشرتي بشكل كبير على جانبي جسدي، ومن انسدال الرداء على نحو جذاب على كل منحنيات جسدي، لكنني شعرت بالعكس. شعرت بالقوة. والآن صرت أفهم لماذا انتقى راث ملابسه بتلك العناية. لقد جذبت الانتباه دون حتى أن أنبس ببنت شفة.

لقد كنت في رهان وأنا أرتدي الثوب - محاولة الحكم عليه بناء على نقاط السخونة في ظهري، وما تخيلته من انعدام قدرة راث على رفع عينيه عني - وأعتقد أنني كسبت الرهان. أثناء المأدبة، كنت أود أن تتجه جميع الأنظار نحوي بينما أسير، وأن تخفت جميع الأصوات، وتتوقف المحادثات. ما كنت

لأتوارى خلف الأعمدة، وأتسلل في الخفاء. وإذا كان رعايا راث يشبهونه، فلا بد ألا يروني ضعيفة. إنهم سيشتمون خوفي كسرب من أسماك القرش التي صادفت قطرة دماء في البحر، وسيهجمون عليَّ بعنف تلك الأسماك الوحشية نفسه.

هممتُ بأن أدور مجددًا، لكن راث أوقفني بلمسة خفيفة على كتفي. وتألقت بشرته العارية أمام بشرتي، وقال: «انتظري».

لا أدري أكان أسلوبه الحاني في قول تلك الكلمة، أم الشعور بالدفء في صوته هو ما أوقفني، لكنني أطعت رغبته. وقد جمع شعري بحرص وأماله إلى جانب واحد، تاركًا الخصلات تنساب على كتفيَّ وتداعبهما، فزممتُ شفتيَّ. لقد كانت كتفاي مرهفتي الشعور أكثر مما كنت أعتقد، أو لعلها طريقة راث في الدنو مني، حتى شعرت بدفء جسده يشع على بشرتي، فاشتاق جزء ضئيل مفتون من ذاتي للشعور بالمزيد.

طوَّق عنقي بقلادة، شعرت بثقلها يستقر على جسدي، وأخذ يحكم غلقها ببطء أكثر من اللازم. لكنني لم أعترض أو أبتعد.

وحينما انتهى، مرر أنامله على ظهري، متتبعًا أثر السلسلة الرفيعة، ما جعلني أنتفض بشكل طفيف لا شعوريًا. وفي تلك اللحظة احتجتُ إلى حشد كل ذرة من عنادي لكي أتجنب الاستسلام والميل إلى ملاطفته، ولكي أتذكر كراهيتي إياه. ذلك أنه لا شك في أن تلك كانت حقيقة مشاعري: لهيب المقت المُحتدم الطاغي على كياني كله.

استدرتُ على مهل حتى صرنا وجهًا لوجه مجددًا. فارتخت نظرته، واستقرت على القلادة، وأخيرًا غضضتُ بصري لأرى ما ألبسني إياه. عندئذ شهقت بحدة إذ أبصرتُ قرني الفضي. وسألته: «هل إبليس يعلم بأمر منحك هذه التميمة لي؟».

لم يرفع راث طرفه عن التميمة، وقال: «فلتعتبري أني أعرتك إياها فحسب».

قلت: «وهل يمكنك فعل ذلك، ألن ينتقم منك؟».

نظر راث إلى ناحيتي الدهليز الخاوي قبل أن ينظر إليَّ مجددًا، ثم قال: «وهل ترين أحدًا يحاول أن يمنعني؟» أومأت برأسي نافية، «إذن فلتتوقفي عن القلق».

قلت: «بالتأكيد أنا لست ...»، امتعض راث بينما خفت صوتي شيئًا فشيئًا دون أن أكمل الكذبة التي كنت على وشك التفوه بها. فأطلقت نفسًا هادئًا، وتابعت: «لا يعني ذلك ما تعتقده. فلتتوقف عن السخرية».

- «إذن، ما الذي تظنين بالضبط أنني أعتقده؟».

- «لا أكترث بما تعتقده. لقد قررت ببساطة أن أكون ودودًا مؤقتًا، كما أنني أتقبل وضعنا الحالي فقط حتى أنتقل إلى بيت برايد».

- «هل أنت واثقة بذلك؟».

- «أجل».

- «إذن، فلتخبريني بأنك تكرهينني، وأنني ألد أعدائك، بل فلتقولي إنك لا ترغبين في تقبيلي».

- «أنا لستُ مهتمة بالاشتراك في تلك اللعبة». رفع راث حاجبه منتظرًا، فأدرت عينيَّ في ضيق من عجرفته، وقلت: «حسنًا، أنا لا أرغب في تقبيلك، أيرضيك هذا؟».

تألقت نظرته بومضة تنم عن التفهم. وأدركت بعدها بثانية واحدة حقيقة ما فعلته؛ وما فهمه هو في اللحظة التي غادرت فيها الكلمات شفتيَّ الغادرتين. تقدَّم إلى الأمام بينما تراجعت إلى الخلف على الفور، مرتطمة بالجدار.

مال راث نحوي وأحاط بي، وعلى وجهه تعبير يكفي لإشعال نيران مستعرة، وقال: «كاذبة».

وقبل أن أحفر لنفسي قبرًا أعمق، اقترب ثغره من ثغري، وسرق أنفاسي، ومعها أية محاولة أخرى للإنكار، بالسهولة نفسها التي سرق بها روحي من قبل.

التاسع

نجحت قُبلته في تحقيق الغاية منها وسحرتني. تمامًا كما كان يريد. فلم تكن متعجلة، أو قاسية، أو نابعة من الكراهية أو الغضب، بل كانت جمرة ملتهبة تعد بالنيران التي ستأتي من ورائها. وعندئذ تذكَّرت أنه ليس ملاكًا، وفجأة رغبت في أن تصيبني لعنته.

فليذهب هذا العالم وألاعيبه الشيطانية إلى الجحيم. لم أتمكن من إنكار ميلي نحوه، والآن لم يعد هناك مكان لعهد الدم مع إبليس. لقد تلاشت الخطبة والالتزامات نحو عائلتي، ولم يتبقَّ سوى هذه اللحظة، وهذا الأمير الشرير، والنزوة المتفاقمة بيننا.

كانت مشاعري متأججة بقدر مشاعره نفسه. وليتني كنت أكرهه، وليتني لم أستسلم لعواطفي. لقد كان اندفاعه في مشاعره بمنزلة اعتذار واشتياق ورفض شديد للخضوع إلى أية عواطف حقيقية في آن واحد. وكانت عواطفي البدائية هي ما يحركني دون تدخل من عقلي. ولم أدرِ أكان استسلامي لهذا الشعور الجامح هو ما يخيفني أم ما يفتنني.

سألته: «هل هذا حقيقي؟».

أجاب: «أجل».

لقد رغب في أن أنسى من أنا، وما كان عليَّ فعله. أردت أن أهجر كل الآلام والأحزان التي دائمًا ما أحاطت بي. لم أرد سوى أن أضل في عالم النسيان. وكان راث قادرًا على منحي ذلك وأكثر.

قال: «بإمكانك أن تدمريني».

قلت: «كلما كان ذلك أسرع كان أفضل ما دمت لا تريد أن تتوقف عن الحديث وعن تقبيلي».

- «إنك تحبينني أيتها المخلوقة الملائكية».

ابتسم وقبلني مجددًا وهو يقبض بيديه على يديَّ، فأدركت حينها أنه ليس وحده المعرَّض لخطر التدمير. عندئذ مرر يده على رقبتي فشعرت بقشعريرة ضئيلة على بشرتي. فقد كدتُ أنسى أنه وسمني لكي يمنحني طريقة لاستدعائه دون استخدام خنجره. ذاك الوسم الضئيل الذي لا يكاد يُرى، الذي وخزه على جسدي على شكل «S». لقد قالت نونا إن الوسم كان شرفًا رفيعًا، وأنه نادرًا ما يُمنح أحد إياه.

إنها لم تكن راضية.

عدت على الفور إلى رُشدي، وشعرت كما لو أن سحر هذا العالم تراجع كالبحر وقت الجزر، وانحسرت أمواجه التي كادت تفتك بي. فأرخى راث قبضة يده عني برفق، وهو يشعر بتحوُّل مشاعري.

تساءلت بصوت واهنٍ من أثر ما حدث بيننا: «لماذا؟».

قال: «لم أعتقد أنك تفضلين وجود جماهير تشاهدنا».

حينئذ مرت بخاطري صورة مخزية له وهو يقبلني على طاولة مأدبة العشاء. كان مشهدًا حيًّا إلى حد أنني أستطيع أن أُقسم أنني سمعت أصوات صدمة الضيوف من أن أميرهم أظهر لي مدى خطيئته، وأصوات الأقداح وهي تتكسر، والشوكات تتناثر على أرق الصحون الخزفية الشيطانية، بينما قادنا راث نحو الهاوية، دون أن يبالي بمن يتطلعون إلينا.

ازدردت ضحكة عصبية. إن مثل هذا الظهور سيترك انطباعًا لن يكون من السهل أن ينساه بيت راث قريبًا. لكنني أخفيت تلك الأفكار الفاضحة عميقًا في داخلي.

قلت: «ليس هذا ما قصدته، وأنت تعلم ذلك».

ومع أنني تعجبت أيضًا من اتخاذه قرار تقبيلي في ذاك الوقت.

كشف عن أسنانه فيما يشبه الابتسامة، ولاح في عينيه بريق يفصح عن إدراك ما أعنيه، بل عن المراوغة. ولم يكن بوسعي سوى هز رأسي، ورفع شفتيَّ تعجبًا. إذن، لقد أحرزتُ تقدمًا، وإن كان ضئيلًا. أو ربما تعلمت أخيرًا أن أقرأ أفكاره على نحو أفضل. ومع أن الشك راودني - في تلك اللحظة تحديدًا - في أنه لم يحاول إخفاء الكثير عني. لم أرد أن أدع الحذر يُفسد اللحظة.

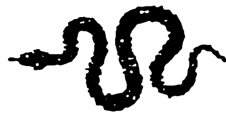
أردفت وأنا أومئ برأسي: «كنت أتحدث عن الوسم الذي صنعته على جسدي، وليس ما ظننته».

تمعن راث في وجهي دقيقة ساد فيها التوتر، تلاشت خلالها آخر أمارات الهيام عن صفحة وجهه، واستعادت عيناه جمودهما. ثم نفض كتفيه كما لو كان يلقي عن نفسه التوتر الذي ساد بيننا.

مد راث ذراعه نحوي، وقد زالت كل آثار العاطفة من محياه.

وصار الذي يقف أمامي هو أمير الجحيم البارد القاسي.

قال: «لا يمكننا أن نتأخر أكثر من ذلك، حان وقت مقابلتك حاشيتي».



كان وصولنا إلى الأبواب الضخمة المُطعَّمة بالعظام لقاعة الطعام الملكية ضبابيًا وكأن على عيني غشاوة. لا أستطيع أن أتذكر ما إذا كان راث قد حدثني أثناء سيرنا الذي بدا أبديًا هنا، أم أنه رافقني في صمت مطبق. أرجح

أنه كان الاحتمال الثاني؛ إذ لم أستطع أن أتخيله يفعل شيئًا تافهًا كالسؤال عن أحوال يومي أو عن الطقس.

ما كنت سألاحظ ذلك على أية حال.

تردد في صدري شعور غريب؛ القليل من سلب الإرادة، أو الانزعاج، أو مزيج منهما. في البداية ظننت أنه ذعر يتردد بين أضلاعي، وخوف مما دار بيننا من فورنا، لكن ذلك لم يكن صحيحًا. لقد كان هذا الشعور يتجمع ببطء، وينتقل من قلبي كنهر ملتوٍ عبر الجانب الداخلي لذراعي.

التفت راث نحوي، وهو يقطب حاجبيه بشدة.

نظرت إلى الأسفل، إلى ما كان يحدق إليه، فرأيت تميمتي تشع بذاك اللون الأرجواني الشاحب العجيب. وقد حدث ذلك مرتين من قبل. مرة حين وجدتُ راث للمرة الأولى واقفًا بجوار جثمان أختي، والمرة الأخرى عندما عثرت على تميمتي شبه مدفونة في نفق بعد أن سُرقت. ومباشرة قبل هجوم شياطين الظل غير المرئيين، وطعن إنفي خنجره عميقًا في جوف راث.

قبضت يدي حينما تذكرت كيف جفت دماء راث عليهما، وتسرب الدم إلى ما تحت أظافري. كان شعورًا طاغيًا بـ ...

قال راث بنبرة عميقة هادئة: «تنفسي، إننا سنتبادل التعارف فقط ثم بإمكانك أن تغادري إن كنت لا ترغبين في البقاء وتناول العشاء معهم».

قلت: «أنا لستُ متوترة».

دُهشت لاكتشاف أن ذلك الادعاء حقيقي. فتركت ذراع راث، ولمست بأناملي معدن التميمة البارد لأستمد الراحة منها، وهي عادة قديمة لم أتركها قط على الأرجح. إنهما قرنا إبليس، ذكرتُ نفسي بذلك، وأنا أرتجف قليلًا؛ إذ ليس هناك تميمة تدفع الشرور وتحمي منها. فهذه القلادة لم تعد التميمة البريئة كما كنت أتصورها طيلة حياتي.

عندما لمستها، سرى في جلدي تيار ضعيف، لكنه أزعجني بما يكفي لسحب يدي. وكان هذا الإحساس جديدًا. فسألت راث: «هل رأيت ذلك؟».

أومأ راث دون أن يرفع ناظريه عن قرن إبليس الصغير. وكان القلق لا يزال باديًا على ملامحه، وقال: «هل بإمكانك أن تستمري في ارتدائه أثناء المأدبة؟».

أجبته: «بالطبع، لقد ظللت أرتديه لما يدنو من عقدين من الزمن».

- «إذا شعرت بأي شيء غير مريح، فلتخبريني على الفور».

بدا أن راث على وشك قول شيء آخر، لكنه غيَّر رأيه في اللحظة الأخيرة. حينئذ تسارعت خفقات قلبي، فسألته: «ماذا تقصد بغير مريح؟».

- «أقصد أي شيء غير مألوف، مهما بدا بسيطًا أو عديم الضرر».

كنت على وشك إخباره بإحساس الوخز، لكنه تلاشى قبل أن يلفظ لساني بالكلمات. إذ ربما كانت أعصابي متوترة. فقد سافرتُ إلى العالم السفلي بصحبة واحد من الأشرار، وعقدت صفقة دموية مع إبليس، وكنت على وشك مقابلة حاشية أمير الغضب من الشياطين مدبري المكائد.

ذلك فضلًا عن استسلامي التام منذ برهة لشخص غير الذي خطبني، وشفتاي شاهدتان على هذا الجُرم. فعلى الرغم من أن مشاعري تجاه راث كانت غاية في التعقيد، فإنني لم أكره قبلته. بل بدا في الواقع أنها كشفت عن حقيقة لم أرد أن أتصدى للتمعُّن فيها. لقد سألني عما إذا كنت أستطيع أن أتزوج أحدًا أكرهه، وبينما كان عقلي لا يزال متأججًا بالغضب من خيانته، ها هو كياني قد اهتز للمسة من يده.

لم أتصور أن برايد كان ليتلقى أخبار لقائي الغرامي بأخيه على محمل طيب. ومن يدري فلعل لديه جواسيس في هذا البلاط، متلهفين ومستعدين لنقل أية شاردة وواردة؟ وعلى الرغم من أنني لا أمانع في أن أغرس بذور الشقاق بين البيتين، فإنني لم أرغب في مجافاة خطيبي وإفساد فرصة حل مقتل فيتوريا. وهكذا كان لديَّ كل العذر في الشعور بالتوتر والقلق، بل الغريب هو ألا أشعر بذلك.

مال راث نحوي وربت عنقي بأنامله، وكان صوته دافئًا حنونًا كلمسته. وأيًّا كان السحر الذي مد وسم استدعائه بالطاقة، فقد بث الهدوء في نفسي على الفور. وقال راث: «هل أنت مستعدة؟».

أومأت إيجابًا. فتفرَّس في وجهي، ولا بد أنه رأى أنني كنت متأهبة بالفعل لدخول بيت راث. ودون سابق إنذار، دار على عقبيه وركل الباب.

مد راث ساقه بين مصراعي الباب اللذين ارتطما بالجدار، فدوى وقع خطواته كهزيم الرعد الذي بدد الهدوء المطبق. حينئذ حبست أنفاسي؛ إذ لم أكن أتخيل قط أن مشهد دخولنا المهيب سيكون هكذا. ففي ظل ولع راث بالملبس الأنيق والسلوكيات التي لا غبار عليها، ظننتُ أنه سيكون أكثر لطفًا وتهذيبًا. إذن كان عليَّ أن أعرفه أكثر قبل أن أفترض أي شيء عن شخصيته.

فور دخولنا، جثا حشد من الشياطين ذوي الملابس الأنيقة على ركبهم، ورؤوسهم منحنية، وخاشعة عيونهم بينما سار راث في اختيال على مهل إلى داخل القاعة. توقف داخل قاعة الطعام الفسيحة منتظرًا إياي حتى أصل إليه. وكانت خطواتي متمهلة وثابتة، على النقيض من نبضات قلبي.

شعرت بأن الزمن قد توقف، وأنه لم تمر سوى ثانية واحدة في الوقت ذاته قبل أن أعبر القاعة، وردائي يصدر حفيفًا فوق الحجر، ثم أتوقف بالقرب من أمير الغضب.

حينما تحدث، كان صوته مفعمًا بالهيمنة والقوة الملكية، إذ قال: «فلتنهضوا وتحيوا صاحبة السمو إيميليا ماريا دي كارلو، ملكتكم المقبلة».

لا بد أن الإلهات كُن يغمرنني برعايتهن، إذ تمكنتُ من استيعاب صدمتي دون أن يظهر ذلك عليَّ. التفتُ في وقار نحو راث، وفي عينيَّ سؤال. فلم يخبرني أحد عن جزء «صاحبة السمو» ذاك. لقد تصوَّرت أن ذلك سيحدث بعد التتويج، أو ما يضاهيه في عالم الشياطين. اختلج جانب ثغره قبل أن يعود وجهه إلى المظهر الجاد مجددًا، ويوجه خطابه إلى هذا الحشد من الشياطين الفضوليين بتلك النبرة الرصينة الصارمة.

قال: «فلتتذكروا ما قلته عن الاحترام. فالسيدة إيميليا ارتفعت مكانتها، بصفتها الزوجة المنتظرة لأحد أمراء الجحيم، ولن تخاطبوها بعد الآن إلا بلقب «صاحبة السمو» أو «سيدتي». وعلى من يجرؤ على إهانتها، أن ينتظر الجزاء مني».

كان راث يحدق إلى أحد السادة تحديدًا، فافترضتُ أنه ذاك الذي قالت فاونا إنه تلقى الوعيد بالفعل. ما كنت لأريد أن تُصوَّب مثل تلك النظرة نحوي في يوم من الأيام؛ إذ كانت باردة إلى حد بث الرعب والارتجاف في النبلاء المحيطين. لكن بدا أنهم ليسوا من نوع الرعايا الذي يسهل ترويضه أو إخضاعه.

أردف راث: «فلتعدوا هذا تحذيري الأخير».

توجَّه راث إليَّ حينها، ومد ذراعه نحوي. فوضعت يدي في ذراعه المنثنية، ورفعتُ ذقني. سرنا جنبًا إلى جنب حتى طاولة ممتدة في نهاية القاعة، ومن ثم تنقلت بعينيَّ في أرجاء القاعة دون أن ألفت الأنظار، محاولة استيعاب ما يحيط بي. كان ثمة بساط معلق على الجدار البعيد، يصور ملاكًا محاربًا في معركة ضد الشياطين. وعند قدميه رؤوس مفصولة عن أجسادها، ودماء متناثرة، وعيون مبيضة. ويا له من اختيار رائع لغرفة طعام!

أشحت ببصري عن هذا المشهد. فرأيت أن الطاولة التي كنا متجهين نحوها مصنوعة من قطعة صلبة من الخشب العتيق الفخم. وفي وسطها وُضع إكليل من النباتات المتنوعة دائمة الخضرة، بالإضافة إلى شمعدان حديدي ذي أذرع طويلة رفيعة امتدت إلى أعلى النباتات مباشرة. وزُيِّنت الطاولة من بدايتها حتى نهايتها بشموع صفراء فاتحة وذهبية مدببة الأطراف، فشعت ببريق مرتجف يبعث على الارتياح. وكانت الصحون الخزفية السوداء موضوعة قبالة المقاعد الذهبية، كما أن أدوات المائدة كانت مصنوعة من الذهب المصقول نفسه. كان المكان مفعمًا بالأناقة البسيطة في أبهى صورها. وكان الطابع الذكوري سائدًا، لكن بلمحات دافئة غير متوقعة، بما يليق بأمير محارب. وقد أعجبني هذا الطراز كثيرًا.

انعطف رات نحو منتصف الطاولة حيث وُضع المقعدان الأكبر والأفخم. لم يكونا ككراسي العرش تمامًا، ولكنهما قريبا الشبه منها. وعلى عكس ما أعرفه عن القاعات الملكية البشرية، لم نكن سنجلس عند طرفي الطاولة المتواجهين، بل عند وسطها، والجميع منتشرون حولنا. كما كان هنالك صفان من طاولات خشبية مشابهة، ولكنها أصغر على كلا جانبي القاعة، بحيث يوجد ممر لنا لنسير فيه.

لم يكن بجوار هذه الطاولات مقاعد ذهبية؛ وإنما مقاعد من الخشب المصنوعة منه نفسه. وجميعها كان عامرًا بالكثير من الشموع من أولها لآخرها، ما جعلها قلبًا متوقدًا لأكثر حلقات الجحيم برودة.

تقدم الخدم الذين لم أكن قد لاحظتهم وهم يتسكعون بالقرب من الجدار، لكي يسحبوا مقاعدنا برشاقة، بينما أوشكنا على الاقتراب من الطاولة. وانتظر رات ريثما جلست قبل أن يجلس هو الآخر. وسرعان ما سُكب الشراب الداكن في قدحين وُضعا أمامنا.

طفت حبات الكرز المتجمدة على سطح الشراب فبدت ساحرة ومُغرية. حينها كنت على وشك أن أسأل لماذا لم يجلس أي أحد من الحضور، لكنني لم أنبس ببنت شفة.

كان انتباه رات متركزًا عليَّ بالفعل، وكانت عيناه تلمعان في ضياء الشموع. خفت كل ما كان موجودًا، وصار ظلالًا. وبدا كما لو أننا الوحيدان في القاعة، بل في ذاك العالم برُمته، فلم أستطع أن أمنع مخيلتي من العودة إلى ما كنا عليه من قرب وهيام حتى كدت أفقد شعوري بالواقع الذي يحيط بي. تمامًا كما يحدث لأبطال أفضل رواياتي الشاعرية الذين يتسمون بالخفة والانقياد وراء مشاعرهم ورغباتهم.

ما أسخف هذا العالم وإيعازه باقتراف الخطايا! فمن بين جميع أوقات إغوائه وسحره الخادع، كان هذا الوقت هو الأسوأ على الإطلاق. ومع ذلك لم أكن مندهشة. فلقد قال رات إن هذا العالم يحس بمواطن الصراع ويبرزها. ومن المؤكد أنني كنت أقاوم عواطفي الداخلية.

وحتى أستطيع كبح جماح حربي الخفية، كنت سأظل فريسة في براثن تلك النوازع المُخزية.

جذبت تركيزي بصعوبة من راث، وتململتُ في مقعدي، وأنا أنظر إلى الشراب. إذ كان سيساعدني على تشتيت انتباهي، أو يحوّلني إلى مخلوقة متوحشة، تنشب مخالبها في ملابس الأمير. وكان التفكير في ملابسه خطأً فادحًا؛ إذ سرعان ما قادني إلى تصوره مجردًا من قميصه. يا للهول، لقد كان انجذابي المحرم يتفاقم لحظة تلو أخرى.

ربما عليَّ أن أطلب الإذن لاستنشاق الهواء المنعش، فأخذت أجيل النظر باحثة عن شرفة أو منفذ ما. كنت في حاجة إلى أن أهدأ دون توانٍ. فبعد تقديمي الملكي، لم يعُد يخفى على أحد هنا أنني مخطوبة لشقيقه. ولن يكون من اللائق أن أظهر ولعي بهذا الأمير، بينما كنت على وشك الزواج بملك الشياطين.

دنا راث مني، وشفتاه تكادان تلامسان أذني، وشعرت به يبتسم. كان صوته خفيضًا حتى لا يسمعه سواي وهو يقول: «بكلمة منك أبعدهم جميعًا من هنا».

تأججت مشاعري، وقلت: «هل أبدو عصبية؟».

قال: «إنني واثق بأن ما أحس به لا علاقة له بالأعصاب».

تصاعدت الدماء إلى وجهي، فلم تكن لديَّ فكرة عن أنه يستطيع الشعور بأدق أحاسيسي. فلتلعني السماء. إن هذا العالم سيكون قبري لا محالة. ومن ثم حاولت بصعوبة أن أعيد أفكاري إلى سبب مجيئي إلى هذا العالم. فلم يكن الإغواء أو الرغبة هما ما جعلني أوقع على بيع روحي، وإنما السعي وراء الثأر، إنه الغضب. وهذه المشاعر كانت أقوى من أي سحر يحث على الخطيئة.

قربت شفتيَّ من أذنه وقلت: «هل تشعر بالسكين الذي أفكر الآن في طعنك به يا صاحب السمو؟».

- «إذا كانت هذه محاولة لتغيير الموضوع، فأنت فاشلة إلى حد بائس».

ثم دس يده أسفل الطاولة وربت في رفق ركبتي في إعلان غير لفظي بكشفه

أحدث أكاذيبي. وأردف: «إنني أكثر اهتمامًا بما قد يفضي إليه ذلك سيدتي. أنسيت ما الخطيئة التي أهيمن عليها؟ ستجدينني مغرمًا باللعب بالسكاكين».

- «إن رعاياك يحدقون إلينا».

بيده الخالية التقط قدحه، وارتشف رشفة طويلة على مهل. وكان يتصرف كما لو أننا نستمتع بالشراب معًا كي لا يلاحظنا سادة الجحيم وسيداته.

أنزل القدح وأمعن النظر في الحشد الصامت المراقب، وقال: «فلتتفضلوا بالجلوس».

لم أرغب في الاعتراف بذلك، ولو بيني وبين نفسي، لكن لمسته جعلت أعصابي تحت السيطرة، بينما جلس أفراد الحاشية جميعًا. كان من الصعب أن أركز على الخوف ويده تربتني، وتجذب انتباهي بعيدًا عما يحدث. تخيلتُ أنه يحاول أن يهدئني، لكن لمسته أحدثت تأثيرًا عكسيًّا، فتسارعت دقات قلبي.

لم يبدُ الأمير اللعين متأثرًا قيد أنملة. ثم طرق سمعي صوت يقول: «يسعدني أن أقابلك أخيرًا يا سيدتي إيميليا. إنك تبدين كالإلهة هذا المساء. امرأة فاتنة حقًّا تليق بكل المحسور».

توترت يد راث على ساقي، قبل أن يسحب إصبعه ببطء بطول الطبقة الخارجية لردائي. حينئذ رفعت نظري عن الأمير. وعلى الناحية الأخرى من الطاولة، أبصرت شيطانًا فاتح الشعر واقفًا خلف مقعد راث، يبتسم ابتسامة عريضة. لقد كان الشخص الذي حملق إليه راث منذ دقائق. فلم أبادله الابتسامة، وقلت: «آسفة، لا أظن أننا تقابلنا من قبل. من أنت؟».

أجاب: «اللورد ماكادين يا سيدتي؟».

إذن، كان هو بالفعل الشيطان الذي تلفظ بتعليقات وقحة. وبعدئذ جلس وشرع على الفور في الثرثرة مع السادة والسيدات الجالسين على جانبيه. وقد انضم إلينا المزيد من النبلاء حسني المظهر، ثم قُدِّمت أطباق الطعام دون إبطاء.

كانت عامرة بشرائح اللحم المغطاة برقائق من المعجنات، والخضراوات الجذرية المشوية والمتبلة بالأعشاب، فضلًا عن الخبز المحمص برائحة البهارات الذكية. وأوعية تقديم مملوءة بمرق اللحم الغامق، والصلصات المتنوعة. لم يكن أي من تلك الأصناف مألوفًا لي، أو يذكّرني بمنزلي، لكنها في الوقت نفسه لم تكن مختلفة كثيرًا كما كنت أخشى. فقد كنت أسررتُ في نفسي مخاوف من الحيوانات الغريبة ذات الأعين العديدة، وأحشاء الذبائح النيئة. لكن ما رأيته كان مصدر ارتياح كبير حقًّا.

أخرج راث يده من أسفل المائدة ليفاجئني بتقطيع اللحم، وملء طبقي بقطعة من كل صنف موجود على المائدة. كان السادة والسيدات يراقبوننا من طرف خفي، بينما تمتع بعضهم بالجرأة الكافية التي مكّنته من الهمس. وقد راودني شعور بأن هذا لم يكن سلوك الأمير المعتاد. لكنه تجاهلهم، على الرغم من شعوره، دون شك، بملاحظتهم إيانا وتأملهم الصامت.

سألني: «هل ترغبين في المزيد من الصلصة يا سيدتي؟».

انتبهت إليه على الفور، ونبضاتي تتصاعد. لا شك في أنه كان يقصد الاستعراض، لكن لم تكن لديَّ أدنى فكرة عن المستفيد من تصرفه ذاك. وبهدف مواكبة مخططه، أومأت برأسي قائلة: «كلا، شكرًا لسموك».

بدا أن مناداته بلقبه أسعدته، مع أنني شككتُ في أن انحناءة شفتيه الطفيفة قد لاحظها أي من الحاضرين. وبعد أن اهتم بطبقي، وضع كميات سخية في طبقه هو، ثم شرع في الحديث مع السيد الجالس على يساره.

كان ذلك السلوك هو ما توقعته من قبل؛ الأمير ذو الخلق الذي يحتذى، وليس الهمجي الذي ركل الباب منذ برهة. ومع أن كلا طبعيه كانا فاتنين. فلتساعدني الإلهة؛ إذ لم يكن هذا وقت الافتتان به على الإطلاق.

أنصتُّ في تأدب للسيدة النبيلة التي كانت بجواري، بينما راحت تشكو من خادمتها، ثم من حموضة معدتها، وبساط الحائط الذي التهمته العثة في قاعة الاستقبال الخاصة بها.

تركتها تتحدث بحرية عن كل ما أغضبها، بينما تناولتُ الطعام. ولقد دار اهتمامها حول وشمي والتميمة، واستقر أخيرًا على الخاتم في إصبعي، لكنها لم تسأل عن أي من ذلك. وهكذا لم يتطرق أحد إلى أي موضوع مهم حتى ذاك الوقت، وظننت أنني لم أنجح في جمع الكثير من المعلومات من أي ثرثرة هامشية. فالليلة كانت الحاشية في أحسن أخلاقها.

لم أكن متيقنة إذا كنت راضية، لكن على الأقل كان الطعام جديرًا بتكبد العناء. وكان اللحم لينًا كالزبد ومذاقه ممتعًا، حتى إنني بذلت قصارى جهدي للتركيز على الحوارات الدائرة، وعدم الانغماس في نكهات الطعام. فأيًا كان مَن طهى هذا الطعام، لا بد أنه بارع إلى أقصى درجة. وكنت أود أن أراه في المطبخ وكتابة الملاحظات. وربما أعبث وأضع لمساتي الخاصة على الصلصة، وإضافة القليل من الملح البحري والأعشاب على المعجنات الرقيقة لإكمال نكهات توابل اللحم.

في عدة مرات شعرت بتحديق فضولي، فنظرت لأجد السيد ماكادين يسلط تركيزه على صدري. ودل تعبيره الفج على أنه لم يكن ينظر إلى تميمتي. تجاهلته كما فعل رات. فالحشرات أمثاله يجب أن تظل دون اكتراث. مع أن تلك المقارنة مُجحفة حقًّا بالحشرات المسكينة.

توقفت المرأة الجالسة بجواري - أو السيدة أركالين كما أخبرتني أخيرًا - عن تسليتي بشكواها الناقمة بعد مدة طويلة، لتسألني: «هل قابلت أحدًا من الحاشية غير موجود بمأدبة الليلة؟».

قلت: «أجل، قابلت السيدة فاونا في المكتبة».

أصدرت السيدة أركالين صوتًا ينم عن اللامبالاة، وتحولت إلى الشيطان الجالس على الجانب الآخر.

في ظل كل تلك الأحداث، نسيت أمر فاونا. ارتشفت شرابي، وجلت ببصري في أنحاء الغرفة، فاندهشتُ لرؤيتها تتبادل الحديث مع أنير وشاب شيطاني آخر عند طرف مائدتنا. ومن سوء الحظ أنهما لم يجلسا بالقرب منا؛ إذا كان حريًا بذلك أن يكون أكثر إمتاعًا.

قبل أن أتمكن من تأمل الشعور بالصداقة مع أي من حاشية راث، مال اللورد ماكادين عبر المائدة، وهو يرنو في جرأة إلى شفتيّ. ويُعد ذلك تحسنًا مقارنة بإمعانه النظر في مواضع أخرى من جسدي. وكان من حسن طالعه أن راث كان لا يزال مشغولًا في حواره مع السيد الجالس على يساره، وأنه لم يلاحظ نظراته الفجة. فضلت أن أتجاهل حماقته كي تمر الليلة بسلام. لكن الغد سيكون مختلفًا تمامًا.

تذوقت قطعة أخرى من اللحم والقليل من الخضراوات المتبلة بالأعشاب. وكانت طيبة المذاق حقًّا.

على حين غرة أوقفني صوت ماكادين الحاد عن إكمال وجبتي، إذ قال: «فلتسمحي لي يا سيدة إيميليا؛ هل تناولت من قبل طعامًا شهيًّا طيب المذاق مثل طعام الشياطين؟ فمع كل قطعة تبدين كأنك في قمة النشوة. لا بد أن أعترف بأنه رائع. إنني أحسد الشوكة التي بين أناملك».

واصل النبلاء الجالسين بالقرب مني حديثهم في أدب، لكنني شعرت بأنهم انتبهوا لنا. وكان سؤاله مُغرضًا يهدف إلى استدراجي، وكاد يتخطى حدود اللياقة والاحتشام. وكنت قد لاحظت معلومة تفصيلية أثناء العشاء، وهي أن ثمة موضوعات معينة تعد مشينة هنا، مثلما هي عليه في عالم البشر. لكن بدا أن الفضيحة لا بد أن تحتوي على إشارة مباشرة إلى خطايا أخرى.

لم أضيِّع فرصة الإجابة عن السؤال.

قلت: «فلتخبرني يا سيد ماكادين، هل أنت مشغول هكذا دائمًا بأفواه الآخرين؟ ربما عليك أن تعيد التفكير في بيت الخطيئة الذي تتوافق معه بأفضل صورة».

تجرع شرابه، ثم مرر إصبعه على طرف قدحه، وعيناه لا تفارقان شفتيَّ ولا لحظة واحدة. فبدأ الغضب الذي كنت أحاول جاهدة أن أكبح جماحه في الفوران ببطء كلما أطال تحديقه.

تساءلت حينها عن الانطباع الذي سأتركه في بيت راث إذا شوهت ماكادين قبل دورة تقديم الطعام التالية. ومن منطلق منع راث «العنف وإراقة

الدماء في التجمعات»، تصورتُ أن ذاك الأمر كان معتادًا إلى حد ما في وقت من الأوقات. وبصفتي ملكة مقبلة، ربما أتجنب تعرضي لعقاب حقيقي. ولعل مجرد إزالة تلك النظرة المثيرة للاشمئزاز عن وجه ماكادين هو إنجاز يستحق مواجهة غضب راث.

قال ماكادين: «لقد جرى تحذيري من التحدث عن لسانك يا سيدتي، لذا لن أعلق على حدته. لكن بما أنك أثرت موضوع الأفواه، فلا يسعني سوى التعجب. إذ يبدو أنك تستمتعين باللحم للغاية، لكن ألم يتذوق ثغرك البديع الصغير هذا لحم الديوك؟».

أطبقتُ فكيَّ بقوة، ودُهشت لعدم سماع راث اصطكاك أسناني. إن السيد مكادين لم يكن يشير في الواقع إلى لحم الديوك، مع أن كلماته كانت بارعة بحيث يمكنه التظاهر بأن هذا ما يقصده بالفعل. تنهدت ببطء، إذ إنه كان يسعى لإثارة غضبي.

لكنني أبيتُ أن أيسر لخطته النجاح.

قال: «إن لم تكوني قد تذوقته، فعلينا أن نتدارك الأمر سريعًا. لعله الليلة؟» ثم غمس إصبعه في الشراب وارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة لم تصل إلى عينيه المليئتين بالكراهية. فتخيلت سريعًا أنني أقتلع تلك الأفكار التافهة من رأسه. أردف قائلًا: «حتى إنني سأعده لك بنفسي، فلقد أُخبرت أكثر من مرة بمدى روعة ذاك الذي أعده».

شددتُ قبضتي على سكين المائدة. فلم أكن أتمنى شيئًا أكثر من غرسها في صدره. ودون تفكير متمعن في العواقب، رفعتُ السكين وهببتُ واقفة، فأحدث مقعدي الفخم صريرًا حادًا مُحذرًا عند احتكاكه بالحجر.

حينئذ ارتجت القاعة بشهقة جماعية. وكان هذا هو الصوت الأخير قبل بدء السيد ماكادين في الصراخ المبتور. انتبهتُ لأجد سائلًا دافئًا متناثرًا على صدري ووجهي. لقد أصابني الذهول، فرميت السكين، وجففتُ وجنتي. فأضحت أصابعي مغطاة بسائل أحمر.

بعدئذ بلحظة شعرت بالمذاق المعدني في حلقي. لقد كانت دماء، إنها دماء متناثرة على إكليل النباتات الخضراء على المائدة أمامي، وعلى الفور وقعت عيناي على مصدر تدفق الدماء.

أمام السيد الوضيع ارتمى لسان مبتور ومطعون.

عندئذ حملقتُ إلى سكين المائدة التي كنت أمسك بها منذ برهة، دون أن أطرف بعينيَّ، وغير واثقة بما إن كنت قد هاجمته أم لا. ثم لفت خنجر راث انتباهي. كان لا يزال يهتز من القوة التي دفعه بها عبر الطبق، ثم إلى هذه البقعة من المائدة. أطلقت شهقة خافتة، وأنا غير قادرة على النظر بعيدًا. لمعت الأحجار الكريمة الأرجوانية الشاحبة في عيني الأفعى غضبًا، أو ربما تعطشًا للدماء.

كنت قد نسيت كيف كان الخنجر عظيمًا في عطاياه.

عندئذ أعلن الأمير الشيطاني بصوت خفيض ينذر بالخطر: «لقد انتهى العشاء». وجذب خنجره الملطخ بالدماء بقوة، ثم قال آمرًا: «فلينصرف الجميع».

العاشر

سمع صرير احتكاك المقاعد بالأرضية الحجرية على الفور. ومن ثم صار أنير بجواري بعد لحظة واحدة، قابضًا على مرفقي بلطف، بينما قادني إلى خارج قاعة الطعام الملكية ثم إلى الأعلى عبر سلم خفي خلف بساط جداري مرسومة عليه حديقة نابضة بالحياة.

كنت مصدومة، فلم أعترض. ولم أنظر خلفي لأرى ما إذا كان راث يتبعنا. ربما كان مشغولاً في تقطيع ما تبقى من ماكادين، وغرس الأسياخ في أعضائه، ثم رفعها على حراب خارج القلعة، ويا لها من وجبة دسمة للطيور آكلة الجثث التي تحوم في هذه السماوات الملعونة! يا إلهتي في الأعلى. وكان الصدى الخافت لصرخات اللورد البائس لا يزال يتردد في أذنيَّ، ولقد أصابني بالرعب حتى النخاع.

سألت نفسي: «كيف؟» لم أستوعب ما حدث خلال الدقيقة الأخيرة. لقد تحرَّك راث بسرعة خاطفة إلى حد أنني لم أنتبه إلى الهجوم سوى بعد انتهائه. ثم وقف هناك يأمر الحشد في هدوء بالمغادرة، كما لو أنه لم يبتر عضوًا من جسد أحدهم بوحشية من فوره...

فركت عيني؛ إذ شعرت فجأة ببرودة لا تُحتمل نابعة من دهليز السلم.

قال أنير: «فلتنتبهي إلى خطواتك، فالأحجار غير مستوية في هذا الدهليز».

لململتُ أطراف ثوبي، وركزت انتباهي على صعود الدرجات بأقصى سرعة سمح لي بها حذائي وردائي. وكانت صدمتي تُفسح المجال تدريجيًّا لعاطفة مغايرة تمامًا؛ عاطفة أدهشتني على نحو لا يقل عن دهشتي من التفجر المباغت للعنف. فأحكمتُ قبضتي على ردائي على نحو كاد يؤلمني، كما لو كنت أخنق القماش.

قادني أنير إلى الأعلى ثنية تلو أخرى، وهو ينظر إلى الخلف بين الفينة والأخرى، ويده الخالية مستقرة على مقبض خنجره. لم أتصور أن هناك أحدًا يتسم بالتهور أو الحماقة ما يجعله يتعقب أثرنا، خاصة بعد المجزرة التي فررنا منها في الحال.

لقد انفجر راث غاضبًا من مجرد تلميح بالإساءة، فما بالنا بإقدام أحدهم على الإيذاء أو الاعتداء الجسدي، أظن أن القتل الخاطف في هذه الحال سيُعَد عطفًا ورحمة. لكن لم تكن هناك أية لمحة من العطف في قسمات وجه الأمير الشيطاني.

حنق بارد فحسب.

تُرى أيهما أسوأ؟ إن المزاج المشتعل سيحترق حتى يخبو في النهاية، لكن الجليد الذي كان يكسو وجه راث كان جامدًا وقاسيًا، ولو مرت قرون، لظل غضبه مستعرًا. خرجنا عبر نافذة خفية عند قمة السلم، فسرى في جسدي شعور طفيف بالوخز. لم يتحدث أنير مرة أخرى حتى وصلنا إلى باب جناحي.

وهناك أيضًا كانت نظرته الحادة تدور في أنحاء الدهليز الخاوي، كما لو كان يتوقع حدوث مشكلات. لكنني لم أشاركه في قلقه. كان جناحي الخاص يقع بالقرب من نهاية هذا الجناح، وكانت ثمة مجموعة أخرى واحدة فقط من الأبواب هنا. حتى إن كان لماكادين حلفاء من الشياطين الهائجين الواقعين تحت تأثير خطيئة بيتهم المختار، أي بيت الغضب، فإن راث سيمحو أثرهم دون تردد أو تفكير.

وإذا كان غضبي مصدر إمتاع له، فلا بد أن غضب حاشيته أجّج وغذّى سلطته على نحو هائل. لقد كان راث يعيش على الغضب بكل معنى الكلمة.

نظرت نحو الطرف المقابل للدهليز؛ فوجدت بوابة حديدية مزخرفة كانت قد هبطت من السقف، لتمنع عبور أي أحد يحاول دخول هذا القسم. وحينئذ شعرت بألم في فكيَّ جراء إطباقي الشديد لهما. إن حبسي بهذه الصورة لم يرعبني؛ إذ كان هناك مخرج آخر عبر النافذة السرية التي دخلنا منها إذا رغبت في الرحيل. وأظن أنها كانت مَحمية بالسحر، إذا ما اعتبرنا شعور الوخز الذي أحسست به دليلًا على ذلك. ولقد كان راث قد استخدم السحر نفسه في عالمي لحمايتي من إخوته.

إن حقيقة اتخاذه الاحتياطات في بيته الملكي الخاص لم تكن مطمئنة، لكنني كنت واثقة بعدم قدرة كائن من كان على اختراق وسائل حمايته.

قال أنير: «لقد كان ماكادين يستحق ذلك منذ عقود».

انتبهت لأنير قائلة: «أظن ذلك».

قال بصوت خافت يكاد يختفي بينما رمقني بنظرة فاحصة: «إذن لمَ أنت غاضبة؟».

لقد كان مخطئًا؛ فأنا لم أكن غاضبة فحسب، بل حانقة. ومن العجيب أن البخار لم يخرج من أذنَي.

ذلك أنه إن لم أستطع التعامل مع مخلوقات بغيضة مثل السيد ماكادين بنفسي، فلن أظفر أبدًا باحترام هذه الحاشية، أو أي أحد آخر.

كان على راث أن يكون ممتنًا لعدم وقوفه أمامي آنذاك؛ لأنني كنت سأستل خنجره الثمين وأسلطه على رقبته، وأمزق ملابسه بيدَي، ثم أستحم في دمائه الدافئة بعد أن أذبحه.

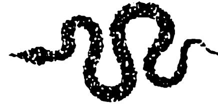
أعادتني المتعة غير المتوقعة التي شعرت بها وأنا أتخيَّل هذا المشهد الكئيب الشرير إلى وعيي. وبينما خبت ألسنة لهب حنقي، ظلت جمرات الغضب مستعرة تحت الرماد. ولم أكن مذعورة كما كان ينبغي من هذا الشعور بالتعطش الحقيقي للدماء.

لوى أنير فمه على جانب واحد. لا بد أنه قرأ التوعد بالقتل الذي لاح في عينيَّ، ووجده مسليًا. وكان حكيمًا إذ لم يُقدم على الضحك.

قال أنير: «إن جناحه الخاص يقع عند طرف هذه القاعة. فلتمنحيه عشر دقائق، أنا متأكد من وجوده هناك عندئذ».

غلب غضبي دهشتي؛ فمن الطبيعي أن يختار راث لي مكانًا مجاورًا له. لقد كان يراقب خطيبة أخيه من كثَب كالجندي الأمين طيلة الوقت، فيما عدا اللحظة التي قبَّلني فيها قبل العشاء. لكن الشك راودني فيما إذا كان ذلك الفعل جزءًا من الأوامر الملقاة على عاتقه. لكن من منطلَق معرفتي به، رأيتُ أن هذا ربما كان مخططًا مخادعًا آخر حاكَه لكي يُبقيني مشغولة ولا أثير المشكلات.

حينئذ درتُ على عقبيَّ، وصفقت باب جناحي خلفي.



قضيت الوقت في التخلص من أثر دماء ماكادين من على جسدي؛ إذ جلست أمام طاولة الزينة في قاعة الاستحمام، وأخذت أغمس منشفة قطنية في الحوض البلوري، محوِّلة الماء فيه إلى اللون الأحمر الفاتح. ومسحت الرطوبة الباقية بينما كنت أحدق إلى المرأة الصامتة الجالسة في المرآة، فلم أجد أية لمحة من الفتاة التي كنت عليها قبل مقتل شقيقتي.

لقد فنيت إيميليا تلك في الغرفة نفسها مع توأمتي، ونُزع قلبها من صدرها هي الأخرى، ولا أمل في عودتها إلى الأبد. ومهما ناضلت، وأيًّا كان من خدعتُ، وكم بعتُ من روحي، فلن يعيد شيء شقيقتي إلى الحياة.

حتى لو نجحت في تحطيم مَن أهلكوا فيتوريا، لا أرى من سبيل إلى العودة لتلك الحياة البسيطة السعيدة الهادئة من جديد. تلك الحياة التي كنت راضية فيها بكتبي ووصفاتي.

إن هذا الواقع الجديد الذي كنت أعيشه بدا غريبًا، لكنه ملائم. لقد كانت حياة لم أخَف فيها من العنف، لكنني تميّزت غضبًا فحسب من ضياع ذاك العقاب من بين يدَيَّ المتلهفتين على إنفاذه. لقد تعجبت من الموت ومن الأحياء الذين فقدناهم، وكيف أن فقدانهم سلب معه جزءًا من أرواحنا ما كان ليعُد ثانية أبد الدهر.

انحدرت عبرة على وجنتي بينما وضعت المنشفة جانبًا. فحدَّثت نفسي في هدوء وحزم بينما وقفت: «كفى». ثم ضربت طاولة الزينة بيديَّ، واتكأت عليهما، وأنا أحدِّق إلى انعكاسي قائلة: «كفى».

لم تعد هناك مساحة للحزن أو الأسى في عالمي، وفي فؤادي.

لم أعد أركز إلا على ذاك الغضب، الذي انبثقت شرارته في جوهر كياني بالقرب من منبع سحري. فشعرت كما لو أن بركانًا يثور في أعماقي، ويستعد للانفجار. لم أشعر من قبل بقوتي بهذه الحدة، وأدركت أنني لن أحتاج إلى الكثير من الجهد حتى أروِّضها وأسخِّرها. فكل ما كان عليَّ فعله هو الوصول إليها والإمساك بها.

لقد ركزتُ على سحري، وتخيلت جذبه من منبعه أيًا كان، وتحويله إلى قبضة من اللهب. وبدلًا من الشجار مع نفسي وإجبارها على الإتيان والانصياع، تركتها تذهب، وأطلقت لها العنان.

وفعلتُ المثل مع أفكاري ومخاوفي وهواجسي.

أطلقت سراح كل شيء فيما عدا غضبي. لقد تشبثت به كما لو كان الجوهر الأهم في وجودي؛ لأنه كان الشيء الذي لا غنى عنه في هذه الحلقة من حلقات الجحيم. وإذا كان غضب أمير الغضب باردًا متجمدًا، فغضبي أنا جحيم مستعر. ولن يخبو سريعًا.

جعلت آخذ أنفاسي وأطلقها، وأنا أتصور نفسي أبث حياة جديدة في النيران. فإذا تمكنتُ من التحكم في غضبي، والتركيز عليه دون عاطفة، لاشتعل بقوة بالغة وزمنًا طويلًا، وإذن لاستطاع أن يصهر جليد راث القاسي العنيد أيضًا.

رفعت راحة يدي، وهمست: «*فلتضئ*».

لينهمر الضياء.

لعل ما فعلته يعد خطيئة بالنسبة إلى بعض البشر، لكنه ليس كذلك بالنسبة إلى ساحرة تعيش في العالم السفلي، وتستعد للزواج بإبليس. وعندئذ حامت فوق راحة يدي كرة ضئيلة من اللهب الذهبي المشوب بالحمرة، وهي تصدر حسيسًا كالنار الحقيقية، لكنها لم تحرقني. انتظرت حتى أشعر بالألم، حتى يلتهب لحمي ويحترق ويتفحَّم، وينصهر خاتم راث ويسيل من إصبعي.

لكن لم يحدث شيء سوى أن صارت النار أكثر توهجًا، ونبضت في رقة كما لو كانت تُحيِّيني.

أخذت أحدق إليها دون شعور، بينما تحوَّلت إلى زهرة متوهجة. وللحظة، فكرت في إلقائها نحو الحائط ومراقبة غرفتي - بكل ما فيها من الأثاث الفخم - وهي تحترق، وبراعم الجمرات الضئيلة وهي تزهر حتى تصير حديقة من الرماد واللهب.

أطبقت أناملي بتمهل على الزهرة المشتعلة، لأطفئها كما كان ينبغي لي أن أطفئ الضياء في عيني ماكادين. وظللت غاضبة بحيث لم أقدر على الابتهاج بما حدث من فوره، أي بالسحر الذي لم أكن أدري أنني قادرة على استحضاره. ولكن بعد حين سيكون هناك وقت للاحتفال.

أما حينذاك، فكانت لديَّ مهمات أخرى للقيام بها. كمواجهة الشيطان سيد هذا البيت.

إن الحنق نفسه دفعني لتحريك قدمي بعد عشر دقائق بالضبط من مغادرة أنير، خرجت من جناحي وسرت عبر الدهليز، ودخلت جناح راث الشخصي بسهولة كما لو أنه بيتي.

صفعت الباب فارتطم بالحائط، ما جعل الشموع ترتجف بشدة على رف المدفأة. ولم يجفل راث أو ينزعج، بل وقف وظهره نحوي وهو يخلع ملابسه. كان كأنما يعلم بمجيئي إليه، غاضبة ولستُ خائفة.

عقدتُ ذراعيَّ وقلت: «حسنًا؟».

تجاهلني الأمير الشيطاني، ولم يتحرك قيد أُنملة. وتلوَّى خالعًا قميصه ثم رمى به على أحد المقاعد. وفي ضوء النيران المتوهجة في المدفأة تمكنتُ من رؤية انحناءات عضلات ظهره المنحوتة بدقة ووضوح تام.

دون أن يتحدث أو ينظر نحوي، تقدم بعيدًا في أعماق غرفته. فتبعته والغضب يحجب تركيزي عن أية تفاصيل في جناحه سوى الجدران القرمزية الغامقة، والأثاث والأقمشة سوداء اللون. كان كل شيء داكنًا ومثيرًا. تمامًا كبقية أنحاء القلعة، حيث كان الأمير يقضي معظم وقته.

قلت بصوت خافت رخيم: «فلتنظر إليَّ». بدوت كأنني أتودد إليه، لكنني كنت أقصد هذه النبرة؛ إذ كان هذا الهدوء مجرد وسيلة لتشتيته عن الصرامة الكامنة في الأمر الذي أوجهه إليه.

التفت راث متعمدًا، وكان ثمة إغواء في طريقة حركته، لقد كان مفعمًا بالحيوية والقوة، وبالمرونة في الوقت ذاته، أي بكل ما تتطلبه المعارك. وكان كل شيء في حركاته ينُم عن أنه مفترس. لكنني لم أكن خائفة، حتى بعد عرضه العنيف. فما كان راث ليؤذيني قط. كما أنني كنت واثقة بأن عدم إيذائه لي ليس نابعًا من الواجب المَنوط به.

عندما نظرت إليه، ووجدت نظرته تتوعد بالعقاب اللامتناهي ودون أي لمحة من الندم أو الأسف، أدركت ما فعله، ولما فعله، حتى لو لم يفعله بعد.

كان واقفًا أمام سرير رحيب، تشبه أغطيته بحيرة ساكنة من خلفه. وكان ثمة فراء فاحم السواد يغطي مقدمة السرير. فدار بخلدي التجرد من ملابسي والارتماء على ذلك السرير؛ لأثير زوبعة أخرى في عالمه المثالي المستقر. وللحظة تخيلت أنني فعلت ذلك من قبل. فطردت هذا الخاطر قبل أن يُحكم أي سحر آثم قبضته عليَّ.

صار التعبير المرتسم على مُحَيا راث مبهمًا. وقال: «لقد أمسى الوقت متأخرًا. ومن الأفضل أن تغادري».

قلت: «علينا أن نناقش ما حدث منذ قليل».

أجاب ببرود: «لقد أصدرت أمرًا وماكادين تجاهله، مرتين، وقد أوضحتُ العواقب».

ضيَّقتُ عينيَّ؛ إذ كانت إجابته جامدة ومتكلفة. فاقتربت منه، وقلت: «أهذا كل ما في الأمر؟ هل هاجمته لأنك أصدرت أمرًا؟».

- «لقد اختار التلميح بإهانتك حينما قال إن عليك تذوق لحم الديكة الذي يطهوه، أمام حاشيتي». اختلجت كتفاه من فرط الجهد الذي كان يبذله ليتحكم في أنفاسه، وليبقى هادئًا. وما كان عليه أن يتعب نفسه؛ إذ ما كان شيء ليقدر على تهدئة العاصفة التي كانت تهيج في عينيه. أردف: «إذا سمحت بعصيانه، فسأبدو ضعيفًا».

- «لكنها كانت معركتي *أنا*. وإذا ظللت تتدخل كلما أساء إليَّ أحدهم، فلن يحترمني أو يخشاني أي منهم. إنني لن أبدو ضعيفة لكي تحافظ أنت على قوتك». تقدَّمت حتى صرت في مواجهته مباشرة، فاجتاحت حرارة غضبينا معًا بشرتي. تساءلت ترى هل شعر بذلك أيضًا، وما إذا كان ذلك الشعور قد هدَّأ من روعه. أردفت قائلة: «أكانت فعلتك ناجمة عن كبرياء الرجال؟ فأنا أشك كثيرًا في ضعف قبضتك على حاشيتك إلى حد أن ذاك السيد المتمرد البغيض يمكنه أن يهدِّد حُكمك»».

- «أنت تعلمين أن الكبر ليس خطيئتي».

لم تكن تلك المرة الأولى التي أشك في أن هذه هي الحقيقة الكاملة، لكنني تغاضيتُ عن الأمر.

- «أريد سلاحًا خاصًّا بي؛ إذ ربما لو كنت مسلحة وقادرة على انتزاع أحشاء من يؤذيني بنفسي، ما تصرفتَ بهذه الغطرسة أمام رعاياك مجددًا. لأنك إن فعلت» - عندئذ أضفيتُ قدرًا من العذوبة على نبرة صوتي ما جعل راث يرمقني في ارتياب - «سأغرس سكين المائدة في جسدك في المرة التالية. ولتعد ذلك عهدًا على ملكتك المقبلة».

عقد رات ذراعيه، وحدَّق إليَّ. ولمعت عيناه بعاطفة لم أستطع تحديد كنهها؛ فلا شك في أنه كان يفكر في مائة سبب يجعل إمدادي بالسلاح فكرة سيئة. خاصة بعد وعيدي الأخير. فانتظرت الكلمات التي بدا متلهفًا للبوح بها.

قال: «سأهتم بأمر منحك سلاحًا خاصًا بك، ودروسًا أيضًا».

قلت: «لا أحتاج إلى...»

- «هذا هو عرضي، فلا جدوى من منحكِ سلاحًا لأجدك تصيبين به نفسك في معركة؛ لأنك غير قادرة على استخدامه كما ينبغي. هل اتفقنا؟».

- «أتُراك تطلب مني طلبًا واحدًا معقولًا ... وتتفق معي بهذه السهولة؟».

- «أجل، يبدو الأمر كذلك».

نظرت إليه نظرة متمعنة، وقلت له: «هل كنت تفكر بالفعل في تزويدي بالسلاح؟».

- «أنا قائد الحرب؛ بالطبع فكرت في ذلك. وسوف نناقش خيارات التدريب الأخرى في الصباح. وإذا كنا سنمارس دروسًا بدنية، فسنضيف تأثيرًا سحريًا واقيًا كذلك، فهل تقبلين شروط اتفاقنا؟».

- «أجل».

- «حسنًا. فلتعودي إلى جناحك. فأنا متعب».

لم أعلِّق على أسلوبه الجاف، إذ كان لا يزال متوترًا، فغضبه لم يُكبح جماحه تمامًا. وفكرت في تركه لحاله، ولكنني وجهت إليه شبه ابتسامة مزعجة. وقلت: «أدرك هذا. فبتر الأعضاء عمل مرهق».

كاد يبادلني ابتسامة مشابهة، لكنها لم تصل إلى شفتيه مطلقًا. وقال: «تصبحين على خير يا إيميليا».

- «تصبح على خير يا قاطع الألسنة الغيور القوي».

- «أنت تتفوهين بكلمات شنيعة».

لكن بريق الفتنة أوحى بأنه لا يمانع في هذا الوصف، بل العكس. انتظرت حتى يستدير ويذهب بعيدًا، لكنه بدا ثابتًا في مكانه. والتردد يزحف على قسمات وجهه.

بعد فوات الأوان، أدركتُ أنني لم أتزحزح من الغرفة أيضًا.

ظللت واقفة بينما رفع وجهي إلى الأعلى، وأنامله الرشيقة تربّت عنقي في مداعبة رقيقة. كان ينبغي أن أفكر حينها في الخنجر الذي استلّه منذ برهة، وفي الدماء التي كانت تخضّب يديه منذ لحظات فحسب. وفي الطريقة البشعة التي تصرف بها. فهاتان اليدان قادرتان على بتر لسان إنسان دون كثير من الجهد، لكنهما كانتا قادرتين في الوقت ذاته على منح الحنان والحماية.

والسعادة دون شك.

تذكرت قبلتنا التي لم يمضِ عليها الكثير من الوقت.

قلت: «لم أقل سوى الحقيقة».

حدّق راث إلى عينيَّ، قبل أن ينزع نظرته عنهما بمشقة واضحة. إنه لم ينكر غيرته، ولم يبدُ مفاجأ من حديثي عن شعوره ذاك. وتساءلتُ أتُراه فطِن إليه بالفعل، ولم يكن واثقًا بما يجب عليه فعله. لم يكن ثمة ما يمكن فعله إذا أقر كلانا بتلك المشاعر. لقد كنت مخطوبة لأخيه. وواجبه نحو تلك المهمة سيأتي دائمًا في المقام الأول. وما حدث بيننا من قبل ما كان ليحدث مجددًا.

أبعد راث يده، فافتقدت بشرتي على الفور الدفء النابع منه، بينما تحيَّر عقلي بين مشاعري المتصارعة.

وعندئذ قال: «سأحرص على أن تحصلي على سلاحك ودرسك الأول غدًا. ليلة سعيدة».

هذه المرة لم يكن هناك تردد من ناحيته. فقد اختفى عبر باب ذي نوافذ زجاجية شفافة. وفي النهاية، بعد أن شعرت بأنني مطرودة، التفت وتوجهت إلى حيث أتيت. لكنني توقفت تمامًا عند مدخل غرفة الانتظار، وقدماي لا تطاوعانني على الخروج من الغرفة. كنت أعلم أنه يجب عليَّ الرحيل، فقد حققت ما جئتُ من أجله، لكن شيئًا ما منعني من الذهاب.

انزلقت إلى داخل المخدع، بالقرب من ذاك الباب ذي النوافذ المتحركة، واختلست النظر عبرها.

كان راث قد دخل إلى شرفة. وكان واقفًا وظهره نحوي، يحدق بغيدًا نحو التلال والجبال المكسوة بالثلوج المترامية على مرمى البصر، وبجواره زجاجة شراب على سور الشرفة. لم يبدُ أن البرودة تؤثر فيه قط، كما لم تعُقه من قبل عن النوم في العراء أثناء العاصفة. علَّها كانت سمة أخرى من سمات الخلود.

أو لعلني فهمت الأمر بصورة خاطئة بعض الشيء، ربما لم يكن راث يتسم دائمًا بالغضب البارد. فلعله امتلك النيران على حد سواء، أو نبعت قدرته على تحمُّل البرودة ببساطة من حرارة غضبه الدائم، الذي يمنحه الدفء والتوهج بما يتفوق على قدرة عنصر الجليد.

تحوَّل انتباهي إلى شرابه مجددًا. كان الصقيع قد زحف على جانب القدح مكوِّنًا شبكة عنكبوت صغيرة من الجليد. وكان السائل الذي في الزجاجة مختلفًا عن أي شراب رأيته في موطني؛ كان شبيهًا بشراب العنب الفرنسي، أو شراب الكيانتي الإيطالي، لكن لونه ليس أحمر داكنًا. كان أرجوانيًّا غامقًا للغاية، فكاد يبدو أسود، لكن اللون لم يكن الشيء المميز أو الساحر فيه. لقد طافت عبره نقاط فضية تشبه الفقاعات اللامعة. رفع راث القدح، وارتشف الشراب، فاهتاجت تلك الفقاعات اللامعة.

بدا المشهد كأنه أنشأ مجرته المتألقة الخاصة به وحده. عندئذ وضع راث القدح بجواره مجددًا، وخفض رأسه. ثم قال: «إن كنت ستستمرين في التلصص في مخدعي هكذا، فربما ينبغي لك احتساء هذا الشراب أيضًا. إنه سيساعدك على النوم».

فكرت في العودة إلى جناحي، لكن الفضول تملَّكني. سرت عبر الشرفة، وأمعنت النظر في الزجاجة دون أن ألمسها. سألته قائلة: «إنه لن يجعلني أقفز من فوق السور وأغوص في الثلوج، أليس كذلك؟».

وبدلًا من أن يجيبني، أزاح راث القدح جانبًا، وتلذذ بالشراب. ووضعه مجددًا ثم نظر إليَّ. وكانت نظرته مفعمة بالتحدي.

تخيلت وهلة أنني أدفعه بقوة من فوق السور نحو الضفة الثلجية في الأسفل، لكنني تصورت أنه سيجذبني معه، فتسارعت نبضات قلبي حينما طاف

بخاطري مشهد سقوط جسدينا معًا. ليس لخوفي من السقوط أو الإصابة بالأذى؛ إذ كنت على يقين بأن راث سيتحرك ببراعة ويضرب الأرض، وإنما مكان سقوطي هو ما جعل نبضي يضطرب.

قررت أن أرتشف الشراب النجمي... وكان لذيذًا.

سألني: «هل هو جيد؟ ما رأيك؟».

أجبته: «لقد أحببته».

قال: «توقعتُ ذلك». قالها بنبرة هادئة متأملة، كما لو لم يقصد أن يتحدث بصوت مرتفع، أو يسمح بذلك. فتمنيت لو امتلكتُ قدرًا ولو ضئيلًا من قدرته على الإحساس بالمشاعر. راودني الفضول لمعرفة مشاعره، ولماذا بدا كسير الخاطر.

تناولت رشفة أخرى من الشراب متمعنة في النكهات، فوجدتها لاذعة كالزنجبيل الطازج، وحامضة قليلًا كالليمون، بالإضافة إلى مذاق عميق غني يمزج هاتين النكهتين معًا على أكمل وجه. ارتشفت بقية القدح وطلبت المزيد.

ابتسم راث، وقال: «إن الكرز الشيطاني أحد أفضل شيئين موجودين في هذا العالم».

أخذت الزجاجة، وهززتها بعض الشيء، فتألق الشراب كغبار النجوم. كان مشهدًا من أروع ما رأيت في حياتي. سألت راث: «تُرى ما الذي يجعله شبيهًا بصفحة السماء ليلًا؟».

أجاب: «إنها حبَّات الكرز الشيطاني. إنها ضئيلة للغاية فتبدو كالفقاعات، أو النجوم».

أنهيتُ قدحي وأنا مستمتعة، ثم اتكأتُ على السور. شعرت بالبرد قليلًا فحسب. ربما كان الشراب هو ما بث الحرارة في أعماقي. ومن مكاني استطعت أن أرى بوضوح بحيرة النيران التي تفصل بين هذه الأراضي والقلعة المزخرفة على مد البصر. وكان ثمة جسر يربط بين المنطقتين، وأسفل منه مياه مظلمة مضطربة كالمياه التي تغلي في مرجل هائل.

للحظة فكرت في إخباره بالسحر الذي استحضرته، لكنني أومأتُ نحو القلعة، متسائلة: «أي بيت ملكي ذاك؟».

تتبع راث نظرتي، وقال: «إنه بيت برايد».

تجرَّعت رشفة أخرى من شرابي، فشعرت بفوران الكرز الشيطاني على لساني. وفجأة ساد الهدوء، حتى إنني سمعت صوت تفجر الفقاعات الخافت في الزجاجة. حينئذ سألت راث: «ألم يراسلك بعد؟».

أجاب: «كلا».

- «هل يعلم بوجودي هنا؟».

- «أجل».

عندئذ تنهدت. كنت أتمنى من صميم قلبي أن يتغلَّب برايد على خطيئة الكِبر - التي يعتلي عرشها - قريبًا، ويرسل دعوته اللعينة. فقد أردتُ أن أحل لغز مقتل شقيقتي، ثم أعود إلى عائلتي قبل أن أصير عجوزًا ويشيب شعري. أو قبل أن يهرموا هم ويشيبوا. لكن ليس من المرجح أن أتقدَّم كثيرًا في العمر هنا. أصابتني هذه الفكرة بالهَم فطردته بعيدًا.

مكثنا واقفَين في صمت، وكلانا غارق في أفكاره، بينما نحتسي شرابنا. تحرك راث قليلًا، وذراعه تكاد تلامس ذراعي، فشعرت بالارتياح لذلك، لكوني هنا، معه، أو مع عدوي. حسنًا، ليس عدوي تمامًا.

إن حدود هويتينا وشعوري نحو كل منا كان مبهمًا غائمًا. ولم تكن لديَّ فكرة عن السبب، فهل لأنه كان مألوفًا لي، وأنا كنت بائسة، أرغب في التشبث بأي أحد يُشعرني بالارتياح ولو بالنزر اليسير أثناء وجودي في هذا المكان؟ أم أن الخطايا والأوهام كانت في أوج نشاطها لتصيبني بالحيرة؟ لكنه عندما قبَّلني منذ قليل لم أشعر بأنه عدوي.

بقدر ما رغبت في تلقي دعوة برايد، كنت قد أضحيتُ مغرمة بصورة ما بقضاء الوقت بصحبة راث. حتى إنني كنت أنتظر الوقت الذي أتبادل معه الحديث فيه. وصارت رؤيته وهو محبَط محببة إلى نفسي على نحو غريب.

وكان ينبغي أن تزعجني هذه الحال، خاصة بعد حادثة العشاء، لكنها لم تزعجني ألبتة.

لم أكن متأكدة مما كشفته تلك الحال عني، وعن الهوية التي كنت أتحوَّل إليها، لكن اشتعل في داخلي شعور عميق بالرغبة البدائية حينما غرز راث الخنجر في ماكادين مدافعًا عني.

لبرهة قصيرة، بدا أننا شريكان مجددًا. ولم أكن أظن أنني سأشتاق إلى الوقت الذي قضيناه معًا في باليرمو، ولم أكن متأكدة مما يعنيه ذاك الاشتياق. عندئذ شعرت بانتباهه يتحول إليَّ.

سألته، وعيناي تلتقيان عينيه: «ما الشيء الآخر؟» كان أقرب مما اعتقدت، فنظر نظرة خاطفة إلى ثغري، كما لو كان قد سحره. تسارعت دقات قلبي. فقطب راث حاجبيه وهز رأسه، كما لو كان يتذكر أنني سألته سؤالًا. وأيًا كان الشعور الذي مر بخاطره، فقد فتنه وأذهله. أردفت قائلة: «لقد قلت إن الشراب هو الأول فقط، تُرى ما الشيء الثاني في هذا العالم؟».

قال مترددًا: «بحيرة الهلال، إنها بحيرة شاطئية ضحلة».

كان هذا التوتر الغريب يخفق بيننا كلعنة تأبى أن تنحل. رفعت أحد حاجبيَّ، وشفتاي شبه مضمومتين، وقلت: «دعني أخمن، ما دام هذا هو الجحيم، فهل هي متجمدة؟».

قال: «كلا، ليس تمامًا. إنها أحد الأماكن القليلة في الحلقات السبع التي لم يمسها الجليد. إنها تقع فوق حمم بركانية؛ لذا الماء فيها أكثر دفئًا من مياه الاستحمام، مهما كانت برودة الجو».

- «هل علينا أن نصارع كلبًا ذا ثلاثة رؤوس لكي نصل إلى هناك؟».

- «كلا».

- «وهل الذهاب إلى هناك يشبه السفر عبر ممر الخطايا؟» هز راث رأسه، لكنه لم يوضح المزيد. اقتربت منه وضيَّقت عينيَّ. كان متوترًا أكثر من المعتاد. ما يعني أنه كان حتمًا يخفي أمرًا ما. أضفت متسائلة: «أين تقع هذه البحيرة؟».

- «فلتنسَي أنني ذكرتها». ملأ راث قدحه مجددًا، واحتسى جرعة كبيرة من الشراب، رافضًا أن يواجه نظرتي المتسائلة، ثم قال: «لقد تأخر الوقت».

- «الدماء والعظام. إنها هناك، أليس كذلك؟ هل كنت تخفي نبعًا حارًّا عني؟».

- «لست أخفيه. ثمة قواعد يجب أن تُتَّبع قبل النزول في ذاك الماء. وأشك فيما إذا كانت ستعجبك. وحتى لو أعجبتك، لا أرى أنها فكرة سديدة».

- «فهمت». انتبه راث عند سماعه نبرة صوتي، ونظر إليَّ في بطء. وعندما استقر انتباهه كله عليَّ، أردفت: «بدلًا من أن تسألني عن رأيي، اتخذت أنت القرار نيابة عني. ما دمت سأتزوج إبليس، فهذا يجعلني ملكتك المقبلة، أليس كذلك؟» لكنه لم يُجِب، فاستطردتُ: «أريدك أن تأخذني إلى هناك. والآن من فضلك».

- «يجب ألا يدخل الماء أي شيء مصنوع».

- «أي شيء ... أتعني الملابس؟».

- «أجل، يُفترض بك أن تتجردي من كل ملابسك قبل أن تنزلي إلى المياه، يا ملكتي المستقبلية». كانت ابتسامته تجسِّد الشر المطلق. وأردف: «كنت أظن أنكِ لا ترغبين في السباحة معي متجردة من ملابسك».

- «هل هذا كل ما في الأمر؟» كنت أشك في ذلك. واعتقدت أن المسألة تتعلق بحب البقاء، بالنسبة إليه. أردفت: «أظن أن هناك شيئًا يتعلق بالمياه تريد تجنُّبه».

تفحصني على مهل، وكان من المحال أن أحدد مشاعره آنذاك.

قال: «في بعض الأحيان تطَّلع البحيرة على قلوب من يدخلونها، وتكشف خباياها».

نظرت إليه دون أن يرف لي جفن. علّه الشراب هو ما منحني الجرأة، أو هذا العالم وولعَه بالخطيئة، أو طريقة لمعان عينيه بالانتصار، لكنني أبَيتُ أن أخسر هذه المعركة.

استرجعتُ ما قاله أنير عن تحدي راث. فأيقنت أنه إذا اضطررت إلى الكشف عن بعض حقيقة جوهري مقابل الظفر بمعرفة بعض خباياه، فسيكون هذا ثمنًا زهيدًا.

أومأت برأسي نحو الزجاجة والأقداح، قائلة: «فلتبعد هذه الأشياء، ودعنا نتوجَّه إلى هذه البحيرة المسحورة. فأنا أحتاج إلى حمام دافئ يبعث على الاسترخاء بعد أحداث الليلة».

تلاشت ابتسامة راث، وقال: «هل أنت واثقة برغبتك تلك؟».

أجبته: «أجل».

كانت إجابة خطيرة على نحو مفزع؛ إذ إنها سرعان ما تسببت في إقامة جدار سميك من التوتر بيننا مرة أخرى، لكنها عبَّرت عن الحقيقة. ولم أكن أرغب في أن أعود إلى جناحي بمفردي، ولم أرد بعد أن أفترق عن هذا الأمير. إذن بدت مغامرة ليلية إلى نبع حار سحري الحل الأمثل. وكنت أتوق إلى ذكرى سعيدة تسكن مخيلتي قبل أن آوي إلى السرير؛ إذ لم أرغب في إعادة مشهد اللسان المبتور مرارًا وتكرارًا حتى أستسلم للنوم. وإذا كنتُ قد عدتُ إلى غرفتي وحيدة آنذاك، فإن هذا ما كان سيحدث بالتأكيد.

بدلًا من السير حتى البحيرة، أمسك راث بيدي، ونقلَنا بفعل سحره. وبدلًا من شعور الاشتعال المألوف، شعرتُ بوخز طفيف دافئ على بشرتي، ولم يكن هذا الشعور مزعجًا على الإطلاق. شهقت حينما أحسست بالأرض الجامدة أسفل قدميَّ بعدئذ بلحظة واحدة.

أفلت راث يدي من يده بمجرد أن تأكد أنني لن أنقلب رأسًا على عقب. ثم قال: «إن سحر التخطي لا يسبب الارتطام القوي عندما ننتقل في هذه الحلقة».

أردت أن أعرف المزيد عن هذا السحر، لكن مكاننا الجديد سلَب عقلي تمامًا. كنا واقفين بجوار شاطئ البحيرة المظلم اللامع. وكان على هيئة هلال ضخم، والمياه زرقاء مشوبة بالبياض، وغير شفافة.

كان الضباب يتهادى في بطء على سطحها، وتمكنتُ من رفع بصري بمشقة عن البركة المتلألئة بعد مدة طويلة لكي ألقي نظرة على الجدران الحجرية البركانية التي أحاطت بنا. لقد كانت هذه البحيرة في باطن الأرض.

سألت راث: «أين نحن بالضبط؟».

أجاب: «أسفل بيتي». ثم سار على مهل مسافة قصيرة بمحاذاة الشاطئ، وأشار نحو قوس حجري. وأردف: «تصب بحيرة النيران في هذه البحيرة الضحلة من هناك».

نظرت إلى الأعلى وأنا أتوقع رؤية المزيد من الأحجار، لكنني تنهدتُ في هدوء. كانت الأحجار تغطينا بالفعل، لكن شخصًا ما رسم أطوار القمر عليها، فضلًا عن بعض النجوم المتناثرة. كأن منظرًا أقل ما يوصف به أنه *يسحر الألباب*، أو لعله *سماوي حالم خيالي*، إذا أردنا أن نوفيه حقه من الوصف.

كدتُ ألمس الماء بأصابع قدميَّ حينما جذبني الأمير الشيطاني برفق، قائلًا: «لا يمكن أن تلمس أي ملابس المياه. عليك أن تخلعي الرداء أو ترفعي طرفه».

قلت: «ولمَ؟».

رفع راث كتفه، وقال: «أترين ذلك؟».

تتبعت بصره فرأيت قطعة ضخمة من الخشب الطافي، اقتربت، وأمعنتُ النظر: وسألته: «هل تلك عظام؟».

أبعدت ناظرَي عما تبقى من المخلوق التعس، وركزت انتباهي على الأمير الواقف بجواري. كانت لمحة الاستمتاع على وجهه آثمة مثله. سألني: «هل ما زلت تودين النزول في الماء؟».

قلت: «ما رأيك إذا أحضرت الشراب والأقداح إلى هنا؟».

قال: «لن أفعل، هيا». ومد يده نحوي. «سوف أعيدك إلى غرفتك. بإمكاننا تأجيل الحديث عن الشراب فيما بعد، إذ إنه يوجد مسبح خاص فسيح قادر على أن يهدئ أعصابك، وأظن ذلك كافيًا».

لقد كان قلقًا من أن تكشف البحيرة حقيقة يحرص على إبقائها سرًّا، أو كان مقتنعًا بأنني سأغيّر رأيي وأعود إلى مخدعي. ابتسمت ابتسامة ساخرة بينما خلعت ردائي الأحمر الحريري، ثم خاتمي ووضعته على صخرة ملساء منبسطة. ووقفت منتصبة وأنا أنظر في عينيه.

سألته: «ألن تخلع ثيابك حتى نستطيع أن نسبح، أم تنوي أن تشاهدني فحسب طوال الليل؟».

الحادي عشر

تلاشت ملابس راث، تاركة إياه وقد ارتسمت على وجهه علامات الفخر الشديد. فليلعنني الشيطان، لقد حاولت وفشلت فشلًا ذريعًا في عدم إذكاء أنانيته وإخفاء إعجابي به.

لقد كانت هيئته مثالية إلى حد أنه لو أن أعظم النحاتين حاولوا نحت مثيل له لفشلوا دون شك. ركزت انتباهي على وجهه، فرأيت بوضوح أنه كان منجذبًا نحوي. لا ريب في أن السحر الآثم الذي قبع أسفل هذا العالم قد أثر فيه أكثر مما تخيلت.

كان على فخذه اليسرى وشم ذو تصميم مثير للعجب؛ كان عبارة عن خنجر يبدو نصله مزدانًا بالورد واضح المعالم، وعلى مقبضه حُفرت أشكال هندسية. وعلى النقيض من وشومه اللامعة المعدنية الأخرى، لُوِّن هذا الوشم بدرجات اللون الرمادي.

أعدتُ تركيزي إلى عينيه وانتظرته، ودقات قلبي تتسارع؛ إذ بدا مفتونًا بي. وظلت نظرات راث مسلَّطة عليَّ، ثم مد إليَّ يده. فاضطرب شيء ما داخلي.

شرعت في خلع تميمة القرن، لكنه أومأ برأسه قائلًا: «بإمكانك تركها، وكذلك الأزهار والعظام في شعرك».

كنت مرتبكة، فتركت التميمة وأمسكت بيده. وبما أن التميمة كانت عبارة عن قرن إبليس، فمن الطبيعي ألا تُعد شيئًا مصنوعًا، وكذلك الزهور والعظام كانت من مادة عضوية؛ لذا كان راث محقًا، وكل شيء على ما يرام.

سرنا حتى حافة البحيرة فداعبت المياه أصابع قدميَّ، وكانت دافئة وناعمة.

أخذ راث يراقبني، ليرى ما إذا كنت أرغب في مواصلة التقدم. أخذت خطوة أخرى، فشعرت بالمياه كأنها ملايين الفقاعات الضئيلة على بشرتي.

فور أن صرنا على عمق مناسب، أفلت راث يدي ثم غطس في الماء. لكنه طفا فجأة بعد لحظة، مطوحًا رأسه إلى الخلف، وناثرًا قطرات الماء عليَّ. ضحك ضحكة من أعماق قلبه، وكانت بسمته من أصدق البسمات التي رأيتها على وجهه في يوم من الأيام، فجعلت فؤادي يخفق بعض الشيء. لكنني غصتُ تحت الماء قبل أن يرى التعبير المرتسم على وجهي.

عندما صعدت مجددًا، وأزحت خصلات شعري المبتلة عن وجهي وجدته يحدِّق إليَّ. فعلى النقيض مني، لم يحاول أن يخفي مشاعره حينئذ. فكرت آنذاك في الأشرار وألاعيبهم الآثمة، والقصص التي تُروى عن قبلاتهم التي يدمنها البشر إلى حد بيع أرواحهم مقابل المزيد منها. وفضلًا عن الخطر الكامن في جذب انتباههم. وهآنذا قد جذبت انتباه راث دون شك. لكن الخطر الوحيد الذي شعرت به كان القوة التي أمدني بها.

كان أمامي اختيار. كان راث؛ أو بالأحرى الإغواء المتجسد فيه، ينتظرني كما لو كان يعرف إلى أين جنحت أفكاري. وكدتُ أُقسم حينها أن هناك شيئًا ما في كل ممنوع يجعله مرغوبًا.

أو ربما كانت تلك مجرد كذبة أوحيتُ بها إلى نفسي. ربما كنتُ أصبو إليه ببساطة، ضد صوت عقلي السديد. خضتُ في المياه مقتربة منه حتى وصلت إليه ببطء. وحبس أنفاسه حينما أدرته بحيث أضحى ظهره ناحيتي، ثم تتبعتُ خطوط الوشم اللاتيني عبر كتفَيه بأناملي؛ إذ تملكني الفضول حيال الحبر

المرسوم به الوشم منذ اللحظة التي استدعيته فيها في حلقة الظلام منذ تلك الأشهر. عندئذ اقشعر جلده مع كل لمسة رقيقة من أناملي.

قرأت: «Ast ra inclinant، sed non obligant». وأنا أعض على شفتي السفلى، محاولة أن أترجمها. أردفت قائلة: «النجوم ...»

التفت راث نحوي حتى واجه كل منا الآخر مجددًا، وكانت عيناه تتلألآن بنعومة وسط الظلام. قال: «النجوم تستميلنا وتجذبنا؛ لكنها لا تأسرنا وتقيدنا».

قلت: «كلمات رائعة».

لم تخفَ عليَّ دلالة وشمه لعبارات على جسده تعبِّر دائمًا عن نفوره من القيود كافة. فكرت حينها في رباط الخطبة بيننا، وفي فرضي هذا الرباط عليه دون أن أعرف. ثم تقييدي إياه في حلقة الاستدعاء أيامًا، رافضة أن أحرره؛ لذا لا عجب في أنه احتقرني آنذاك. بل العجيب أنه لا يكرهني الآن.

انسابت الكلمات من بين شفتيَّ في رقة: «إنني آسفة». لم أكن واثقة بأنه سمعني. «آسفة لتقييدك».

مدَّ راث يده، وأزاح خصلة مبتلة من شعري إلى ما وراء أذني، وتمهل في لمسته قبل أن يتراجع إلى الخلف، ثم قال: «علَّها يد القدر تلك التي تحاول أن توحِّد مصيرنا، لكننا في النهاية أحرار في اختيار مصيرنا. لا تشكِّي في هذا أبدًا».

قلت: «كنت أظن أنك لا تملك إرادة حرة».

امتزجت ابتسامته بالحزن إذ قال: «إن الاختيار متاح للجميع، لكن بالنسبة إلى البعض يكون ثمنه باهظًا».

- «هل رسمت هذا الوشم لتذكِّر نفسك باختيارك؟».

- «أجل». أردف راث ونظرته لا تفارقني: «أظن أن جون ميلتون، وهو شاعر من بني البشر، عبَّر عن ذلك بصورة أفضل حينما قال: من الأفضل أن تكون سيدًا في الجحيم، على أن تكون عبدًا في الجنة. لقد أخبرتك عن قوة الاختيار وتأثيره عليَّ. وإنني لا أتورع عن ارتكاب الفظائع، والأفعال التي لا

تُغتفر، في سبيل اختيار مصيري. فحتى إن كانت لعينة وبائسة، فما يهم هو أن تكون بمحض إرادتي. وإذا لم يكن المرء حر الإرادة حقًا، فلن يستطيع إدراك سحر وجاذبية تلك الحرية».

- «ماذا عن الحية، هل هي اختيار آخر؟».

- «جميع الوشوم على جسدي، باستثناء وشومنا، كانت من اختياري».

رنوتُ إلى شفتيه مطولاً قبل أن يلفت انتباهي شيء تحتهما بقليل. فبحبر فضي باهت نُقشت عبارة أخرى فوق عظمة الترقوة اليسرى لم أرها من قبل. ودون تفكير مررت أطراف أناملي على الكتابة: Acta non verba.

لم أجد صعوبة في فهم هذه العبارة. لقد كانت تعني: الأفعال أبلغ من الأقوال.

سألت: «وماذا عن الرسم الذي على فخذك؟».

صمت راث، وحينها فقط أدركتُ أننا انجرفنا بحيث صرنا قريبين للغاية فيما بيننا. نسيت سؤالي، بل نسيت كل شيء فيما عدا النيران التي اشتعلت في نظرته بينما رحت أتلظّى بها رويدًا رويدًا. ولم أعتقد أن بإمكانه رؤية الكثير لأن المياه كانت تغطيني حتى عنقي، لكن بدا أن المياه لم تكن عائقًا حقيقيًا ألبتة.

حينما نظر إليَّ بتلك العاطفة المتأججة، تلاشى أي عداء أو كراهية شعرنا بها يومًا أحدنا تجاه الآخر. ربما كانت تلك هي الحقيقة التي كان يخشى أن تكشفها البحيرة. حينئذ سيطر عليَّ سحر العالم، وحث عواطفي حتى لم أعد قادرة على إنكار حقيقتها.

لعله كان جمال المشهد السماوي الحالم المرسوم على السقف، أو بخار بحيرة الهلال الحار، أو ربما الاشتياق هو ما حرَّك مشاعري. لم أستطع أن أجزم بما يدور في خلده، لكن بدا أنه يبادلني المشاعر نفسها.

قال: «إيميليا».

قلت: «أعلم أنك لن تخبرني باسمك الحقيقي، لكن يبدو النطق باسم راث غير شاعري الآن».

ها هو قائد الحرب القوي يخوض معركة داخلية من نوع خاص. وربما كان خائفًا من الهزيمة إن استسلم لقواعدي. لكننا صرنا متكافئين فجأة. لم يعد هناك مكان للماضي أو المستقبل، وإنما الحاضر فحسب. كان بإمكاننا أن نعقد هدنة قصيرة؛ إذ لم يعد بمقدورنا إخفاء مشاعرنا الكامنة.

قلت له: «فلنذهب الآن إلى مخدعك».

خضع أمير الغضب - الذي لا يسمح لكائن من كان بأن يأمره - إلى أمري في الحال. وبقوة سحره النافذة، صرنا في مخدعه في لمح البصر.

الثاني عشر

كانت مشاعر راث لم تزل متأججة بينما انتقلنا إلى حيث باب جناحه؛ إذ أخطأ في الوصول إلى مخدعه. شعرت حينها بأنه لا يحق لي أن أشعر بالفخر في لحظة كتلك، لكنني عشقت حقيقة كوني من حطمتُ أخيرًا القيود المحكَمة التي يقيد بها نفسه.

لم أتصور وجود سبب آخر غير الخطأ لنقلنا إلى الدهليز الذي يربط بين جناحينا. لكن البوابة التي تفصل جناحه كانت لا تزال مغلقة، وهكذا لا يمكن لأحد أن يقترب بما يكفي لرؤيتنا. وعلى أية حال لم أكن مكترثة إذا ما رأونا أم لا.

كانت مشاعري تغمرني بحيث لم أعبأ بمكان وجودنا، أو بمن يحوم في الأنحاء. فلتذهب الحلقات السبع كلها إلى الجحيم، كما أنني لم أتزوج برايد بعد. وفيما عدا مدة سيطرته القصيرة على أنتونيو، فأنا لم أقابله قط. وهكذا ساورني الشك فيما إذا كان إبليس سيمانع في حبي شخصًا آخر قبل عقد قراننا المشئوم.

بالطبع لم نكن نليق بأن نصبح حبيبين متناغمين أنا وبرايد، حتى إذا كان برايد مهتمًا، فهو لم يُظهر ذاك الاهتمام بعد؛ إذ إنه لم يرسل خطابًا أو

دعوة، أو ما يدل على معرفته بوصولي. لقد كان أمير الكِبر سعيدًا راضيًا في قلعته وحده، وحتى الآن كان ذلك على خير ما يُرام بالنسبة إليَّ.

ظلَّت مشاعر راث في أوج اشتعالها، ولم أكن أريد سوى إخضاع هذا الشخص القوي بالعاطفة الجامحة. وأنا أيضًا كانت مشاعري متأججة بصورة لم أعهدها من قبل؛ لقد كان حبي إياه جارفًا. وربما كان هذا مصيرنا؛ أن نصير روحًا واحدة، وتطغى عاطفة كل منا على كيانه كله.

وعلى حين غرة شعرت بألم عنيف، كاد يقطع أنفاسي. أحس راث بي، فقال: «هل أنت بخير؟».

أجبت: «كلا. أشعر بألم شنيع».

قال راث بصوت جاد: «أين؟».

قلت في فزع: «في قلبي، إنه مريع».

- «فلتهدئي، سأرسل في طلب المعالج في...»

- «أعتقد أنه نابع من قرن هاديس».

كان راث يمد يده ليفتح باب جناحه لكنه توقف، والتفت فجأة إلى التميمة التي ما زلت أرتديها، ثم لعن الإلهات بملء فيه.

وفجأة تحوَّل كل شيء إلى دخان وضوء أسود لامع. لم أره وهو يتحرك، لكن بعد أن كنا واقفَين خارج مخدعه ونحن متجردان من ملابسنا، وعلى وشك الاستسلام التام لعواطفنا، إذا بنا نجد نفسينا في غضون لحظة واحدة نلبس بعض الملابس، وواقفَين أمام باب خشبي عتيق في أحد الأبراج.

كان ثمة مشعلان على طراز العصور الوسطى يشتعلان في توهُّج على كلا جانبي ذاك الباب. أصابني الذهول من رداء النوم الأسود الذي صرتُ أرتديه الآن بقدر ذهولي نفسه من المكان الذي كنا فيه؛ ذاك الرداء الذي لم يخف الكثير من جسدي. أما راث فكان يرتدي سروالًا أسود ولا شيء دونه، وعلى وجهه نظرة جادة.

مددت يدي لنزع التميمة قائلة: «أين نحن؟». حينئذ كان الألم يستبد بي.

قال راث: «لا تنزعيها». قالها كما لو أننا لم نتبادل تلك العواطف منذ لحظة فحسب. أمسى راث قاسيًا وغاضبًا من جديد، لكن تلك القسوة وذاك الغضب لم يكونا موجهَين نحوي. أخذ راث يطرق الباب بقبضتيه، بقوة جعلت مفاصل الباب تُحدث صريرًا، وينادي بصوت حاد: «أيتها السيدة العجوز!».

نوبة الألم التالية جعلت ركبتيَّ تنثنيان، لكنني أَبَيتُ أن أستسلم لها. ودون أن ينظر إليَّ، شعر الأمير الشيطاني بكل ما يجتاحني، فخلخلت طرقته التالية حجرًا من مكانه. وضعت يدي على ذراعه، وضغطت عليه برفق قائلة: «راث».

قال راث: «إذا لم تفتحي هذا الباب، أقسم بدمائي ...»

«إنك على وشك أن تهدم البرج كله بتلك الطرقات أيها الفتى». انفتح الباب بينما قيلت تلك الكلمات، كاشفًا عن امرأة عجوز ذات شعر فضي مشوب بالأرجواني الفاتح، وترتدي ثوبًا باللون الأرجواني الغامق، وعليه حزام من اللون نفسه ما ذكّرني بصور الكاهنات التي رأيتها في اللوحات والكتب.

تحوَّلت نظرتها الكئيبة نحوي، وأخذت تتفحصني.

ثم قالت: «مرحبًا بك يا ابنة القمر. أنا سيليستيا، سيدة اللعنات والسموم. وقد كنت في انتظارك». تراجعت خطوة إلى الخلف، وفتحت الباب على مصراعيه مُرحبة بنا، وتابعت: «ادخلا قبل أن يحطم جلالته هذا العالم كله».

قال راث: « فلتردي على الطارق سريعًا في المرة التالية».

خطا راث إلى داخل الغرفة أولًا، منتبهًا ومستعدًّا للقتال. وباستثناء العقاقير والترياق والسموم، لم أكن متأكدة مَن هو العدو الذي يتوقع ملاقاته في هذا المكان، لكن الألم الذي كان يفتك بي شغلني عن القلق. تبعته للداخل، ثم توقفت. كانت الغرفة المستديرة مبنية من الخشب الداكن والحجر البركاني، وفيها أرفف متراصة حتى الأعلى بارتفاع البرج، وسلم مستند إلى أحد الجوانب كما لو أن السيدة كانت ترتب الأغراض على الأرفف العليا حينما قاطعناها. وفاح في الأنحاء مزيج مميز من الروائح الجذابة.

استطعت بمشقة أن آخذ نفسًا عميقًا؛ إذ أوشكت الرائحة - على الرغم من أنها ذكية - على أن تصيبني بالغثيان. راحت قطرات العرق تتجمع على

جبهتي بينما أدخلت الهواء وأخرجته بصعوبة بين أسناني المطبقة. ولتجنب التركيز على الشعور بالغثيان المتفاقم، تركت نظراتي تجول في المكان.

على منضدة طويلة بالقرب من نافذة مقوسة منعزلة كانت ثمة قوارير عديدة بها سوائل غريبة؛ بعضها ينبعث منها دخان، وأخرى يغلي ما فيها، وسوائل أخرى تقرع الزجاج الرقيق كما لو كانت تبحث عن مخرج للفرار. كانت السوائل السحرية العاقلة جديدة عليَّ ومثيرة لأعصابي بعض الشيء.

وُضعت على أحد الأرفف نباتات مكتملة النمو، وشتلات، وأوراق أزهار وأعشاب مجففة، فضلًا عن ضمادات، وتمائم، ومراجل، وتماثيل مخلوقات مثل وحش الكايميرا والآلهة المُجنحة. وكانت هناك أحجار، ملساء وخشنة، وأسلحة ذات أنصال مغمرسة في السم - كما بدا من السوائل السوداء التي تكسوها - وإبر تلمع في ضوء اللهب المرتجف.

سالت قطرات من الشموع السميكة على رف خشبي أعلى مدفأة كبيرة بالقرب من منتصف الغرفة، وأخذت أعواد البخور تشتعل متحولة إلى أعمدة منتظمة من الدخان.

بدا أن سيدة اللعنات والسموم مزوَّدة بمخزون يليق بكل المساعي الأثيمة.

ابتلعت لعابي بصعوبة، إذ داهمتني نوبة الألم التالية. فشعرت كما لو أن جسدي اقتحم فجأة غمار معركة حامية الوطيس ضد نفسه. وأيًّا كان سبب الألم؛ فقد انتصر.

بيد قوية على ظهري، وجَّهني رات نحو مقعد خشبي صغير، ثم التفت إلى السيدة العجوز، وقال: «فلتفعلي شيئًا الآن».

أخذت تصدر صوتًا بلسانها بينما عبرت الغرفة على مهل، وقالت: «إن الرجاء والتهديد من سمات الجبناء والضعفاء. وكلتا السمتين لا تليق بكَ؛ لذا فلتصمت».

قال رات: «إياك وامتحان صبري».

اتجهت سيليستيا صوب وعاء مليء بالمقصات والمقاريض، بعضها ذو مقابض ذهبية أو فضية، والبعض الآخر مصنوع من الأحجار الكريمة وعظام البشر أو مخلوقات العالم السفلي الجافة. وعلى أي حال لم أدقق النظر فيها.

قال راث الذي كان يحوم وسط أدواتها: «هيا فلتسرعي».

قالت العجوز: «أنا لا أتدخل في عملك أيها الفتى؛ لذا لا تتدخل في عملي. والآن فلتتوقف عن الطواف في الأنحاء ولتجلس، وإما فلتخرج ولتتنفّس عن هذا الغضب بعيدًا عن هنا». ثم حملقت إليه بنظرتها الباردة، وأردفت: «فلتفعل ذلك من أجلها، وليس من أجلي».

لم يغادر راث، ولم يجلس، لكنه لم يتحدث مجددًا، وأفسح المجال لها لكي تعمل. شعرت بالإعجاب بتلك المرأة الجسور، وتساءلت تُرى من تكون بالنسبة إلى راث. بالطبع كانت تعلم جيدًا أنه سيصمت. وفي تلك اللحظة كان راث شرسًا على نحو غير معهود، لكنها لم تُعره اهتمامًا. ولم أعتقد أن كثيرين يتمتعون بالشجاعة الكافية لإعطائه ظهورهم، خاصة عندما كانت قوته تحوم في المكان كحية غاضبة كحالته آنذاك.

مع كل ما يجتاحني، لم أشكُ. وبطريقته الفظة الخاصة به، كان يراقبني من كثب.

التقطت السيدة مقصًا ذهبيًا رفيعًا ذا مقبضين على هيئة جناحي طائر، ثم تناولت إبريقًا مليئًا بسائل سماوي لامع، وقنينة بها أعشاب مجففة، وانتقت وعاء به أوراق أزهار وسط ظلال من الأزرق الثلجي والفضي. أحضرت كل شيء إلى طاولة العمل، وجذبت صحنًا خشبيًا عميقًا من خزانة، وأتبعته بمهراس ومدقة.

بعد إلقاء نظرة أخيرة على أدواتها، نظرت إليَّ بهاتين العينين العجوزين، وقالت: «لا بد أن آخذ خصلة من شعركِ من أجل صنع الدواء».

قلت: «كلا». وقد أخذ الفزع مني مبلغه، وانطلقت الكلمة من فمي قبل أن أدرك أنني أظهرت خوفي أمام شخص غريب. وعلى الفور تردد تحذير نونا في أذني؛ إذ دائمًا ما أمرتنا بحرق قصاصات شعرنا وأظافرنا، لكيلا نتيح

الفرصة ليوقعنا أحد تحت تأثير فنون السحر. سألتها: «هل هذا ضروري؟ إن الألم يتلاشى بالفعل، وأظن أن سموه ربما بالغ في ردة فعله».

قالت بنظرة حانية: «لا داعي للخوف مني يا ابنتي. فأنت ستحتسين الدواء حتى آخر قطرة. ثم سنحرق الصحن، وهكذا لن يتبقى شيء لمن يريدون إيذاءك».

شعرت بتركيز راث عليَّ كجمرة تحرقني، لكنني لم أُرد أن أنظر إليه؛ فلقد كان هذا قراري وحدي. وهكذا استنشقت نفسًا عميقًا، وأومأتُ برأسي قائلة: «حسنًا».

قصت سيليستيا خصلة صغيرة من شعري، ونثرتها على ما يضاهي كميتها من الأعشاب، وضعف كميتها من أوراق الأزهار، ثم سحقت كل المواد معًا في المهراس بالمدقة حتى صارت مسحوقًا.

فور أن رضيَت عن تجانس المسحوق، همست بتعويذة بلغة لم أكن أعرفها، ثم أضافت قطرات قليلة من سائل أزرق لامع إلى الخليط.

سكبت المزيج في كأس منقوشة عليها رموز من اللغة الرونية. وأخذت تقلِّب بقوة. ثم قالت: «إن مذاقه لن يكون مُستساغًا، لكن دموع سايلونيا ستحسنه بعض الشيء».

تساءلتُ: «دموع سايلونيا؟».

قالت: «يقول البعض إنها إلهة الأسى والحزن. لكنها تضطلع بمهمات أكثر من ذلك. وتُجمع هذه الدموع من معبد في الجزر المتنقلة».

- «أين تقع؟ هنا؟».

حينئذ وجَّهت انتباهها إلى الأمير، بينما راحت تقلِّب الشراب في الاتجاه المعاكس، فتناثرت المحتويات من أثر تغيير اتجاه التقليب المفاجئ، وقالت: «إنه على وشك أن يصير جاهزًا».

راقب راث كل خطوة تفعلها العجوز معي، وفي عينيه بريق ينذر بالخطر. كما لو كان ينتظر حركة واحدة خاطئة ليشعل المعركة التي كان مستعدًّا لها.

تجاهلتُ سلوكه الغريب، وانتبهت مجددًا للمرأة المقبلة عليَّ، قائلة: «إنني أرتدي التميمة منذ عقود، ولم أشعر بمثل هذا الألم من قبل».

تساءلت السيدة: «لقد زرتِ بحيرة الهلال، أليس كذلك؟».

- «بلى». كان شعري رطبًا، ولم تكن هناك جدوى من الكذب. أردفت: «كيف عرفت؟».

- «مجرد تخمين صائب. إن بعض أنواع السحر لا يمكنها دخول تلك المياه دون عواقب خطيرة. يقول البعض إن الماء هناك كان يخص الإلهات في زمن ما، وإنه يحرق من لا ينتمي إليه. بينما يعتقد آخرون أن «المَهيبين» يسعون لاستعادة ما سُلب منهم، وأنهم لا يكترثون بكيفية النجاح في استرداد نفوذهم، فالمهم أن يستعيدوه فحسب. حقًّا، إن الانتقام غاية وحشية».

تساءلتُ: «المَهيبون؟» وأخذت أفتش في ذاكرتي عن أية قصص أو أساطير سمعتها في طفولتي عنهم، لكن الاسم لم يكن مألوفًا لي. استرسلتُ قائلة: «هل تقصدين بهذا الوصف الإلهات أم الأمراء الشيطانيين؟».

عندئذ قال راث بصوت هادئ: «هذا يكفي». لكن نبرته كانت حاسمة بما لا يدَع مجالًا للجدال. ثم أردف: «البعض لديه من الحكمة ما يجعله يحتفظ بالخرافات والحكايات التي عفا عليها الزمن لنفسه». ثم عقد ذراعيه على صدره وعلى وجهه تعبير جاد، وقال: «هل انتهيت من دوائها؟».

حينئذ ألقيت نظرة على تميمة قرن إبليس. كان راث قد أمرني بأن أظل أرتديها. فرميته بنظرة لائمة، وقلت: «إنك لم تعبأ بإخباري بأي من تلك المخاطر، والآن هل تشعر بالقلق؟».

ضيقت سيليستيا عينيها، لكنها لم تنبس ببنت شفة عدة لحظات، بينما واصلت تقليب الدواء. ثم قالت: «إن كان يعلم بالتأثير الذي سيقع عليك، ما شككت في أنه ما كان ليأخذك إلى هناك. إن سره الآخر هو ما يجب أن تسألي عنه؛ إذ إنه يعلم علم اليقين مدى تأثير هذا السر عليكما أنتما الاثنين، ومع ذلك لم ينطق بحرف واحد عنه. إنني أتساءل عن سبب ذلك؟ علنا نجد أخيرًا نقطة ضعفك يا صاحب الجلالة؟».

ظل راث صامتًا على غير المعتاد. وأخذت درجة حرارة الغرفة في الانخفاض سريعًا إلى حد أنني رأيت أنفاسي. وراحت الأوعية تقعقع بينما ارتجَّت الأرفف من هول القوة التي كان راث يكبح جماحها، والغضب الذي يكبته. وهكذا بدا من الواضح أن السيدة العجوز أصابت هدفها المقصود.

أثار رد فعله اهتمامي وإعجابي، فرحتُ أتفحصه بدقة. وكان مختلفًا للغاية حتى كدت لا أعرفه. ولم يكن هناك تحول خارجي في ملامحه الباردة، لكنني شعرت بموجة السحر العاتية التي استوعبها كالمد والجزر.

حذرها قائلًا: «فلتحذري، أنت تطئين أرضًا خطرة».

قالت وهي تلوِّح بيدها غير عابئة ألبتة بأزيز الغضب المتزايد: «هراء». ثم ناولتني الكأس، وأشارت لي بأن أحتسي الدواء.

رنوتُ إلى راث، وأيًّا كان ما أثار غضبه، فقد تلاشى فور أن رأى نظرتي القلقة. عندئذ عادت الحرارة إلى طبيعتها، وأومأ لي قائلًا: «لا بأس، فلتشربيه».

قرَّبت الدواء من شفتيَّ، وتوقفت؛ إذ إن الرائحة كانت لا تطاق. حاولت أن أتجلد قبل مداهمة نوبة الألم وتجرعته عن آخره في شربة واحدة، متجاهلة مذاق الأعشاب السكري والمر في آن واحد. فتلاشت الأعراض التي عانيت منها.

قالت السيدة: «أنتِ على ما يُرام يا ابنتي».

أعدت إليها الكأس، وراقبتها بينما ألقت بالصحن الخشبي لتلتهمه النيران. فاحترق، وأضحى رمادًا في غضون ثوانٍ معدودة. وعندئذ تساءلت: «هل يجب أن أخلع التميمة الآن؟».

نظرت المرأة إلى راث، رافعة أحد حاجبيها الفضيين. لم أنظر في الوقت المناسب لأرى رد فعله، لكن السيدة العجوز زمَّت شفتيها. وركزت انتباهها على عنقي قبل أن تنظر إلى عينيَّ مجددًا، وقالت: «كلا، لن تزعجك التميمة مجددًا».

قال راث: «فلتحذري يا سيليستيا».

ردت قائلة: «فلتُشهِر سيفك، أو لتضرب بقبضتك أكبر صخرة تجدها، ثم لتغرب عن وجهي. أتظن أنني لم أسمع عرضك الباهر لغضبك؟ لا شك في حمق دوميتيوس وماكادين. لكن الأكثر حماقة منهما سيفعل مثلما فعلت. ربما يظن البعض أن الخطايا الجديدة حماسية، لكن عليك أن تحذر يا صاحب السمو. فالآخرون يشاهدونك، ويهتمون بحاشيتك اهتمامًا خاصًّا».

- «فلتنتبهي لما تتفوهين به». هب غضبه في الأنحاء كعاصفة هوجاء. فابتسمَت، لكنه لم يكن تعبير جدة حنون نحو حفيدها، وإنما كان جامدًا وقاسيًا كالفولاذ. وكان تعبير راث أسوأ حين قال: «أنا لا أتلقى الأوامر منك».

قالت: «إذن فلتعدها نصيحة. وبغض النظر عن أية اعتبارات، من الرعونة ألا تخبرها».

قلت: «أجل، إنه لمن دواعي سروري أن أعرف ما تتحدثان عنه معًا». بعد أن زال ألمي، بدأت أشعر بالانزعاج. لقد كنت أعلم أن راث ما زال يخفي أسرارًا عني؛ أسرارًا رأت سيليستيا أيضًا أنه يحق لي أن أطلع عليها. وبعد ما حدث بيننا عند البحيرة، لن أقبل باستمرار هذا الوضع. نظرت إلى راث نظرة حادة، وقلت: «على أحدكما أن يجيب طلبي، والآن».

راحت سيليستيا تنقل نظرها بيننا، ثم قالت: «تلك مسألة من الأفضل أن تُحسَم بينكما، وبينكما فقط». وفي هذه المرة جسَّدت ابتسامتها المكر في صورته المحضة. أردفت: «مع أنك ربما ترغب في أخذها إلى معبد الغضب، بعيدًا عن أي كائن يمكن أن يسترق السمع؛ يراودني شعور بأنكما ستوقظان القلعة عن بكرة أبيها».

بهذه الكلمات أوصلتنا إلى خارج غرفتها العلاجية، ثم صفقت الباب الخشبي العتيق وراء ظهرينا. أخذت أحدق إلى الأمير. فبطريقة أو بأخرى كان عليه أن يخبرني بالحقيقة. ولم أستطع أن أعرف كيف علمت سيليستيا بسره، بينما لم أعلمه أنا، وأخذ ضيقي يتراجع مفسحًا المجال لغضبي. وهذا الانفعال لم يكن نابعًا من بيت الخطيئة الذي كنا بين جنباته.

تُرى كم شخصًا آخر في حاشيته على علم بالأسرار التي أخفاها عني، والتي تخصني؟ لم يكن مقبولًا أن أكون أنا الوحيدة القابعة في ظلمة الجهل.

قلت له: «أريد الحقيقة. لا للمزيد من الأكاذيب. فأنت مَدين لي بذلك».

بدا على وشك البحث عن سلاح ليشهره في وجهي. مع أن إحباطه لم يبدُ موجهًا إليَّ أو لسيدة اللعنات كذلك.

علّه كان غاضبًا من نفسه؛ إذ أيًا كانت اللعبة أو المؤامرة التي كان يحيكها، فقد انتهى أمرها. كما أنها لم تحقق المراد منها كما كان يأمل.

قال راث وهو يمرر يده بين خصلات شعره، ويخطو مبتعدًا عني: «اللعنة. كنت أظن أن أمامنا المزيد من الوقت، لكن بعد ما حدث الليلة صار من الواضح أنه لا يمكن الانتظار».



نقلنا راث إلى مكتبته الخاصة، وسحَر الغرفة بحيث تبقى أصواتنا بين جدرانها. وقفت أمام المدفأة الضخمة، أدفئ يديَّ. فمن برودة القلعة، إلى الإجهاد الذي اجتاحني إثر الألم، وردائي الرقيق، ورطوبة شعري، كنت أتجمد حتى النخاع.

كان الخوف يلعب دورًا هو الآخر في ارتجافي. هل من المحتمل أن ثمة فاجعة ما حدثت لعائلتي؟ ذلك أنني لم أكن واثقة بأنه لو أصابهم الأذى - أو ما هو أسوأ - لأخبرني راث بهذا.

كان يعلم أنهم نقطة ضعفي كما أنهم منبع قوتي بالقدر نفسه، وأنه لو أصابهم مكروه، فإنني لن أتوانى عن المساومة على العودة إلى عالمي وفسخ العقد مع برايد. وهذا كان من شأنه أن يعقّد مهمته، ومن ثم هو مبرر كافٍ لعدم صراحته معي.

لم يكن مزاج راث المتوتر مناسبًا لتهدئتي. ولقد سيطر على حواسي حتى توترت أعصابي بما يكفي لانهيارها.

أخذ يجوب الغرفة كوحش ضخم حبيس في قفص. وقبل لقائنا الحالم في البحيرة، ثم في الدهليز خارج مخدعه، لم أرَ قط سوى راث الهادئ؛ بل عندما كان يغضب لم يكن في مثل هذا الهياج والتوتر مطلقًا. لقد كانت رؤيته على هذه الحال مثيرة للقلق والحيرة. وكان انفعاله على سيدة اللعنات غير معتاد بالمثل. وفي بعض الأحيان يمكن أن يكون فظًّا أو متغطرسًا، أو مفعمًا بالاعتداد الذكوري بالنفس؛ لكنه لم يكن وقحًا في يوم من الأيام.

تحسست ذراعيَّ قائلة: «هلّا جلست، إنك تثير أعصابي».

سار نحو مكتبه، وسكب القليل من سائل اللافندر في قدحه، واحتساه جرعة واحدة قبل أن يعيد ملأه سريعًا، ويقدمه لي، فأومأت برأسي.

كان الانتظار غير محتمل. وكانت معدتي متشنجة بالفعل. وكنت أتوق إلى معرفة ما سيقول، ولماذا يؤثر فيه بهذه القوة. حتى حينما هاجم ماكادين لم يكن ثمة ندم أو هم من جانبه، لا شيء سوى القوة الباردة. لقد نفذ حكمًا، وكان منصفًا في وحشيته.

قلت بنبرة هادئة على غير المتوقع، وفي تناقض صارخ مع الخفقان الجنوني لفؤادي: «هل التأجيل ضروري حقًّا؟ فأيًّا كان ما ستقوله لا يمكن أن يكون بهذا السوء».

كنت أرجو ذلك.

توقف أخيرًا عن الحركة لينظر مطولًا إلى عينيَّ مباشرة. كان من المستحيل قراءة ملامحه. وخيَّم عليه هدوء يثير الأعصاب. حينئذ سرت رعدة في أوصالي؛ إذ ذكَّرني سلوكه بالقابلة التي تحمل أنباء قاتلة.

قال راث: «في مُستهل هذا المساء، سألتني لمَ وسمتك. وأنا غير متأكد من فهمك ما يفعله هذا الوسم، ولمَ يعد منحه أمرًا بالغ النُّدرة».

أخذتُ أحدِّق إليه، وأنا متفاجئة من تغييره المباغت للموضوع، ومن الدور الذي لعبه وسم الاستدعاء في هذا كله. لكنني أدركت على الأقل كيف علمت

سيليستيا بهذا السر، ذلك أن انتباهها كان قد تركز على عنقي، واعتقدتُ خطأً أنها تنظر إلى تميمة قرن إبليس.

أردف راث: «حسنًا»، محاولًا جذب انتباهي الشارد نحوه مجددًا. «ماذا تعرفين عنه؟».

أجبته قائلة: «قالت نونا إنه يسمح لأي كائن باستدعاء أي من أمراء الجحيم دون وجود شيء يخص ذاك الأمير. وأن هذا يعد شرفًا عظيمًا لا يُمنحه الكثيرون. وأن الأمير الشيطاني لا بد أن يجيب الاستدعاء دائمًا، ما دام حيًّا». عندئذ أضحت نبرة صوتي باردة قاسية: «لذلك كنت قد ظننت أنك ميت».

تراجع راث إلى الخلف، وتركيزه يهيم حولي، بينما يجري حساباته في هدوء.

قال: «بعد إصابتي بخنجر إنفي، لم أكن قد شُفيت تمامًا بحيث أقدر على الانتقال بين العوالم، ولم أدرك أن غيابي قد أغضبك». بادرته بنظرة حانقة بدت كأنها جلبت ابتسامة خبيثة إلى شفتيه. لكن سرعان ما تلاشت تلك النظرة، وأردف راث: «هل تعلمين لماذا يُمنح هذا الوسم بصورة نادرة للغاية؟».

قلت: «لأن الأمراء أوغاد مشاكسون لا يرغبون في أن يستدعيهم الآخرون وفق إرادتهم».

لاح على وجهه طيف ابتسامة أخرى قبل أن يتلاشى، وأوضح: «لأنه رباط سحري لا يمكن فكه أبدًا».

قلت: «محال، فالسحر بألوانه كافة يمكن إبطاله».

- «لكن ليس هذا الرباط، ولا بالموت كذلك».

- «لكنك خالد».

- «إذن، فلتتخيلي إلى متى سيستمر هذا السحر».

أخذ كل منا يحدِّق إلى الآخر، بينما جثم بيننا ثقل تلك الحقيقة. كنت أكافح لأستوعب هذه المعلومة، وآثارها. لم ينبس راث ببنت شفة، وعبس

وجهه بينما كنت أحاول التأقلم مع الصدمة. فإذا كان الرباط ليستمر حتى بعد الموت، فإلى أين سيصل هذا الأمر. إن روحَينا ستظلان مرتبطتين إلى الأبد. لكنني بعت روحي، ولم تكن لديَّ فكرة عما يعنيه هذا بالنسبة إلى رباطنا، أو بالنسبة إليه.

قال بصوت هادئ لكنه مشوب بنبرة آمرة: «إيميليا، فلتقولي شيئًا».

قلت: «أنت قلت لي أن أتجنب الكلام بصورة مطلقة؛ إذ إنه يميل إلى عدم الحسم أبدًا، أتذكُر؟».

- «هل تتذكرين أي شيء قلته في الليلة التي هاجمتك فيها الشياطين الأفعوانية؟».

اقترب راث، وهو يراقبني بدقة في كل خطوة من خطواته المحسوبة. تصورت أنه شعر بمدى قربي من الفرار، وكان يبذل قصارى جهده لكيلا أُقدم على أية حركة فجائية، وكذلك لكي يجعلني أتكلم. وكان انتباهه مرتكزًا على الوسم.

دون وعي، مددت يدي لألمس النقطة التي شوه فيها الرمز، الذي لا يكاد يُرى، بشرتي. كنت أشعر ليلتها بألم جارف عاقني عن استيعاب أي شيء قاله في تلك الليلة، ثم كنا في المغطَس معًا، وبعدها ببرهة بدأت الكوابيس تنهال عليَّ.

وقبل أن أفيق قال ...

قال راث: «لقد أخبرتك بأنك ستعيشين أَمَدًا طويلًا حتى تكرهيني. وكنت أقصد ذلك».

مد يده وتتبع جانب عنقي، وكانت لمسته في رقة الريشة، وقال: «تلك كانت الليلة التي وسمتك فيها. لكن ليس هذا كل ما في الأمر».

خفق الذعر بين جنبات صدري كأنه طائر حبيس.

راودني شعور مريع بأنني أعرف إلى أين ستصل الحال، ولم أرد أن يكون لي دور في ذلك. وأقسم أن وشم الخطبة بدأ الوخز، مذكرًا إياي بوجوده على جسدي، وكأنني نسيت.

أجبرت قدميَّ على البقاء ثابتتين على الأرض، مع أن الجانب الأكبر من كياني كان يرغب في الفرار واللواذ بجناحي، وإغلاق الباب، وعدم الظهور مجددًا أبدًا.

التفت وشرعت في السير مبتعدة، وقلت: «فلتتوقف». كان الخوف الجديد يتنامى داخلي، ولم أرد أن أسمع المزيد من اعترافاته. أردفت: «فلتعيدني إلى جناحي».

قال: «ليس قبل أن تعلمي الحقيقة كلها».

صار راث آنذاك يقف أمامي، ونظرته مسلطة عليَّ. كنت أحسده بالفعل على سرعته الخارقة. إنه لم يسعَ للوصول إليَّ مجددًا، ولم يعترض طريقي، أو يحاصرني في ركن من الأركان، لكن التعبير على وجهه كان يعد بأنه سيمكث قريبًا مني حتى أصير مستعدة لسماع اعترافه كاملًا. وكنت أعلم أنه سيظل إلى الأبد إن اضطر إلى ذلك، سينتظر حتى تفنى الشمس، ويخبو آخر نجم في السماء. وأنا ليس لديَّ مثل هذا الوقت لأضيعه.

أومأتُ أخيرًا، مانحة إياه الإذن بالاستمرار، وباجتثاث عالمي من جذوره مجددًا.

قال راث: «أتذكرين السحر الذي استخدمته، الذي ظننت خطأً أنه تعويذة معاودة الميلاد؟ لقد كان الوسم. لقد ربط مصيرينا، ودمجنا في كيان واحد، بصورة سمحت لقواي بعلاجك. لقد نجوتِ من ذاك الهجوم فقط؛ لأنني تشربت سم الحية الزعاف في جسدي عبر ذاك الرباط السحري».

إنه جسده الخالد، الجسد الذي لا يهلك، أو يفنى بالسم، أو بأي سبب آخر من الممكن أن يقتلني. عندئذ تنفستُ بصعوبة. لقد ربط راث نفسه بعدو لدود لكي أعيش فحسب. يا لخطورة ما فعله! وما أعظم تضحيته لينقذني في الليلة التي تعقبتُ فيها أثر تميمة شقيقتي، وحاربتُ الشيطان الأفعواني، وكدت ألقى حتفي! إن تلك التضحية زلزلت كياني كله. لا عجب إذن من غضبه من استخفافي بالأمر كله.

لقد كان الثمن الذي دفعه أغلى مما تخيلت يومًا. لكنني بدوري قد دفعت الثمن أيضًا.

أردف قائلًا: «لقد كان الوسم أكثر من مجرد وسيلة لاستدعائي، أو إنقاذك. فبسبب رباط سحري آخر نتشاركه، كان الوسم أيضًا بمنزلة قبول للمشاركة. أظن أنك تدركين مآل هذه القصة، لكن أترغبين في أن أواصل سردها؟».

كان قلبي يخفق سريعًا لانتقائه الكلمات. *قبول*. إننا لم نعد نتحدث عن وسم استدعائه والسحر الذي استخدمه لأخذ السم، بل عن خوفي الذي ما برح يتنامى حتى الآن. لم أستطع أن أنظر في عينيه. قلت: «لقد أبطلتُ التعويذة بعد ذلك».

قال: «أنت لا تبدين متأكدة. ومع ذلك كانت الحقيقة أمام عينيك دائمًا».

نظرت إلى الأسفل حيث الحبر الخائن على ذراعه العارية؛ تلك الوشوم السحرية التي لم تختف. وشككتُ في أن إبطال تعويذتي لم يجد نفعًا، لكنني نحَّيت هذه الشكوك جانبًا. لقد كان راث محقًّا. فأنا لم أكن راغبة في الاعتراف بما تعنيه. وما زلت لا أريد ذلك.

مد راث يده نحو يدي، لكنه توقف قبل أن يلمسني، وقال: «أتسمحين لي؟» أومأتُ له، فأمسك ذراعي في رفق، ورفع كُم رداء النوم الذي كنت أرتديه. ثم بسط ساعده بجوار ساعدي منتظرًا. توقفت الحقيقة عن التحليق حولي كطائر مذعور، وهدأت مستقرة داخلي.

لم يكن هناك شك في أن الوشمين كانا متناسبين بصورة مثالية. وأنا أعرف السبب.

رفعت نظري عن الوشمين ورنوتُ إلى مُحياه، ذاك المُحيا الملكي الهادئ البَهي، الذي بدا مُطلًا من السماء، والذي حطمني في الوقت ذاته. كان الترقب يقتلني.

حينئذ قال راث: «أتريدين معرفة الحقيقة كاملة؟ فلتسمحي لي بأن أفصح عنها دون مقابل. إن برايد لم يستدعك إلى بلاطه مطلقًا، كما أنه لن يحاول فعل ذلك أبدًا. على الأقل ليس للسبب الذي تعتقدينه».

قلت: «لأن ...»

كنت أعلم، أيتها الآلهة، لقد كنت أعلم. ومع ذلك كنت أريده أن ينطق بها جهارًا.

أردف قائلًا: «لأنك لست زوجته الموعودة يا إيميليا». ارتجَّ العالم تحت قدميَّ. لكن نظرة راث كانت ثابتة وراسخة بما يكفي لحمايتي وحماية العالم بأسره من الزلزلة. وعندئذ همس قائلًا: «أنت حبيبتي أنا».

عزيزي القارئ، إن كنت تقرأ هذا الكتاب من موقع إلكتروني أو على شكل كتاب مطبوع، فتأكد من أنك تقرأ كتاب مسروق وليس لمن أخذه الحق في ذلك، وهذه النسخة مجانية بشكل كامل على قناة ضَـــاد في تطبيق تيليجرام. فتأكد من أنك مشترك فالقناة وتحمل الكتاب منها. أعتذر على المقاطعة، قراءة ممتعة.

الثالث عشر

أنتِ لي أنا. تلاشى كل شيء في الوجود ما عدا تلك الكلمات الثلاث. وتبخرت صدمتي وإنكاري وحيرتي في الهواء. كنت كمن خطا من مكتبة راث عائدة إلى العدم والخواء. وشعرت بنبض فؤادي يخفق في كل خلية من خلايا جسدي. تردد صدى تلك العبارة بهدوء، وأخذ يربِّت على كل عصب من أعصابي، ثم استقر في حنايا قلبي.

شعرت بأن السحر الذي ربط مصيرينا دبَّت فيه الحياة بكل عنفوانها. فقد أيقظه اعتراف راث بصورة ما من سُباته، وأذن له ببسط ذراعيه على اتساعهما.

هذا المحارب المهيب، المفعم بعنفوان الشباب والقوة الخالدين، الذي يتجسد فيه الموت والغضب ... وعلى حين غرة، غمرتني إحدى الرؤى.

لم أستطع أن أميِّز ما إذا كانت هذه الرؤيا ماضيًا، أم مستقبلًا، أم مجرد خداع محض صنعه هذا العالم الآثم. تخيلتُ نفسي وقد صرت زوجة له، أنعم بحبه ودفء مشاعره، وأحيا بين جنبات قصره في أمان وسعادة إلى الأبد.

تمكنتُ من استنشاق نفس عميق متهدِّج، محاولة أن أفيق من تلك الرؤيا، وقد تسلل بعض الإنكار إليَّ مجددًا، وقلت لنفسي: «نحن ما زلنا خطيبَين».

لمعت عينا راث فجأة، كما لو كان يشاركني هذه الرؤيا الحالمة، ولا يزال يشعر بتلك العواطف الجامحة. لم تكن نبرة صوته الهادئة متناسقة مع حرارة الاشتياق في نظرته حينما قال: «أجل، سأكون زوجًا لك».

قلت: «زوجي! أنت لا برايد».

- «إيمليا ...»

- «من فضلك».

رفعت يدي لأوقفه؛ إذ هز شعور قديم أعماقي. تجاهلت هذا الشعور، وركزت على الغضب الذي أخذ يتنامى وينتشر مكوِّنًا أيكة من الأغصان المشتعلة، وحل محل أي شعور بالصدمة أو الإنكار، ثم حاولت أن أصفِّي ذهني. لا يمكن لهذا أن يحدث. لقد كان تطورًا يعقِّد الأمور، وينبغي أن أرفضه لعدة أسباب؛ أولها العهد الذي اتخذته على نفسي بالثأر لشقيقتي.

قلت: «لقد كذبت عليَّ».

ظل راث صامتًا عدة لحظات، ثم قال في هدوء: «على الرغم من ظروف ارتباطنا غير المُثلى، فإننا متناسبان على الوجه الأكمل».

حدَّقتُ إليه، دون أن يرف لي جفن. ففي ظل هذا التصريح الشاعري *القاسي*، من الذي سيرغب في الحب أو العاطفة؟ إنني إن لم أتزوج برايد من أجل تنفيذ مخططي، فلا بد أن أتزوج من أجل الحب. لقد كانت عبارة «متناسبان على الوجه الأكمل» خطأ فادحًا لا يناسب الموقف. فما زلت راغبة في تضييق الخناق على راث أكثر من مبادلته العاطفة. وكنت أحس بأنه يشعر تجاهي بالشعور نفسه. وربما أكد ذلك أننا *متناسبان بما* يكفي. إن ارتباطنا سيكون ارتباطًا مدنسًا قائمًا على الحنق.

سألته: «هل يعلم شقيقك هذا الأمر؟».

أجاب: «بالطبع».

بدا الأمير الشيطاني متأهبًا لانفجار عنيف؛ فكانت قدماه ثابتتين بقوة، ومتباعدتين قليلًا، وجسده مائلًا إلى الأمام. كان يستحق صفعة عنيفة

لإخفائه هذا الأمر عني، لكنني لم أستطع أن أدرك كُنه اعترافه وكلماته التي جعلت الدم يغلي فجأة في عروقي، على الرغم من براءتها.

سرَت حدة الإحساس في جسدي كله، وبصورة تكاد تكون خارقة للطبيعة. فقد شعرت بكل حركة من حركاته، من التململ الطفيف لقدميه إلى أنفاسه الثابتة. لكن شعوري الجديد به لم يخفف غضبي، بل جعله أكثر تحفزًا.

لقد أكملت تلك الحقائق الجديدة القطع الناقصة من الأحجية، فاتضحت الصورة أمام عينيَّ. إذا أضحيتُ عضوًا في بيت راث، فلن تتفوه البيوت الملكية الأخرى - بما فيها بلاط برايد - ولو بكلمة عن أميرها أبدًا. وهكذا ستكون آمالي وخططي المتعلقة بالحصول عن المعلومات التي أحتاج إليها عن زوجة برايد الأولى قد ذهبت أدراج الرياح.

قلت في نفسي: «هذا جنون».

لقد استوعبت الفوضى التي أحاطت بعالمي بعد مقتل فيتوريا، وصنعت ما يشبه النظام ولو بقدر ضئيل نتيجة مجيئي إلى هنا. وما كنت لأتمكن من تحقيق ذلك لولا عهدي لها.

والآن ... الآن خرجت حياتي مرة أخرى عن السيطرة بسبب الأشرار.

وبسبب راث تحديدًا. وهكذا انفجر بركان غضبي أخيرًا.

قلت: «إنك ما برحت تخبرني بأن الخيار متاح أمامي. فمتى يكون القرار بيدي بالفعل؟ بالطبع ليس عندما يتعلق الأمر بالبيت الشيطاني الذي أختاره؟ أو بالأمير الذي كنت أظن أنني مخطوبة له. ودعنا لا ننسَ تفضيلي الشخصي، عندما كنا في باليرمو وسألتك إذا كنت ستساعدني على المجيء إلى هنا، إلى الجحيم. لقد قلت إنك لن تجبرني أبدًا. ومن الواضح أن *الخداع* يعَد بديلًا مقبولًا للغاية. فتهانئي لك». ورحت أصفق في بطء. ثم أردفت: «أنت تعرف حقًّا كيف تلوي الحقائق، ولا بد أن أعترف بانبهاري بمهارتك».

لم يبدُ راث مستريحًا، لكنه أرخى وضعيته المتأهبة بعض الشيء. وأبصرتُ اللحظة المحددة التي استرجع فيها تلك الليلة التي كنت أتحدث عنها، عندما ظننت أنني فسخت خطبتنا بتعويذة للإبطال. حينها أقسم أنه

لن يجبرني على الزواج أو على أخذي إلى العالم السفلي. ومن الواضح أنها كانت أنصاف حقائق، إن لم تكن أكاذيب محكَمَة.

قال راث: «أنت ما زلت حرة. فليس عليك إتمام زواجنا».

عندئذ أشرتُ إلى وسم الاستدعاء.

وقلت: «وماذا عن هذا الرباط الأبدي؟ لا يبدو كأنه خيار. إنني أعي جيدًا أنك أيضًا ضحيت بالكثير، لكنك على الأقل كنت على علم بما أنت مُقدم عليه. وبغض النظر عن ذلك، كان يتحتم عليك أن تخبرني قبل الآن. فمن حقي أن أعرف».

قال: «لقد كان الوسم هو أمثَل بديل تفتقت عنه قريحتي آنذاك. وبسبب السم لم يكن لديَّ الكثير من الخيارات الأخرى قبل أن يوقف السم قلبك. وفي تلك الليلة طلبت منكِ أن تمنحيني الإذن بمساعدتك. لقد كان اختيارك. وأنت مَن اقترحت خطبتنا، وأنا وافقت».

وكأنني نسيت لكي يذكرني بذلك الخطأ الفادح. وتساءلتُ: «بديل لمَ؟».

أجاب: «لتأخير دوافع معينة تنبع من القبول».

قلت: «دوافع».

عندئذ أغلقت فمي بصوت مسموع حينما فهمت الأمر. وحينذاك تحركت كل مشاعري ورغباتي نحو راث، وصارت تعصف بي رويدًا رويدًا. وصارت تلك المشاعر تتغلب على عدم ثقتي به والشعور بخيانته لي الذي اجتاحني. ظننت أن ذلك الشعور ناجم عن تأثير هذا العالم فحسب، وميله نحو الرغبة وإذكاء العواطف البدائية. لكن الأمر لم يكن كذلك. فقد كانت مشاعر دفينة أكنُّها لمن سيصبح زوجي، وميلًا نحو إتمام زواجنا.

أيتها الإلهة في الأعلى. لقد كان راث زوجي الموعود.

كنت أخوض معركة على عدة جبهات دون أن أعرف؛ لذا لا عجب من أن مقاومة الإغواء كانت صعبة للغاية. لقد كنت أحارب رباط الزواج، وهذا العالم، وحثه لي على التعبير عن عواطفي دون الشعور بالذنب أو الخجل.

ولكي أكون صادقة، انبثقت مشاعري المتضاربة نحو راث قبل أن نأتي إلى هذا العالم بوقت طويل. فعندما هاجمه إنفي ونزف دمه أمام ناظريَّ، تغير شيء ما داخلي حينها.

وقبل ذلك، عندما كنت تحت تأثير تعويذة لاست، اشتقت إلى راث. وللحظة ما في تلك الليلة، بدا راغبًا هو أيضًا في تضييق الفجوة بينه وبيني.

أعدتُ نفسي إلى الحاضر قائلة: «هل قبول الخطبة يحرِّك مشاعرك؟».

قال: «إن إتمام الزواج والاحتفال التقليدي يقيمان رباط الزواج». حينئذ تفحص وجهي، ربما ليرى إن كنت سأضربه، وبالفعل كنت أرغب في ذلك، على نحو تصعب مقاومته، لكنه أردف: «أنت تبدين ...»

قلت: «غاضبة؟»، ورفعت حاجبي وأملت رأسي. ولقد كان حكيمًا بما يكفي ليعرف أن الصمت الذي خيَّم لاحقًا كان أخطر كثيرًا من رفع الأيدي.

- «إن كلمة *يحرِّك المشاعر* كلمة ضعيفة. فالخطبة تحث على إتمام الرباط. وعلى أحد المستويات، أنت تمتلكين تلك المشاعر بالفعل، وإلا ما وُجد شيء ليحث الرباط على فعله».

- «هل كان هذا العالم يحثني من قبل، أم أن مشاعري نتجت عن رباطنا فحسب؟».

- «كلاهما».

- «وما الذي يفعله وسم استدعائك تحديدًا؟».

- «إن وسمك يكبت تلك الدوافع المتعلقة بالزواج؛ لأنه في حد ذاته رباط لا يمكن حله بيننا. وإذا استطعت تصوره كماء متدفق، فسيكون أشبه بنهر يتفرَّع إلى جدولين أصغر منه. كل منهما يُضعف الآخر إلى حد معين، حتى يلتقيا مجددًا».

لا أعلم لمَ كان الوسم يؤلمني بشدة، لكن ذلك ما حدث على أية حال.

- «ما الذي يحدث إذا رفضت الزواج؟ هل ستظل عواطفي نحوك كما هي؟».

- «ستبقى الدوافع، لكنها لن تجبركِ على الزواج مني مطلقًا يا إيميليا. فليست هذه طبيعة الرباط. سيظل الاختيار بيدك دائمًا، كما هي الحال بالنسبة إلى أي رفيق آخر».

قلت ساخرة: «الخيار بيدي دائمًا، إلا إذا رغبت في الزواج من إبليس».

عندئذ تجمد راث في مكانه. فقد خرجت الكلمات من فمي قبل أن أعي معناها، أو تأثيرها على الأمير. فما دام هو أيضًا يشعر بتلك الدوافع نحوي، فلا بد أنه يُكن لي بعض المشاعر بالمثل.

وكان هذا ... كان هذا الأمر معقدًا للغاية بحيث يصعب سبر أغواره.

كنت أعلم أنه من الظلم لومه، خاصة أنني مَن أوقعته في فخ الخطبة منذ البداية، لكن لم يكن أمامي سوى التشبث بغضبي. ذلك أن كل مخططاتي ذهبت أدراج الرياح. فإذا لم أصل إلى بيت برايد، ربما لن أكتشف أبدًا ما حدث لشقيقتي التوأم. والسبب الوحيد لتوقيعي على ذاك العقد هو دخول جُحر الأفعى والحيلولة دون سفك دماء المزيد من الساحرات.

وهأنذا قد صرتُ في هذا العالم عالقة في وضع لا يسهِّل إنجاز مهمتي. إنني لم آتِ إلى هنا بحثًا عن الحب، أو لأكون أميرة بيت راث، بل جئتُ من أجل الانتقام. جئت لأصبح ملكة، ولأحطم الشيطان الذي قتل فيتوريا، ولأنقذ عائلتي والجزيرة بأسرها من خطر الشياطين الغزاة الذي لا يفتر. فإذا براث يقلب عالمي كله رأسًا على عقب.

سألته قائلة: «ولمَ السرية؟ لو لم تكن تريدني أن أوقِّع عقد برايد، لكان بإمكانك أن تخبرني بذلك في الكهف في تلك الليلة. لمَ لَمْ تطلب مني التحالف معك؟ إن إخفاءك الأمر عني ليس منطقيًا بحال من الأحوال».

قال: «سواء أكنت خطيبتي أم لا، أنت حرة في اختيار أي بيت خطيئة تريدينه. فلن أقف في طريقك ما حييت. وأنا لم أخبركِ لأنني لم أرغب في مجيئك إلى هنا».

- «ولماذا لا ترغب في وجودي هنا؟» زم راث شفتيه. لكنني ما كنت أنوي أن أسمح له بالمراوغة والهروب من الإجابة مجددًا، فأردفت: «فلتخبرني

بالحقيقة. فلتقل لي إن لهذا علاقة باللعنة وليس بشخص آخر تحبه. أريد أن أفهم لمَ تحتفظ ببعض الأسرار، بينما تفصح عن البعض الآخر».

- «لا أستطيع. فلترضي بالإجابة التي منحتك إياها».

تأملتُ في اختياره الكلمات؛ فثمة فرق شاسع بيّن *لا أستطيع* إخبارك *ولن أخبرك*. نظرت إليه بتمعن، لكن وجهه لم يبُح بأي جديد. فعلمت أنه إنما انتقى تلك الكلمات بعناية.

- «هل هذا سبب عدم قدرتي على الانتقال بين مجالس البيوت الشيطانية دون دعوة؟ ألأنني مرتبطة ببيتك كما هو مُفترض؟».

أومأ برأسه إيجابًا، وقال: «ومع ذلك تظلين في حاجة إلى حارس لخطورة تجولك في أنحاء هذا العالم بمفردك، وسنحتاج إلى وجود موفَد من كل بيت ليقابلك على حدود أراضينا. فبصفتك زوجتي الموعودة، فأنت تُعَدين شريكة الحكم المستقبلية لبيت راث. لذلك، سيعد ظهورك في أي بلاط آخر دون تحذير أو استئذان عملًا عدائيًّا».

قلت: «وماذا عن العقد الذي وقعته مع بيت برايد؟».

- «إذا أتممنا زواجنا، فسيصبح بلا قيمة».

- «وإذا لم نفعل؟ وماذا عن جرائم قتل الساحرات؟ هل ستستمر؟».

- «كلا، لن تستمر».

- «كيف يمكن ذلك؟ إن مهمتك بأكملها تدور حول العثور لإبليس على عروس. وذلك إن لم تكن حقًّا ...»

بدا راث كأنما يريد الإفصاح بالمزيد، لكنه إما لم يستطع أو لم يُرِد. وصمته المتنامي عزز شكي السابق في أن جرائم القتل لم تكن لها صلة باحتياج إبليس إلى عروس لفك لعنته. ما عنى أن الساحرات كن يُقتلن لسبب آخر عليَّ أن أكتشفه. وهكذا امتزج القلق بالغضب في نظرتي المصوَّبة نحو أمير الأسرار.

قال أخيرًا مبددًا الصمت: «إذا اخترتِ ألا تفعلي شيئًا، فسيرسَل العقد في النهاية إلى معبد المصير. ثم سيُعقد مجلس يضم ثلاثة أشخاص لحسم الأمر. وأنا لا أنصح بهذا المسار، لكنه خيارك على أية حال».

- «رائع. ماذا سيقرره المجلس؟ هل سيحدد إذن ما إذا كنت سأتزوجك أو أتزوج أحدًا آخر؟».

- «إنه سيحدد مصائرنا جميعًا».

حينها ندمت على عدم قبولي الشراب الذي قدَّمه لي من قبل. هززت رأسي محاولة تخفيف التوتر المتصاعد. فقد كان داخلي الكثير من الانفعالات المتصارعة. وسار راث إلى حيث كنت واقفة، ووضع القدح في يدي، ثم راح يحوم في الغرفة.

سألته: «كيف علمت أنني راغبة في الشراب؟ هل بإمكانك الشعور بعواطفي بهذا الوضوح، أم أنها منحة إضافية من رباط خطبتنا؟ أو لعله وسم الاستدعاء. حقًّا، من الصعب فهم جميع خدعك».

أجاب: «لقد نظرت إلى القدح يا إيميليا. فقرأتُ لغة جسدكِ ببساطة».

ظللت أراقب خطواته، وعقلي يدور مع دورات طوافه حول الغرفة. حينئذ بدأت جميع أفعاله تبدو منطقية. إنه لم يتركني أموت بفعل الطقس القارس لأنني كنت عروسه المقبلة. وللسبب نفسه بقي معي في ممر الخطايا، مع أن أنير قال إنه ليس مضطرًّا إلى ذلك. وعندئذ طافت ذكرى أخرى بخاطري. ففي باليرمو، ذكر أنير إتمام رباط الزواج وإنقاذ بيته، وشيئًا ما عن اكتساب القوة الكاملة. وعندما أتى ليأخذني من الكهف، لاحظت تغيرًا في قوته، فقد بدت مطلقة؛ لقد أضحى أقوى.

ربما يكنُّ راث بعض المشاعر أو الانجذاب الجسدي نحوي، ولكن، نظرًا إلى طبيعته، تساءلتُ عما إذا كان تصرَّف جزئيًّا من منطلق حب البقاء.

سألته: «هل رعاياك يعلمون؟».

قال: «أجل، هذا العالم كله يعلم».

إذن، هذا هو سبب جعله السيد ماكادين عبرة للجميع علنًا. فهذا السيد النبيل لم يعص أمرًا ملكيًّا فحسب، وإنما تحدى راث، وأهان زوجته المُنتظرة. والأمر نفسه ينطبق على القائد الذي هدم الجبل فوق رأسه؛ ذلك أنه هدد بقتل أميرة بيت راث. فإذا كان أي منهما سبَّب لي الأذى، فإن ذلك يعني تقليص سلطة راث إلى حد ما. ولقد كنت أعلم بدقة مدى تكالب أمراء الجحيم على القوة والسلطة واشتهائهما.

يطمعون بها بما يكفي لجعلهم لا يربطون أنفسهم إلا بمن يمكن أن يستمتعوا بصحبته من حين لآخر، لكن لا يمكن أن يحبوه من أعماق أفئدتهم إلى الأبد.

شخص يناسبهم على الوجه الأكمل.

لقد أزعجني اختياره الكلمات. حتى إنه لم ينكر وجود شخص آخر في حياته. شخص اختاره قبل أن أدمر عالمه.

كان راث قد ذكر أن بعض إخوته مهتمون باستضافتي في بيوتهم الملكية. إذن ربما حان وقت الزيارة.

قلت: «أريد منك أن تصحبني إلى بيت إنفي في الصباح. هل يمكن أن ترسل رسالة تخبره فيها بأننا قبلنا دعوته؟».

صمت راث برهة؛ وبدا كأنه لم يسمعني جيدًا. ثم أخذ يحدِّق إليَّ بتركيز شديد، حتى بدأت أقلق من قدرته على اختراق لحمي وعظمي والنفاذ إلى روحي مباشرة. حافظت على ملامحي هادئة، وفرضت على نفسي أفكارًا تحُث على السكينة؛ كجمع الأصداف على شاطئ البحر، والضحك مع شقيقتي وكلوديا، واحتساء الشراب، والتحدث عن موضوعات بسيطة.

أي شيء يبقي انفعالاتي تحت السيطرة.

وأخيرًا أومأ برأسه. لم يكن راضيًا، وقد بدا ذلك من توتره عند سماع طلبي، لكنه لم يكن يحاول أن يمنعني، أو يحبسني في الوقت ذاته.

فأنا لم أكن أميرته المدللَة. وحتى الآن كانت خياراتي لا تزال بيدي.

سألني راث: «هل أنت متأكدة من رغبتك تلك؟ حتى بعد ما ارتكبه إنفي؟».

أجبته: «أجل». ثم فكرت في طلبي اللاحق، وأردفت: «وأريد أيضًا علبة أدوات لرتق الملابس».

- «أنت لم تعودي في حاجة إلى حياكة ملابسك يا إيميليا، فثمة خيَّاطة يمكنها القيام بذلك».

- «وليكن، أريد واحدة للحالات الطارئة».

- «حسنًا. سأجعلهم يرسلونها إلى جناحك، وسأخبر أخي الليلة. هل من طلب آخر؟».

- «كلا، حتى الآن».

- «هيا إذن». ومد لي يده، وصوته ومحياه يشعان لطفًا ورقة إلى حد جعلني أرتاب بينما اقتربت منه. تجاهلت الومضة العابرة التي انطلقت بيننا، بينما أحاطت أنامله بأناملي. إن كان قد شعر بها أيضًا، ما كان ليفصح عن ذلك. حينئذ أردف: «سأوصلك إلى غرفتك لتحزمي أغراضك وسوف نغادر قاصدين بيت إنفي مع بزوغ أول ضوء للنهار».

الرابع عشر

طلب راث طلبًا بسيطًا واحدًا، وبريئًا على ما يبدو، قبل أن يتركني لأحزم حقيبتي من أجل زيارتي المرتقبَة. طلب أن أرتدي ثوبًا سيرسله في الصباح، ثوبًا يليق باستقبال أحد أمراء الجحيم. وبغض النظر عن أية دوافع خفية، كنت أعتقد أنه يضمر الكثير منها، فلم أرَ ضَيرًا من تلبية أمنيته، فوافقت على الفور.

أقنعتُ نفسي بأن قبولي السريع ليست له علاقة بوجود خطيبي في جناحي الخاص، واقفًا دون قميص بالقرب من سريري، ومجسِّدًا الإغواء قلبًا وقالبًا. كان محافظًا على المسافة بينه وبيني، على نحو يكاد يكون مؤلمًا، وما كان من شيء يمكنه فعله ليكبح شعوري به. بدت المساحة بيننا زاخرة بالتوتر والترقب في آن واحد. ولم أكن متأكدة مما إذا كان ذلك الشعور نابعًا مني، أم أنه شعر به أيضًا. فلقد عاد إلى كونه الأمير الغامض الذي كان ودودًا، ولكن الذي تصعب قراءة أفكاره في الوقت ذاته.

لم أكن في مثل هدوئه؛ إذ لم تزل عواطفي مضطربة بعد معرفة الحقائق، وكان يحق لي تمامًا أن ألجأ إلى الإنكار حتى أتأملها بما يكفي. وبعيدًا عن الأمير.

أخيرًا لاح ما يبدو كابتسامة الضحك على مُحيَّاه الهادئ الوقور، بينما أوصلته إلى عتبات جناحي، وأغلقت الباب فور سحبه قدميه مباشرة. وبعدئذ أسندت رأسي إلى الحائط وتنفست الصُعداء. قبل ذلك بساعة واحدة كان شعوري مختلفًا تمامًا. إذ كانت عواطفي مندفعة تجاهه.

أبعدت ذكرى لقائنا الشاعري خارج جناحه من مخيلتي. فاسترجاع دفء مشاعره لن يفيد بشيء في محاولة تصفية ذهني.

حدَّثت نفسي: «يا له من كابوس شنيع!».

هرعت إلى غرفة الاستحمام لنثر الماء على وجهي، فلمحت نفسي في المرآة، فأدركت على الفور سبب رد فعله الساخر وميله إلى الضحك. كانت عيناي السوداوان متسعتين وهمجيتين، وشعري مشعثًا بفعل غطسنا السابق في بحيرة المتاعب، وبشرتي محتقنة كما لو كنت قد عانيت حمى شديدة. كانت الفوضى الجامحة تجتاحني من أعماقي، وتبدو آثارها على مظهري الخارجي. لم يكن هذا بالطبع هو رد الفعل المثالي نحو الزواج الذي يعزز كبرياء أو ثقة أي رجل في الوجود. كما لو أن راث ينقصه أي منهما.

لمحت مصادفة تميمتي، فشغلتني قليلًا عن أفكار الأزواج والزوجات والروابط السحرية التي لا تنحل. وفي ظل ردة فعل إنفي نحو قرن هاديس في المرة الأخيرة، أردت أن أبعد قلادتي عنه؛ إذ لم أرغب في المجازفة باستعراضها أمام ناظريه أثناء إقامتي في بيته الملكي.

خلعتها، ووضعتها في قاع درج طاولة الزينة. ونويت أن أخبر راث بمكانها في الصباح. وبينما رحت أغلق الدرج، لاحظت شيئًا لم يكن موجودًا من قبل، وهو مرآة يد فضية، وفرشاة ومشط يتوافقان معها، فوق الطاولة.

لقد وضعت هذه الأشياء في وقت ما بعد أن اغتسلت من دماء السيد ماكادين. أعجبني النقش الدقيق، وذُهلت من مهارة اليد التي أبدعته. إنها هدية أخرى جميلة - ومختارة بدقة - من زوجي الموعود. عندئذ تنهدتُ لأنه إذا بدأ راث في التودد إليَّ، فإنني لست واثقة بأنني سأتذكر الأسباب التي لا تجعلنا رفيقين متناسبين؛ ويا لها من أسباب كثيرة.

أولًا، كان من أمراء الجحيم، أي إنه عدو لدود للساحرات. ثانيًا، كان مفعمًا ومليئًا بالأسرار، ولم يثق بي مثلما لم أثق به بصراحة كاملة. ربما كان يشعر بالانجذاب نحوي، لكن ذلك لا يضاهي الحب. لقد كنت أريد شريكًا حقيقيًا، مكافئًا لي وأهلًا للثقة. لكن راث سيحتفظ دائمًا بأوراقه المعهودة له وحده، ولم أكن واثقة بأنه سيشركني في شئونه يومًا. ومن منطلق الطبيعة الواهية لعلاقتنا الحالية، ربما لن أشركه في خططي أنا الأخرى.

أزلت جماجم الحيوانات ومشابك الزهور من رأسي، ثم مشطت خصلاتي المنسدلة محاولة في يأس أن أهدئ من خفقان قلبي. ولكن دون جدوى.

وضعتُ المشط، وعدتُ إلى مخدعي، وأخذت أذرع الغرفة جيئة وذهابًا حتى كدت أشعر بالإنهاك، وكنتُ متوترة بحيث لم يمكنني النوم. وبقدر ما كان تجاهل مشاعري جذابًا، كنت أحتاج إلى فك بعض التشابك قبل أن أغادر إلى منزل إنفي.

لقد كان راث أميرًا وسيمًا وأعزب؛ لذا لا شك في أن جميع فتيات طبقة النبلاء اللائقات به كن يطمعن بشدة في الارتباط به. ولا أنكر أنه كان متحفظًا بعض الشيء، ومتكبرًا، لكنه كان ساحرًا وبارعًا في الغزل عندما يروق له ذلك. حتى إنه وصف نفسه ذات مرة بـ«صاحب السمو الملكي ذي الجاذبية الآسرة». ولقد رأيت بأم عينيَّ مدى صدق ذاك اللعين. إنه إذا ركز انتباهه على شخص ما، أشك إن كان هذا المسكين يستطيع أن يقاوم تأثيره العاطفي أمدًا بعيدًا.

لقد كان يقترب من كل هدف بتخطيط بعيد المدى، لتصبح المسألة مجرد وقت فقط قبل أن يصل إلى مبتغاه ويستسلم من يسعى إليه في رضا لإغوائه المدروس. لقد كان عاشقًا سخيًا دون شك عند بحيرة الهلال؛ إذ كان يشعر بعواطفي كما لو أنه يستمد السعادة القصوى منها. وفي الواقع، طاف بخاطري أن الكثير من النساء قد دخلن عالمه، إما بدافع الطمع في الوصول إلى عرشه والتمتع بنفوذه، أو لمجرد الاستسلام لسحره.

توقفت فجأة عن السير إذ خطرت ببالي فكرة أخرى؛ فكرة أشعرتني بالوخز كالحسك الضئيل الموجود على صدفة سرطان البحر الذي كنا نقدمه في مطعمنا الصغير. لقد مرت بمخيلتي آنفًا، لكنها بدت حينئذ كأنها محملَة بعواقب أبعد أثرًا.

إن رات لم يعترف بالحب أو الإعجاب، وإنما قال إننا مناسبان تمامًا، أحدنا للآخر. ومع أنها لم تكن اللحظة الحالمة التي كنت أحلم بها، كانت تنطوي على الصدق.

لقد كنت أعرفه جيدًا بما يجعلني أوقن بأنه لن يجبرني مطلقًا على فعل شيء يتعارض مع إرادتي الحرة، وعلى الأقل لن أرتبط بإبليس. لكنني لم أستطع أن أمنع نفسي عن التساؤل عما إذا كانت هناك أخرى كان يفضل الزواج بها. فقبل أن أستدعيه دون قصد مني، وأصبح مخطوبة له، كان من الممكن أن تكون هناك حبيبة تسكن قلبه.

امرأة ربما يفكر فيها الآن. وحينما تقابلنا للمرة الأولى أوضح بما لا يدَع مجالًا للشك شدة مقته الساحرات. وإن كانت مشاعره تجاهي دافئة بعض الشيء، فلا يمكن بحال من الأحوال أن ترقى إلى مشاعر الحب الحقيقي. فتُرى هل من الوارد أن يحتفظ برفيقة له إذا أتممنا زواجنا؟

لقد جلبت تلك الأفكار معها شعورًا بعدم الارتياح راح يكدِّر صفوي.

ومهما حاولت أن أهدئ ذهني، لم أستطع التوقف عن التفكير في لقائنا العاطفي في البحيرة، ثم خارج مخدعه. لكن ذلك اللقاء لم يعنِ أنه يحبني. وذلك لأسباب عديدة، أولها أن العاطفة لا يمكن أن تمحو نقص الثقة بيننا، أو الأسرار التي احتفظ كل منا بها. إن العلاقة السليمة يجب أن تقوم على أساس راسخ من الصدق، وأنا لم أكن أعرف حتى اسمه الحقيقي.

فضلًا عن احتمال عدم سماح رات لنفسه بحبي حبًّا متكامل الأركان، كنت غير واثقة بقدرتي على السماح لنفسي بحبه. ربما أقع تحت تأثير جاذبيته وإغوائه، بل ربما أتزوجه، لكن أيمكنني أن أغفر له كل ما ارتكبه وأقبله كما هو، بكل أسراره؟ حقًّا لم أكن واثقة بذلك.

حدثت نفسي: «فلتساعديني أيتها الإلهة». فلقد كان الوضع كارثيًّا.

لقد كنت راغبة في إتمام زواج المصلحة مع برايد. وذلك فقط من أجل اختراق بيته وفهم كيفية ارتباط مقتل زوجته بمقتل فيتوريا. لكنني إذا ارتبطت براث ... لم أكن واثقة بالمساعدة التي يمكن أن يمنحني إياها هذا الارتباط فيما يتعلق بمهمتي.

وإذا منحني شيئًا، فلن يكون إلا المزيد من التعقيدات.

أخذت أتقلب على السرير، واستدعيت المورد. استجاب سحري على الفور، سعيدًا للجوئي إليه في حيرتي. وصنعت ما يضاهي حديقة من الأزهار المشتعلة ذات اللونين الذهبي والوردي، وجعلتها تحلّق إلى السقف، ثم عاد عقلي إلى الأميرين اللذين كانا يشغلان جُل تفكيري آنذاك.

لم أكن أعرف عن برايد سوى أنه إبليس. وكنت قد بدأت أعرف راث على نحو أفضل قليلًا، ووجودي بالقرب منه في بعض الأحيان خفف الألم في صدري. إنه لم يمحُ ذكريات شقيقتي - إذ لا يقدر أحد على ذلك - لكن عند وجوده معي، كان يراودني شعور آثم بالسلوى في التحدث معه.

رفعتُ قبضتي عن سحري، فإذا بالأزهار المشتعلة تحترق على مهل. ورحت أشاهدها بينما استحالت أوراق الأزهار إلى جمرات متفحمة تهبط نحو الأرض، وتنطفئ قبل أن تمس البساط. تنهدتُ، وفكري المشتت لم يزل يحول بيني وبين الإعجاب بسيطرتي المذهلة على سحري.

لم يكن رباط الزواج هو ما يزعجني؛ وإنما إدراكي أن عائلتي لم تفلح في جذبي من أعماق حزني، وأن الأمير الشيطاني هو من نجح في ذلك.

لبضعة أيام ظللتُ أكرهه لهذا السبب، لكن كان هناك جزء أكبر في كياني ممتن لعدم رغبته في السماح لروحي بالانطفاء. فقد ظل يحاول أن ينعشني حتى لم أعد راغبة في شيء أكثر من الوجود بصحبته. وبالطبع من الأفضل كثيرًا أن أكون غاضبة عن أن أتحوّل إلى شبح لذاتي السابقة من أثر الحزن والجزَع.

كانت ليلة طويلة مُسهدَة ولم يمد هذا العالم يدًا ليريحني؛ بينما تخبطت وسط عواطفي. لقد نهضت من سريري مرتين، واتجهت نحو الباب الخارجي، ويدي تحوم حول مقبضه، ثم نفضتُ عني هذا الميل، وعدت إلى نفسي، ثم رجعت إلى السرير.

إنني أتيت إلى هنا لاكتشاف حقيقة مقتل شقيقتي التوأم. وكلما ازداد تفكيري في فيتوريا، أضحى إبعاد نفسي عن تلك *الدوافع* الأخرى أسهل. وحينما لم تكن تلك الأفكار كافية، كنت أكرر الدخول إلى المورد، صانعة الكثير من الأزهار المتوهجة وبأحجام متفاوتة. وكنت أطفئ بعضها، بينما أزيد من شدة لهب الأخرى.

وعندما وصل الثوب قبل الفجر مباشرة، بالإضافة إلى خاتم غصن الزيتون الذي كان راث قد أعاده إليَّ في عالم البشر، فتحتُ الطرد بعينين دامعتين منهكتين، لكنني كنت سعيدة. كان عبارة عن ثوب من قماش الدانتيل الأسود من أوله لآخره، له كمان ضيقان، وكان طويلًا ضيقًا عند الخصر، لكنه لم يكن محتشمًا تمامًا. فالجانبان كانا مكشوفين من أسفل الجزء الأعلى من ضلوعي حتى خصري.

كانت تلك المساحة المكشوفة مصممة بتطريزات ذهبية متلألئة ذكَّرتني بالنباتات المعترشة المزهرة، وكان ثمة أفاعٍ ملتوية وسط تلك النباتات.

إذا كانت الأثواب تُمنح أسماء، لسُمي هذا الثوب *الإغواء* دون شك.

وهكذا، بينما خطونا إلى داخل بهو الانتظار الأخضر الزمردي الغامق على أعتاب قاعة عرش إنفي، وسط حشد من النبلاء المنتظرين الذين يرتدون أزياء حريرية ومخملية بشتى درجات الأخضر الغامق، لم يعد يخفى على أحد أن راث انتقى ثوبي ليحقق غاية أعمق.

كانت حلته المناسبة له تمامًا هي النسخة الرجولية من ثوبي. كانت السترة سوداء اللون، والصديري من اللونين الأسود والذهبي ومنقوش بالتصميم النباتي ذي الأفاعي نفسه، والقميص أسود أيضًا، بالإضافة إلى سروال من اللون نفسه. وكانت الخواتم الذهبية تومض في أصابعه، بينما تبدو أقرب

للأسلحة منها إلى الحلي. أمَّا تاجه، فكان مصنوعًا من أوراق الغار الذهبية المتشابكة مع الأفاعي السوداء اللامعة.

لم أرتد إكليلًا أو تاجًا، لكن راث ألبسني زيًّا بلونيه المميزين: الأسود والذهبي. ولقد كانت تلك طريقته في إظهار مكانتي الحقيقية لهذه الحاشية؛ بجواره كتفًا بكتف.

ومن منطلق الهمسات والنظرات الفضولية التي ما برحت تحتشد في طريقنا بعد أن أسرع المنادي إلى الداخل استعدادًا لإعلان دخولنا، اتضح أن خطة راث نجحت نجاحًا ساحقًا.

لا أبالغ إذا قلت إنني أدركت مخطط راث منذ اللحظة التي أخرجت فيها الثوب من غلافه الغامق. فأميري لم يكن ماكرًا كما ظن نفسه. أو عله لم يقصد أن يكون ماكرًا على الإطلاق. ففي المرة الأخيرة حينما رأى إنفي، أقدم أخوه على إخراج أمعائه. وربما يتعلق هذا الاستعراض بعداء خاص يدور بينهما.

ومع ذلك، من الممكن أن تلك كانت طريقة راث لضمان أن يفكر أي فرد من أفراد هذه الحاشية مرتين قبل أن يجرؤ على المساس بي. لقد كان يعزز سلطته ويقويها، ويزعج أخاه في الوقت نفسه. وكنت واثقة بوجود لمحة كامنة من المروءة بالمثل.

إن راث لم يُرد أن يصيبني أي أذى. كنت واثقة بأن ذلك هو الدافع الحقيقي وراء أفعاله، أكثر من أي شيء آخر. وهذا هو سبب إصراره على ارتدائي هذا الثوب الذي يعلن أنني عضو في البيت الملكي شأنه شأن وشومنا السحرية ووسمه الملكي.

لقد كان يسبغ حمايته عليَّ، والأحمق فقط هو من يرفضها ويدير لها ظهره. ربما كنتُ حمقاء من قبل، لكن - والشكر للآلهة - كنت أتعلم سريعًا.

أشار المنادي إلى حارسين يقفان بجوار الباب المزدوج، ثم قرع بعصا ذات طرف زمردي الأرض. حينئذ فُتح الباب على مصراعيه، كاشفًا عن المشهد الأول الذي تلمحه عيناي لبلاط إنفي الملكي. كانت الأرضية

الخضراء الداكنة المكسوة بالمرمر ممتدة عبر القاعة التي تشبه دور العبادة الكبيرة التي تحتوي على صفوف من الأعمدة المتماثلة على كلا جانبي ممر طويل. وكانت ثمة جماعات من أفراد العائلة الملكية أنيقي الثياب تنتشر في حلقات صغيرة عبر أنحاء القاعة، وكان انتباه هؤلاء مثبتًا على المنادي. وعلى الشخصين الواقفين خلفه، في انتظار دخولنا.

لم يعرهما راث انتباهًا، مع أنني أشك في أنه تفحص بالفعل منافذ خروج الحراس ووضعيتهم. آنذاك كان قائد الحرب مختفيًا خلف الأمير البارد. كانت الغطرسة تقطر منه كما لو كان يتوقع اهتمام هذه الحاشية، فلم يندهش منها. نظرت متخطية الحشد، ومتجاهلة نظراتهم المحملقة حتى وقع بصري على المنصة. كان الأمير إنفي - أمير الحسد - جالسًا في استرخاء على عرشه، وعلى وجهه تعبير ينم عن عدم الاكتراث التام. بدا كأن ثمة عددًا لا يُحصى من الأماكن الأكثر تسلية التي يفضل الوجود فيها، وعددًا لا حصر له من الأشخاص الآخرين الذين يحبذ صحبتهم. لا بد أن ذلك كان تظاهرًا منه؛ إذ لا شك في أنه شعر بأخيه، وبموجة عدم الارتياح التي كانت تجتاح القاعة.

وبعد لحظة صمت حافلة بالمعاني أحدثت تأثيرًا هائلًا، كسر صوت المنادي الصمت المطبق قائلًا: «صاحب السمو الملكي الأمير راث أمير بيت الغضب، قائد الحرب وأحد الأمراء السبعة، والسيدة إيميليا دي كارلو سيدة بيت الغضب».

لم يدر بخلدي أن القاعة يمكن أن تصبح أكثر هدوءًا من ذي قبل، لكن هذا ما حدث. توقف الهمس. وتجمدت الأقدام المتململة. شعرت حينها بأن البلاط كله تحول إلى حجر، فيما عدا أميره. ففي اللحظة التي أعلن فيها عن دخولنا، اعتدل إنفي في جلسته، وحل الاهتمام محل التعبير اللامبالي بينما تقدمنا على مهل عبر الممر. فأخذت أرمقه من كثب.

كان يرتدي سترة مخملية مشقوقة الذيل بلون غابة دائمة الخضرة، ويتخذ تاجًا فضيًا مرصعًا بالجواهر. كان شعره الأسود الحالك مختلفًا عن آخر مرة رأيته فيها؛ إذ كان أقصر على الجوانب وأطول قليلًا من المقدمة. أظهرت

قَصَّة شعره الجديدة خطوط وجهه وزواياه العنيفة، بالإضافة إلى عظمتي وجنتيه الحادتين بما يكفي لشق الصدور عن القلوب. وكان شعر وجهه غير ظاهر تقريبًا فيما عدا ظلًا خفيفًا عزز مظهره المتجهم القاسي.

لو لم أكن أعلم أي نوع من الوحوش الهمجية يتربص خلف جلده، لخدعتني تلك القسمات الفاتنة.

حاولت ألا أدع الذعر يظهر عليَّ بينما مرت عيناه ذواتا اللون الأخضر غير الطبيعي على أخيه سريعًا، ثم أخذتا تحدقان إلى وجهي. إن إنفي كان قد اختطف عائلتي، وتسبب في الأذى لراث، بينما كان يسعى للحصول على قرن هاديس؛ لذا لم يكن من مبرر للإعجاب أو الوثوق به أثناء زيارتنا.

كل ما هنالك أنني أردت استغلاله لتحقيق غايتي.

قال إنفي: «أرى يا أخي أنك أحضرت ساحرة الظل الخاصة بك». عاد الضجر يعلو صفحة وجهه، مع أنني أقسم أن شفتيه ارتعشتا قليلًا بينما توتر راث بجواري. أردف قائلًا: «لم أكن أظن أنك راغب في أن يشاركك أحد فيها. لكنك ألبستها ثوبًا يثير الإعجاب حقًا، إذ يكشف عن بشرة جديرة بالتقديس. لذا أعتقد أن الوقت قد حان لأصبح متدينًا، أليس كذلك؟».

لولا حاجتي للحصول على المعلومات ما أبقيتُ فمي مطبقًا.

لكن راث قال: «يبدو أن أخلاقك ذهبت أدراج الرياح بصحبة شعرك الذي قصصته». وضغط على يدي في رفق، ثم استطرد: «إن السيدة إيميليا تفضلت بقبول دعوتك. ولو كان الأمر بيدي لنصحتها بإحراقها وارسال الرماد إليك ممزوجًا بكومة محترقة من روث كلاب الجحيم».

قال إنفي: «حسنًا إذن، أنت لم تكن رجلًا كيِّسًا يومًا. فلتترك السيدة ولتذهب أنت من هنا».

- «سأرافقها إلى غرفتها قبل أن أرحل».

- «كلا».

عبس وجه راث ببطء وعلى نحو يوحي بالتهديد، بينما قال: «لم يكن هذا طلبًا. سأوصلها إلى غرفتها، ثم أرحل».

ساد التوتر بغتة بين الأخوين كأنه جيش متحفز ومتأهب للهجوم. لم تواتني الجرأة لأنظر خلفي، لكنني سمعت حفيف أطراف الملابس وهي تتحرك على الأرضية، بينما تراجع أفراد الحاشية ليبتعدوا قدر استطاعتهم عن الأميرين.

عندئذ تساءلت في نفسي عن عدد المرات التي تقاتلا فيها، وعما إذا كانا يستخدمان السحر أو السلاح أو كليهما.

لم يغض أي من الأميرين الطرف عن نظرة الآخر المصوبة نحوه، وكل ما فعلته هو أنني أدرتُ عينيَّ في محجريهما، بينما واصلا التحديق في غضب، حتى إنني ظننت أنهما سيتعاركان بين لحظة وأخرى.

أخيرًا تراجع إنفي، وراح ينقر بأصابعه المختفية وراء القفازين على مسندي كرسي العرش. وكانت نظرته تنتقل بيني وبين أخيه، بينما عادت إلى وجهه تلك الابتسامة المتكلفة الساخرة.

قال: «حسنًا. إذا كان ذلك سيجعلك ترحل من هنا سريعًا، فسأسمح به». وأشار بذقنه إلى خادم فضي الشعر ينتظر في الجوار، فهب الشيطان نحو الأمام على الفور، متحفزًا لإرضاء أميره. وأردف إنفي: «فلتصحب أخي ودميته إلى جناح إقامتها الخاص. وإذا لم يرحل خلال ربع الساعة، فلتستخدم القوة. إن كرم ضيافتي وإنعامي على بيت راث يصلان إلى هذا الحد فحسب. ومقابل كل دقيقة يبقى فيها زيادة على الوقت المسموح، سأخطط لمكيدة مبتكرة أوقع فيها ساحرته الغالية».

راقبت راث بطرف خفي، ولكنه لم ينجَر هذه المرة وراء الطعم الذي ألقاه إنفي له. فاكتفى بالإيماء برأسه إيماءة خفيفة، ثم أدار ظهره لأخيه. فأدركت سريعًا أن رد الفعل هذا ربما يكون استعراض التجاهل الأكثر جرأة الذي يمكن لراث أن يقوم به.

إن تصرف راث يبين أن إنفي غير جدير بخوفه، حتى إنني كدت أسمع صوت أضراس أمير الحسد وهي تصطك، بينما سرنا مبتعدين.

وبصدق، اندهشت لعدم إثارة هذا التصرف القتال. لقد دخل راث بلاط شيطان آخر، ولم يبدُ أحد متعجبًا من أوامره، أو من استجابة أميرهم

السريعة بعض الشيء لتلك الأوامر. ربما سمعة راث ومنصب قائد الحرب الخاص به جعلاهم حذرين.

وضع راث يدي على ذراعه، بينما شققنا طريقنا إلى خارج قاعة العرش، وخلفنا الخادم، ثم إلى أعلى سلم فخم.

كانت قلعة إنفي مزخرفة بدرجات اللونين الفضي والأخضر مع بضع مسحات من اللونين الأسود والأبيض. سرنا على أرضية على هيئة رقعة الشطرنج فابتسمت في أعماقي حينما انتبهت إلى تصميم تلك الأرضية. فلم يعدُ ضيوفه كونهم قطعًا من الشطرنج التي تتحرَّك بمحاذاة دهاليز أنيقة الأثاث، بهدف إثارة مشاعر الحسد. فمن درجات اللون الأخضر العديدة إلى مظاهر الثراء التي لا حصر لها، كان كل ما يحيط بنا يعزف على وتر الخطيئة التي تحكم هذا البيت.

اصطفت التماثيل المنحوتة من المرمر على جانبي الدهليز البرَّاق، لكنني لم أظهر اهتمامي بها إلا بلمحة عابرة؛ إذ لم أرد أن أستسلم إلى مشاعر الغيرة النابعة من وفرة وتدفق الفن الخلاب من حولي. ولم يكن راث قد ضبط ضغط قبضته، لكنني شعرت بالتوتر يفيض منه كلما تعمقنا داخل عرين أخيه، وصارت قبضته أقوى علينا.

تفرَّعت بسطة السلم التالية إلى جناحين، وأرشدنا الخادم إلى ناحية اليمين.

توقف الخادم قبالة باب بالقرب من نهاية الممر، ثم انحنى قائلًا: «هذا جناح السيدة. حقيبتها في الداخل. هل تحتاجان إلى أي شيء آخر؟» أومأ راث؛ فتنهد الخادم، ووجَّه انتباهه نحوي، وأردف: «فلترنني الجرس إذا احتجت لأي شيء».

قبل أن يتمكن راث من أن ينهر الشيطان، ابتسمت له ابتسامة دافئة، وقلت: «شكرًا لك».

ظل الخادم متجمدًا مكانه لحظة، ثم أومأ مرة واحدة وسرعان ما اختفى عبر الدهليز الذي أتينا منه. راقبه راث وهو يذهب قبل أن يلتفت إليَّ مجددًا، ويقول: «إن الخدم لا يتوقعون الشكر على أداء وظيفتهم».

قلت: «ينبغي أن نقدِّم الشكر إلى كل من يعمل أو يقدم خدمة توفر لنا الراحة».

رمقني راث وعلى مُحياه تعبير مبهم قبل أن يستكشف الغرف المخصصة لإقامتي. وراح يفحص كل ركن وزاوية وذرة غبار كذلك، كما لو كان يتوقع انقضاض مخلوق شنيع ومهاجمتنا.

أو ربما أدت كل تلك الدرجات من اللونين الأخضر والفضي إلى تشتيت تركيزه.

مضيتُ في إثره، محاولة عدم الامتعاض من اختلاسه النظر أسفل السرير ذي المظلة، ثم جذبه الستائر وخبطه على النوافذ. بعدئذ دلف راث إلى غرفة الاستحمام، ويده على خنجره، وعلى وجهه تعبير عنيف. لم أستطع أن أميز حينها إن كان أميرًا من أمراء الجحيم أم حارسًا شخصيًا لي.

عضضت على شفتي لأمنع نفسي من الضحك، وهو يمسك بإبريق ويهزه برفق، ثم يُدنيه من أنفه. لقد شككت في أن إنفي قد سكب فيه السم، لكن راث لم يدع أي شيء للمصادفة.

عندئذ لمح عينيَّ، فصوَّب نظرة رهيبة نحوي قائلًا: «هل ترينني مضحكًا؟».

قلت: «في الوقت الراهن؟ أجل، للغاية».

وضع راث الإبريق جانبًا، وسار نحوي في بطء وتأنٍّ. حينئذ ظهر الوحش الذي أخفاه بصعوبة تحت الملابس الأنيقة. لم يكن مظهره المتحضر سوى قناع؛ مجرد وسيلة لإخفاء جوهر طبيعته. حينئذ صار الصياد القابع داخله في أوج ثورته وطريدته نصب عينيه.

سرت رعدة في أوصالي قبل أن تتلاشى ابتسامتي وأتراجع إلى الخلف. لم يتوقف عن تقدمه حتى احتك فخذاي من الخلف بالسرير. عندئذ توقف،

مانحًا إياي فرصة للهرب إلى الناحية الأخرى. لكنني لم أتحرك، وظللت حيث كنت.

تقدم راث خطوة أخرى إلى الأمام، ثم توقف، سامحًا لي بفرصة أخيرة قبل أن يصل إليَّ. لم أتمكن لا من الجلوس أو البقاء واقفة. فالجلوس سيسبِّب المتاعب، والجلوس أسوأ؛ إذ سيجعلنا متقاربَين للغاية. فبقيت كما أنا.

صار راث حينئذ شديد القرب مني، حتى كدت ألامسه. وإحقاقًا للحق، لم أشعر بالخوف منه ألبتة.

قال راث وفي عينيه نظرة غامضة: «ما رأيك الآن؟ هل ما زلت ترغبين في الضحك يا سيدتي؟».

تسارعت دقات قلبي، إذ أوحت لي نظرته المشتعلة بأنه كان يعرف ما شعرت به في تلك اللحظة تمام المعرفة. فأخذت نفسًا ليمنحني الثبات، ثم أخرجته ببطء.

سألته قائلة: «إذا قررتُ العودة، فهل أحتاج إلى إرسال طلب إلى بيتك؟».

اختلجت عضلة في أحد فكَيه، ما دل على أنه انزعج من اختياري الكلمات، ولم يكن راضيًا عن احتمال عدم عودتي. وبدلًا من الشجار، أو إصدار أي نوع من الأوامر المتغطرسة، تراجع راث إلى الخلف وأمسك بيدي، وقلَّبها برفق على ناحيتها الأخرى، ثم رفع راحتي نحو شفتيه، وقبَّلها قبلة بريئة حانية، ثم أطبَق أناملي عليها. وسرت حرارتها في ذراعي، مانحة دمائي الدفء، فرغبت في وجوده والبقاء معه. لكن حنانه غير المتوقع لم يفلح في جعل الأمور بيننا أقل غموضًا وتعقيدًا.

قال: «بيتي هو بيتك يا إيميليا، فأنت لا تحتاجين إلى دعوة. حينما تقررين العودة، سأرسل من يرافقك». اقترب من السرير، وأردف: «فلتجلسي. لديَّ شيء أريد أن أمنحك إياه».

انتقل انتباهي إلى ثغره، لكنني أعدته إلى الأعلى سريعًا، وأنا أقاوم سحر هذا العالم القائم على الإغواء، ورباط زواجنا المُلح، وجاذبية راث.

لم يكن الوقت مناسبًا للتفكير في تلك المشاعر.

لم يقل أية كلمة، ولم يبتسم في سخرية، لكنني كدتُ أشعر بسعادته بينما كنت أصارع مشاعري. وهكذا جلست في هدوء على طرف السرير.

جثا راث على ركبتيه على مهل، ثم رفع قدمي اليسرى، ووضعها على فخذه مفتولة العضلات. هممت بأن أسحبها، لكنه ثبتها في مكانها، وكلانا يعلم أنني أستطيع أن أفلت من قبضته إذا رغبت في ذلك حقًا؛ لذا بقيت ساكنة.

قال راث: «إذا أردنا أن نتم زواجنا، فلن يكون في بيت أخي، فأنت تستحقين ما هو أفضل من ذلك». ثم انتظرني حتى أسترخي، وكأن الاسترخاء ممكن بعد ما قاله من فوره، ثم شرع في رفع ردائي، وتوقف بالقرب من ربلَة ساقي، ثم نظر إلى عينيَّ قائلًا: «فلتثقي بي».

قلت: «بالطبع سأثق بأمير الأكاذيب».

تقبل راث الإهانة بصدر رحب. وحينئذ جال بخاطري وشمه، وكيف أن الأفعال أثمن كثيرًا في نظره من الكلمات. إن الثقة قيمة تُكتسب، ولكن لاكتسابها، سأحتاج إلى أن أوفر له نقطة انطلاق يبدأ من عندها. وكان على أحدنا أن يتخذ الخطوة الأولى.

أومأتُ له بأن يستمر. فجمع أطراف ثوبي في قبضته ورفعها إلى ما بعد ركبتي، حتى وصلت إلى منتصف فخذي. لكنه لم يبعد تركيزه عن وجهي ولو مرة واحدة، ولم يسمح لبشرته بملامسة بشرتي. كما أنه حرص على ألا يكشف سوى ساقي اليسرى.

قال: «هنا». وأشار بذقنه إلى أطراف ثوبي. «فلتمسكيها هكذا».

أخذتها من يديه وراقبته بينما سحب الغمد الجلدي من داخل سترته. ثم استل الخنجر الرفيع ورفعه لكي أتفحصه. كانت ثمة زهور برية منقوشة على مقبضه، وراح النصل الفضي يلمع عاكسًا إعجابي به.

قلت: «إنه بديع».

قال راث: «إنه يكفي في الوقت الراهن». ثم أعاد الخنجر إلى غمده وربط الحزام الجلدي حول فخذي، مثبتًا الإبزيم في موضعه. ثم دس أحد أصابعه تحت الحزام، ونظر للأعلى متسائلًا: «هل هو أضيق من اللازم؟».

أجبته: «كلا، إنه مناسب تمامًا».

- « فلتقفي ولتسيري لأتأكد فحسب». تراجع إلى الخلف سريعًا، وأشاح بوجهه حتى عدَّلت ملابسي وانتصبت واقفة، ثم سرت في الغرفة، وأخذت أقطعها جيئة وذهابًا. فسألني: «هل هو على ما يرام؟».

قلت: «أجل، شكرًا لك. لكن كيف علمت أنني عسراء؟».

نظر راث إلى الأسفل حيث السلاح الذي صار مُخفى الآن، وقال: «أنت تفضلين استخدام يدك اليسرى عند تقطيع الخبز أو احتساء الشراب». ودون أن يمنحني فرصة للرد، أضاف بخشونة: «عندما ترغبين في العودة إلى البيت، فلتبعثي برسالة، وسوف أعود من أجلك».

- «أنا ...»

لم أعرف ما يجب عليَّ قوله. فإذا عدتُ، هل سيُعَد ذلك دليلًا على قبولي زواجنا؟ لا شك في أنه كان هنالك انجذاب بيننا، لكن هذا الشعور ربما كان منبثقًا من السحر الذي لا يكف عن إغوائنا معًا، لكي نصبح روحًا واحدة بمعنى الكلمة تمامًا. وليس ثمة ما يؤكد ما إذا كانت تلك المشاعر ستظل متأججة بعد زواجنا.

كما أن لديَّ خططًا أخرى لحياتي، كالعودة إلى عائلتي. واختيار راث كان يعني غلق الباب في وجه حياتي القديمة إلى الأبد. ربما تمكنت من زيارة عائلتي من حين لآخر، لكن عالمي سيتمزق أكثر مما كان عليه بالفعل. وأنا كنت مؤمنة بأن الحب الحقيقي ينبغي ألا ينتقص من حياة المرء، وإنما يضيف إليها ويُثريها.

قلت: «من الأفضل أن أستقر».

حافظ الأمير الشيطاني على ثبات التعبير المرتسم على وجهه، لكنني أبصرتُ وميض عاطفة في نظرته لم يكن سريعًا بما يكفي ليتمكن من إخماده قبل أن أراه. وقبل أن أتمكن من قول وداعًا، تلاشى وسط الضوء والدخان الأسود اللامع، تاركًا إياي أواجه مصيري الذي اخترته.

وهكذا بدأ مخططي الأحدث عهدًا.

الخامس عشر

لم يكن لديَّ الكثير من الوقت لأجلس وأمعن النظر في قراري. فبعد رحيل راث ببرهة قصيرة، جاء خادم ومعه صندوق ثياب ورسالة من سيد هذا البيت. وفي غضون أقل من ساعة، كنت أتناول العشاء مع أمير هذا البلاط في مقر إقامته الخاص. وكان من الواضح أن إنفي لم يرد جمهورًا يحضر لقاءنا. أو عساه لم يرغب في مشاركة «تحفته» الجديدة، كما قال ذات مرة.

أخذت أعصابي تطن كسرب حبيس من النحل داخل جوفي. لقد كان إنفي عديم الخلق، لكنني كدتُ أكون واثقة بأنه لن يؤذيني آنذاك. ليس وأنا بين جنبات هذا العالم، كما أن الإقدام على ذلك من شأنه أن يشعل فتيل حرب بين بيتي راث وإنفي. فمن المؤكد أن كوني عضوًا في بيت راث أمر له بعض المزايا السياسية. فأنا لم أعد مجرد ساحرة دون بلاط ملكي شيطاني يحميها. وعلى إنفي أن يفكر مليًّا قبل أن يغرز خنجره في ظهري.

مع ذلك، لم تخفف كل تلك الاستدلالات المنطقية من قلقي.

لقد كان من الصعب إبعاد طيف الليلة التي حبس فيها والدَيَّ *رهينتين*، ثم استولى على منزلنا. وكنت لم أزل غير قادرة على تصديق أن نونا أعادته إلى العالم السفلي باستخدام سحر لم أعلم أنها تمتلكه. فتلك الدوامة الدوَّارة كانت أحد أغرب الأشياء التي رأيتها يومًا.

نحيتُ تلك الذكريات جانبًا، وركزت على الوقت والمكان اللذين كنت فيهما. واسترجعت ما قاله راث عن المنتصرين والضحايا. وفي تلك الليلة كنت عازمة على أن أكون من المنتصرين. فلقد أتيت إلى هنا لكي أحصل على المعلومات.

وكنت عازمة أيضًا على بذل كل ما في وسعي للنجاح في مهمتي. وإذا كان عليَّ أن أرتدي الثوب الذي أرسله عدوي، فليكن ذلك؛ إذ ما أبخسه من ثمن. سأرتدي ثوبه السخيف، وأجلد بسياطي، بينما أعد الدقائق حتى أصل إلى غايتي الحقيقية.

حدثت نفسي: «لنرَ الثوب الذي انتقيته يا أمير الغيرة».

فتحت الصندوق، فأصابني الذهول. لقد كان الثوب خلابًا، ذلك أنه كان من المخمل الأخضر الداكن إلى حد قربه من السواد، وله كمان طويلان ضيقان، وصدار ملتصق بالجسم ومفتوح حتى خصري، وتنورة فضفاضة مُنسابة.

كان ثمة زمردة واحدة في حجم بيضة الغراب معلقة في سلسلة فضية برَّاقة. وعلى الأرجح كانت تلك القلادة التي لا تُقدَّر بثمن سلاحًا جذابًا يتمنى إنفي أن أستخدمه ضد أخيه. عندئذ تصورت تعبير راث وهو يختلس النظر إلى هدية إنفي وهي تتلألأ على صدري.

كان من الواضح أن المنافسات السفيهة المبذرة لم تكن تسلية سخيفة مقتصرة على عالم البشر فحسب.

لوهلة فكرت في أن أظل مرتدية ثوبي الذي كنت أرتديه بالفعل، لكنني رأيتُ أن إنفي ربما يكون أكثر قابلية لمشاركة المعلومات إن لم يكن مغتاظًا من ملابس بيت راث التي تُشعره بالإساءة. كما أنني لم أرغب في الهبوط إلى مستوييهما من الاستعراض الملكي التافه.

بعد أن ارتديت الثوب، وثنيت الكمين لأظهر ساعدي، وضعت القليل من مساحيق التجميل الحمراء على وجنتي وشفتي ثم أخذت القلادة. كانت الجوهرة مثالية؛ ولا شك في أنني كنت سأثير غيرة وحسد كل من يراها.

كنت قد أتممتُ ارتداءها حول عنقي، حينما دخل خادم إلى غرفتي.

قال: «أيتها السيدة إيميليا، إن كنت جاهزة، فسأوصلك إلى قاعة الطعام».

كنت أرغب في قضاء بضع لحظات بمفردي لأمارس أي استدعاء سحري تحسبًا لخروج الأمور على السيطرة، لكن بضع ساعات أيضًا لن تعوّض سنوات التدريب التي أضعتها. ابتسمت إلى الخادم قائلة: «فلتوصلني من فضلك».

بينما سرتُ نحو الباب، لمحت صورتي منعكسة في مرآة ضخمة. فوجدت أنني بدوت مستعدة لخوض المعركة بأكثر الأساليب أناقة ومكرًا. لقد كنت أتحوّل بالفعل إلى أميرة من أميرات الجحيم.

فلتكن الإلهة في عون الشياطين.

سرنا نحو الجهة المعاكسة من الدهليز الذي كان به جناحي. وكما هو متوقع، أنزلني إنفي في الجناح الملكي. فمن الأفضل جعل الأعداء قريبين، خاصة زوجة الأخ المتذلرة. وتساءلت حينها عما إذا كان ذلك أحد أسباب تكدُّر مزاج راث. فكان من الواضح أن كلا الأخوين يستمتع بإثارة حنق الآخر قدر الإمكان. مع أنه كان عليهما أن يجدا شيئًا آخر ليتعاركا عليه. فسواء أكنت مقيدة برباط سحري أم لا، لم أكن أنتمي إلا إلى نفسي فحسب.

أومأ حارس رصين برأسه، ثم تراجع إلى الخلف وفتح الباب. فامتدت أمام ناظري قاعة فسيحة الأرجاء، يغلب عليها الظلام، من أجل إثارة القلق وإضعاف العزيمة.

لكنني لم أكن لأخاف من الظلام؛ لأنه سرعان ما سيخضع لأوامري.

خطوت للداخل، ثم توقفت لأقيِّم الغرفة بصورة كاملة، بينما صُفع الباب منغلقًا من خلفي. لم تعد القاعة غرفة مكتب أو غرفة طعام رسمية. وإذا كنا في عالم البشر، لوصفتها بأنها نادي سادة القوم الذي غالبًا ما يُذكر في رواياتي الرومانسية المفضلة.

وُضعت طاولة مستديرة بجوارها مقعدان بالقرب من جدار به نوافذ، تسمح بدخول ضوء خافت. وكانت ثمة شموع مضاءة في شمعدانات فضية

بديعة على الطاولة، وبضعة شمعدانات جدارية في الأركان البعيدة ما أضاف أشعة من الضوء الدافئ.

جالت نظراتي عبر الغرفة، وثبتت على ظل الأمير الباهت. كان إنفي قابعًا باسترخاء في مقعد مخملي ضخم بالقرب من ركن مظلم، وفي يده قدح من شراب كهرماني اللون. وكان رافعًا ساقًا على الأخرى، بحيث استقر كاحله على إحدى ركبتيه. وما كان ليبدو أكثر ارتياحًا واسترخاءً مما كان عليه حتى لو حاول، مع أن قبضته كشفت عن أنه لم يكن مرتاحًا في قرارة نفسه كما أرادني أن أعتقد.

استغرق وقتًا وهو يحتسي رشفة واحدة من شرابه، دون أن أتمكن من رؤية عينيه، لكنني شعرت بهما ترمقانني كما لو كنت أراهما، ثم قال: «لا شك في أنك تعرفين كيف تثيرين المتاعب يا قطتي المدللة».

بقيت في الظل، وقلت: «ربما تكون لديَّ مخالب يا صاحب السمو، لكنني أؤكد لك أنني لست قطة أحد المدللة، وخاصة أنت».

اتكأ إنفي إلى الأمام، فانعكس ضوء الشموع عليه، وبصورة ما، مع أنه كان جالسًا، تمكّن من النظر نحوي كأنه ينظر من الأعلى. وعبست ملامحه الوسيمة القاسية في برود، بينما قال: «فلنشكر الشياطين على ذلك. كما أنني لا أحب مشاركة ما أمتلكه مع أحد».

- «إن الاحتفاظ بالأحبة دون إرادتهم فعلة لا تدعو إلى التفاخر».

- «الاختيار شيء رائع، أما الإجبار فلا. والقوة لا تحقق النتائج المرجوة دائمًا، إلا إذا طلبتها رفيقاتي». أخذ يرمقني، فتعجبت من قدرته على الرؤية في الضوء الخافت. «أظن أنك قبلت دعوتي لتتلاعبي بمشاعر الحسد والغيرة».

- «ألا تستمتع أنت بإثارة مشاعر الحسد؟».

- «إن مجيئك إلى هنا لإثارة غيرة أخي لا يؤذيني في شيء». وهكذا وضع إنفي قدحه على طاولة منخفضة، ثم نفَض غبارًا وهميًا عن حُلّته. عندئذ لمحت خنجره ذا النصل الزمردي يطل من سترته، فقاومتُ ميلًا مفاجئًا

لطعنه به في صدره. تناول شرابه مجددًا، وتجرعه حتى الثُمالة، وأردف: «إن استغلال شخص ما لهو فعل وقح بكل المقاييس».

إذا كان هذا هو ما اعتقده، فكفى به نعمة. خطوت إلى حيث يشع الضوء، وأنا أراقبه بينما وقع بصره على الوشم الأرجواني الباهت على ساعدي. لقد أعجبه في المرة الأولى التي رآه فيها. والآن صرت أعرف السبب.

قلت: «في الليلة الأولى التي قابلتك فيها، كنت تعلم بأمر خطبتي أنا وراث. ولقد ذكرت شيئًا عن الشبكات المتداخلة. فلو أنك أصبحت أقل غموضًا، فسيكون لطفًا منك، خاصة إذا كنت تتطلع إلى تكوين تحالف معي».

رد قائلًا: «في حال إن كنت لم تلاحظي بعد، أنا لست لطيفًا. لكني على أية حال أكره أن أفسد المتعة». ابتسم إنفي ابتسامة أثيمة حينما لاحظ قلادتي، وأردف: «كان أكثر إمتاعًا أن أتكئ وأشاهد كيف جرت الأمور. حتى إن بعضنا راهن على النتيجة. لا يمكنني أن أخبركِ بما فعلته بجريد، لكنه الآن مدين لي، وأنا متأكد من قدرتك على تخيل معاناته الحالية».

عبرت الغرفة عامدة. وكانت ثمة طاولة جانبية، ودورق، وقدح في انتظاري، ودون دعوة، سكبت لنفسي بعضًا من الشراب الكهرماني، وجلست على المقعد المخملي بجوار إنفي. فضيَّق عينيه، لكنه لم يهتف لاعنًا وقاحتي أو عدم توقيري مكانته السامية.

قلت: «لقد أردتني أن أنضم إلى بيتك، على الرغم من علمك برباط الخطبة مع أخيك». ارتشفت جرعة ضئيلة، متأهبة للمذاق اللاذع، ثم أضفت: «لا بد أن تدبيرك كل تلك الألاعيب بمفردك يشعرك بالوحدة».

قال: «أيًا كان ما تحاولين فعله، أقترح أن تتوقفي عنه، بينما ما زلت مستعدًا لحسن ضيافتك».

كانت نبرة صوته باردة، لكنه لم يكن سريعًا بما يكفي لإخفاء ومضة الألم في عينيه». إذن، فقد أصابت رميتي الأولى هدفها. عندئذ نحيتُ أي شعور بالذنب جانبًا. فلحظة الألم العابرة التي مرت به لم تكن تساوي شيئًا مقارنة بالإنهاء الوحشي لحياة أختي.

ابتسمت وأنا أحتسي الشراب: «أيُعقل هذا؟ لقد كنت أعتقد أنني لم أطّلع على أخلاقك بعد. أولاً، هددني ألعوبتك مصاص الدماء، ثم حبس أفراد عائلتي رهائن. ونحن لا يمكننا أن ننسى أيضًا ذاك الحادث الأثيم في الأنفاق بصحبة جيشك من الشياطين غير المرئيين، وبالطبع، شق جوف راث».

- «لا شك في أنك تبدين غاضبة مما حدث، بدليل وجودك هنا بدلًا من مرافقتك خطيبك. لقد كنت أعتقد أنك تعُدين ما فعلته معروفًا».

- «إن طعن نفسك بخنجرك هو المعروف الأسمى».

مثلما كان يحدث عند غضب راث، شعرت بأن الحرارة تنخفض فجأة. لقد سبق أن تذوقت رعب قوة إنفي المتجمد وسطوته، تلك الغيرة قارسة البرودة التي تجمّد كل ذرة من الأخلاق. لقد سرت النفحات الأولى من قوته عبر أوصالي، لكنني ظللت أترقب.

رفعت يدي، كما لو كنت أبعد خصلة من شعري، وفي هدوء مررت أصابعي على وسم راث. فتوقف تأثير هذا الأمير قبل أن يحكم قبضته عليَّ، كما تمنيت تمامًا.

اندفع إنفي إلى الخلف بغتة، مركزًا انتباهه عليَّ. ولاحت على وجهه ابتسامة متمهلة، أخمدت اختلاجة الغضب المستعر، بينما قال: «ألست مفعمة بالإثارة الليلة؟ وأنا من كنت أظن أن العشاء سيكون مملًا».

حافظت على وجهي خاليًا من التعبير، لكن نبضات قلبي تسارعت. فإذا ما حاول استخدام قوته مجددًا، ما كنت واثقة بنجاح خدعتي البسيطة مرة ثانية. بدا أنه يشعر بذلك، ويخطط لخطوته التالية. ذكرني تقييمه المتمهل بقطة تقرر ما إذا كان الطائر الذي يرفرف بجوارها يستحق مشقة ترك مجلسها المُشمس من أجله.

عندئذ ومضت نظرة إنفي نحو خنجره.

استله من غمده، ومرر إصبعه على نصله.

لم يراودني الشك في أنه يفكر في أساليب مبتكرة لإيذائي به. حينها اختلجت يدي نحو سلاحي، لكنني لم أرفع ثوبي لأكشف عنه. فأيًا كان ما سيحدث بعد ذلك، سأكون على أهبة الاستعداد.

مكثنا جالسَين هناك مدة طويلة في تململ، والصوت الوحيد في الغرفة هو صوت عقارب ساعة ما في أحد الأركان. ظل إنفي يمرر أصابعه على الخنجر، حتى كاد يصدر صوتًا خافتًا. وفي اللحظة التي تأكدت فيها من أنه على وشك الانقضاض، سُمعت طرقة على الباب، لتضع حدًّا للتوتر القاتل بيننا. أعاد إنفي خنجره إلى مكانه. وتلبية لأمره، دلف صف من الخدم يحملون صواني زمردية وصِحافًا من الطعام نحو الطاولة المستديرة بالقرب من طرف الغرفة الأبعد.

وقف الأمير بحركة رشيقة، ومد لي ذراعه قائلًا: «هيا لنتناول الطعام معًا الليلة بدلًا من العظام يا ساحرة الظلل».

انتصبت واقفة، متجاهلة ذراعه الممدودة نحوي. فنحن لم نكن صديقين ولم أظن أنه يتوقع مني التظاهر في هذا الموقف. لقد بدا كل شيء في هذا المساء كأنه اختبار. ولكنه اختبار ملائم لي تمامًا. ولقد كان لديَّ اختبار خاص بي.

سرتُ صوب الطاولة، وجلست على مقعد سحبه أحد الخدم من أجلي. لم يبدُ أن إنفي يشعر بالإهانة، بل كان مستمتعًا بينما جلس في مواجهتي. فراودني الشك فيما إذا كان العديدون من رعاياه حاولوا مضايقته من قبل. فمثل راث، ربما يغريه رفضي لتكلف الابتسام إذعانًا لسلطته الجبارة بما يكفي للمبالغة في كرم ضيافتي، والإجابة عن أسئلتي. وحتى يسأم منها، لا بد أن أطأ بحذر على طريق إظهار التحدي له دون أن أتوغل كثيرًا.

لوَّح للخدم بالابتعاد، وملأ قدحينا بنفسه وهو يقول: «حقًّا، عندما يغيب العقل ينطق اللسان بالحقائق. أحيانًا ينطق البشر بالحكم البليغة، كهذه الحكمة. مع اعتقادي أنه من السهل أن يقعوا فريسة لرذائلهم. فلتمنحي الإنسان الخمر، وستجدينه يتحدث بشاعرية عن مذاقها. بل يمكن أيضًا أن

يشبهها بالمرأة التي تحبه». انحدرت نظرته نحوي، واسترسل قائلًا: «أو التي يتمنى أن تحبه».

أمسكت لساني، فلم أصدق أنه ينتظر ذلك مني. حتى إن فعل، فلن يكون لأية غاية سوى استغلال ذلك ضد أخيه. سألته قائلة: «لمَ تكره البشر؟».

أجاب: «إن الافتراضات هي قبر الحقيقة». ثم تناول رشفة أخرى من شرابه. «لا أرى أن نتطرق إلى هذا الأمر الآن». وأشار إلى قدحي قائلًا: «هل حاولت أن تمارسي سحرك على الطعام والشراب من قبل؟».

- «كلا. ولمَ أفعل شيئًا كهذا بحق النيران السبع؟».

- «بل الثماني. وأنا أسأل لأنك تستطيعين قراءة تعويذة على الخمر لكي تمنحك الحقيقة. كما تفعلين تمامًا مع تعويذة الحقيقة. وأيًا كان من يشربها، فسيقع تحت إمرتها».

- «هل يُفترض أن أصدِّق أنك تخبرني بذلك من منطلق طيبة قلبك؟».

- «لا تكوني حمقاء. أؤكد لك أن اقترابي من الأخلاق يكون بفضل تناولي أية ألياف موجودة في شراب العنب الشيطاني. أنت تريدين الحقيقة، وأنا أيضًا، فلمَ لا نضمن حصول كل منا على ما يريده دون ألاعيب؟».

دققتُ النظر إليه قائلة: «لا بد أنك تريد شيئًا بالغ السوء ما دمت تضحي بإخبار عدوك بتلك المعلومة».

قال: «بوسعنا أن نكون صديقين الليلة». لكنه تجهم وهو ينطق كلمة صديقين كما لو لأن الفكرة آلمته. رفعت أحد حاجبي، فتظاهر بالتجاهل، وتابع: «أو عاشقين».

انتظرت لكي أشعر بسحر هذا العالم الذي ما ينفك يغويني، مثلما حدث مرارًا مع رات. لقد كان إنفي وسيمًا، رشيق القوام، ومفتول العضلات. وتصورت أنه يهتم بأية رفيقة له فقط لكي يثير الحسد في نفسها عندما ينتقل إلى الأخريات.

لم أشعر بأية عاطفة رومانسية نحوه فيما عدا الرغبة العارمة في ضربه.

حدّق إنفي إلى شرابه شاردًا، بينما قال: «والآن فلتكوني لطيفة، وألقي التعويذة على شرابك».

ترددتُ، لكنني كنت أرغب في إجابات صادقة عن أسئلتي، ولم أكن واثقة باستعدادي لمنحه الشيء نفسه في المقابل. فسيكون بإمكانه أن يسأل عن أي شيء، وسأكون مضطرة إلى خلع قناعي.

ثمة بعض الغايات الجديرة بالمخاطرة، والبعض الآخر يكون مجرد حماقات.

مال إنفي برأسه بينما نظر إليَّ قائلًا: «هل التمسك بأسرارك أعلى قيمة من معرفة أسراري؟ لعله الخوف الذي يمنعك؟ ربما عليَّ إذن أن أغويكِ بدلًا من أن تعرفي الحقيقة».

قلت: «أنت لا تستطيع أن تدفعني إلى فعل ما تريده يا صاحب السمو. ثم إنه من الحصافة أن أفكر في الأمر من جميع الزوايا قبل أن أخضع لتحقيقك».

- «أنتِ تعلمين جيدًا أنني أستطيع أن أجبركِ على إخباري بما أريد». كان صوته هادئًا وغير متكلف، فالتهديدات كانت تتدفق على لسانه بسهولة كما لو كان يبدي ملاحظة عن الطقس. مررت أصابعي على الوسم مجددًا، جاذبة انتباهه نحو عنقي، لكنه أردف: «ذلك عن طريق العنف يا سيدتي. إن أليكسي ليس العضو الوحيد في بيتي الذي له مخالب وأنياب. فلتفقدي ما يكفي من الدماء، وسيكون تأثير ذلك مماثلًا للحقيقة المكشوفة عن طريق تعويذة الشراب، لكن مع قدر أقل من الخسارة من جانبي، أليس كذلك؟».

بالطبع، سوف يلجأ إلى إلقائي بين يدي مصاصي الدماء الخاضعين له. وعندئذ فكرت ثانية في شقيقتي التوأم. لا بد أن فيتوريا اضطرت إلى القيام بمساومات صعبة أيضًا.

اندفعت إلى الخلف مبتعدة عن الطاولة، فهرع شخص ما ليسحب مقعدي. كنت أحتاج إلى بعض الوقت لأعتاد هذا التدليل والاعتناء كما لو كنت منحدرة من أصل ملكي.

سرت حتى الناحية التي كان إنفي جالسًا بها، وتناولت قدحه. ثم همست بتعويذة الحقيقة عليه، ثم كررت ما فعلته على الزجاجات الأخرى، وعلى قدحي أيضًا.

كانت ابتسامة إنفي تثير الانزعاج بينما عدت إلى مقعدي. رفع قدحه قائلًا: «فلنحتَسِ نخب ليلة زاخرة بالحقائق بين الأعداء، ولينزف قلبانا فقط لفقدان كرامتنا، وليس لطعننا بخنجر في ظهرنا».

وهكذا تجرَّع شرابه حتى آخر جرعة واحدة. رفعت حاجبي قائلة: «هل هذا ضروري؟».

أجاب: «كلا، على الإطلاق». ثم أعاد ملء قدحه، واحتسى جرعة كبيرة مرة أخرى. «لكن ذلك لا يؤذيني».

تناولت رشفة من الشراب في تردد، ولم يكن مذاقه مختلفًا. وإن لم أكن قد ألقيت التعويذة عليه بنفسي، ما كنت سأشك به قط. قطَّبت جبيني وأنا أنظر في شرابي.

اجتذبني ضحك إنفي المفاجئ من أفكاري، إذ قال: «أرى أن الساحرات اللاتي عكفن على تربيتك قد خبأن عنك الكثير من الأسرار. إن هذا مسلٍّ للغاية».

تساءلت: «ما هو؟».

- «مشاهدة عالمك المثالي وهو يتحطم».

- «أنت شخص بشع».

- «آه يا عزيزتي، أنت لا تكُفين عن النسيان. فأنا لم أكن مُبتلَى يومًا بالإنسانية وحب الخير». ثم رفع إحدى كتفيه، واحتسى المزيد، وأضاف: «علاوة على ذلك، كان عندي سبب وجيه. فطائر الفينيق يُبعَث من الرماد لسبب ما. لا بد لعالمك أن يتداعى وينهار لكي تُبعثي من جديد. ولسوف تبعثين كما كانوا يخشون دائمًا».

- «كم من الوقت سيمر قبل أن يسري مفعول تعويذة الحقيقة؟».

شرب قدحه حتى الثمالة، ثم ملأ آخر على الفور، وقال: «إن مفعولها سارٍ بالفعل».

عندئذ سألته: «هل أنت معجب بي؟».

- «أجدك جذابة. لكن إذا واجهت نهاية مأساوية، فلن أذرف ولو دمعة واحدة حزنًا عليك، كما أنني لن أحتفل. سأمضي في طريقي كما لو أنك لم تكوني موجودة ذات يوم».

أصدرت حشرجة لا تليق بسيدة راقية ألبتة، ثم ارتشفت جرعة أخرى من الشراب، وسألته: «في الليلة التي هاجمتك نونا فيها ... بدوت تعرفها، فلتقل لي كيف؟».

- «إن اللعنات أشياء عجيبة». سكب المزيد من الشراب في قدحه الفارغ، وأردف: «أحيانًا تكون كالأشجار، وتبقى راسخة حيث غُرست. وفي أحيان أخرى تكون كالأزهار البرية، وتهيم بذورها مع النحل وتطير مع الطيور. ثم تتشابك وتنمو وتزهر خارج تلك البقعة الأصلية التي نشأت فيها. إنها تشبه المفاتيح بعض الشيء؛ فليست جميع المفاتيح تلائم الأقفال، كما أن بعض المفاتيح أكثر مكرًا».

انتظرت حتى يتحوَّل حديثه المشتت عديم المعنى إلى إجابة واضحة المعالم. لكنه حدَّق إليَّ ليس إلا. عندئذ قلت له: «إن ما قلته لا يمت بصلة لسؤالي. فهل أنت ثمِل؟».

أجاب وعلى وجهه أول ابتسامة حقيقية يوجهها إليَّ: «أجل، بعض الشيء». عندها ظهرت غمازة على وجنته اليسرى، فخففت من القسوة التي ارتداها قناعًا واقيًا على وجهه. «لكن ما قلته حقيقي. وثمة أشياء لا أستطيع أن أبوح بها، مهما كانت التعويذة التي ألقيتها على شرابنا؛ لأن هناك قوى أعظم لا تزال مشاركة في الأمر. إنني أعرف جدتك، فضلًا عن المزيد من الأسرار المثيرة للاهتمام».

أردت أن أعلم كيف عرف نونا، لكن لم تكن هنالك جدوى من محاولة استجداء معلومات لا يستطيع أو لا يريد الإفصاح عنها كما بدا واضحًا. فقلت: «فلتخبرني عن اللعنة إذن».

قال: «إنها قصة قديمة للغاية لا يعرفها سوى القليلين. حتى هؤلاء أمست ذكرياتهم مثل النحاس الذي انطفأ بريقه من أثر الزمن والصدأ الذي تراكم عليه، فلم يبقَ منها سوى ظل ما حدث بالفعل».

- «ما الذي تتحدث عنه؟».

- «قصة اللعنات والذكريات المسروقة. والكشف عن الكثير من الأكاذيب». وبصورة مفاجئة اتكأ إلى الخلف، فكاد يقلب مقعده، ثم واصل قائلًا: «إن أخي لن يجبركِ على الزواج به مطلقًا، فذلك يناقض كل ما يدعو إليه ويمثّله».

- «إنني لم أسأل عن أخيك».

- «أجل، لكن أعتقد أن الفضول يراودك. هل ذكر لك أنه يرغب في إتمام رباط الزواج؟».

لم أرغب في الإجابة، لكن تعويذة الحقيقة أطلقت الكلمات من بين شفتي، فقلت: «لقد أخبرني به، لكن لم يُفصح عما يفضله».

- «لن أسألك عما إذا كنت فكرتِ في الأمر. خاصة أننا نعرف ما يتضمنه القبول، جزئيًا على الأقل». حاولت ألا أُظهر ارتياحي، لكن لا بد أن إنفي لاحظ الوميض العابر على وجهي؛ إذ نمَّت ابتسامته عن السرور الوقح. أردف: «ربما لن يجبركِ على إتمام الزواج، لكنه لن يظل منتظرًا خانعًا في الظل، فذلك ليس أسلوبه أيضًا. وسيجعل حضوره ونياته واضحة لكل بيت ملكي. تمامًا كما فعل اليوم».

تناولت رشفة أخرى من شراب الحقيقة، ثم سألته: «لمَ تفعل ذلك؟».

قال مستفسرًا: «معذرة؟».

- «أنت دائمًا ما تبذر بذور الشقاق وانعدام الثقة بين أخيك وبيني». لم أحتج إلى احتساء الشراب لطرح سؤالي التالي؛ إذ قلت: «هل تغار منه إلى هذا الحد؟ أم أنك تطمع ببساطة في أي شيء لا تملكه؟».

- «إنني لستُ مُبتلَى على الدوام بالأفكار الحاسدة». حينئذ ومضت عيناه الخضراوان بعاطفة نقية بعيدة عن السخرية أو الحسد والحقد، واستطرد: «إن طبع أخي تسبب في سلب شيء مهم مني. وأتمنى أن أرد المعروف ذات يوم. وليس الحسد ما يحركني، وإنما الانتقام. وإنني لأتصور أننا نتشارك في هذا الشيء، على الرغم من شكي في اعترافك بذلك، ولو تحت تأثير شراب الحقيقة».

إنه لم يقل ما قاله ذاك كسؤال؛ لذا لم تجبرني التعويذة على الإجابة. قلت: «إنني مستعدة لفعل أي شيء لاستعادة شقيقتي؛ لذا عليك أن تصفح عن أية خطايا تعترض الطريق بينك وبين أخيك. فالسعادة يجب أن تكون الغاية القصوى».

قال: «أنا لا أكترث ألبتة بسعادته». وأخذ يحملق إلى شرابه دون أن يلمسه. ثم استرسل: «من الجلي أنك مهتمة على الرغم من ذلك، وربما أكثر مما تودين البوح به. هل تحبينه؟».

عندئذ أطبقتُ فمي، وأحكمت قبضتي على قدحي، لكن دون جدوى؛ إذ تزاحمت الكلمات على لساني. تشبثتُ بأسلوب كلام إنفي، وسمحت للحقيقة بأن تنطلق من بين شفتي قائلة: «كلا، أنا لا أحبه. لكن لا أنكر أن ثمة انجذابًا بيننا. لقد أحضرني إلى عالمه، وباع روحي إلى أخيه، وكذب حيال كونه زوجي المحتمل».

- «إن السيدة كثيرة الاحتجاج».

قلت دون اندهاش: «هذا قول شكسبير، واقتباسك لأقواله يدل على التباهي. هل يجب أن أحسدك الآن على ثقافتك؟».

أخذ يرمقني من خلف حافة قدحه بنظرة حادة، ثم قال: «أمر غريب، أليس كذلك؟ ريفية بسيطة من صقلية تتمتع بهذا الذوق الراقي في الكتب، أو قراءة أي شيء على الإطلاق».

شعرت بالقشعريرة من تملقه، وقلت: «ربما لم نملك المال والخدم يا صاحب السمو، لكننا تعلمنا القراءة والكتابة».

قال: «أعتقد أنك ستقولين لي إن براعتك ترجع إلى التعاويذ التي علمتك جدتك إياها، أو الوصفات في كوخ الطعام الصغير، أو أي هراء آخر على هذه الشاكلة».

- «ما الذي ترمي إليه؟».

- «كل ما أقصده هو أنه أمر عجيب، ليس إلا. وأنت تعرفين كم أستمتع بالعجائب».

ابتسمتُ ابتسامة عريضة؛ إذ كانت تلك الابتسامة أفضل تمهيد لسؤالي اللاحق: «لِمَ أنت شديد الولع بجمع التحف؟».

- «إنني شغوف على وجه الخصوص بالتحف المقدسة. حسنًا، هذا ليس صحيحًا تمامًا». وضحك كما لو كان لا يستطيع أن يصدق أن الحقيقة ما زالت تتدفق من لسانه بهذه السهولة، ثم أضاف: «إنني مولع فقط بتحفة مقدسة واحدة في الوقت الراهن: ألا وهي مرآة القمر الثلاثية».

- «وماذا تكون تلك؟».

نقر بأصابعه، فظهر خادم، وحدثه بكلمات بصوت خفيض للغاية، حتى إنني لم أستطع سماعه، ثم اختفى الخادم. وبعدئذ بلحظة، عاد حاملًا صندوقًا زجاجيًا عليه نقوش. كان بسيطًا ومتواضعًا. وعلى الفور اتكأتُ على الطاولة لكي أراه بوضوح أكبر.

قال: «إنه مرآة للآلهة، أو الإلهات بالأحرى». ومرر سبَّابته على الصندوق الزجاجي، ثم مسحه بإبهامه كما لو كان يتفحص الغبار. ثم تابع: «يقال إنها جزء من سحر العذراء والأم والعجوز، وبإمكانها أن تُرِي المرء الماضي والحاضر والمستقبل وفقًا لرغبته. ولقد ظلت قابعة داخل هذا الصندوق منذ القدم، أو هكذا قيل لي».

الماضي والحاضر والمستقبل، فلتكتشفي الحقيقة. سرت رعدة في أوصالي؛ إذ كانت تلك كلمات الجمجمة المسحورة نفسها، حتى فيما يتعلق بالعذراء والأم والعجوز.

أزاح إنفي الغطاء، كاشفًا عن مهد أرجواني شاحب عميق من المخمل، منبعج حيث كانت توضع مرآة يد في وقت ما. وبذلت ما في وسعي لكيلا أظهر أي رد فعل. لكن قلبي كان يخفق بجنون في صدري. فإذا كانت هناك تحفة مقدسة تُظهر الماضي؛ فإنها ستحل لغز مقتل أختي.

غمرني الانفعال، فلا بد أن هذا ما أرادتني الجمجمة أن أجده، كنت واثقة بذلك. وإذا صارت هذه المرآة بحوزتي، فحينها لن أقلق بشأن الزواج ببرايد أو راث، واختيار موقعي في بيوت الخطايا.

قلت: «إن ذلك يبدو كأساطير الأطفال».

رد قائلًا: «كل الأساطير تنطوي على شيء من الحقيقة». وشرد ذهنه مجددًا لحظة، ثم أردف: «على أية حال، يقال إن المرء يحتاج إلى كتاب العجوز الخاص بالتعاويذ، أي مفتاح الإغواء، بالإضافة إلى المرآة لكي يستنهض سحر الإلهة».

خفضت صوتي حتى صار همسًا: «فلتدعني أخمن، لقد جمعت كل شيء فيما عدا المرآة».

قال إنفي: «يا عزيزتي، أظن أن الوقت قد حان لترَي تحفي العجيبة بنفسك». ثم هب واقفًا، وأردف: «هيا بنا».

السادس عشر

دفع إنفي الأبواب المزخرفة، فاتحًا إياها بقدر مبالغ فيه من الاستعراض وحب الظهور، ثم تراجع خطوة إلى الخلف؛ إذ أصبح فجأة رجلًا مهذبًا، وأتاح لي دخول القاعة التي تحوي تحفه أولًا.

انطلاقًا من شكي في دوافعه الحقيقية، ترددت لحظة. فلم أكن أظن أنه يستدرجني للإيقاع بي في فخ مصاصي الدماء، لكن لم يكن هناك شيء مستبعد من شخص مثله.

حينما تذكّرت الخنجر المثبت على فخذي، تقدمت إلى الأمام، ثم توقفت فور أن وقعت عيناي على القاعة.

لم تكن قاعة لمصاصي الدماء، وإنما لعمالقة طوال القامة واقفين في الظل دون حراك. وكانت القاعة شبيهة على نحو مخيف بصورة مرت بمخيلتي حينما قابلت إنفي للمرة الأولى في عالم البشر. فحينئذ، رأيت بشرًا ثابتين ومتجمدين على رقعة شطرنج مرعبة، لكن الأرضية التي كنا واقفين عليها الآن لم تكن جزءًا من لعبة؛ وإنما كانت مكسوة ببساطة ببلاطات رخامية سوداء وبيضاء اللون. والأشخاص المتجمدون لم يكونوا سوى منحوتات فنية، وليسوا بشرًا يحبسهم أمير وحشي من أمراء الجحيم.

انتصبت التماثيل ترحب بي في صمت، كان بعضها مصنوعًا من البرونز، والبعض الآخر نُحت من المرمر. كانت ساحرة، وجميلة، ومفعمة بالحياة إلى حد أنني مددت يدي لأتأكد من أنها ليست من لحم ودم. إنني لم يسبق لي أن ذهبت إلى أي متحف، لكنني رأيت صورًا في الكتب، ولم أستطع أن أصدِّق حجم مجموعته من التحف والنفائس.

بادرني الأمير قائلًا: «هل فقدت النطق من فرط الدهشة، أم أن الشراب غيَّب وعيك؟».

طرفت بعينيَّ منتبهة إلى أنني ما زلت واقفة في مكاني، وقلت: «لقد انتابني شعور غريب بأنني رأيت هذا المنظر من قبل».

أخذ إنفي يدقق النظر إلى قسمات وجهي، لكنه لم يفعل شيئًا سوى أن رفع كتفه وأنزلها، ثم قال: «ثمة العديد من متاحف البشر ومعارضهم تشبه هذه القاعة؛ لذا لا عجب في أنها مألوفة لك».

رددت قائلة: «لكنني لم أذهب إلى أي متحف من قبل».

كان قولي صادقًا بما يتفق مع تعويذة الحقيقة، لكنني لم أتمكن من التخلص من الشعور المزعج برؤيتي إياها على مدار كل الأشهر تلك. إنني لم آت إلى هذا العالم قط، ولا إلى هذا البيت الملكي. إذن ربما كنت أتمتع بموهبة كامنة لرؤية المستقبل، لكنها لم تبدأ الظهور سوى الآن.

طبقًا لنونا، لم يكن من المحال أن يستمر تطور السحر ونموه عبر حياة الساحرة. ومن المنطقي أيضًا أن يكون استغلالي المكتشف حديثًا لمصدر السحر الكامن داخلي قد أدى إلى فتح طاقات أخرى من السحر. وسواء أكانت تلك موهبة كامنة أم لا، لم تكن لذلك أهمية. وهكذا أعدتُ نفسي إلى الوقت الحاضر.

كانت القاعة شبيهة بالكهف، ما جعل خطواتنا تصدر صدى، بينما سرنا نحو قدم التمثال الأول. كان عبارة عن رجل يرتدي خوذة ذات أجنحة، وحزام كتف للطلقات، دون أية ملابس، ويقف وإحدى يديه ممدودة تحمل رأس

ميدوسا المقطوع. وكانت يده الأخرى تقبض بقوة على سيف. شيء ما في هذا التمثال أشعرني بالحزن.

سار إنفي متمهلاً نحو التمثال، وبدأت قسمات وجهه تلين وتظهر عليها الراحة حينما قال: «إنهما بيرسيوس وميدوسا. هناك تحف مماثلة لهذا التمثال في عالم البشر، لكن أيًا منها لا يرقى إلى روعة هذه القطعة الفنية. لقد أتقن النحات تصوير عينيه المُسبَلتَين، ورفضه أن يُلعَن ويتحول إلى حجر».

قلت: «يا لها من مهارة مذهلة، لكنها مخيفة في آن واحد!».

- «لا تنتهي جميع القصص نهايات سعيدة يا إيميليا».

كنت أعلم ذلك. فحياتي مرت بتقلبات غير متوقعة، ومعظمها لم يكن مثاليًا، أو باتجاه الأفضل. فجميعنا كانت لدينا عظام - إن لم تكن هياكل عظمية من الأسى والألم - في خزائننا. أصابني التأثر فجأة، فنظرت إلى الأمير الشيطاني دون أن ألفت النظر. فوجدته متألمًا بعمق. وتعجبت مما أو ممن جعله كسير الفؤاد بشدة هكذا. لكنه لمح عينيَّ، وصوَّب نحوي نظرة قاسية. فأدركت أنه لن يرحب بالسؤال عن سبب حزنه. ولسبب أجهله، أضعتُ فرصة سؤاله وهو مجبر على الإجابة بصدق. فلا يمكن مشاركة جميع الأسرار.

سرنا في صمت إلى التمثال التالي، الذي كان بديعًا، ونال استحساني حتى الآن. كان على هيئة ملاك محارب ذي جسد قوي، وظهر مقوس، وكان جناحاه ممتدَّين، وذراعاه مرفوعتين خلف رأسه، كما لو كان أُلقي به من ارتفاع شاهق، وكان يلعن الشخص الذي فعل ذلك به. كانت الريشات منحوتة بدقة تعبِّر عن كل تفاصيلها، فلم أستطع أن أمنع نفسي من مد يدي والمسح عليها بإصبعي.

قال إنفي بنبرة هادئة وقورة: «إنه تمثال الملاك الساقط؛ تحفة ثمينة أخرى».

تأملت الملاك المحارب العظيم، فوجدتُ جسده شبيهًا بجسد راث. وما كنت لأفاجأ لو علمت أن الفنان استلهم التمثال منه. فسألت إنفي: «هل المقصود أن يرمز إلى راث أم لوسيفر؟».

أجاب مبتسمًا: «إنه يعبِّر عن رؤيتي لأخي اللعين، وذلك قبل أن يفقد إبليس جناحيه الغاليين مباشرة، ونحن جميعًا حذونا حذوه بعد ذلك بمدة قصيرة».

- «ولمَ تخلِّد ذكرى لحظة كتلك؟».

فجأة صار صوته قاسيًا كالتمثال الرخامي وهو يقول: «لكي أتذكرها على الدوام». ثم هز رأسه وعاد وجهه إلى اللامبالاة، كما لو كان قد أعاد قناعًا انزلق عنه دون قصد، ثم أردف قائلًا: «هيا، ثمة غرفة أخرى زاخرة بتحف ربما ترينها أجمل».

كنا في منتصف الغرفة التالية، المزينة باللوحات والمرايا ذات الأطر المزخرفة المتنوعة، حينما لاحظت حوامل كتب.

ذهبت نحوها، منجذبة إلى واحد منها بالتحديد. فسمعت في أعماقي نشيدًا عجيبًا كنت قد سمعته من قبل. لقد كنت أعرف هذا الشعور، وأدركته حينئذ، على الرغم من اختلافه بعض الشيء عن ذاك المحفور في ذاكرتي. فلم تكن هناك همسات أو أصوات ثائرة تعلو وتهبط وسط أصوات متنافرة، وإنما نشيد خافت. كنت قد سمعته في دار العبادة في الليلة التي عثرت فيها على شقيقتي، ثم مرة أخرى عندما واجهتُ أنتونيو. حينها لم أكن أعلم ماهية هذا الصوت أو ما يريد قوله.

توقفت أمام كتاب السحر المفتوح. وكان محفوظًا داخل خزانة زجاجية، لكنني أدركت كُنهه دون أن أرى غلافه. كان أول كتاب للتعاويذ، أي كتاب لا بريما الشخصي الأول.

قلت بصوت مرتفع بالنسبة إلى الغرفة الصغيرة: «كيف حصلت على هذا الكتاب؟ لقد كان بحوزتي في الليلة التي ...»

قال متسائلًا: «أتقصدين الليلة التي كدت تقتلين فيها المتملق البشري؟».

تراجعت إلى الخلف وأنا أحدق إليه: «لقد اختفى في تلك الليلة. لقد ظننتُ شيطان الظل». ثم تنهدتُ بعمق، وأردفت: «لقد أرسلت أحدهم للتجسس عليَّ، أليس كذلك؟».

- «إن التجسس كلمة بغيضة، فضلًا عن أنه كان يراقب دار العبادة، وتصادَف وجودك. مجرد المكان الخطأ في التوقيت الخطأ». وضع يديه في جيبيه، ثم مشى على مهل نحو الحامل التالي، حيث كان ثمة كتاب آخر مفتوح، وأردف قائلًا: «إن ما تسمينه كتاب التعاويذ الأول ليس مخطوطة كاملة. إنه مجرد ثلث كتاب أكبر وأكثر دقة»، وأشار نحو الكتاب. «إن كلًّا من جزأي الأم والعجوز في حوزتي، أما العذراء فقد ضاع. إن الإلهات مخادعات، وسحرهن أكثر خداعًا. وأنا لا أنصح بتجاوزهن». قال العبارة الأخيرة وهو يصفر.

- «كان الكتاب الأول يخص الساحرة الأولى، وليس الإلهات».

- «يا عزيزتي، أنا لا أعرف ما الذي ادعته الساحرات اللاتي ربَّينك، أو لمَ ادعَينه، لكن الإلهات هن من كتبن هذه الكتب. ولقد سرقت من تُسمى ساحرتك الأولى كتاب الموتى؛ أي كتاب العجوز الخاص بسحر العالم السفلي. وأؤكد لك أن العجوز لم تكن راضية».

كان يتحدث كما لو أنه يعرف الإلهات. سألته: «أين العجوز الآن؟ ربما عليَّ أن أتحدث معها بنفسي».

- «بالطبع، فإذا وجدتها، فلتنقلي لها تحياتي فضلًا».

أطلقت نفسًا محبطًا. فقد كان ثمة شيء خطأ في القصة. فإنني لم يمتلك كتابًا للتعاويذ يستطيع أن يسحر الجماجم فحسب، وإنما استخدم بالفعل العبارة التي نطقت بها إحدى الجماجم كلمة كلمة. ولا بد أنه المُرسِل الغامض، لكنه ما كان ليعترف بالسبب وراء فعله ذاك.

- «هل يحتوي الكتاب على تعويذات خاصة باستحضار الأرواح؟».

- «إن العجوز هي إلهة العالم السفلي. وتعاويذها تُظهر القمر والليل والموتى. فضلًا عن أشياء أخرى، مثل العواطف الأكثر ظلامًا وعنفًا». أخذ يرمقني من كثب، ثم استطرد: «إن غابة الدماء تسحر الألباب، وتمتد بين

أرضي وأرض جريد. ولا يمكن لأي بيت ملكي أن يبسط سيطرته عليها؛ لذا فأنت لا تحتاجين إلى دعوة لزيارتها. ومع ذلك، تكمن الخدعة في المرور عبر الأراضي التي تقع على حدودها».

صرفت انتباهي بعيدًا عن كتاب التعاويذ، وسألته: «لمَ تخبرني بذلك؟».

قال: «وما المانع من إخبارك؟».

إذا كنا على وفاق معًا، ربما استغللت ذلك لمصلحتي. وقلت له: «لقد ذكرت آنفًا شيئًا يسمى مفتاح الإغواء. فهل هو ضمن مجموعة مُقتنياتك؟».

أجاب: «كلا للأسف. لكن ليس بسبب التقصير من جانبي في محاولة الحصول عليه». وشرع يسير مبتعدًا، لكنه التفت نحوي قائلًا: «قبل أن تختلي بنفسك بقية المساء، علّكِ ترغبين في قراءة اللافتة الملحقة بهذه اللوحة؛ إذ أرى أنها ستمنحك بعض المعلومات».

- «إلى أين تذهب؟».

لم يرد إنفي على سؤالي.

كان من الواضح أن الوقت المخصص لبقائنا معًا هذه الليلة قد انتهى. فبقيت محدقة في اتجاه الأمير الشيطاني مدة طويلة بعد ذهابه، وأنا أفكر مليًا في كل ما نمي إلى علمي. لقد كان إنفي يسعى إلى الحصول على مرآة القمر الثلاثية ومفتاح الإغواء. وهما غرضان كنت في غاية الشغف بالحصول عليهما لنفسي الآن.

عندما صرت موقنة بعدم عودته، مددت الخطى نحو اللوحة التي ذكرها. وكانت تصور شجرة مميزة وضخمة ذات أغصان ملتوية وأوراق ذات عروق سوداء وفضية. كان ثمة شيء في اللوحة يذكّرني بالفنان الذي أبدع لوحة الحديقة الموسمية التي رأيتها في مخدعي في بيت راث.

كانت الظلال والدقة التي رسم بهما الفنان كل نقطة من لحاء الشجرة أو الأوراق المتساقطة لافتة للنظر، إذ بدت اللوحة كأنني أستطيع أن أمد يدي إلى داخلها، وأجذب ورقة من الشجرة.

مررت بأناملي على اللافتة الفضية، وقرأت الكتابة المنقوشة.

أسطورة شجرة اللعنة

في أعماق غابة الدماء تقبع شجرة غرستها العجوز بيديها. ويقال إن الشجرة، من بين ما يمكن أن تمنحه، يمكنها أن تسلط السحر على أي عدو لدود إذا كانت الرغبة في لعنه حقيقية. ولاستدعاء لعنة العجوز عليك أن تحفر اسمك الحقيقي على الشجرة، وتكتب أمنيتك على ورقة مقطوفة من أغصانها، ثم تمنح الشجرة قطرة من الدماء. بعدئذ عليك أن تأخذ الورقة إلى بيتك، وتضعها أسفل وسادتك. وإذا لم تجدها عندما تصحو، فذلك يعني أن العجوز قبلت عرضك، وستحقق أمنيتك. إنها أم العالم السفلي - فلتحرص على إرضائها.

أعدت قراءة الأسطورة، متسائلة عن سبب توجيه إنفي انتباهي إليها من بين ما يقارب خمسين لوحة أخرى معلقة على جدران هذه الغرفة. ما كان ليقول أمير من أمراء الجحيم شيئًا من قبيل المصادفة. حينئذ راودني شعور بأنني أجَر جرًّا إلى واحدة من مؤامراته، لكنني سأقلب خداعه إلى مصلحتي.

نحيت تلك المعلومة جانبًا، وتجولت على مهل عبر أنحاء القاعة الفنية، ثم توقفت عند خريطة للحلقات السبع. وكان كل بيت شيطاني يقع على قمة جبل، مُشرفًا على الأراضي التابعة له. ووقعت عيناي على بوابات الجحيم، وممر الخطايا.

كُتب على مكان ما بين بيت لاست وبيت جلوتاني «الرياح العاصفة». تساءلت عما إذا كان هذا هو موقع العويل الذي سمعناه في ممر الخطايا.

واصلت تفحص الخريطة، محاولة حفظ أكبر قدر ممكن منها في ذاكرتي. فنحو الجنوب الشرقي، كانت غابة الدماء ممتدة بين بيت جريد وبيت إنفي. وكان النهر الأسود يخترق بيوت الخطايا الغربية، ويفصل قلعة راث عن أراضي جريد وبرايد. ولقد تفرع إلى رافد أصغر حجمًا يتدفق خلف قلعة جريد، ثم يلتوي عبر القسم الأدنى من بيت برايد، وللشمال بمحاذاة حدود إنفي الشمالية. تتبعت المجرى الرئيس للنهر حتى وصل في النهاية إلى بحيرة النيران. وقُبالة القسم الأكبر من البحيرة قبعت قلعة إبليس؛ إذ امتد بيت برايد نحو الشمال الغربي بمسافة قليلة من بيت إنفي.

بمجرد أن شعرت بالثقة بقدرتي على تذكر معظم معالم هذا العالم ومخططه العام، تركت الخريطة وتجولت في القاعة مجددًا. وكان ينتظرني في قاعة التماثيل واحد من خدم إنفي يرتدي زيًّا خاصًّا.

قال: «صاحب السمو يرسل اعتذاره، لمغادرته هذا المقر. قال إنك على الرحب والسعة لتقيمي هنا كما تشائين، لكنه سيغيب بعض الوقت». ثم تردد الخادم، وسعل كما لو كان متحرجًا من نقل بقية الرسالة.

سألته: «هل ثمة المزيد لتبلغني به؟».

أجاب: «قال سموه أيضًا إنك إذا كنت، تريدين أن تثيري غيرة راث، فبإمكانك أن تنامي في سرير سموه الليلة. وقال حرفيًا: «فلتفكري حينئذ في الأمير الأكثر جاذبية في هذا العالم عندما تشعرين بالوحدة. وهناك لوحة للأمير إنفي بالحجم الطبيعي على السقف، إذا رغبتِ فيمن يؤنس وحدتك»».

عندئذ رحت أعد في عقلي حتى هدأت رغبتي في الإمساك بإنفي، ثم قلت: «أريد أن أبعث برسالة إلى بيت راث. قل له إنني سأكون هناك مع أول ضوء من صباح الغد».

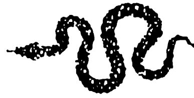
انحنى الخادم قائلًا: «من هنا مباشرة يا سيدتي، هل تريدين مرافقًا ليصحبك إلى جناحك؟».

قلت: «أعتقد أنني لن أضل طريقي. أريد أن أمتع ناظريَّ بالتماثيل مرة أخرى».

- «حسنًا. سأبعث بالرسالة إلى بيت راث الآن».

انتظرت حتى غادر قبل أن أعود إلى القاعة الفنية. وسرعان ما أفسح الضيق من إنفي المجال للزهو بذكائي؛ فلقد علمت أنني سأحتاج إلى صندوق أدوات.

وبالطبع لم تكن لهذه الأدوات علاقة بحياكة ما تمزق من الأثواب الجميلة.



كان قلبي يخفق بالتزامن مع صوت حوافر الخيل، بينما انطلقت العربة مبتعدة عن بيت إنفي. لم يظهر راث ليرافقني إلى بيته بنفسه على أية حال؛ بل أرسل مبعوثة وعربة ملكية. وكانت المبعوثة سعيدة وهي توضح أن العربة لم تكن عربة الأمير الخاصة، ولا الجياد جياده. وأنها مجرد بعض تلك الخيول التي تزخر بها الإسطبلات.

قالت ذلك كما لو أنه معلومة شديدة الأهمية. ولم أكن واثقة بشموري تجاه ابتسامتها الساخرة، أو حقيقة أن الأمير أرسل أحدًا آخر بدلًا منه.

كنت متحيرة حيال ازدرائها الواضح.

أخذت أتمعن في الشيطانة من بين رموشي المُسبَلَة وأنا أتصنَّع النوم. كان شعرها الأحمر الداكن ملتفًا في عقد متشابكة حول التاج الذي تلبسه، بينما صُفف الجزء الأدنى على هيئة خصلات طويلة على نحو رائع. ارتجفت عضلة في فكها كما لو كانت تدرك جيدًا أنني أتفحصها، وتكتم داخلها سيلًا من ألفاظ التوبيخ. وربما كان غضبها المتأجج علامة على بيت الخطيئة الذي كانت تنتمي إليه، وأنا التي كنت أحمِّل الأمر أكثر مما يحتمل.

حوَّلتُ انتباهي نحو النافذة. ولسبب ما، كانت قد أسدلت الستائر قبل أن ننطلق في طريقنا. فأزحتها جانبًا لكنها حملقت غاضبة، وقالت: «أبقيها مُسدَلة».

أخذت نفسًا عميقًا من أنفي، موجهة ضيقي المتصاعد نحو تصرفها الفظ. لكن الجدال معها ما كان ليجدي نفعًا، كما أنني لم أكن بحاجة إلى عدو جديد تشغلني مراقبته وأخذ الحذر منه.

سألتها: «ما اسمك؟».

أجابت قائلة: «ليس عليك سوى أن تناديني بلقبي».

مع ذلك لاحظت أنها لا تناديني باللقب الذي أمر راث حاشيته بمناداتي به. لكن ذلك لم يضايقني على الإطلاق. فأنا لم أكن من النبلاء. قلت لها: «حسنًا أيتها المبعوثة، أين راث؟».

التقت نظرتها الباردة بنظرتي، وقالت: «إن سموه مشغول».

لم يكن هناك التباس في حدة النبرة التي تحدثت بها، ولا التحذير من الاستمرار في طرح الأسئلة. فأسندت رأسي إلى جدار العربة المبطَّن بالمخمل. وهكذا هبطنا بثبات على أحد الجبال، فشددت جسدي لأبقى ثابتة في مقعدي، ولكيلا أنزلق إلى الأمام. وخلال مدة بدت دهرًا من الزمن، بدأنا نصعد أخيرًا مرة أخرى قبل أن نتوقف في نهاية المطاف. ودون أن أعبأ بثورتها، أزحت الستائر جانبًا وكتمت شهقة.

لم أكن قد رأيت الواجهة الخارجية لبيت راث قط. فعندما وصلت في المرة الأولى، كنت محمومة بين ذراعي راث، كما أننا دخلنا عبر جبل. وكانت قلعته هائلة الحجم، ذات مدخل ضخم، وأبراج ضيقة صغيرة وأخرى شاهقة، فضلًا عن سور سامق يحيط بالقلعة كلها. وكان سقفها من الحجر الأصفر الفاتح المكسو بالقرميد الأسود، كانت نموذجًا لا مثيل له لكل شيء ونقيضه.

كانت النباتات المعترشة المتجمدة تكسو الجدران.

اجتزنا البوابات، ثم توقفنا في نقطة ما بطريق شبه دائري. انتظرت المبعوثة أحد الخدم ليفتح لها باب العربة، ثم قبلت مساعدته لتترجَّل منها. وذهبت دون أي لمحة إلى الخلف؛ فقد أنجزت مهمتها لاستقدام الخطيبة المتمردة.

ظللت أرمقها بينما سارت مبتعدة، وأنا أتساءل عن سبب برودها، وعما إذا كنت قد أسأتُ إليها. وكنت واثقة بأنني لم أفعل. فباستثناء دهشتي لرؤيتها بدلًا عن راث، كنت ودودًا معها.

خامَرني شك مقلق إزاء علاقتها براث، لكنني نحيته بعيدًا عن ذهني، رافضة أن أسبغ عليه أي قدر من الأهمية.

أخذ الخادم بيدي لأهبط من العربة، ثم صعدت الدرَج الحجري على مهل حتى الباب الأمامي. وعلى يميني، بالقرب من السور، كانت ثمة حديقة مخفاة داخل سياج من الشجيرات، فقررت أن أزورها فور أن يصبح الطقس دافئًا.

هذا إذا أصبح الطقس دافئًا قط. وكرَد على ما يدور في ذهني، شرع الثلج في التساقط بخفة كاسيًا القلعة بطبقة رقيقة من ندَف الصقيع اللامعة.

أسرعت إلى الداخل، وأخذت أنفض معطفي، وفضلًا عن الخادم الذي كان يحمل حقيبتي، لم يكن هناك أي خدم آخرين ينتظرون للاعتناء بي، وقد أشعرني هذا الأمر بالارتياح.

قصدت جناحي دون أن أصادف أحدًا. فلا خدم ينظفون القلعة بغرفها العديدة، ولا فاونا، ولا أنير، ولا راث. كنت ممتنة لعدم رؤية أي من قاطني القلعة الآخرين من النبلاء، كاللورد ماكادين مبتور اللسان، أو السيدة أركالين الثرثارة.

بانقضاء عصر ذاك اليوم، كان القلق قد استبد بي على الرغم من ذلك. فلم أكن معتادة وقت الفراغ الطويل ذاك. ففي موطني كنت أقضي معظم الوقت في مطعمنا، أو العمل في مهنتي في مطبخ منزلنا، أو القراءة عندما لا أكون مستلقية على السرير من فرط الإنهاك بعد يوم عمل شاق. نادرًا ما كنت أمكث وحيدة أيضًا؛ فعائلتي كانت بصحبتي على الدوام، تشع دفئًا ومرحًا وصخبًا. وفي بعض الليالي كنا نجوب الشاطئ أنا وأختي وكلوديا، نتشارك الأسرار والآمال والأحلام.

حتى قُتلَت أختي، فانقلب عالمي رأسًا على عقب.

وأنا غير قادرة على تحمل انعطاف خواطري المرير، قصدت جناح رات، وطرقت الباب، لكنني لم أتلقَّ ردًّا. ففكرت في رؤية ما إذا كان الباب موصدًا لكنني تراجعت. عندما اقتحمت جناحه بعد ثورته العنيفة في مأدبة العشاء كان لديَّ عذر مقبول.

عدتُ إلى جناحي، وقررت أن أعمل في سبيل استحضار مصدر سحري مجددًا. أطبقتُ عينيَّ، وركزت على نبع السحر الباطني. وبعدئذ ببضع ثوانٍ، تقوقعت داخل أعماقي، ثم انسحقت. شعرت كما لو أنني اصطدمت بجدار صلب.

حاولت أن أستجمع طاقتي لكي أعثر عليه مجددًا، لكنني كنت أكثر إنهاكًا مما اعتقدت. ذلك أنني كنت قد قضيت معظم الليلة الماضية مستيقظة في السرير، خائفة من عودة إنفي وهو ثائر. وفي الليلة السابقة عليها لم أكد أستغرق في النوم بسبب اعتراف رات. فأدركت أنه لكي أروِّض المصدر لا بد أن أكون قد حصلت على قسط وافر من الراحة، وقد كنت أبعد ما يمكن عن ذلك.

سحبت السجل الذي كنت قد استعرته من مكتبة رات، ورحت أقلِّب صفحاته ببطء على أمل أن أجد شيئًا مكتوبًا بلغة أعرفها.

لكن جهودي ضاعت سُدى؛ إذ لم يكن به كذلك رسوم أو صور يمكنني أن أفك شفرتها. ولم يكن السجل سوى صفحة تلو أخرى تحتوي على كتابة صغيرة بخط اليد ربما تمثل نصًّا شيطانيًّا. وظل انتباهي يحوم حول حقيبتي، التي تحوي الغرض الذي هرَّبته من إنفي.

لم أكن أريد أن أخرجه من مخبئه بعد؛ إذ راودني شعور بأن أحدًا يمكن أن يأتي للبحث عنه قريبًا. لم أصدق أن أخذه كان بهذه السهولة. بل كان الأمر غاية في السهولة. لقد توقعت أن تنطلق أجراس الإنذار وأن يهب شياطين الخلل ومصاصو الدماء، ويجتاحوا المكان في اللحظة التي رفعت فيها كتاب التعاويذ من خزانته. لكن لم يحدث شيء. ومشيت ببساطة إلى غرفتي، ووضعت الكتاب داخل حقيبتي، وانتظرت انتقامًا لم يحدث قط.

عدتُ مرة أخرى إلى الواقع الفعلي الذي كنت أعيشه آنذاك، وواصلت تقليب الصفحات القليلة التالية. عاودت التركيز على سجل بيت برايد، بسطوره المتعرجة المبهمة.

استيقظت بعد ذلك بعدة ساعات، ووجهي منطبع به أثر السجل المفتوح.

كان من الواضح أنه ليس من نوع الكتب المفضلة لي. فالرواية الرومانسية كانت قادرة على إبقائي مستيقظة حتى ساعات الصباح الأولى، دون أن أقلب الصفحات على عجل على الرغم من محاولتي الاستمتاع بكل مشهد زاخر بالتوتر يضم البطل والبطلة.

لقد كنت أعشق المواقف العديدة التي يترفع فيها أحدهما على الآخر، وكيف أن شرارة هذا الازدراء أو الترفع كانت تتحوَّل إلى شعور مختلف تمام الاختلاف.

بالطبع لم تمت الحياة الواقعية للروايات الرومانسية بصلة، لكن يظل هناك جزء صغير من ذاتي القديمة يأمل نهاية سعيدة. ولم يكن ثمة شك في انبثاق شرارة بيني وبين راث - فضلًا عن الكثير من الازدراء - لكن احتمال تحولها إلى حب كان هو الوهم الحقيقي.

مشَّطتُ شعري، ثم ذهبت لأتفقَّد جناح راث مجددًا. كان الشيطان إما لا يزال في الخارج، أو غير راغب في تكبُّد عناء الرد على الطَرقات. مكثتُ واقفة هناك ويدي مرتخية بجوار جسدي. ربما كان غاضبًا من أثر صدِّي له في بيت إنفي. لكن كان هناك شيء غريب في الأمر برمته.

لقد ظل بجواري أشهرًا في عالم البشر، ثم ما يناهز الأسبوعين في هذا العالم. وإذا كانت له حبيبة، فلربما تسلل لزيارتها. وأظن أنه لم يتوقع عودتي بهذه السرعة. كان ينبغي لي أن أبتهج بهذه العزلة؛ إذ لم يكن هناك من يتجسس عليَّ، ولا إغواء يحث على إتمام الزواج، ولا أي شيء يشتت تركيزي. ومع ذلك ... مع ذلك كان ثمة شيء يقلقني ويقِّض مضجعي.

طلبت العشاء، وتناولته في جناحي، وبالي مشغول بالحديث الذي دار مع إنفي، وبكل ما علمته، خاصة لعنة الحقيقة المقروءة على الشراب، وما يمكن

أن تعنيه فيما تبقى من مهمتي. لقد كان مفعول هذا السحر ناجعًا على أحد أمراء الجحيم. وفي حين أنني لم ألحظ أي شيء مختلف في شرابنا، فإن ذلك لا ينفي أن أي أمير آخر يمكن أن يشعر بالاختلاف. لقد كان إنفي على علم بما سيحدث؛ لذا لا يمكنني أن أعتمد عليه معيارًا للحكم.

ما أردته كان اختبار نظرية ما. وكنت أحتاج إلى راث. فإذا استطعت أن أسحر شرابه دون أن يعلم، فلربما تأكدت من فائدة استخدامه في عيد الذئب. فالأمراء كانوا سيحضرونه عن بَكرة أبيهم. وبإمكاني أن أهمس بالتعويذة على نخبنا، وأكتشف المسئول عن مقتل فيتوريا دون المخاطرة باكتشاف أي أحد ما أفعله.

ليت راث لا يشعر بالتعويذة؛ إذ لن تنجح الخطة دون نجاح الاختبار.

أقنعت نفسي بأن هذا هو السبب الرئيسي لقطعي الدهليز خارج جناحه جيئة وذهابًا في الصباح التالي، وأنا أرهف السمع لأية همسة تدل على عودته. وبالطبع لم تكن لذلك صلة باشتياقي إليه، أو الشكوك المتزايدة حيال المكان الذي ذهب إليه، ومَن عساه يكون بصحبته. ذلك أن كل تلك الهواجس كانت هراء ينتمي إلى بيت إنفي. وربما كانت تلك مجرد مشاعر غيرة باقية من زيارتي إلى بيت الخطيئة ذاك. هذا بفرض أن تلك الاحتمالات هي ما حدث بالفعل.

مر يومان آخران دون أن أسمع ولو كلمة واحدة من أمير البيت. وحاولت عدة مرات أن أستدعي مصدر سحري لكنني واجهت المقاومة نفسها. ولم يحتوِ كتاب السحر على معلومات عنه؛ لذا لم يكن أمامي سوى الانتظار. وفي نهاية المطاف سأتمكن من الانغماس في ذاك النبع. كنت أقضي وقتي في المكتبة، باحثة عن أساطير جديدة. وكنت مهتمة بمعرفة المزيد عن شجرة اللعنة، خاصة السطر الذي زعم أنها تمنح ما هو أكثر من الأمنيات.

بحثت أيضًا عن أية كتب تتعلق بمفتاح الإغواء، أو مرآة القمر الثلاثية. وحتى ذلك الحد ذهبت جهودي كلها سُدى. وأخيرًا، عندما حسبت أنني سأجَن، سمعت طرقات على بابي.

قال أنير مبتسمًا: «مرحبًا يا سيدة إم، لقد جئت لأدعوكِ إلى مغامرة».

قطّبت حاجبيّ مستغربة: «السيدة إم؟ لم ينادني أي أحد بهذا الاسم. ولا أعتقد أنه يروق لي».

قال أنير: «ذلك لأنك لم تحضري اجتماعًا سريًّا من قبل. هيا، فلترتدي سترة طويلة وسروالًا، ثم قابليني أمام باب جناحك. لقد تأخرنا».

سألته: «أين سنذهب؟».

ابتسم مجددًا ابتسامة جعلت معدتي تتقلص من التوتر، ثم قال: «سوف ترين».

كان تخمين ما خطط إليه أفضل من الجلوس وحيدة في غرفتي، أو التجول في المكتبة دون العثور على أي كتاب مفيد؛ لذا اندفعت مسرعة إلى غرفتي، وارتديت الملابس التي أشار عليَّ بها.

بمجرد أن انتعلتُ حذاءً مسطحًا، تبعته إلى الدهليز. صعدنا عددًا من الدرج، ثم توقفنا بالقرب من طرف ممر طويل.

حينئذ قال أنير وهو يدفع أحد الأبواب: «فلتسمحي لي بأن أريك قاعة الأسلحة».

أطلق شهقة حادة قائلة: «يا إلهاتي في السماء»، مع أنني ينبغي ألا أندهش من عظمة القاعة لمعرفتي أن راث هو قائد الحرب. هنا كانت تكمن لؤلؤة بيت راث. أردفت قائلة: «إنها بديعة».

قال أنير مازحًا: «كثيرًا ما أسمع ذاك الإطراء، فلتدخلي».

خطوتُ عابرة العتبة، وناظراي يجولان في أنحاء القاعة الفسيحة التي تبدو بلا نهاية. قسَّمت الأعمدة المكان إلى قاعات أصغر يتصل بعضها ببعض. وإذا كانت قاعة إنفي الفنية هي العنصر الأكثر كشفًا لشخصيته، فهنا قبعت روح راث جلية مجردة.

كانت رائعة وفخمة وفتاكة ومفعمة بالكمال الوحشي وصريحة في تمجيد العنف دون مواربة. ظللت واقفة هناك، أحدِّق إلى كل ما تقع عليه عيناي.

سمح السقف الزجاجي للضوء بالنفاذ، فأضاء المكان الذي لولاه لظل مظلمًا. وكانت الجدران والأرضية من المرمر الأسود ذي العروق الذهبية. وفي القاعة الرئيسية التي دخلناها كان ثمة تصميم خفي تصعب رؤيته - يظهر أطوار القمر على أحد الجوانب، ونجومًا مبعثرة على جانب آخر، فضلًا عن حية تبتلع ذيلها في شكل دائري - مطعَّم بالذهب على الأرضية. وبناءً على ما تمكنت من رؤيته، كان كل ركن من هذا القطاع من الأرضية يعبِّر عن واحد من العناصر الأربعة. وكان جزء من التصميم مغطى ببساط كبير موضوع في المنتصف تمامًا.

كانت ثمة حيّات ذهبية تلتف حول الأعمدة فاحمة السواد، ما جعلها الأعمدة الأكثر فخامة وروعة يمكنني أن أراها طيلة حياتي.

وكانت السيوف والخناجر والدروع والأقواس والسهام، فضلًا عن السكاكين متنوعة الأشكال والأحجام، تتلألأ بالأسود والذهبي في مواضعها الدقيقة على الجدران.

درتُ حول نفسي، وأنا أمتع ناظريْ بروعة المكان بأسره. وفي نهاية القاعة كان ثمة لوحة من الفسيفساء لأفعى. وعلى النقيض من الحية التي تبتلع ذيلها المصورة على الأرض، كان جسم هذه الأفعى ملتفًا ومكوّنًا عقدة متشابكة. ولقد ذكّرتني بشيء ما، لكنني لم أستطع تحديده.

قبالة الجدار البعيد عُلِّق جوال من القش مرسوم في وسطه هدف تسديد عملاق، وكان ثمة منضدة صغيرة على اليسار مرصوصة عليها خناجر في صف منضبط. أخذت أحدِّق إليها وأناملي ترغب في الإمساك بمقابضها وتصويبها في الهواء.

تحرك أنير إلى منتصف قاعة الأسلحة، وأشار إلى البساط المفروش أمامه قائلًا: «سيكون درسنا الأول عن وضعية وقوفك». توقفتُ عن التحديق، ووقفت حيث أشار. أردف: «يجب أن تكون قدماك ثابتتين دائمًا بإحكام على الأرض، ما يمنحكِ وضعية ثابتة للاندفاع إلى الأمام والمباغتة والمراوغة بسرعة ورشاقة في أي اتجاه دون أن تفقدي توازنك».

تحركت بحيث صرت في وضعيته نفسها. وكانت قدماه متباعدتين قليلًا، بحيث كانت إحداهما متقدمة بخطوة إلى الأمام والأخرى ثابتة في الخلف. كانت وقفته مألوفة لي بعض الشيء، لكنني لم أدخل في عراك مع أحد من قبل، ولم يكن هناك سبب للخضوع لدروس من هذا النوع.

استطرد أنير: «يجب أن توزعي وزن جسدك بالتساوي. وتأكدي أن ركبتَيك تتبعان الاتجاه الذي تشير قدماك نحوه».

تمايلت قليلًا، ثم عدَّلت وضعي. ولم أكد أرفع ناظريَّ حتى لمحتُ أنير وهو ينطلق إلى الأمام، وساعده يندفع كأداة الكبش الحربية، ويلمس ضفيرتي العصبية البطنية، ما جعلني أطير إلى الوراء وذراعاي تتطوحان قبل أن أهبط على مقعدتي في وضع غير لطيف ومحرج للغاية.

حدَّقت إلى معلِّمي قائلة: «أنت فظيع أيها السيد».

قال: «إنني كذلك. وها أنت يا سيدتي قد تعلمت درسك الأول». ثم مد لي يده، وساعدني على الوقوف، وأردف: «لا تبعدي تركيزكِ عن غريمك أبدًا».

- «اعتقدتُ أن هذا الدرس عن وضعية الوقوف».

- «أجل إنه كذلك، وإن النظر إلى الأسفل لا يفيدك فيما يتعلق بالتوازن مطلقًا. وإذا اضطررتِ للنظر إلى الأسفل، فلتستخدمي عينَيك وليس نصف جسدك الأعلى كله. إن إدراك وضعيتك هو المفتاح».

كررنا التمرين بدرجات متفاوتة من فقدي التوازن وسقوطي على مقعدتي. وعلى الرغم من وجود البساط المبطَّن على الأرض، لم يكن الألم قد بارحني في الصباح. ومع كل ضربة، كان توازني يزداد، ويقل ميلي وتأرجحي. تجمعت قطرات العرق فوق حاجبيَّ، بينما أعدنا التمرين مرارًا وتكرارًا.

راودني شعور جيد، بينما حركت جسدي وصفيتُ ذهني.

بعدئذ ببعض الوقت، أعلن أنير عن استراحة، وراح يجفف العرق على عنقه ووجهه بقطعة قماش قطنية. كنت ما زلت مستعدة لمواصلة الدرس، لكنني تراجعت إلى الخلف وأنا أقفز على مقدمة قدمَي، إذ شعرت بالحيوية،

وعلى الرغم من أن عضلاتي كانت ترتجف فإنني كنت متعطشة إلى المزيد من الحركة.

انحنى أنير راكعًا، وقال: «فلنسترح خمس دقائق».

تبعته إلى منضدة جانبية عليها دورق من الماء وأقداح.

سألته: «أين راث؟» لا أعلم لمَ اندفعت في قول ذلك، لكن بدا غياب أمير الحرب غريبًا بينما كنا في قاعة أسلحته المهيبة.

نظر أنير إليَّ شزرًا بينما سكب لنفسه قدحًا، وارتشف ما به حتى منتصفه، ثم قال: «لم أظن أنك تمانعين في غيابه».

قلت: «أنا لا أمانع فيه، لكنه فضول فحسب». وعندما لم يجب، وجدت فمي الأحمق يواصل الحديث: «بدا غير مرتاح لزيارتي بيت إنفي؛ لذلك ظننت أنه يرغب في رؤيتي حينما أعود».

- «هل تسألين عني عندما أغيب؟».

- «كلا».

- «يا للهول».

الدماء والعظام. أنَّبتُ نفسي فور أن اتسعت ابتسامة أنير. وسكبت لنفسي بعض الماء، وتناولت رشفة، ثم قلت: «أقصد ...»

- «لا عليك». كانت عيناه مفعمتَين بالاستمتاع بينما استرسل قائلًا: «فلتكذبي على نفسك كما تشائين، لكن يجب أن تحتاطي بينما تكونين في صحبتي».

- «حسنًا، الحقيقة هي أن المبعوثة ضايقتني».

قال أنير متعجبًا: «السيدة ساندرا؟ أتصور السبب وراء ذلك؛ فأبوها دوق، وهي لم تسمح لأحد بأن ينسى تلك المكانة المرموقة قط. ودائمًا ما اعتقدت أنها جديرة بالزواج بأحد الأمراء».

قلت: «آه، لهذا السبب أصبحت مبعوثة. فهذا المنصب يقرِّبها من جميع أفراد العائلات المالكة».

- «فلتنظري إلى نفسك يا سيدة إم، ها أنت قد صرتِ تفكرين كنبيلة ماكرة. ومع ذلك لا يخطط معظم الأمراء للوقوع في مصيدة الزواج. ومهما تعددت خطط الأسر النبيلة التي تشبه محاولاتها، فإن الأمراء سيظلون كما هم. إنها غاضبة بطبيعتها، وليس من منطلق أية خصومة شخصية معك».

- «إذن كلما ارتفعت المكانة، ازداد تعبير الشياطين عن الخطيئة التي يتوافقون معها».

- «بناءً على ما بِتُّ أعلمه من الوقت الذي قضيته هنا، فأنا أتفق معك. ومع ذلك لا يستطيع أحد أن يكتسب القوة الكافية للإطاحة بأمير. إنهم مختلفون تمامًا، بما يشبه الاختلاف بين الأسد والنمر. فكلاهما قط مفترس ضخم، لكنهما غير متماثلين».

- «وماذا عن الشياطين الأدنى شأنًا؟ أهم مختلفون عن النبلاء؟».

- «أجل. ولهذا السبب غالبًا ما يفضلون الإقامة في الضواحي المحيطة بحلقاتهم».

- «إذا كانت السيدة ساندرا تلائم بيت راث بالقدر الأكبر، فكيف يمكن أن تتزوج بأمير يمثل بيت خطيئة مختلفًا؟».

- «إن هذا الأمر نادرًا ما يحدث، لكن تغيير الانتماء لخطيئة ما ليس مستحيلًا».

اتكأت على حافة المنضدة، ووضعت قدحي عليها بينما قلت: «أنت تعلم أن راث شرع في قبول رباط الزواج في الليلة التي هاجمتني فيها الشياطين الأفعوانية».

قال أنير وهو ينحني انحناءة استعراضية: «فلتحيا ملكة تغيير مجرى الحديث. هل تريدين أن تطرحي سؤالًا يتعلق بهذا الأمر، أم تبحثين عن تأكيد لما قلته؟».

قلت بحذر وأنا ما زلت أفكر في ابنة الدوق: «أعلم أنني لست اختياره الأول كزوجة، لكنني أريد أن أعرف ما إذا كان قد انشغل بأخرى قبل ... كل شيء».

اختفت روح الدعابة من وجه أنير بينما قال: «أنا لست مُخوَّلًا بالخوض في هذه القصة».

- «أنا لا أطلب منك ذلك، وإنما أريد أن أعرف ما إذا كانت هناك امرأة أخرى فحسب».

- «وهل سيغيِّر هذا أي شيء؟».

فكرت في الأمر، فوجدت أن فضولي يلعب دورًا دون شك، لكن معرفة الحقيقة ستغيِّر الوضع بالتأكيد. ذلك أنني سأرفض الرباط، وأخضع لتقرير مصيرنا من قِبل المجلس الثلاثي الذي تحدث راث عنه.

إذا كان يحب امرأة ما، فهذا سيجعلني غير مرتاحة، وسيفسح المجال أمامي للسعي نحو الزواج ببرايد، الذي ما زال السبيل الأكثر ضمانًا لتحقيق غايتي؛ ألا وهي الانتقام.

ذلك إلا إذا هزمت إنني في العثور على مفتاح الإغواء ومرآة القمر الثلاثية. وإذا لم يستطع أي أمير شيطاني أن يشعر بالشراب المسحور، ربما أتمكن من كشف الحقيقة. ولكنني أريد أن أجرب هذا السحر على أحد أمراء الجحيم، الذي ما زال غائبًا. اللعنة عليه.

عدت إلى الموضوع الذي كنا نتحدث بشأنه. فأنا لم أرغب في أن أرتبط بعلاقة زواج براث دون حب إذا ما كان سيظل متعلقًا بأخرى ومشتاقًا إليها.

أجبتُ أنير قائلة: «أجل، سيغيِّر الكثير».

«فلتكوني حذرة». قالها صوت خافت من ورائي ثم أردف: «وإلا ظننتُ أنك ترغبين حقًا في الزواج بي».

السابع عشر

أغمضتُ عينيَّ، وأطلقت السباب سرًّا في نفسي قبل أن أحملق غاضبة إلى أنير قائلة له: «إنك الأسوأ على الإطلاق».

قال أنير الغادر وهو يصوب نحوي ابتسامة ماكرة: «أتحدى بسبع عملات شيطانية أن شعورك سيختلف بعد درسك التالي. فلا تنسي محفظة نقودك غدًا يا سيدة إم».

«أغلق الباب بعد أن تخرج».

قال راث تلك الكلمات وهو شديد القرب مني، حتى إنني شعرت بدفء أنفاسه يهب على عنقي، وفكرت وهلة في أن أندفع إلى خارج القاعة أو أخترع تعويذة تجعل الأرض تنشق وتبتلعني. لكن بدلًا من ذلك استجمعتُ شجاعتي واستدرت ببطء. كان تركيزه منصبًا تمامًا على أنير، الذي فقد بعضًا من زهوه المرح، واستبدل به جديةً لم أعهدها به منذ ليلة بتر لسان السيد ماكادين.

أردف راث: «لا يدخل أحد هذه القاعة حتى أعطي الإشارة بأن تدريبنا قد انتهى. هل هذا مفهوم؟».

أجاب أنير: «أمرك يا صاحب الجلالة».

انحنى أنير لي في تأدب، ثم خرج مسرعًا. يا له من جبان! ابتسمت بيني وبين نفسي، فالتحدث عن الجبناء، والتظاهر بأن الأمير الشيطاني لم يكن

موجودًا، ولم يسمع حديثي الذي لم أقصد أن يسمعه قط، لن يفيداني في سعيي لاكتساب الشجاعة أيضًا.

أجبرت نفسي على تحمُّل نظرة راث الطاغية، وأخفيت دهشتي بينما رحتُ أقيِّم خصمي الجديد. لم يكن متشحًا بالسواد اليوم؛ وإنما كان يرتدي قميصًا ناصع البياض وسترة مشقوقة الذيل. أمعنت النظر في هيئته الفارعة، وقسمات وجهه الباردة، فازدردت لعابي بصعوبة. لم يكن في مزاج طيب، فأدركت أن الوقت غير مناسب لإظهار الجرأة. ذلك أن اللاعب الماهر لا بد أن يتقن فن الانسحاب والتراجع. لم يكن راث في حال جيدة ولم أرغب في لعب دور في اكتشاف مدى سوء حاله.

قلت: «لا أرى أن تدريبك لي ضروري، فقد أدى أنير مهمته على الوجه الأكمل».

لاحت ابتسامة على وجه الأمير، لكن دون أية لمحة توحي بالسعادة أو البهجة. وأكدت نظرته أن البقاء في الأنحاء انتظارًا لتدريبه كان فكرة شنيعة. تراجعت خطوة إلى الخلف فبرَقت في عينيه نظرة تشي بالخطر.

قال: «إن أنير لا يمتلك المهارات التي يتطلبها هذا الدرس».

- «حسنًا، لكن لديَّ ارتباطًا مسبقًا. فلنحدد موعدًا آخر».

- «هل الأمر كذلك؟».

- «أجل، إنه كذلك في حقيقة الأمر».

- «هل تتذكرين الاتفاق الذي عقدناه في مخدعي».

كنت على وشك أن أومئ برأسي حينما اكتسحتني موجة عاتية من الإنهاك، وثقل رأسي فجأة حتى إنني لم أقدر على تحريكه. حينئذ غمر انتباه راث الشديد عاطفتي وجسدي. لم يكن وجهه معبِّرًا عن أي اهتمام، وإنما كان صارمًا على نحو كفيل بأن يثير القلق داخلي.

كان جديرًا بذلك بالفعل، لولا أن انتابتني تلك الحالة المزرية من الإعياء. صار من الواضح أنني لم أعد قادرة على الحركة، أو على الوقوف أيضًا. وخارت قواي، وهويت على الأرض، منسحقة ومكوِّنة كومة من الأطراف

المتشابكة. التصقت وجنتي بالبساط السميك، فأثر فيها الوبر الخشن، ومع ذلك لم أستطع أن أتقلب لأتخلص من هذا الشعور، بل لم أطرف بعينيَّ. وما فاقم من فزعي، أنني وجدت قطرة من لعابي تسيل عبر زاوية فمي، ومع ذلك لم أحرِّك ساكنًا.

في الواقع، لم أقدر على أن أعبأ بأي شيء، ولا وميض الانتصار الذي لاح في عيني راث بينما صوبهما نحوي من الأعلى.

راح يدور حول جسدي المنبطح دون حول ولا قوة، قائلًا: «فلتنظري إليَّ يا إيميليا».

كنت أريد أن أستجيب له، أكثر من أي شيء آخر، لكنني لم أستطع أن أستجمع قواي. فلم يعد في جُعبتي ما أستمد منه العون. ودون إرادتي انسدلت أجفاني. وعلى الرغم من وضعي البائس، وأنا أتمدد بلا حراك على الأرض ولعابي يسيل، لم أستطع أن أستحضر العزيمة لـ...

وفجأة تلاشى ذاك الشعور الذي جثم على كياني، كما لو لم يكن. واحتشد الغضب المتأجج في أوصالي فسرعان ما أقامني على قدمي بعدئذ ببرهة. وكان جسدي يرتجف من فرط الانفعال، أو لعله الحنق.

اندفعتُ في وجه الشيطان قائلة: «سوف أقتلك!».

قال: «تقتلينني؟ أنا واثق بأنكِ تقصدين أقبِّلك».

ضحك راث لتغير حالي المفاجئ، ثم قبل أن أتمكن من لمسه تحوَّل الحال مرة أخرى على حين غرة. فلم أعد أحاول أن أطبق يدي على عنقه، بل صرت أجذبه ليقترب مني وأطوِّقه بذراعيَّ اشتياقًا إليه.

فلتلعني الإلهات. كانت عاطفتي نحوه جامحة على نحو لم أعهده من قبل، ولا في بحيرة الهلال كذلك.

في أعماقي كنت أشعر بأن ثمة خطبًا ما. كان هذا هو الشعور نفسه الذي انتابني في تلك الليلة عند الشاطئ، لكن العاطفة أعمتني هذه المرة بصورة مريبة.

كانت العاطفة هي المتنفَس الأمثل لانفعالنا المتبادل. وقد جذبت وجه راث نحوي، وعيناه تتوقدان بالعاطفة نفسها. لكنه قال بينما ابتعد عني: «في ممر الخطايا كان اختبارك يتمثل في الغيرة والحسد. وإن الفضول ليعتريني الآن عن سبب انفعالك الشديد آنذاك. فهل تتذكرين الوهم الذي أثار ذاك الشعور؟».

تبددت عاطفتي، وطغا على مخيلتي مشهد راث وهو بصحبة امرأة أخرى، بكل تفاصيله الدقيقة. فاجتاحتني مشاعر غاضبة كئيبة، وصارت الغيرة تعصف بي حتى ما كنت أتورع عن قتلهما. وأمسى دمي باردًا كنبرة صوتي حينما قلت: «أجل، أتذكر».

قال: «فلتخبريني بما رأيته».

- «رأيتك بصحبة رفيقة أخرى، في وضع حميم».

سادت لحظة من الصمت، كما لو لم يكن يتوقع هذا السبب. سألني: «وكيف شعرتِ حينذاك؟».

تنهدتُ، كما لو كنت أزمجر: «كان شعورًا قاتلًا».

شرع راث يطوقني بذراعيه في بطء، فانحدرت عبرة على وجنتي. لم أكن حزينة أو كذلك غاضبة، ولكن الغيرة تملكتني. ليس من المرأة الأخرى، وإنما من الليلة التي قضياها معًا. لقد غشيت العاطفة نحو راث عقلي دون هوادة. وهذا القدر من الغيرة كان جارفًا كالليلة التي قابلت فيها أمير تلك الخطيئة للمرة الأولى.

لقد سخَّر إنفي قوته عليَّ، ولن أنسى مطلقًا برودة...

تحوَّل الفهم الذي أنار بصيرتي فجأة إلى بركان من الغضب، محطمًا التعويذة، فقلت: «أيها الوحش المفترس. أتسخِّر قواك ضدي؟!».

قال: «وها أنت قد خضعت لها بكل سهولة». ثم تصاعد هياج راث ليواجه هياجي، وأردف: «أتريدين أن يتلاعب إخوتي بك؟ ربما ترغبين في أن تكوني وسيلة لتسليتهم، ولعلك تبدئي بأن تكوني *ملكًا لي*. هيا فلتتجردي من ملابسك ولترقصي لي».

- «أنت لست سوى خنزير».
- «بل أنا أسوأ كثيرًا من ذلك. لكن الاتفاق هو الاتفاق».
- «لكنني لم أوافق على هذه البذاءة».
- «كاذبة. لقد طلبت مني أن أزودك بالسلاح، بل ألححت في الطلب إن لم تخُني ذاكرتي. ورددت بأنني سأدربك على مواجهة التهديدات الجسدية والسحرية. ألم توافقي على ذلك؟».
- «أجل، لكن...»
- «فلتخلعي ملابسك».

ارتجَّ صوته بصدى متسلط غريب. حاولت أن أبعِده من رأسي، وأن أقاومه، لكنني شعرت بضغطه يتعاظم. حاولتُ بمشقة أن أقيم حاجزًا عاطفيًّا بيننا، لكن راث ما كان ليسمح بذلك. وقبل أن أتمكن من لمس وسم الاستدعاء على عنقي، تردد صوته واضحًا وقويًّا ومفعمًا بالسلطة القاهرة.

قال آمرًا: «الآن».

انهار السد، وكذلك إرادتي. فراحت أصابعي تفك أزرار سروالي في خفة، ثم هززت ساقيَّ ليهبط عند قدميَّ. وخلعت سترتي بعدئذ. تفحصني راث من رأسي حتى أخمص قدمي. لم تكن بنظرته أية رغبة، أو دفء، أو تقدير، فلم يكن بها سوى الغضب.

ولم يكن وحده من يشعر بهذا الشعور. كرهت إجباره لي على خلع ملابسي. ففعل ذلك باختياري عند بحيرة الهلال كان قويًّا، وأشعرني بالحرية. أما ما أفعله الآن فلم يكن كذلك. لكن لا بأس، فسأجعله يدفع الثمن. وبالسرعة نفسها التي تأججت بها حاجتي إلى الانتقام، تلاشت هذه الحاجة أمام موجة إرادته التالية.

هممتُ بأن أخلع ملابسي الداخلية، لكنه قال في حزم: «فلتتركيها، هيا فلترقصي».

ركزت حينها انتباهي على جذوة الغضب التي لم يخضعها أمر راث السحري، وحاولت بكل قوتي أن أشعل جوهر الانفعال ذلك الذي ما زلت

أمتلكه، وأسخره لتبديد سحره. فأنا فقط صاحبة قرار متى أتجرد من ملابسي أمامه أو أمام أي أحد آخر. وأنا فحسب من سأتحكم في إرادتي. وسأظل أحارب من أجل ذاتي، مهما آمست الحال مروعًا، أو بائسًا، أو عقيمًا.

شعر راث بإصراري وعزيمتي، فأطلق المزيد من قوته.

قال: «قلت ارقصي».

كان كل من عقلي ومشاعري وإرادتي الحرة مقيدًا في أعماقي. وكل ما صرت أدركه كان وقع صوته وإرادته. وتدفقت تلك الإرادة عبر عروقي، وهيمنت عليَّ بكل معنى الكلمة، وصارت هي وقلبي كيانًا واحدًا.

فعلت كما أمرني، وصارت الخطيئة والرغبة متجسدتين داخلي.

رحت أتمايل، وأنا أصب انتباهي عليه، وميلي نحوه يتأجج في كل لحظة.

اقترب راث، وعلى وجهه غضب بارد. لم أستطع أن أدرك سبب غضبه وعدم رضائه. اقتربت منه أكثر، وتذكرت رقصي في وقت آخر، والغضب نفسه الذي اعتراه عند تلك النيران.

كان مخلوقًا صعب المراس حينها. وكان أضعاف ذلك الآن.

سألته: «أليس هذا ما تريده؟».

أجاب: «كلا، على الإطلاق». ثم تراجع خطوة واسعة، مبعدًا المسافة بيننا ما أثار حفيظتي. وأردف: «ستنادينني بسيدي منذ الآن فصاعدًا. فلتجثي على ركبتيك».

- «لن أفعل ذلك أبدًا» اشتعل الغضب داخلي، ثم انطفأ على الفور. هويتُ على الأرض ورأسي منكس، ثم قلت: «أيرضيك هذا يا سيدي؟».

- «فلتخلعي حذائي الأيمن».

حللت أحزمة حذائه، ثم خلعته، منتظرة أمره التالي.

- «مرري يديكِ حتى رَبلتي». مددت يدي نحو ساقه، لكنه أبعدها قائلًا: «فلتبدئي من كاحلي».

دون تردد مني، مررت يدي على عضلة ربلته، وشعرت أناملي بصلابتها، قلت له: «هل أنت راضٍ يا سيدي؟».

مد راث يده للأسفل ليرفع ذقني، ونظره يحوم على وجهي. وكان يبحث عن شيء ما، لكن التجهم الشديد على مُحياه أوضح أنه لم يعثر عليه.

قال: «فلتتعلمي أن تحمي نفسك. فهذا هو ما سيرضيني».

معه شعرت بالسعادة، وفهمت جوهرها، وكان باستطاعتي أن أشعره بها. فمررت يدي على جسده، وقلت له: «فلتدعني أسعدك يا سيدي».

انخفضت الحرارة حولنا فجأة بعدة درجات.

قال: «لو كنت أريدك جاثية على ركبتيك دون أن تمتلكي أي فكر نابع من عقلك لفعلت. ولو رغبتُ في إتمام الزواج منك لجعلتك تفعلين ما أريد تمامًا. بل سوف تتوسلين للمزيد. ولكن هذا لا يجذبني ولا يرضيني. إنني أرغب في امرأة تكون ندًّا لي. فلتجذبي الخنجر المخفي على ساقي، ولتنهضي».

نزعتُ الخنجر من غمده الجلدي، وانتصبت واقفة، وقلبي ينسحق من نبرته القاسية، ورفضه محاولات التقرب منه واسترضائه. مددت يدي نحو يديه على أمل أن أحثه على قبول ما كنت أعرضه، قائلة: «أنا...»

لكن مشاعر الغيظ والجموح والغضب والجهد المُضني أحرقت العاطفة التي كنت أشعر بها تجاهه، فلم تُبقِ منها شيئًا. فما كان مني إلا أن أمسكت بالخنجر بقوة شديدة آلمت يدي. ولم يبعد راث نظره عني بينما حل بضعة أزرار من قميصه ببطء، قائلًا: «اغرزي الخنجر في قلبي».

اقتربتُ منه للغاية، حتى اخترق طرف الخنجر بشرته. صرت حانقة حينئذ، بل أصبحت تجسيدًا فعليًّا للحنق. وأصررت على أخذ ما كان لي.

وسأبدأ الآن، بهذا الأمير البغيض.

مال راث إلى الأمام، وقال بصوت خافت ومفعم بالإغواء: «هذا ما تحلمين به. الدم والانتقام. فلتظفري بثأرك أيتها الساحرة. فلتتذكري ما فعلته بك في الحال، وكيف جثوتِ على ركبتيك، تتوسلين إليَّ لإرضائي. فلتجعلي كراهيتك وخطيئتك المفضلة تسيطران عليك».

قلت: «فلتصمت».

- «ربما كنت سعيدة عندما جرَّدتك من ملابسك، وعندما جعلتك تخضعين لإرادتي».

- «قلت فلتصمت!».

- «ربما عليَّ أن أريك كيف يمكن أن أُسرف في الشر».

أخذت أحدِّق إلى صدره، وفي الخنجر المغروز في بشرته. فرأيت قطرة دماء تنزلق على جسده. وفي خضم غضبي وثورتي اللذين أعميا حواسي، تذكرت. لقد طعنت قلبه بخنجر من قبل. تحديدًا في دار العبادة. ولقد أقسم حينها أن فناءه يحتاج لما هو أكثر من غرز خنجر في صدره. وحينئذ أردت أن أتأكد من صدق تلك الكلمات. وها هو الآن يتيح لي الفرصة لتحقيق ما تمنيته. والتهلت أنفاسي بصعوبة؛ إذ كاد قلبي ينتفض في حلقي. وكانت الدموع الحبيسة في عينيَّ تشعلانهما ألمًا.

ارتجفت يدي، والخنجر يخترق جسده بصعوبة أكبر كلما ضغطت عليه.

قال رات: «*فلتظفري بثأرك*».

راح تأثيره الشيطاني يصارع إرادتي، وانتصر في النهاية.

انسابت دمعة من عيني بينما ملتُ على الخنجر ضاغطة عليه بثقل جسدي لأغرسه في أعماق عضلاته وعظامه. أخذت أراقبه بغضب مستعر بينما غاب داخل صدره. وهنا أخذت الدماء تتدفق من الجرح، مُخضبة قميصه، وملطخة أصابعي. لم أجذب الخنجر إلى الخارج، وإنما أخذت ألفه، وأنا أطبق أسناني قبل أن أطلق صرخة مدوية تكفي لاستدعاء كبير الشياطين نفسه.

راقبني الأمير الشيطاني في هدوء، بينما أجذب الخنجر وأطعنه ثانية.

وأطعنه مجددًا.

ومجددًا.

الثامن عشر

حررني راث من سيطرته فجأة.

أخذت أحدق إلى الخنجر البارز من صدر الشيطان، وجسدي كله يرتجف بشدة في أعقاب تلك الموقعة. سرى الإعياء في أوصالي، وحل محل الغضب الذي كان يعصف بكياني من فوره، فتركت الخنجر من يدي، وتراجعت منتفضة إلى الخلف، غير قادرة على رفع عينيَّ عنه. كانت الدماء غزيرة؛ دماء راث.

تشعبت الدماء على قميصه الأبيض في مشهد رهيب وكأنها أغصان شجرة الموت. ولو كان هذا قد حدث لأي أحد غير راث، لكان لقي حتفه من فوره. أعني لكنتُ قتلته. التقطتُ أنفاسي بصعوبة، وهول الكارثة التي كان يمكن أن ترتكبها يداي جاثمًا على روحي يكاد يسحقها.

اقتلع راث الخنجر من صدره، وألقاه بعيدًا، فجفلتُ من صوت ارتطامه بالجدار، ذاك الصوت الوحيد الذي تردد في القاعة فضلًا عن صوت أنفاسي المتهدِّجة. لقد دفعني إلى طعنه؛ في فؤاده. لم أستطع أن أبعِد ناظريَّ عن موضع طعني إياه، ولم أتمكن من إيقاف صوت انسحاق عظامه بينما كنت أقحم الخنجر في صدره. بذلتُ جهدًا مضنيًا لأبقي يديَّ بجواري بدلًا من أن أغطي أذنيَّ بهما، وأصرخ حتى يكُف هذا الصوت المريع عن التردد في رأسي.

لقد شُفي الجرح بالفعل، لكن قميصه كان لا يزال غارقًا في الدماء. وحينئذ غمرت حواسي صور ذكّرتني بصدر آخر، وقلب آخر. قلب شقيقتي التوأم. فما مثل أمام عينيَّ فقط هو جثمانها الذي أزهقت الروح التي كانت تسكنه بوحشية. كم من السهل أن تكون هي التي طُعنت بخنجري. وحينها ما كان الانتقام ليجدي نفعًا.

أخذت أقلّب يديَّ الدبقتين، وأنظر إلى راحتيَّ المخضبتين بالدماء، ثم صحت: «كيف تجرؤ؟ كيف تجرؤ على دفعي إلى السقوط في هذه الرذيلة؟».

قال راث: «حقًا، كيف أجرؤ على تعليم زوجتي كيف تحمي نفسها من أعدائها».

- «إنني لم أضحَ زوجتك بعد. وإذا كانت تلك طريقتك لإثبات ضرورة زواجنا، إذن فأنت مجنون. بل أنت الكائن الأكثر انحطاطًا الذي وضعه حظي التعس في طريقي».

- «إذا كان هذا صحيحًا، لكنت تركتك كما كنت لامست عندما حررتك من عبوديتي».

ألقى الشيطان رداء نوم نحوي. لم أكن قد رأيته معه من قبل، لكنني لم أتمكن من ملاحظة أي شيء ما عدا الخطايا التي أرادني أن أتدرب على مواجهتها.

وبالفعل، صرتُ أرى الكثير الآن. وكان التعبير المرتسم على وجهه تصويرًا حيًا لمشهد القتل الذي شهدته منذ لحظات. وكما لو أن استعراضه التافه لقواه أثار غضبه أكثر مما أثار غضبي، وكما لو أن ذلك الأمر كان ممكنًا.

لقد غرزتُ خنجرًا في قلبه. لم أنزعج هكذا من قبل طيلة حياتي، ولم أشعر بهذا القدر الهائل من الغضب منذ مقتل أختي.

التقطت رداء النوم وارتديته، وأنا لا أريده أن يشعر بمدى احتياجي إليه. أدركت حينها أيضًا سبب ارتدائه اللون الأبيض، وجعلني استعداده للتدريب أغلي غضبًا. لقد دلَّ على أنه كان يعرف بالضبط الخطايا التي سيسلطها عليَّ، وتأثيرها عليَّ، كما أنه فكَّر سلفًا فيما سأحتاج إليه بعد استعراض قواه السخيف.

راودتني فكرة الإسراع إلى جناحي بملابسي الداخلية، أو متجردة منها تمامًا كذلك. وليدع حاشيته تراني وأنا في كامل ثقتي وكبريائي.

قال: «هيا، فلتفعلي». لا بد أنه قرأ أفكاري من خلال لغة جسدي. ثم لوَّح بذراعه مسترسلًا: «إذا كنت تفضلين أن تتجولي في الأنحاء دون رداء، فلن أعترض بالتأكيد».

قلت: «يجدُر بك أن تلتزم الصمت الآن».

- «فلتجبريني على ذلك».

- «لا تثر حفيظتي أيها الشيطان».

- «حقًا، فلتجبريني». سار حتى دنا مني، ومال عليَّ، ثم قال: «فلتستخدمي قواكِ وتثأري مني».

يا لها من سخرية صبيانية! توجهت نحو مورد سحري، محاولة أن أنتزع بعضًا من قواي لكي ألقنه درسًا. لكن جهدي ذهب هباءً منثورًا مرة أخرى. فشعرت بإحباط لا يوصَف، حتى رغبت في الصراخ. عندئذ ضيق راث عينيه، بالطبع دون أن يخفى عليه ولو النزر اليسير من مشاعري.

قال: سنتدرب يوميًّا حتى يحين عيد الذئب. وستتعلمين كيف تحمين نفسك من إخوتي، وإلا ستعانين إذلالًا أقسى مما جعلتك تخضعين له اليوم. فحريٌّ بك أن تكوني ممتنة لي، يا *خطيبتي*، لأنني لا أعرِّض حياتك للأذى، وإنما اعتزازك بنفسك فحسب، وهو ما يمكن تعويضه، إن لم أكن مخطئًا».

قلت: «لقد جعلتني أطعنك».

- «لكن جراحي سرعان ما تلتئم».

من سوء الحظ أن الأثر النفسي لدرس اليوم العابر لا يُشفى بالسرعة ذاتها. أحكمت الحزام على خصري قائلة: «إنني أكرهك».

ارتجفت عضلة في وجنته، وهو يقول: «يمكنني أن أتحمل كراهيتك لي، فمن الأفضل كثيرًا أن تكرهيني، وتنجي من الأخطار، على أن تعشقيني وتخضعي لوضاعة هذا العالم وقسوته».

تساءلت بصوت هادئ: «لكن لمَ العنف؟ لم تكن مضطرًا إلى أن تثير حنقي إلى هذه الدرجة».

أجابني: «لقد أتحت لك متنفسًا. فالرغبة في الانتقام سم زعاف، وموت بطيء للروح. وليس عليك سوى أن تسعي إلى العدالة والحقيقة. لكن إن اخترتِ الثأر على جميع القيم الأخرى، فإنك سوف تخسرين ما هو أعظم من روحك».

- «لا يمكن أن تكون جادًّا في زعمك أنك تعبأ بروحي».

- «إن الكراهية لا يمكنها أن تطفئ حزنك. فلتخبريني، هل شعورك الآن يضاهي ما كنت تتخيلينه؟ هل شفى سفك دمي جراحك؟ هل تساوت كفتا ميزان العدالة أخيرًا، أم أنك انزلقت قليلًا إلى مجهول لا تستطيعين سبر غوره؟».

ظل العناد مرتسمًا على وجهي وأنا أحدق إليه. فكلانا كان يعلم أن حديثه لم يُشعرني بحال أفضل، بل ربما أسوأ.

دار على عقبيه، واتجه نحو الباب قائلًا: «لم أكن أظن أن هذا سيكون رد فعلك. سأقابلك هنا في مساء الغد».

قلت: «أنا لم أوافق قط على عدة جلسات للتدريب».

- «كما أنك لم تضعي شروطًا أثناء عقدنا للاتفاق. أقترح أن تأتي وأنت متأهبة لخوض معركة، وإلا ستجدين نفسك بملابسك الداخلية مجددًا، جاثية على يديكِ وركبتَيك أمامي، وتتوسلين إليَّ، أو تطعنينني. أو كلاهما».

كبحت جماح انفعالي؛ فقد كان رائ في سورة غضبه وعناده، لكنه لم يكن متهورًا قط. سألته: «هل لتوقيت هذا الدرس الأول علاقة بزيارتي بيت إنفي؟».

أجاب دون أن يلتفت نحوي: «كلا». لكنه توقف قبل أن يفتح الباب، وأردف: «جرى التصويت على اختيار ضيف الشرف في عيد الذئب أمس».

ها هو بيت القصيد. لا بد أنه كان يرجو أن يظهر شخص أكثر تشويقًا ليأخذ مكاني. قلت: «أما زلت تعتقد أن الاختيار سيقع عليَّ؟».

- «لا يساورني الشك في ذلك».

- «تُرى ما كان هدف خطتك الليلة؟ أهو استعراض انعدام رحمتك ومدى قوتك وجبروتك أمامي؟».

- «إن إخوتي سيكونون في أوج السعادة عندما يُظهرون لك مدى إثمهم أمام أعين جمهور عريض متلهف». أخذ راث نفسًا عميقًا، ثم استطرد: «وإذا كنت تظنين أن ماكادين شرير، فستجدين أن سلوكه لا يعَد شيئًا مقارنة بحشد تستضيفه عائلتي. سيستمتعون حتى يصيبهم الملل، ثم سيتخلصون من القطع المحطمة»، وعندئذ أضاف في بطء: «وإذا كان ما حدث في الحال - وأمام ناظريَّ أنا فحسب - قد أصابك بالهلع، إذن فأنت ليست لديك أقل فكرة عما أقحمت نفسك فيه».

- «كان يجدر بك أن تنبهني بأننا سنبدأ التدريب الليلة».

- «إخوتي لن يستأذنوكِ أولًا. ولن يتفضّلوا بأي تحذير».

- «أنا لست مخطوبة لإخوتك. وإذا كنت ترغب حقًّا في ند لك، أقترح أن تعاملني على هذا الأساس. ربما عقدنا اتفاقًا بالفعل، لكن ذلك لا يعني عدم تحذيري مسبقًا».

- «مغزى هذا التدريب هو كشف مدى ضعفك وقابليتك للتأثر، وليس إذلالك».

أمعنت النظر في عضلات ظهره المشدودة، وقبضة يده التي تحوَّلت للون الأبيض على مقبض الباب، بينما قال: «أنا لست بطلًا يا إيميليا، كما أنني لست وغدًا. كان يجب أن تكوني قد عرفتِ ذلك».

قلت: «فلترحل، كفاني ما سمعته من أعذار الليلة».

ظل واقفًا بلا حراك لحظة، فأرهفتُ سمعي استعدادًا لسماع ما بدا أنه يواجه مشقة في قوله. لكن دون كلمة أخرى، انسل راث خارجًا من الغرفة، مُغلقًا الباب خلفه في هدوء. وظللت محدقة إلى الباب برهة، وأنا أحاول استعادة رباطة جأشي.

أدركتُ أن هذا التدريب كان في مصلحته مثلما هو في مصلحتي. فإذا نجح أي أحد في جعلي شبه متجردة من الثياب وأتراقص أثناء الاحتفال - أو

أسوأ من ذلك - فإن قائد الحرب ربما سيذكِّر عائلته بكيفية وصوله إلى هذه الرتبة العسكرية. وأنا أعتقد أن رات لم يقطع الطريق نحو هذه المكانة دون قدر هائل من سفك الدماء.

وقعت عيناي على الخنجر المُلقى الذي استخدمته في طعنه، وهو مُغطى بدمائه التي أوشكت أن تجف. لم أستطع أن أحدد العاطفة التي كانت تدب في أوصالي بدلًا من الخوف، لكنني لم أعد أشعر بالاشمئزاز والغثيان. شعرت كما لو كان بإمكاني أن أنفث اللهب مع أنفاسي. وفي ظل قدرتي على استدعاء السحر، ربما سيمكنني أن أفعل الشيء نفسه بعد القليل من التدريب. إذن، فلتكن الإلهة في عون الأمراء الشيطانيين.



اندفعتُ إلى جناحي، وصفقتُ الباب بقوة شديدة هزَّت اللوحة الكبيرة المعلقة بالقرب من غرفة الاستحمام. ومن بين جميع خدعه المتغطرسة التي تمتلئ حقدًا وقذارة التي حاكها حولي، وافقت على هذه الصفقة الملعونة، ولكنني لم أكن أعلم أنها تُعد عقدًا لا فكاك منه.

توقدت وجنتاي غضبًا؛ ذلك أن فقداني السيطرة آلمني وهز كياني أكثر من أي من خدعه الشيطانية. إذ عندما جاء إلى غرفة التدريب تلك كان عاقد العزم على خطته، ونفذها دون أخطاء. وكنت أنا تحت رحمته، وكان هذا الأمر تحديدًا هو السبب الكامن وراء حنقي.

قلدته ساخرة، وأنا أحاول محاكاة صوته على النحو الأمثل: «ستناديني بلقب سيدي من الآن فصاعدًا؛ يا له من وحش بغيض».

دخلت غرفة الاستحمام، وشرعت في غسل يدَي من الدماء وأنا أتميَّز غضبًا من رات طيلة الوقت. وعلى الرغم من أنه لم يبدُ مسرورًا أو فخورًا بما فعله، فذلك لم يغيِّر حقيقة إطلاق العنان لنفسه في التلاعب بي.

جففت يدي، ورحت أدور في الغرفة في غضب. كنت أستشيط غضبًا لأنه أثبت وجهة نظره، لكنني كنت أكثر انزعاجًا من كوني بلا حول ولا قوة.

وبغض النظر عن ذلك كله، عليَّ أن أعترف بأنه كان من الأفضل كثيرًا أن أخضع لسلطان راث، مهما كانت فظاعته؛ لأنني على الأقل كنت على يقين بأنه لن يتمادى كثيرًا. ربما يجعلني أتوسل إليه، أو أغرز خنجرًا في قلبه، لكنه ما كان ليؤذيني أذى حقيقيًّا، أو يجعلني أوقع الأذى بأحد آخر أبدًا.

أخذت أحملق إلى يديَّ اللتين أصبحتا نظيفتين، فخطر بذهني طائف بث القلق في نفسي. وهو أنه إذا أراد أي أمير شيطاني أن أقتل أحدًا، لأمرني بذلك، وما كنت لأستطيع أن أرفض. وها هو راث قد أثبت ذلك الليلة. لا أنكر أن جزءًا من كياني يحثني على طعنه، لكنني ما كنت لأقدم على تلك الفعلة الشنعاء من تلقاء نفسي مطلقًا.

فكرتُ في أنتونيو، وكيف بدا بوضوح أنه كان خاضعًا لسلطان ما. فإذا كان راث قادرًا على تسخير الخطايا الأخرى أو إخضاعها لسطوته بيسر وقوة، فمن المنطقي أن يتمتع إخوته بتلك الموهبة بالمثل.

ما يعني أنه من الممكن لأي منهم أن يتلاعب بأنتونيو ويدفعه لقتل الساحرات. لقد كانت الكراهية كامنة بالفعل داخله بسبب طريقة موت أمه الحبيبة؛ لذا لم يكن من الصعب إثارة تلك العاطفة واستخدامها ضده.

أبعدت الأفكار والهموم المتعلقة بقاتل أختي وبالتصويت لاختيار ضيف شرف عيد الذئب، وتوجهتُ نحو خزانة الملابس، ثم ارتديت ثوبًا بسيطًا أسود اللون.

نظرت إلى الأسفل إذ جذب انتباهي وميض أبيض مائل للصفرة منبثق من الظلام. كانت إحدى الجمجمتين المسحورتين قد انزلقت من غطائها حينما أزحت ثوبي.

عندئذ تنهدت، إذ كان لا يزال عليَّ أن أعمل على حل أحجية الجمجمتين واكتشاف ما إذا كان إنفي هو من أرسلهما. وتسلل الشك داخلي حيال تورطه

في هذا الأمر. فلم يكن من المنطقي أن يرسلهما سرًّا فقط من أجل أن يطلعني على بعض المعلومات.

كنت منحنية لأستبدل الوشاح حينما سمعت صرير الباب الخارجي وهو يُفتَح.

قال راث: «إيميليا، كنت أريد أن...» لكن بصره وقع على الجمجمة المسحورة. وأيًّا كان ما أوشك على قوله، فقد صار في طي النسيان فور أن عبر الغرفة وسط دوامة من اللونين الأسود والذهبي، فضلًا عن الغضب الهائج. انتزع الجمجمة من خزانة ملابسي وأخذ يدور محدِّقًا إليَّ كما لو كان لا يعرفني، وأردف: «ماذا بحق...»

قاطعته قائلة: «إذا كنت لا ترغب في أن تسحرك تعويذة، فإنني أقترح أن تعيد ضبط نبرة صوتك. إننا لم نعد في حلقة التدريب الخاصة بك، وأنا لن أقبل بأية وقاحة خارج نطاق الدروس».

عندئذ استنشق راث نفَسًا عميقًا، ثم زفره بحدة، وكرر ذلك الفعل مرتين. ومع كل شهيق وزفير، أقسم أن الجو كان يزداد احتقانًا، والغيوم العاصفة تتراكم.

قال: «هلا تتفضلين يا سيدتي وتفسرين لي كيف وصلت هذه إليك، فسيكون من دواعي سروري أن أعلم».

لاحظتُ وريدًا في عنقه ينتفض. وبعد ما فعله بي، أشعرتني رؤيته - وهو يكاد يُجن غضبًا - بالشماتة، فقلت: «لمَ أنت هنا؟».

أجابني: «لكي أعتذر لك. لكن أجيبيني من فضلك».

- «تركها أحدهم هنا، فضلًا عن جمجمة أخرى».

- «جمجمة أخرى؟» قالها وهو يطبق أسنانه، كما لو كان يلاقي الأمرَّين في التأدب وإخفاء عدم التصديق الذي لاح في قسمات وجهه. استرسل قائلًا: «أرجوكِ أخبريني بمكانها؟».

أجبته: «في خزانة ملابسي. خلف ذلك الرداء السخيف ذي الذيل الفضفاض».

ودون أن أضيف كلمة أخرى، اندس راث بهدوء داخل الخزانة، ثم خرج بالجمجمة المطلوبة. بدا أنه يبذل جهدًا مضنيًا ليحافظ على رباطة جأشه. وحينئذ قال: «هل بإمكاني أن أسأل متى جاءتك الجمجمة الأولى؟».

قلت: «في الليلة التي أحضر فيها أنير الطعام والشراب».

- «أي الليلة الأولى التي حضرتِ فيها إلى هنا؟» قالها بصوت مرتفع قليلًا، فأومأت إيجابًا، فكانت هذه القشة التي قصمت ظهر البعير؛ إذ أردف: «ألم تعتقدي أن هذه المعلومة جديرة بالمشاركة لأن ...»

كان يمكن أن توصف ابتسامتي بأية صفة غير الجمال، وأنا أقول له: «لم أكن أعلم أن عليَّ أن أقدِّم تقريرًا لك يا سيدي. وهل كنت ستجيب أنت على أي من أسئلتي؟».

- «إيميليا».

- «تُرى أي واحد من إخوتك يمتلك هذا النوع من السحر؟ ومن سيرغب في الاستهزاء بي وتعذيبي هكذا؟ لا بد أنه شخص يبغضني بغضًا شديدًا. لقد سحر الجمجمتين بصوت شقيقتي، ويا له من خنجر آخر غُرز في مهجتي! هل لديك أفكار بهذا الصدد؟».

رفعت حاجبي؛ إذ كنت أعرف أنه لن ينبس ببنت شفة. وانطبقت شفتاه وتحولتا إلى خط مُحكم الالتحام، فلم أستطع مقاومة الضحكة الكئيبة الشريرة التي تفجرت من أعماقي.

أردفت قائلة: «هذا ما كنت أتوقعه. لكنني أعدك بأنها لن تكون المرة الأخيرة التي أقرر فيها الاحتفاظ بسري الخاص حتى أبحثه وحدي بصورة وافية». ثم أشرت نحو الباب، وتابعت: «فلتذهب رجاءً، لقد نلت كفايتي منك الليلة».

قطَّب جبينه عندما طردته، وأظن أنه لم يجرؤ أي أحد من قبل على التحدث معه بهذه الطريقة. لكنه كان واقعًا جديدًا يجب أن يعتاده. وقال: «فيما يتعلق بما حدث أثناء التدريب».

- «أنا قادرة تمامًا على إدراك القيمة الكامنة في الدرس، مهما كانت بشاعة نهجك. وبغض النظر عن اتفاقنا، سيكون عليك في المستقبل أن تسألني عما إذا كنت راغبة في التدريب أم لا». حينئذ ارتسمت اللامبالاة على وجهي، وأردفت: «وإذا لم تكن تنوي مشاركتي المعلومات، فلا بد من وضع نهاية لهذا التحقيق الآن. فلتضع الجمجمتين حيث كانتا، ثم لتغرب عن وجهي».

- «إنهما ستوضعان في مكان آمن».

- «لن يفلح الغموض معي؛ لذا فلتكن صريحًا. إذا سمحت لك بأخذ الجمجمتين، فأين ستحتفظ بهما؟».

- «في جناحي الخاص».

- «إذن سأراهما وقتما أشاء، وستطلعني على أية معلومات تصل إليها».

أخذ ينظر إليَّ شزرًا قائلًا: «بما أننا في معرض تقديم المطالب، في حال موافقتك على تناول العشاء معي غدًا، سألبي طلبك».

- «لا يمكنني أن أمنحك ردي الليلة».

- «وماذا إذا أصررت؟».

- «إذن، فسأرفض يا صاحب السمو».

- «ربما تعتذرين عن الحديث الليلة، وترفضين دعوتي إلى العشاء معي، لكننا سنتحدث عن كل شيء قريبًا».

- «كلا يا راث، بل سنتحدث عن هذا الأمر حينما يكون كل منا مستعدًا».

أخذت أنظر إليه وهو يستوعب ما قلت، وواصلتُ: «سأوافق على التدريب، وعلى بسط سيطرتك، لكن في تلك الغرفة فحسب. أما في أي مكان آخر، فستحترم إرادتي».

- «وإلا؟».

هززتُ رأسي في حزن وأسف قائلة: «أنا أدرك أن عالمك مختلف، وأن إخوتك أشرار متآمرون، لكن ليست كل الأوامر تهديدًا، على الأقل ليس بيننا. فلتعلم هذا؛ من الآن فصاعدًا، إن لم تحترم إرادتي، فلن أمكث هنا. ليس

بهدف معاقبتك، وإنما لحماية نفسي. لكنني سأعفو عن زلاتك فيما يتعلق بآداب السلوك والحُكم واللياقة بشرط أن تتعهد بالتعلم من أخطائك. ومع ذلك سوف تطلعني على جميع المعلومات التي تكتشفها عن الجمجمتين، سواء أقررت أن أتناول العشاء معك أم لا. هل اتفقنا؟».

راح يتفحصني بإمعان ثم أومأ أخيرًا قائلًا: «أقبل شروطكِ».

أخذ راث الجمجمتين، ثم توقف مثبتًا انتباهه على الطاولة المجاورة للسرير، وعليها السجل الخاص ببيت برايد، وقال: «هلا أخبرتني كيف كنت تخططين لقراءته؟ دعيني أخمن». وهنا انخفض صوته على نحو مريب: «هل كنت ستعقدين صفقة مع أحد الشياطين؟ بجزء من روحك».

قلت: «فكرت في ذلك».

- «فلتسمحي لي بتوفير العناء عليك. إنه ليس مكتوبًا بلغة شيطانية، ولن يمنحك أي اتفاق تعقدينه مع أي أحد - عداي أنا - الإجابات التي تودين الحصول عليها في أي من تلك السجلات. إذن، فكل ما عليك فعله هو طرح الأسئلة وأنا عليَّ الإجابة».

- «لا أدري».

عندئذ أسرع الخطى خارجًا من الغرفة، ولم أتحرك حتى سمعت صوت غلق الباب الخارجي. حينها استندت إلى الحائط وهويت نحو الأرض.

رحت أعُد أنفاسي، مترقبة حتى تأكدت من عدم عودته، ثم أطلقت العنان لدموعي لكي تنهمر. انثنيتُ والنشيج يرُج جسدي رجًا، ويستنفد قوتي. فطيلة ما يقارب الساعة وقعتُ ضحية لصنوف من الخطايا، وطعنت زوجي المنتظر. فهذه الليلة يمكن أن توصف بأنها ليلة من الجحيم حقًا.

وفجأة انتصبت واقفة، وقلبي يئن تحت وطأة محاولتي كبح جماح عواطفي. جففت الدموع عن وجنتيَّ، وأخذت عهدًا على نفسي مجددًا بأن أهزم أعدائي. حتى من لم أعد أشعر بأنهم خصومي.

التاسع عشر

تلألأت الأزهار المكسوة بالجليد كالبلور، وجلجلت فروع الأشجار فوق رأسي كأجراس الشتاء، بينما تنزهتُ في أرجاء الحديقة.

كان الطقس قارس البرودة إلى حد ارتدائي قفازًا مُبطنًا بالفراء، ومعطفًا مخمليًّا سميكًا. لكن وقت الصباح نفسه كان محببًا إلى النفس. ساد الهدوء والسكينة، ولأنني نادرًا ما تنعَّمت بيوم كهذا على مدار الأشهر القليلة الماضية، بدا ذلك ترف يحرِّض على الفساد. أخذت أجول ببصري عبر الأغصان المتشابكة، فرأيت الأوراق متشبثة بالحياة في عناد على الكثير من الأشجار، ومتجمدة في انتظار أن يحررها الدفء وضياء الشمس ويفك أسرها.

لم أرَ الشمس عبر السماوات المثلجة الغائمة، لذلك كان من المرجح أن يمضي وقت طويل قبل أن يذوب الجليد، ذلك إن كان سيذوب يومًا. وحينئذ تذكرت كيف استمتع راث بالشمس في ظهيرة أحد الأيام على سطح القلعة التي استولى عليها في مدينتي. وحينذاك اعتقدت أنه اشتاق إلى الأجواء الملتهبة في وطنه المستعر، لكنني بتّ أعلم الحقيقة الآن.

انبثقت فجأة عناقيد من الزهور – سواء زهور الورد الأرجوانية المائلة إلى اللون الوردي وزهور الفاوانيا، فضلًا عن أزهار أخرى ذات أوراق تشبه الأهلة الفضية الضئيلة – في أقسام أكثر اتساعًا من المتاهة. سرتُ على مهل

بمحاذاة الممشى الداخلي، وسط الأسيجة الجميلة المشوبة بالثلج والمفعمة بالحياة التي ترتفع على كلا الجانبين. وهكذا، ضربت حدائق بيت راث مثالًا مذهلًا آخر على ذوقه الرفيع.

تتبعتُ الممر الملتوي حتى وصلت إلى بركة رقراقة بالقرب من وسط الحديقة.

كان ثمة تمثال من المرمر ينتصب في الماء. كان يجسّد امرأة بلا ملابس، وعلى رأسها تاج من النجوم، وفي يديها خنجران منثنيان، وعلى وجهها تعبير يوحي بالغضب المتجمد. بدت كأنها ستمزق أحشاء الكون بهذين الخنجرين الحادين، ثم لن تندم على أي من أفعالها.

التفت أفعى ضخمة - تقارب ضعف محيط ذراعيَّ - على كاحلها الأيسر وزحفت إلى ما بين ساقيها بينما تعلقت بربلتها وفخذها اليسرى، ثم انثنت حول جسدها حتى قفصها الصدري. غطت رأسها الكبير بأحد نهدَي تلك المرأة، بينما امتد لسانها نحو الآخر، ليس كأنها ستلعقه، وإنما لتحميه من أنظار المارين المتطفلين.

اقتربت في ذهول والخوف يعتريني بعض الشيء من هذا التمثال. كانت الأفعى تخفي معظم تفاصيل جسد المرأة الدقيقة، وكأنها مدافع شرير عنها. وكانت قشور جلد الأفعى منحوتة بدقة شديدة تكاد تُشعر الرائي بأنها أفعى حقيقية مُسخَت حجرًا.

درتُ حول التمثال الضخم، فوجدت أن شعر المرأة طويل ومسترسل، وبه أزهار صغيرة على هيئة هلال، ومنحوتة داخل الخصلات المُنسابة. وبالقرب من نهاية ظهرها، كان ثمة رمز لإلهة محفور بصورة أفقية. ومددت يدي لأربت الأفعى، فسمعت ضجيجًا مكتومًا صادرًا من أعماق الأرض، فانتفضت متراجعة إلى الخلف، وارتطمت بجدار من اللحم الدافئ.

قبل أن يتملكني الخوف، أو يُتاح لي الوقت لإدراك ما يحدث، التفت حول خصري ذراع في صلابة الحديد، وقرَّبني نحوه. وشعرت بثقل خنجر حاد يضغط على جانبي. بقيت ساكنة، أتنفس بهدوء قدر المستطاع. ثم مال

مهاجمي نحوي، فأحسست بنفسه الدافئ على بشرتي الباردة، حينئذ اقشعر جلد عنقي.

«مرحبًا أيتها اللصة الصغيرة».

لقد كان *إنفي*.

أخفيت هلعي داخل أعمق نقطة في روحي، بعيدًا عن قدرته على اكتشاف مدى الفزع الذي زلزل أوصالي. قلت: «إن مهاجمة أحد أفراد بيت راث لهي حماقة شنيعة. كما أن المجيء إلى هنا دون دعوة يُعد تصرفًا غير حكيم في حد ذاته. حتى بالنسبة إليك يا صاحب السمو».

خلت ضحكته المكتومة الخافتة من أي أثر للمزاح، وهو يقول: «كما أن سرقة ما يخص أحد الأمراء لهي جُرم عقوبته الموت، لكنني لم آت لهذا السبب يا ساحرة الظل».

عندئذ أسقط الخنجر، وأطلق سراحي على نحو مفاجئ، جعلني أتعثر أمامه. قلت له فور أن استدرت نحوه وواجهته، وملامحي باردة وصارمة: «إذا كنت قد جئت من أجل كتاب التعاويذ، فقد ضاعت رحلتك هباءً؛ ذلك أنه ملك لي».

كنت أقصد أن أقول إنه ملك للساحرات، لكن بدا أن الكلمات التي انفلتت من بين شفتَي عبَّرت عن الحقيقة؛ إذ طرف إنفي بعينيه على مهل.

قال: «أنت جريئة ووقحة. ربما قد عثرتِ على تلك المخالب على الرغم من كل شيء». رمقني ببصره، ثم وجهه نحو التمثال، وأردف: «هل لاحظت أي شيء غريب في الفترة الأخيرة؟ ربما كان شيئًا غريبًا متعلقًا بسحركِ؟».

أجبته: «كلا».

تألق وجهه بابتسامة خاطفة، وهو يقول: «نحن جميعًا نشعر بالأكاذيب يا إيميليا. فلتسمحي لي بأن أكون فظًا. لقد سرقت شيئًا مني، لكنني سرقت منك شيئًا بالمثل. فالعين بالعين كما تعلمين».

- «لم يُسرق مني أي شيء».

- «كانت هناك لعنة في كتاب التعاويذ؛ فأي أحد يستولي عليه لا بد أن يفقد شيئًا غاليًا عليه في المقابل».

عندئذ سرى في عروقي رعب بارد. إنني لم أستطع أن أستدعي مورد سحري منذ أن عدت من بيته الملكي. قلت له: «أنت كاذب».

- «حقًا؟ ربما عليك أن تُلقي تعويذة الحقيقة عليَّ».

أدخل خنجره في غمده، ثم ألقى عليَّ نظرة فاحصة أخرى بينما ظل منتظرًا. مع أن الشك راودني في جدوى ما كنت سأفعله، فقد ركزت على ذاك النبع، محاولة أن أنغمس فيه، وأستدعي سحرًا كافيًا لسحقه - هو ونظرته المتعجرفة - واجتثاثه من هذه الحلقة.

لكن لم أجد سوى ذاك الجدار السميك الذي يستحيل اختراقه، ووجدته من قبل حينما شعرت بذاك الوحش النائم.

نظر لي إنفي في احتقار كما لو كان يشمئز مني، وقال: «لا أظن أنك ستقدرين على ذلك. فأنت الآن يا عزيزتي لست سوى واحدة من البشر».

وهكذا استدار وشرع في الابتعاد.

سرتُ خلفه، وأنا أستشيط غضبًا، وقلت له: «لا يحق لك أن تلعني».

رد قائلًا: «وأنت لا يحق لكِ أن تسرقيني. إذن فنحن متعادلان».

دارت بخلدي حينها خططي لإلقاء التعويذة على الشراب في عيد الذئب. لقد كنت في أمسّ الحاجة إلى استعادة قواي، وليس هناك مجال للمساومة حول ذلك الأمر، فقلت له: «حسنًا، سأعيد الكتاب لك. فلتنتظر هنا حتى أحضره».

دس إنفي يديه في جيبيه وهو يُجيل العرض في ذهنه، ثم قال: «أرى أن ذلك انعطاف مثير في الأحداث. فلتحتفظي بالكتاب؛ إذ أفضّل كثيرًا أن أرى خططك وهي تذهب أدراج الرياح».

- «لكنني أرغب في عقد صفقة».

- «من المؤسف أنك لم تفكري في ذلك من قبل. فلربما كنت مستعدًّا حينها لعقد اتفاق يعود بالنفع علينا نحن الاثنين. أما الآن؟ الآن سأستمتع بمشاهدة المقادير وهي تجري في أعنتها».

كبحتُ جماح نفسي لأمنعها من لعنه، أو التوسل إليه لإعادة النظر في قراره. وعندئذ صدر من باطن الأرض نحيب خافت مرة أخرى، فاقشعر جلدي على الفور، والتفتُ محدّقة إلى التمثال.

قال إنفي: «لن أكون فضوليًا حيال هذا الأمر يا قطتي الأليفة».

قلت: «أخبرتك بألا تناديني...»

واجهت إنفي مجددًا فقط لأكتشف أنه رحل بالفعل. ولم يبق أثر يدل على أنه كان في المكان سوى خيوط من الدخان الأسود والأخضر اللامع الذي هب في الأنحاء. نظرت إلى التمثال من جديد، وأخذت أرهف السمع لصرخات الكائن الذي يُعذب عميقًا أسفله. لقد كان حزينًا ويائسًا وكسير الفؤاد. ولقد اخترق هذا الصوت درع مشاعري.

تعجبتُ من هوية المخلوق الذي يُغضب راث إلى الحد الذي يجعله يدفنه أسفل منزله المشئوم في العالم السفلي وحيدًا وبائسًا. ثم أدركت أنه لا بد أن يكون أكثر بشاعة مما يمكنني تخيله إذ خضع لمثل هذا العقاب. لقد كان راث سيفًا من سيوف العدالة، وكان حاسمًا، وغير منساق وراء انفعالاته، ومتوحشًا أيضًا.

لكنه لم يكن ظالمًا يومًا. وأيًا كان ما يصدر هذه الصيحة الفظيعة ...

لم أرد أن أواجهه وحدي دون سحري. هرعتُ من الحديقة، وأصوات المعاناة لا يزال صداها يتردد في أذنيَّ حتى بعد أن أويت إلى فراشي تلك الليلة.



في صبيحة اليوم التالي، كانت فاونا تلهو في حماس أمام باب جناحي، وكانت طرقاتها على بابي في سرعة وخفة جناحي طائر الطنان. فتحت الباب

وتبسمتُ، فقفزت قدماها اللتان تنتعلان خفين في خفة وهي تدور حول نفسها قائلة: «ستصل دعوات عيد الذئب هذا الأسبوع!».

تبددت ابتسامتي. فبعد جلسة تدريب راث الشيطانية، لم أستطع أن أشاركها حماسها. وبصدق، لم أكن مبتهجة بالعيد في المرة الأولى التي أخبرني فيها به أيضًا. لكن الآن وجدت نظرتي تهيم نحو الساعة، وأصبحت أنتبه لأي صوت في الدهليز. ولم أكن مستعدة مطلقًا لمواجهة سطوة أي أمير شيطاني. كما أن فقداني قواي السحرية مثّل عقبة كئودًا أخرى لم أكن متأهبة لها.

بدا أن فاونا تعتقد أننا لن نعرف هوية المضيف بضعة أيام، لكن راودتني شكوك أخرى. فلم يكن هناك أساس لمخاوفي التي ما برحت تتعاظم؛ لذا بذلت قصارى جهدي لتجاهل شعور التشاؤم الذي جثم على صدري كأنه غيمة عاصفة.

طلبت صديقتي الشاي والحلوى، وجلست في غرفة الاستقبال في جناحي ومعها كتاب. حاولت أن أسترخي مثلها، لكنني كنت متوترة بشدة. فبعد مواجهتي مع إنفي في الحديقة، أخذت أتفحص كتبًا عديدة عن السحر، باحثة عن طريقة لفك اللعنات أو التعاويذ.

كان الأمر معقدًا - فإما أن أجعل الشخص الذي ألقاها يحررني، أو أكتشف نسيج اللعنة الدقيق وتكوينها، وقد وصف أحد كتب السحر ذاك النسيج بأنه يشبه سلسلة من الخيوط السحرية المنسوجة معًا. وكان عليَّ أن أحدد العقدة المركزية، ثم أقصّها قصًا. وإذا أخطأت في حدسي، أو قصصت العقدة الخطأ، يمكن أن تنتهي بي الحال وأنا أستأصل خيط الحياة، وأموت.

حرص مؤلف كتاب التعاويذ على إيضاح ذلك عدة مرات، كما لو كان أي أحد بإمكانه أن يخطئ في إدراك معنى «قص خيط الحياة».

فكرت وهلة في زيارة سيدة اللعنات والسموم، لكنني كنت سأظل معرَّضة بقوة لاحتمال الموت إذا لم تتمكن من تحديد موضع الخيط الصحيح.

كانت مغامرة لم أرغب في خوضها. وعلى الأقل ليس الآن.

تمنيتُ أن يظهر أنير ونبدأ درسنا مبكرًا. فالتدريب الجسدي سيساعدني على التنفيس عن توتري البالغ. وكنت في أمسِّ الحاجة إلى التخلص من قلقي المفرط.

أخيرًا، في وقت متأخر مساءً، وصل خادم بالظرف الذي كنت أرتعد خوفًا منه. لم يكن عليه شعار ملكي، ولا إشارة تدل على محتواه، لكنني كنت أعرف. كان اسمي ولقبي هما ما كُتب عليه فقط، ما دل على أنه ليس مجرد رسالة من أمير هذا البيت الملكي.

أخذت الظرف من الخادم بحماس يشبه حماس من سيخبرونه بموعد إعدامه. استخدمت الخنجر الرفيع الذي أهداني إياه راث، ومررته في الحافة العليا، ففتحته بدقة من مكان اللاصق.




أنتِ مدعوة بترحيب حار إلى

بيت جلاتوني

لحضور هذا الموسم الدموي من

عيد الذئب

ضيفة الشرف:

السيدة إيميليا دي كارلو،

المقيمة حاليًا في بيت راث




إذا كان قلبي قد خفق بشدة أكبر مما كان عليه حينها، إذن لكسر ضلعًا من أضلاعي. لقد أُخبرت بأن الخيار سيتاح لي، حتى لو جرى حثي في النهاية

على اختيار البيت المضيف؛ لذلك خشيت من الإطاحة بالقواعد الأخرى في اللحظة الأخيرة مثلما حدث الآن.

أخذت أمعن النظر في الدعوة، كانت فخامتها على النقيض تمامًا من الذعر الذي أثارته داخلي. لم يكن اختياري ضيفة شرف مفاجئًا لي؛ فراث كان قد بيَّن لي ذلك بالفعل، لكن رؤيته مكتوبًا بأم عيني جعلت الأمر كله حقيقيًا بصورة مفزعة.

وبخاصة الجزء المتعلق بكشف أعظم مخاوفي أو أسراري على الرغم مني على رؤوس الأشهاد. وفي ظل «دروس» راث، والذل والرعب اللذين خضعت لهما، شعرت كما لو أنني سيُغشى عليَّ.

وضعت فاونا كتابها جانبًا متسائلة: «ما الأمر؟ هل أرسل سموه في طلبك؟».

أجبت متنهدة: «كلا، إنها الدعوة الخاصة بعيد الذئب».

انتفضت فاونا من فوق الأريكة، وهي تمد يدها في حماس لم تستطع احتواءه بينما قالت: «مبكرًا هكذا؟ مَن المضيف هذا الموسم؟» أعطيتها البطاقة، فارتسمت الدهشة على وجهها بينما قرأتها وأردفت: «بيت جلاتوني، يا له من خبر مثير للاهتمام! إن حفلاته مشهورة بانغماسها في الملذات. لا بد أن إنفي وجريد قد سحبا طلبيهما لاستضافة الاحتفال».

- «أتصور أن جلاتوني - أمير الشراهة - لديه الكثير من الطعام».

- «ليس الطعام فحسب. إن بيته يجسد الشراهة والإسراف في كل شيء؛ فالخمر تتدفق من النوافير، وارتداء الملابس اختياري في حديقة الغسق الخاصة به، ولقاءات العشاق غالبًا ما تكون في غرف زجاجية بجوار قاعة الرقص. فلا يوجد شيء خفي في عالمه، وكل شيء متاح للاستهلاك: اللحم والطعام والشراب والرغبات الحسية، وأي شكل من أشكال الرذائل. لا بد أنه سيكون حدثًا فريدًا. هل كنت تعلمين أنه المضيف؟».

- «هذه هي المرة الأولى التي أسمع فيها بالأمر. هل سبق أن حضرتِ أيًّا من حفلاته؟».

- «كلا، في المرة الأخيرة التي استضاف فيها الاحتفال كنت لا أزال صغيرة. ودائمًا ما تملَّكني الفضول حيالها. وبعض القصص المتعلقة بها اصطبغت بصبغة من الخيال والمبالغة؛ لذلك من الصعب تمييز الحقيقة من الاختلاق. خاصة في ظل ما كتبته تلك الكاتبة عنه في تقريرها الملكي الأخير».

- «أظن أن الكُتَّاب لديهم خيال جامح».

- «أجل، إنهم كذلك، خاصة هذه الكاتبة. فهي تبغضه بشدة. وتزعم الشائعات أنه أضاع على ابنة عمها فرصة الزواج من طبقة النبلاء، وهذا هو سبب حملها القلم الملعون. يا لها من فضيحة!» تنهدت فاونا في سعادة، ثم قطّبت حاجبيها كما لو أن خاطرًا جديدًا خيَّم فجأة على أحلام يقظتها المشمسة. فركزت انتباهها على الدعوة مجددًا، وقالت: «ما الخوف الذي تعتقدين أنه سيُنتزع من قلبك؟».

- «أيًّا ما كان، أنا متأكدة من أنه سيكون تافهًا».

- «ربما نستطيع أن نتدرب على شيء غير مخزٍ».

- «أنت تتحدثين كما لو أن القلق من كيفية الرقص في الحفل دون أن أطأ على الأقدام وأحرج نفسي هو أكبر مخاوفي».

لم يكن قلقي من الرقص كذبة محضة، فأنا لم أحضر من قبل حفلًا ملكيًّا راقصًا. فقد كنا نرقص في المهرجانات مع أشخاص آخرين من طبقتنا نفسها. أما هنا، فالجميع سيراقبني وينتقدني. ولم أكن أهتم بما يعتقدونه عني، أو بما إذا سخروا مني أم لا، لكن عندما كنت أفكر في الوقوف هناك وأنا أشعر بالسذاجة والضعف، كانت معدتي تؤلمني.

استدارت صديقتي نحوي ببطء، ووجهها يشع بابتسامة عريضة، وقالت: «يا لك من امرأة عبقرية! يمكننا أن نعثر على تعويذة أو دواء تتناولينه. وسنجعلكِ أسوأ راقصة في الحلقات السبع بأسرها، بما يرقى إلى مرتبة أسوأ مخاوفك».

قلت لها محذرة: «فاونا، كنت أمزح فحسب».

- « كلا، يمكن أن يفلح هذا الاقتراح. فإذا شربت دواءً يبعث ذلك الخوف داخلكِ بصورة مبالغ فيها، فمن المرجح أن يُكشف أثناء الحفل الراقص».

- «وإذا كُشف النقاب عن حيلتنا، فما العمل حينها؟».

- «علينا فقط أن نتأكد من حصولنا على تعويذة أو دواء من مصدر موثوق به».

- «وحتى مع ذلك، ربما يشعر ذوو الدم الملكي بالخداع والأكاذيب».

- «كل ما نحتاج إليه هو التمرين لضمان إتقان الحيلة».

- « يجب ألا نقلق حيال هذا الأمر لأننا لا نخدع أي أحد يا فاونا».

قالت فاونا: «يجب أن نسأل سيدة اللعنات عمَّا -» ثم أبعدت انتباهها عن الدعوة، وركزت على التعبير المرتسم على وجهي، وأردفت: «آه، إنه دم الملاك. يبدو أنكِ تحتاجين إلى وسيلة ناجعة للتسرية عنكِ. إنني أعرف المكان، هيا، فلنذهب على الفور».

ودون أن تمنحني فرصة للاعتراض، تأبطت ذراعي، وقادتني سريعًا إلى خارج جناحي، بعد أن سقطت الدعوة منها، وهي غافلة عنها.

كان الخوف يدق في صدري بإيقاع ثابت لا تخفت شدته، حتى إنني شعرت بأنه سيظل هكذا حتى يحين وقت العيد المثير للرعب.



كانت فكرة فاونا الخاصة بالتسرية عني وإلهائي مناسبة لي تمامًا. قادتني وهي تكاد تجرني جرًّا عبر الممرات الملكية، وهبطنا عدة طوابق على السلم، ثم ولجنا دهليز الخدم، واندفعنا في النهاية عبر الأبواب إلى مطبخ صاخب. وقفت هناك، وأنا أحاول أن أستوعب المشاهد والأصوات.

كان المطبخ مفعمًا بالحياة والصخب، بينما انشغل الطهاة بإعداد طعام العشاء.

كان يحتوي على عدة طاولات ممتدة بطول الغرفة، يصطف على جانبيها عدد من العاملين الذين يقومون بمهمات شتّى. فبعضهم كان يقطع الخضراوات، والبعض الآخر يقطع اللحوم، وكان ثمة مَن يعجنون العجين لإعداد أصناف الخبز والكعك، والكثيرون الذين يقفون قبالة القدور والمقالي.

تجمعت الدموع في مقلتيَّ منذرة بالانهمار، لكنني حبستها؛ فليس من اللائق أن أبكي أمام العاملين في بيت راث.

رمقنا الطاهي بنظره، ثم أشار إلى طاولة بالقرب من حائط به نوافذ. وكانت تلك النوافذ مفتوحة لتخرج منها حرارة نيران الأفران. ثم قال: «بإمكانك أن تستخدمي ما يروق لك أيتها السيدة إيميليا. وإذا أردت شيئًا غير موجود هنا، فلتطلبيه فحسب».

قلت: «شكرًا لك».

- «بل فلتشكري سموّه، فهو الذي أمرنا بتوفير أي شيء تحتاجين إليه».

قالت فاونا: «هل فعل ذلك الآن؟»، ولم تستطع أن تكتم صيحتها بينما تعمقتُ إلى داخل الغرفة إذ أردفت: «يا له من أمير كريم! ألا تتفقين معي يا سيدة إيميليا؟».

قلت: «أجل، بالفعل».

أجلتُ النظر في أرجاء المكان، فوجدت أنه مختلف تمامًا عن مطعم عائلتي الصغير- فقد كان أكبر وأفخم - لكنني شعرت مع ذلك بأنني في موطني. وعندئذ اجتاحتني موجة من الامتنان لراث، على عكس ما يمليه عليَّ عقلي. لقد توقع راث أنني سأجد نفسي أخيرًا هنا، في المكان الوحيد في هذا العالم الذي أشعر بأنه مألوف لي دون غيره من الأماكن.

استدرت نحو رئيس الطهاة قائلة له: «شكرًا لك على السماح لي بالحضور إلى مطبخك».

أومأ الطاهي برأسه، ثم سار عائدًا لكي يوجّه الطهاة الذين يعملون تحت قيادته.

تلاشى التوتر الذي كان قد ألم بي حينما فتحت صندوق الثلج، ورأيت ملء سلة من ثمار التوت المكتنزة، وبجوارها ما بدا كأنه قطعة ضخمة من جبن الريكوتا. كانت أمي الأكثر مهارة في صنع الحلوى في عائلتنا، لكنني تعلمتُ منها ما يكفي لأتمكن من إعداد فطيرة ريفية.

جمعت كل المواد التي احتجتها ثم جلست بالقرب من النافذة الضخمة. وفي لحظات كنت قد جهزت عجينة الفطيرة الخارجية. ثم غسلت التوت سريعًا ووضعته على منشفة ليجف، في انتظار السكر الذي سأقلّبه عليه. وربما كان عليَّ أن أعد حلوى الكاستر أيضًا.

لفت الصليل المعدني انتباهي، فرفعت بصري. كان راث وأنير يتقافزان في خفة جيئة وذهابًا خارج النافذة، وسيفاهما وخنجراهما تصدر صليلًا يشبه الرعد. ولم يكن مني إلا أن حدّقت إليهما مندهشة، وهما يتبادلان الهجوم أحدهما على الآخر، وتطوح أسلحة كل منهما في الهواء، والشرر يتطاير في كل مرة يرتطم فيها سيفاهما.

وجهت نظرة تنم عن الاتهام لفاونا قائلة: «من الواضح أن المطبخ لم يكن الوسيلة الوحيدة لإلهائي عن التوتر».

ابتسمت فاونا ابتسامة عريضة توحي بعدم البراءة. ثم قفزت إلى حافة النافذة، وأخذت قلمًا ومفكرة، متصنعة الاهتمام بكتابة وصفات الطعام بينما راحت تختلس النظر من خلف الصفحات وتراقب المحاربين وهما يتدربان على القتال. كانا يلوّحان بالسيف فوق رأسيهما، وجسداهما القويان يرتفعان ويهبطان تحت ثقل الأسلحة ومن أثر التدريب.

قالت فاونا: «ليست لديَّ فكرة عما تقصدينه يا سيدتي، فأنا لم أكن أعرف أنهما سيكونان هنا».

راقبتها بينما كانت تحدق إلى أنير قائلة: «يا لك من كاذبة ساذجة!»، حينئذ تذكرتهما وهما يتحدثان في سعادة قبل بتر لسان ماكادين، فسألتها: «منذ متى وأنت تحبين أنير؟».

وجهت فاونا انتباهها نحوي قائلة: «لمَ تعتقدين أنني أهتم بهذا البشري؟».

أجبتها: «أنت من قلت أنك تشتاقين إلى أحد ما عندما تقابلنا للمرة الأولى، ومن وقتها لم تتوقفي عن النظر إليه. لن ألح عليك إذا كنت تفضلين أن تحتفظي بهذا الأمر سرًّا الآن، لكنني معجبة بأنير». أشرت إلى الحلوى التي كنت أعدها، لكي أمنحها فرصة للتهرب من الإجابة. «لا تخافي من أخذ مرقاق العجين ومساعدتي، فليس لديه أسنان».

ضحكت من خلف مفكرتها قائلة: «ربما لا، لكن هل رأيتِ كيف ينظر الأمير إليك؟ إن عضته هي التي يجب أن تحذري منها».

أخذت أرقق العجين بتركيز شديد؛ إذ كنت أفعل ما بوسعي لكيلا أنظر إليه. فمن بين جميع أنحاء القلعة، اختار هذه البقعة تحديدًا ليتدرب فيها، وهو يرتدي درعًا جلدية بلا كمين، وفي هذه اللحظة دون غيرها.

مع ذلك، رأيت أن فاونا مسئولة بالقدر نفسه عن هذا اللقاء *غير المتوقع*.

أدركت أنها لا زالت تنتظر إجابة، فقلت: «إنه يحب الحلوى؛ لذا من المرجح أنه ينظر إلى الفطيرة».

- «ليست الحلوى فقط هي التي يتوق إليها يا سيدتي. ليت أنير ينظر إليَّ بهذا الاشتياق».

- «فلتلفتي نظره».

- «لا أخفيك سرًّا، إنه إذا أظهر أية بادرة تجاوب لتوددي، فسأتقرب منه أكثر. ويبدو أن سموه يواجه هذه المعضلة نفسها حاليًّا».

تسلل نظري اللعين نحو النافذة، فتلألأت في ضوء المشعل قطرة عرق على جسد راث وهو يبذل الجهد في التدرب بسيفه. التقت نظراتنا مع اصطدام سيفه بسيف أنير. لقد كانت فاونا محقة. ذلك أن راث بدا كأنه يبذل كل ما في وسعه ليقاوم سحر إتمام رباطنا، لكنه كان في طريقه نحو خسارة المعركة. لذا لم يحاول أن يخفي اهتمامه.

عدت على الفور إلى ترقيق العجين، وبتركيز أكبر مما يستدعيه الأمر.

لم أستطع أن أنسى شعوري والخنجر ينغرز في لحمه. وضعت المرقاق جانبًا، وشرعت في إعداد الكاستر، وأنا أحاول إبعاد صوت انسحاق عظامه من عقلي.

عندئذ قالت فاونا: «إذا سمحت لي بأن أتحدث بحرية، ما فعله معك لم يكن معروفًا هينًا».

سألتها: «أي معروف؟».

- «عدم الإصرار على إتمام رباط الزواج. إن الجميع يتحدثون عن هذا الأمر».

تمنيتُ أن يظن من يراني أن احمرار وجنتيّ نابع من دفء المطبخ. يا له من أمر رائع! البلاط كله ليس له حديث إلا عن إتمامنا الزواج. قلت: «إن هذا العالم ولا شك بحاجة إلى معرفة الفارق بين الاختيار والمعروف».

رفعت فاونا كتفها، وقالت: «ربما يرى البعض أنك اخترتِ بالفعل، في الليلة التي شرعت فيها في الخطبة. لقد كان هو من حُرم الاختيار».

- «لا أصدق أن راث يتساهل هكذا! في مسألة تداول حاشيته أمورنا الشخصية».

- «إن وضعك المحتمل كأميرة لهذه الحلقة يخص *الجميع*».

- «أنا...»

- «لا أحد يلومك يا سيدتي. وإنما وجود شريك في الحكم يمنح سلطة أكبر لذوي الدماء الملكية، ويضمن لنا عدم تدخل أي أمراء متطفلين من بيوت ملكية أخرى. أولئك الذين يحبون أن يثيروا المشكلات من حين لآخر. إن الأمراء خالدون، وفي حين أن معظم الشياطين يعيشون حياة مديدة للغاية، فإننا لسنا كذلك. ومعظم الحاشية تخشى أنه إذا نشبت الحرب، فلن يفعل أميرنا كل ما في استطاعته لمصلحة مملكتنا. وهناك شائعات بأنه يمكن أن يتهاون».

- «هذا سخيف، إنه أقوى أمير قابلته في حياتي».

- «ليست قوته هي التي تهم فحسب، وإنما قلبه. إنه يستطيع أن يغويك بكل سهولة، ويستطيع أن يستخدم نفوذه إذا لزم الأمر. ومع ذلك هو يمنحك الوقت لكي تقرري بنفسك».

- «أنا آسفة، لكنني أجد صعوبة في استيعاب هذه الرؤية الغريبة. هل يمتقد أفراد الحاشية بالفعل أنه يجب أن يجبرني على إتمام الزواج؟ أو أن يأخذني ضد إرادتي؟ ثمة قوانين في عالم البشر تحرِّم هذه الفعلة الشنعاء؟».

- «أنا لا أقصد الاغتصاب يا سيدتي، فهو غير مقبول هنا أيضًا، حتى إن راث ينهي حياة من يجرؤ على أخذ امرأة على الرغم منها». وراحت فاونا ترمقني مسترسلة: «لا تتعجبي، فمع أن الخطيئة تحكم الحلقات السبع، هناك أفعال من الفساد والانحطاط بمكان حتى في عالمنا. وعقوبة الاغتصاب هي الموت، وعلى يد راث نفسه. وهناك حلقات أخرى تفضل الإخصاء. وأنا أعتقد أنه إذا قرر أي أمير إغواءك، خاصة أميرنا، فإنك *ستختارين* الاستجابة له».

- «وهل الحاشية تتعجب من عدم محاولة الأمير إغوائي؟».

- «أجل، بالإضافة إلى أشياء أخرى». ثم رفعت كتفها بينما توقفت عن إعداد الكاستر، وشردت هنيهة، ثم أردفت: «فلتتخيلي ما سأقوله. إذا كان طرف كُم سترته مهترئًا، فإن ذلك كفيل بإثارة ثرثرة الحاشية. ذلك أنهم يعتقدون أنه إذا لم يكن الأمير قادرًا على الاهتمام بشيء تافه كملبسه، فكيف سيدير شئون حياة من يعيشون في هذه الحلقة».

- «لا بد أن الحاشية لديها وقت فراغ طويل جدًّا يتيح لهم النميمة بشأن خيوط كُم الأمير المنسلة».

- «لا يتعلق الأمر في جوهره بالملبس قطعًا، وإنما بالدافع الكامن وراء عدم اهتمام الأمير بالتفاصيل الدقيقة أو مراعاتها».

رجعت بذاكرتي، وتصورت مدى الإهانة التي من المؤكد أن راث شعر بها عندما أحضرت له ذاك القميص البالي من السوق. واعتقدت حينها أنه متغطرس وغير معتاد ملابس الفلاحين. والآن بت أعلم أن الأمر أكثر عمقًا

من ذلك - فلو كان أي أحد من هذا العالم قد رآه على هذا الوضع، إذن لساوره الشك في قدرته على الحكم.

أضافت فاونا: «إن الحاكم المشتت يكون خطيرًا يا إيميليا، فهذه الحال تدل على الضعف، وتدفع رعاياه إلى التفكير في البحث عن حلفاء آخرين».

لا شك في أن أمراء الجحيم دون استثناء يشتهون السلطة؛ لذا لا بد أن راث راغب بشدة في إتمام هذا الرباط. لكنه كان على استعداد بأن يضحي بأمان بيته الملكي، والمزيد من السلطة، ويعرِّض نفسه لشائعات البلاط، في سبيل حصولي على الشيء الوحيد الذي كان يتمناه أكثر من أية ميزة أخرى، ألا وهو حرية الاختيار.

قلت: «لقد ذكر شيئًا عن ضرورة إقامة احتفال لكي يكتمل الرباط، أهذا صحيح؟».

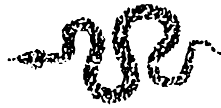
أجابت فاونا: «أجل، هذا صحيح».

ابتسمت كما لو كانت تعلم إلى أين شردت أفكاري، وأردفت: «أيًّا كان ما حدث بينكما في الماضي، ينبغي ألا تشُكي في الأمير الآن. فلا بد أنه يحترمك ما دام ضرب بحاشيته عرض الحائط، حتى لو كان ذلك مدة قصيرة».

لاحظتُ أنها لم تذكر شيئًا عن الاهتمام أو الحب. فتساءلت في نفسي تُرى أيعوضني الزوج الذي يحترمني عن الحب والاهتمام. ربما أناسب بيت جريد أمير الطمع؛ إذ لم أكن أتصور نفسي مستقرة في زواج لا يضم الثلاثة معًا.

ما أثار انزعاجي أكثر هو أنني لم أكن متأكدة من الوقت الذي بدأتُ أفكر فيه في اتخاذ راث زوجًا لي. لقد كنت في العالم السفلي بالفعل، وقريبًا سأقابل جميع الأمراء، وتتاح لي الفرصة لمعرفة بعض أسرارهم. إذن لم أكن مضطرة إلى الزواج. وبغض النظر عن جوهر مشاعري الآن، فأنا غير مستعدة للتضحية بعائلتي في سبيل كائن من كان. وما دمتُ أركز على هذه الغاية، فستتلاشى كل أحلامي الرومانسية.

أو هذا ما أرجوه.



وصلتني رسالة بخط راث في وقت متأخر تلك الليلة.

> *سيبدأ التدريب في منتصف الليل.*
> *ارتدي الثوب القرمزي.*
> *- راث*

فكرت في تجاهل طلبه، أو اختيار سروال وقميص فقط لأثبت أنه لا يحق له أن يأمرني، وأنه لا يمتلكني. لكن التصرف من منطلق العناد والنكاية لم يكن هو السبيل الذي أريد السير به.

وبغض النظر عن الرضا الذي سأشعر به عندما أرى أمارات عدم التصديق على وجه الأمير كثير المطالب، لا شك في أن دروسه ستفيدني أنا في النهاية.

وقد عقدتُ العزم على أن أستفيد قدر الإمكان آنذاك. فقد كان عيد الذئب يقترب على عجل، ولا بد أن أكون مستعدة لملاقاة الشياطين في ميدانهم وسحقهم في مجال تفوقهم، وبالطريقة الأكثر غدرًا وأناقة التي يمكن تخيلها.

وبينما تنهدت، ألقيت بالرسالة في لهب المدفأة، وشرعت في ارتداء ملابسي من أجل موعد التدريب مع راث.

العشرون

«**بمجرد أن تشعري** بمقدمات السحر، لا بد أن تُحكمي سيطرتك على عواطفك. وأنت تنجذبين نحو الغضب بطبيعتك، فلتلجئي إليه أولًا، إن اضطُررتِ إلى ذلك».

هذا ما قاله راث وهو يُحكم الخناق حولي في قاعة الأسلحة، وفي عينيه بريق مفترس، بينما راح يرمق الثوب بناظريه. كان كالصياد البارع الذي يطارد فريسته. لكنه لم يكن يعلم أن مَن يعد هذا الفخ تحديدًا ليس هو، وأنه لن يخرج منتصرًا.

في تلك الليلة كان بالقطع وحشًا أكثر منه إنسانًا، خاصة في النواحي التي تشبه المعركة.

بدا كأنه شخص آخر، وهو يرتدي سروالًا جلديًا ضيقًا، ودرعًا عديمة الكمّين مناسبة له. لم يكن هذا هو الأمير الراقي الذي يحكم مملكة من الشياطين، وإنما هو كائن خُلق للقتال. وكانت تلك المرة الأولى التي أراه فيها وهو محارب جسور بخلاف تدريبه مع أنير في الليلة السابقة.

كشَّر عن أسنانه فيما يشبه الابتسامة المشوهة، ما عمَّق ظنوني بأنه قد تحول إلى وحش بالفعل. وكانت تعجبه تلك الظنون. أطلقت لنظرتي العنان لتتفحصه، وربما أعجبني أيضًا.

قال: «ستشعرين بأن هذا السحر يشبه الهمس على بشرتك، وسيكون دقيقًا للغاية بحيث يصعب إدراكه. لكن كل ما عليك تذكره هو إرادتك الحرة؛ إذ لن تخضعي لأحد أبدًا إذا اخترتِ ألا تفعلي».

كان الجو بيننا مشحونًا. فبعدما أجبرني على طعنه لم نكن متوائمين كما كنا؛ كما لم نعد نُكن الكراهية فيما بيننا على السواء. وما دام قد بدا هو تجسيدًا لـ«الحرب» وأنا تجسيدًا للإغواء، فإنه كان من المتوقع أن يكون هذا الدرس شائقًا.

قلت: «إذن ما تقصده هو أن أركز على عقلي وإرادتي. أو أتخيل أنني أقتلك لكي أسيطر على عواطفي. سيكون ذلك غاية في السهولة». عندئذ ابتسمت، ثم أردفت: «إذا أتقنتُ درس الليلة، أظن أنك ستوافق على التذلل أمامي. وفي الواقع، أتمنى أن أراك جاثيًا على ركبتَيك، متوسلًا إليَّ».

عندئذ أعاد بصره إلى صديريتي.

كان ثمة أشرطة رفيعة تربط ناحيتها الأمامية. ولم أستطع أن أتصور الهدف وراء طلبه ارتدائي مثل هذا الثوب، خاصة إذا كان تدريبنا مشابهًا للدرس الأخير. لا بد أنه كان ينوي أن يستخدم تأثيره الشيطاني عليَّ لكي أحل عُقد الثوب واحدة تلو أخرى، ثم لا أتوقف قبل أن أقف أمامه، مرتدية ملابسي الداخلية من الدانتيل فحسب.

أو لعل تلك كانت رغباتي السرية الخاصة بي تطفو على السطح. لقد اخترت تلك الأشياء المحددة بعناية.

قال: «إن جريد هو من يهتم بالرهان، أما أنا فلا».

قلت: «ومع ذلك يبدو أن كبرياءك ستتلقى صفعة إذا فزت. ربما لا تستطيع أن تستوعب فكرة الاستسلام لأي أحد. حتى إن كانت زوجتك المستقبلية المحتملة».

- «لا تخطئي التقدير يا إيميليا. فعندما أجثو على ركبتيَّ أمامك، سيكون هذا انتصارًا وليس استسلامًا. وإذا كانت تساورك أية شكوك، فسيسعدني إثبات خطئك. والآن فلتحلي أربطة درعي».

كانت الجملة التي نطق بها مفعمة بنبرة آمرة ساحرة.

شعرت بالوخز الطفيف الذي كان قد وصفه، بينما تسلل تأثيره الشيطاني ليحكم قبضته على عواطفي، ويُخضعها لإرادة الأمير الشيطاني. كنت في وسط قاعة الأسلحة قبل أن أنتفض لأبعد قبضة الخطيئة عن ذاتي. فسرَت في جسدي رعدة خفيفة. ولم أكن محتاجة إلى سحري لكي أقاوم راث، وإنما لإرادتي فحسب.

قال مجددًا: «فلتحلي أربطة درعي، *الآن*. ثم لتقطعي حزام سروالي بخنجركِ».

هذه المرة، استخدم راث القوة الكاملة لسطوته. وشعرت ببوادر السحر، تحثني على الاستجابة. فحللت درعه، وأبعدتها في لحظات.

مددت يدي أسفل ردائي وأمسكت بالخنجر المخفي بحركة خاطفة، وإذا بي أجد الخنجر عند حزامه في اللحظة التي استعدت التحكم فيها.

زمّ راث شفتيه قائلًا: «أنت شاردة الذهن».

قلت متظاهرة بالتفكير في الأمر: «لا أعرف السبب، ربما لهذا علاقة بالدعوة التي تلقيتها لحضور عيد الذئب. لقد سمعت أن حفلات جلاتوني مفعمة بالانغماس في الملذات».

- «معظم الحفلات تكون غارقة في الخطايا والرذائل. وهذه هي طبيعة هذا العالم، ولذلك السبب نحن نتدرب. لكن ليس هذا الأمر هو ما يشغل تفكيركِ».

- «اعتقدتُ أنه يمكن أن يكون لي رأي في مكان الاحتفال بالعيد». رحت أعبث بالخنجر وأردفت: «إنني لا أتطلع لحضوره».

- «ستكونين قادرة على الشعور بأي تلاعب بعواطفك بحلول وقت العيد. كما أنك ستكونين مؤهلة للتحرر من تأثيرهم إذا أساءوا التصرف».

- «ليس هذا ما يقلقني أيضًا».

أمعن راث النظر في وجهي قائلًا: «إنه لن يكون سارًا، لكنه لن يكون أسوأ شيء تتعرضين له كذلك».

قلت: «ها أنت كعادتك دائمًا، لا تُبارى في تهدئة الأعصاب. أنا ...»

هززت رأسي، ثم انحنيت لأضع الخنجر في غمده الجلدي، واستطردت: «ليس الخوف فحسب هو ما أخشى أن يُكشف اللثام عنه».

- «اطمئني، فإخوتي لن يؤذوكِ».

- «أنا لا أعرف كيف أرقص».

رفع راث حاجبيه: «لن يجبركِ أحد على الرقص إن لم ترغبي فيه».

تجنبت النظر في عينيه. فالرقص سيتيح لي الفرصة لقضاء الوقت مع إخوته. وتصورت حينها أنه سيتيح المجال لبعض الحديث، وأنا لم أكن أريد أن يقف نقص تعلمي آداب علية القوم عقبة في طريق تحقيق مهمتي. وما دمت لم أعُد قادرة على محاولة إلقاء التعويذة على الشراب، فإن الرقص ثم احتساء الشراب سيكونان مثاليين لتبادل أطراف الحديث.

قلت وأنا أتكلف الابتسام: «لعلك تكون محقًا، فمن السخيف أن أقلق حيال أمر كهذا».

لم يُجب راث على الفور. وإنما أمال رأسه وضيَّق عينيه، قائلًا: «لقد رقصت عند النيران في الليلة التي واجهتِ لاست بها. لقد كنت رائعة حينها؛ لذلك لا أفهم سبب قلقك من الرقص في الحفل».

رفعت كتفي، ثم أعدت انتباهي إلى الطاولة القريبة منا. كانت عليها عدة خناجر غريبة متراصة بنظام. كانت خالصة السواد، وبها شريط طويل مفرَّغ في وسط المقبض والنصل.

خطا راث نحو الطاولة، وسحب سكينًا من بينها، وهو يقول: «هذه سكاكين للرماية طولها ثماني بوصات. إنها مصنوعة من الحديد الصلب، وذات مقبض مصقول بحيث لا تؤلم يد الرامي، وثقلها يرتكز في مقدمتها لجعل الرمية أكثر دقة. هل تودين تجربتها؟».

مررت بإصبعي على المعدن البارد قائلة: «أجل».

- «فلتمسكيها من الأسفل. سنعمل من خلال طريقة الدوران».

أمسكت السكين من مقبضها وصوبتها نحو الهدف الخشبي الذي أشار إليه راث عند الطرف الأقصى لقاعة الأسلحة، فانطلقت عبر الهواء،

واستقرت على يسار مركز دائرة التسديد، ثم سقطت على الأرض. أومأ الأمير الشيطاني برأسه، ثم ناولني سكينًا أخرى، وهو يقول: «لم تثبت السكين لأنك تقفين أقرب مما ينبغي من الهدف».

- «كيف يمكنك تحديد ذلك؟».

- «بعدما تدور السكين، إذا كانت زاويتها متجهة نحو الأسفل عند سقوطها، فهذا يدل على أنكِ تحتاجين إلى التراجع إلى الخلف. إن نصف النجاح في قذف السكاكين وإيصالها إلى الهدف يكمن في مكان وقوفك».

غيرت موضعي، ثم كررت الخطوات نفسها. وهذه المرة جاءت الضربة على يمين الدائرة الحمراء وثُبِّتت السكين بها. عندئذ عمني شعور عميق بالزهو.

مددت يدي في انتظار السكين التالية، ففوجئت بأنامل راث تحيط بأناملي، فتململتُ في ارتباك.

قلت: «ما الذي...»

قاطعني راث وهو يجذبني نحوه برفق: «إننا نبدأ درسًا جديدًا. فلتضعي يدك على كتفي، ولتمسكي بخفة بالكتف الأخرى. جيد». ثم قارب بين جسدينا، ووقف مستقيمًا بطول قامته، وأردف: «الحركات بسيطة. سنرقص في خطوات على شكل مربع. ارجعي إلى الخلف على عقب قدمك اليمنى، ثم اليسرى. واجعلي بينهما مسافة قدم واحدة بينما نتحرك».

- «لكن لا يمكننا الرقص هنا».

- «بل يمكننا بالطبع».

كنا ثنائيًّا عجيبًا. كان صدر راث عاريًا بعد أن خلع درعه، فيما التصق سرواله الجلدي بجسده، وكنت أنا مرتدية ثوبًا حريريًّا قرمزي اللون. وبدا أنه لم يعترض على تلك الحال؛ إذ تصرف كما لو كان يرتدي أكثر ملابسه المسائية أناقة أيضًا.

قاد الأمير المحارب خطواتنا ببطء، محافظًا على مسافة كتف واحدة بيننا، بينما تراجعنا إلى الخلف، وتحركنا إلى الجانبين وإلى الأمام في إطار المربع الذي ذكره من قبل.

أخذت أراقب أقدامنا، وأنا قلقة من أن أطأ قدميه أو أتعثر في ساقيه.

قال: «ارفعي رأسك إلى الأعلى حتى تتمكني من أن تنظري في عينَي بهيام».

ابتسم راث عندما عبستُ، وأردف: «أريدك أن تركزي على وسامتي، وموهبتي في الرقص والقتل، ولتنسي كل شيء آخر، ماعدا رغبتك العارمة في تقبيلي».

لم أستطع أن أمنع نفسي من الضحك، بينما قلت: «أنت شيطان ميئوس من إصلاحه».

قال بصوت خافت وساحر بينما انزلقت يده حتى أسفل ظهري وقربني منه قليلًا: «علّمني كذلك، لكنك ترقصين كملاك الآن».

جعلني الدفء الذي يشع منه، وإطراؤه، وعضلاته الصلبة أسفل أطراف أناملي، أميل لأصبح أكثر قربًا منه. فهمس راث في أذني: «أنت...»

عندئذ ظهر أنير متكئًا على إطار الباب، عاقدًا ذراعيه، وعلى وجهه ابتسامة توحي بالخمول، بينما راح يطرف بعينيه، قائلًا: «هل صارت هذه قاعة رقص لعينة الآن؟ هل ستدرِّس هذا الأسلوب العسكري الجديد لكل الجنود يا صاحب السمو، أم لذوي الطلعة البهية فحسب؟».

بجهد بدا مضنيًا، أدار راث نظره عني، لكنه لم يغير الوضع الذي كنا عليه، وردّ قائلًا: «إن المحارب الجيد يكون ماهرًا في استخدام السلاح، أما المحارب العظيم، فيكون بارعًا في الرقص؛ لذا لعلني أوليك منصب قائد الرقص الجديد».

قال أنير: «يبدو هذا عرضًا مغريًا، لكنني أتيت وفي جُعبتي أنباء من السجن القابع تحت الأرض». اعتدل أنير بعد أن كان متكئًا على إطار الباب، وارتسمت على وجهه الجدية، بينما أردف: «إنه البشري».

توتر راث متسائلًا: «ماذا حدث؟».

حوَّل أنير نظره نحوي قائلًا: «إنه يطلب إيميليا».

قلت وأنا أخطو مبتعدة عن راث، وقلبي يخفق بشدة: «أنتونيو؟ هل هو هنا؟».

الحادي والعشرون

توقعت أن يقع سجن بيت رات تحت الأرض، وأن يكتنفه الظلام الدامس السرمدي الذي لا يتخلله سوى خيوط هزيلة من ضوء المشاعل المثبتة على طول الدهاليز الكئيبة. وأن تفوح من أحجاره روائح كريهة مقززة نابعة من ساكنيه من الملعونين ومَن طواهم النسيان، وتغلغل في صميم كل زنزانة. وأن تتردد بين جنباته صرخات الأرواح المعذَّبة التي بلغت من الشناعة مبلغًا أدى بها إلى هذا المصير في سجن الجحيم. وكنت قد أقنعت نفسي بأن العويل الذي سمعته في الحديقة كان صادرًا من إحدى تلك الزنازين.

لكن الواقع كان مختلفًا أيَّما اختلاف.

صعدنا سلمًا حجريًا رحبًا في أحد الأبراج، وكان الهواء منعشًا ونظيفًا، بينما تدفق الضياء عبر سلسلة من النوافذ المقوسة العالية. قدَّم باب خشبي جميل التحية لنا في الأعلى. ولم يكن ثمة حراس يقفون أمامه، ولا أسلحة مصوبة نحو القاتل الذي يقبع خلف الجدران الحجرية في انتظار مقابلة أمير بيت الخطيئة وأميرته المحتملة.

بادرت رات بنظرة غير مصدِّقة، وتساءلت: «أنتركه دون حراس؟».

ردَّ قائلًا: «الباب موصد بقوة السحر، كما أنه يُغلق من الخارج». ثم وضع راحة يده على الباب فانفتح من فوره، واستطرد: «إنه مسحور بحيث ينفتح لكلينا».

طرفت بعينيَّ ببطء؛ إذ بدا أنني فقدت قدرتي على التحدث. فإما أن راث كان يثق بي أكثر مما يبدو عليه، وإما أنه لم يعدَّني مصدرًا للتهديد. وعلى أية حال كان من الحماقة أن يستهين بقدراتي.

دخلت الحجرة، ثم توقفت.

كان أنتونيو جالسًا على مقعد وثير من الجلد، وفي يده كتاب، وعلى طاولة منخفضة بجواره وُضع فنجان ساخن من الشاي. وعلى فخذيه بُسط دثار صغير. كان يجلس في ركن يطل على جبال هذا العالم المكسوة بالثلوج. وكان هناك نهر أسود اللون يتدفق عبر الأرض كثعبان عظيم. كان المنظر خلابًا، وكانت الحجرة أفضل كثيرًا من غرف النوم الخاصة بمنظمة الأخوية المقدسة العسكرية. لقد ضربت هذه الزنزانة مثالًا في رغد العيش في أبهى صوره.

لم أكن متأكدة من أنني أتنفس.

رفع أنتونيو بصره فور دخولنا، وعيناه البنيتان تشعان دفئًا ومودة. ولم يعد هناك وجود لنظرة الكراهية والازدراء السابقة.

قال أنتونيو: «إيميليا، ها أنت قد جئت».

اجتاحتني موجة غضب عارمة عندما أبصرتُ ابتسامته، وسمعت صوته الهادئ. فها هو الخنجر البشري الذي سفك دماء شقيقتي، مُسترخٍ وهو يتصفح كتابًا، ويحتسي شرابًا دافئًا، كما لو كان يقضي إجازة مريحةً بدلًا من أن يدفع ثمن جرائمه. لكن راث كان حكيمًا على أية حال؛ إذ أبقى مكان احتجازه خفيًّا عليَّ.

كنت في وسط الغرفة قبل أن يطوق راث خصري بذراعيه، ويرفعني في الهواء. لكن لمسته لم تُجدِ كثيرًا في تهدئة النيران المستعرة في عروقي.

رحتُ أركل بساقي محاولة أن أوجِّه ضربة لهذا الشخص الدنيء.

قلت: «فلتحررني في الحال! سوف أقتله!».

أحكم راث وثاقه عليَّ دون هوادة. فأخذت أقاوم حصاره والغضب يفقدني السيطرة على أفعالي. وفي قرارة نفسي كنت أعلم أن رد فعلي مبالغ فيه، لكن الغضب أعمى عقلي.

كل ما رأيته حينذاك كان مُخضَّبًا باللون الأحمر.

لون الغضب والدم؛ دم أختي المُراق على الأرض الصلبة، الذي لطَّخ يدَيَّ عندما انغمستُ في غياباته، وفقدت السلام الذي عشتُ حياتي في ظلاله. والآن سأشفي غليلي من القاتل حتى يجف نبعه، وحتى يلقى مصير فيتوريا ذاته. وسأنتزع قلبه الملعون من صدره، ولو بأسناني إن اضُطررتُ إلى ذلك.

ألقى أنتونيو الكتاب، وتموقع في مقعده، وهو يحملق بعينيه على اتساعيهما. وكان الحائل الوحيد بينه وبين هجومي المريع هو الشيطان. فيا لتناقض الحال الذي كنا عليه!

قال راث: «هل تتذكرين يا سيدتي ما قلته عن غضبك؟».

حمل صوت الأمير الرخيم همسة من الجاذبية خففت من الجحيم المستعر داخلي. فانسحب الميل إلى العراك من جسدي، ليحل محله لون آخر من ألوان التوتر.

دون أن يحررني من حصاره، أخرجني راث إلى الدهليز، وركل الباب فأغلقه خلفنا. ثم أنزلني بحرص على قدميَّ، وظهري ناحية الحجر البارد، وذراعاه تلمسان جانبي جسدي.

رفت في عينيه ومضة من السعادة بينما رفعت بصري نحوه.

قال: «فلتتحكمي في انفعالاتك، وإلا سنخوض التدريب نفسه غدًا».

قلت: «كان هذا اختبارًا إذن».

- «ولقد رسبتِ فيه على نحو مُزرٍ».

ها أنا قد أخفقتُ مثلما توقع تمامًا. أخذت نفَسًا عمقًا من أنفي، ثم أخرجته من فمي. وتمامًا مثلما فعل في الليلة التي تشاجرنا فيها بشأن الجمجمتين المسحورتين. كررت هذا التمرين مرتين قبل أن أهدأ، ثم قلت: «لقد صرتُ هادئة الآن».

لكن رات قال ممتعضًا: «لا أصدق أنك ما زلت تكذبين عليَّ، مع أنك تعرفين تمام المعرفة أنني قادر على الشعور بكل كذبة تنطقينها. إن الغضب يفسح المجال أمام الخطأ في تطبيق خطط المعركة، وإن لم تتمكني من السيطرة على غضبك، فأنت تخاطرين بالتعرض للهزيمة والإيذاء».

قلت: «حسنًا، لقد صرتَ أكثر هدوءًا. مع أنني لا أعدُك بأن أبقى هكذا طويلًا إن استمررتَ في استفزازي».

- «إن هذا يخلق صورة ذهنية ساحرة».

تمامًا مثلما كان ينوي، لم أعُد أفكر فجأة في القتل، أو الغضب، أو الهياج. ذلك أن نبضًا جديدًا سرى فيَّ، ولم يكن نابعًا من قلبي. انصب انتباهي على شفتيه الشريرتين، وأنا ألاحظ انثناءهما المشوق. إنه لم يستخدم ولا مثقال ذرة من السحر أو السطوة؛ إذ انبعث هذا الانجذاب الغريزي مني وحدي، فضلًا عن تأثير هذا العالم ورباط الزواج المستفز.

أو لعل رات لم يكن الشخص الوحيد الذي يتحوَّل غضبه إلى شغف سريعًا.

ربما كان الغضب يحرك عواطفي نحوه أنا أيضًا. وقلت له: «إن سلوكك غير لائق تمامًا».

قال رات وهو يتحرك ببطء، مقتربًا مني: «هذا كذب». كان قربه يشبه تشتيتًا مُرحَّبًا به عن الغضب الذي كان لا يزال يعتلِج في صدري. ركزت على الشيطان، وعلى الحرارة التي لم تكن نابعة من الغضب، فاستطرد قائلًا: «إنني زوجك المنتظَر، وتجسيد حي للخطيئة كما وصفتني أنت ذات مرة. لذا يجب أن نتوقع بعضًا من السلوك غير اللائق، خاصة عندما تكون أميرة بيت رات المقبلة ساحرة وفاتنة».

- «يا لك من شيطان! لقد حاولتُ من فوري أن أقتل إنسانًا».

- «أنت محقة، هل أنت مستعدة لتجربة ذلك مجددًا؟!».

- «أتقصد أن أقتله؟».

- «أنا أقترح الحديث، لكنك حرة، كما كنت على الدوام، في اختيار طريقك».

- «إذن، أختار القتل، أو جلده بالسوط على الأقل».

قال راث متحديًا: «فلتحاولي، وسينتهي بنا المطاف هنا مجددًا».

سألته كما لو كان السؤال سيُثنيني عما أنوي فعله: «هل تثق بي؟».

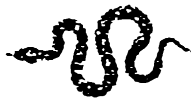
أجابني وهو يبتعد عن الحائط: «الأهم هو أن تثقي بنفسكِ. أنتِ فقط مَن يمكنه تحديد كيفية المُضي قدُمًا. إذن، ما الذي تودين فعله؟».

يا له من سؤال خطِر! كنت أتمنى أن أشق القاتل من حلقه حتى أسفل بطنه، وأشاهد أحشاءه النتنة المقززة ملقاة على الأرض. ولكنني لو أجبته بهذه الأمنيات إذن لما كنت سأدخل إلى هذه الغرفة مرة أخرى. وبغض النظر عن مشاعري التي سيطرت عليَّ منذ لحظات، لم أكن أريد أن أتردَّى وأفقد احترامي ذاتي. إن قتل إنسان - حتى إن كان هو من قتل شقيقتي التوأم - سيجعلني أتدنى إلى مستواه نفسه. وكان هذا هو السبب الذي جعل راث يدفعني إلى طعنه بالخنجر منذ وقت ليس ببعيد.

لقد ذقتُ إحساس إيقاع الإيذاء بأحد ما؛ لذلك لن أدنِّس يدي بالدماء اليوم.

ظل راث منتظرًا في صمت، مانحًا إياي الوقت والفرصة لتحديد خطوتي التالية. وكان التعبير المرتسم على وجهه محايدًا تمامًا، لكيلا يؤثر في حُكمي، أو يلمِّح بما يدور في خلَده.

هززت كتفي لأتخلص من التوتر، وقلت: «إنني مستعدة لسؤاله عن أختي».



هب أنتونيو واقفًا، وهو يقول: «إيميليا، أنا سعيد لرؤيتك».

استشففتُ من نبرة صوته أنه يقصد أن يقول: «أنا سعيد لرؤيتكِ، وقد توقفتِ عن الركل والزمجرة كوحش مفترس يحاول أن ينقض على عنقي ويفتك بي».

مع ذلك كان هذا اللقاء لا يزال خطرًا، إذ لم تزل هناك مساحة للزمجرة والمهاجمة. فلقد كان اللجام الذي كبحت به جماح نفسي ينزلق بالفعل. لم أبادله ابتسامته المترددة؛ فتراجعي عن شق جسده لم يعنِ أننا سنصير صديقين مجددًا ذات يوم.

تحركت بحذر إلى داخل غرفة البرج الصغيرة، وأنا أشعر بقرب راث مني، وكان من الواضح أن ثقته بي لم تكن لها حدود. يا له من شيطان ماكر!

سألت أنتونيو: «أتسعدك رؤيتي حقًا؟ كنت أتخيل أن رؤيتي تشبه التحديق إلى وجه إحدى ضحاياك، فقط لتكتشف أنه لم يكن ميتًا بعد كل شيء».

خيَّم الصمت بيننا على نحو مزعج.

رد قائلًا: «مهما قلت من كلمات اعتذار، فإنها لن تجدي نفعًا في إصلاح ما ارتكبته في حقك».

- «تقصد ما ارتكبته في حق فيتوريا».

- «أجل بالطبع». قالها وعنقه ينتفض، حتى كدتُ أصدِّق أن انفعاله حقيقي، ثم أردف: «لقد كنت أتناول شرابًا للعلاج». ثم أشار إلى القدح الذي يتصاعد البخار منه على الطاولة الصغيرة. «إن سيدة اللعنات بارعة في فك السحر».

توقفت في وسط الحجرة، وكان خيال راث يلوح خارجها. قلت: «هل هذا ما تزعمه الآن؟ إن السحر هو الآثم الحقيقي، وليس كراهيتك؟».

رمقني أنتونيو طويلًا بينما جلس في مقعده مرة أخرى، ونظرته لا تتجه نحو الأمير الشيطاني من خلفي، ولو مرة واحدة. لم يكن يعلم أنني عاجزة عن استخدام قواي السحرية، وأن تهديداتي كلها لم تكن سوى أقوال جوفاء. لقد جعلني خوفه أرغب في أن أضربه بمزيد من القوة.

قال: «هل تتذكرين رحلتي إلى القرية؟ حيث زعموا أن إلهة ما كانت تحتفل مع الذئاب في عالم الروح، وتعلمهم طرقًا لحماية أنفسهم من الشر؟».

قلت بنبرة باردة: «دعني أخمن ما تريد قوله. أتزعم أن هناك إلهة هبطت بالفعل على القرية، وأنها هي مَن لعَنَتك؟».

- «يا إلهي، إيميليا». بدا كمن جُرحت كرامته، واستطرد: «أنا لم ...»

قاطعته قائلة: «أتُراك تتوقع المغفرة والرحمة اللتين لا تستحقهما؟ لقد قتلت شقيقتي التوأم. وسفكت دم امرأة أخرى بريئة. وبدلًا من أن تتحمل مسئولية جرائمك، ها أنت تروي لي قصصا خرافية. وهي القصص نفسها التي كنت تصفها بأنها سخيفة وليس لها أساس، على قدر ما تسعفني ذاكرتي. فلتواجه حقيقتك، وتعترف بأخطائك، ولا تضيِّع وقتي في الحكايات القديمة والأكاذيب».

درتُ على عقبي، ثم توجهت نحو الباب. لم أكن أعرف يقينًا إلى أي مدى يمكن أن يصل غضبي المتنامي. عندئذ تنحى راث جانبًا، وجعلني أمُر، ولم يكن التعبير المرتسم على وجهه واضحًا.

التفتُ عند عتبة الباب، وألقيت نظرة على الرجل الذي كنت أظن في وقت ما أنني أحبه. يا للحماقة والطيش اللذين كنت عليهما حينها! لقد كرَّس أنتونيو حياته للنظام المقدس، ولن يتمتع يومًا ولو بنصف شرف أمير الجحيم الذي يقف بجواري.

استطردت قائلة: «عندما تسترجع كل ذكرياتك، أو تُشفَى مما تزعم أن سيدة اللعنات تساعدك على التخلص منه، أرسلِ في طلبي حينها. لكن إن كذبت عليَّ مجددًا، فسآتي إليك، وأقتلع قلبك وأطعم كلاب الجحيم إياه. ولتعلم أن راث لن يستطيع حمايتك إلى الأبد».

زم أنتونيو شفتيه قائلًا: «أعلم أنه يجب أن أحصل على عفوكِ. ومن فضلك يا إيميليا، أرجوكِ أن تزوريني مرة أخرى قريبًا. ودعيني أثبت لك أنني جدير بالثقة».

كان الجحيم هنا متجمدًا بالفعل؛ لذا لم أتكبد مشقة أن أقول له حتى إن ذاب ذاك الجليد ليصير جنة عدن، يستحيل أن أسعى بإرادتي إلى صداقته مجددًا.



تركت رات في البرج، وهرعتُ عائدة إلى جناحي، قاصدة غرفة الاستحمام مباشرة. ذلك أنني كنت في أمسّ الحاجة إلى التخلص من أي أثر لوجودي برفقة أنتونيو المُدنسة. وكنت قد توجهت صوب المقعد الزجاجي بالقرب من طاولة الزينة حينما سمعت طرقة خافتة على الباب، فقلت: «أدخل».

- «أنا هارلو يا سيدتي. يسعدني أن أقدّم الرعاية لكِ عندما تحتاجين إلى المساعدة».

رفعت بصري نحوها من حيث كنت أجلس أمشّط شعري الطويل. فرأيت خادمة شيطانية شابة - ذات بشرة أرجوانية فاتحة وشعر بلون الثلج - واقفة في توتر عند مدخل الغرفة. أخذت نفَسًا عميقًا، ثم أطلقته، وأبيتُ أن يفسد مزاجي السيئ بقية المساء عليّ.

قلت: «يسعدني لقاؤكِ يا هارلو. لكن لا حاجة إلى أن تزعجي نفسكِ. أستطيع أن أعد حمامي بنفسي». عندئذ عضّت شفتَيها؛ ونظرت إلى المغطس المملوء بالماء. فتساءلتُ تُرى هل فسرت رفضي بأنه إهانة لها وليس محاولة لأكون لطيفة معها. لذلك تكلفتُ التبسم قائلة: «سيكون لطفًا منكِ إذا أضفتِ بعض الزيوت والصابون إلى الماء».

اندفعت هارلو إلى داخل الغرفة، ووجهها متهلل، بينما قالت: «في الحال، سأذهب لأحضر منشفة قطنية وأتركها جانبًا لتجف حتى ينتهي من استحمامكِ يا سيدة إيميليا».

قلت: «شكرًا لكِ».

انحنت الخادمة سريعًا في أدب، ثم غادرت الغرفة. كنت أعلم أن رات قال إن الخدم لا يتوقعون الشكر على أداء عملهم، لكنني لم أستطع أن أتجاهل

جهود أي أحد يكون سببًا في راحتي. اهتمت هارلو بأمر الماء، ووضعت المنشفة القطنية، ثم تركتني وحدي في هدوء.

تركتُ الثوب الحريري ينساب من على كتفيَّ، وعلَّقته على مشجب بلوري بالقرب من طاولة الزينة. ارتجف لهب شموع الثريا مع حركتي، ما أضفى شعورًا بالسكينة على غرفة الاستحمام المريحة بالفعل.

بعد انفجار الغضب الذي أفنى كل التفكير العقلاني الذي كان أنتونيو السبب فيه، كان هذا هو ما احتجته بالضبط. فقد حان وقت التنفس بهدوء، والانغماس في المغطس، والتخلص من أدنى آثار الغضب.

خطوت إلى داخل الماء الدافئ، وعبق الزيوت العطرية يتصاعد مع البخار. وفي قلب الآلام التي سببتها دروس أنير والتوتر الذي ألم بجسدي من أثر مقابلة أنتونيو، شعرت بأن الماء هو النعيم عينه.

غطست حتى عنقي، وأنا أتكئ بظهري على حافة المغطس الضخم المملوء بالماء. وكنت أحاول أن أفرغ عقلي ووجداني، فكلما استرجعت ما قاله أنتونيو عن الإلهة، ومَن يغيِّرون أشكالهم، شعرت بالغضب الفتاك يغلي في عروقي.

فور أن انقضت سَورة الغضب الأولى، حاولت أن أتمعن في ادعاءاته بدقة. لم أصدِّق أنتونيو، لكنه ربما لم يخضع لتأثير أي شيطان. كان من الممكن أن يكون قد صادف ساحرة ما تظاهرت بأنها إلهة. أم أن الأمر كله لا يتعدى خضوع اثنين من البشر لسحر شيطاني؟ ربما لم يكن الشخص الذي جاءه بصفته ملك الموت سوى ضحية أخرى. ولو لم يكن أنتونيو قد رأى الشيطان حقًا لدل ذلك على براعة الشيطان، وإذن لما تمكَّن من التعرف عليه مطلقًا.

بعد دروسي مع رات، صرت أدرك مدى صعوبة محاربة الهجوم الشيطاني، لكن العفو والتعاطف كانا لا يزالان بعيدين عن قلبي. لقد كره جزء من ذاتي الاعتراف بذلك، حتى لو بيني وبين نفسي. وعندما استبد بي ذاك الغضب العارم ... شعرت بأنني قد غادرتُ جسدي، وحل الحنق البدائي الهمجي محل كل ذرة من الإنسانية داخلي. وعندئذ انغمستُ في المغطس، وأنا مستنزَفة نفسيًا وجسديًا على حد سواء.

لا بد أنني غفوت؛ إذ أيقظني صرير الباب وهو ينفتح.

لم يتردد في أنحاء الجناح وقع خطوات الخادمة، أو صوت يدل على عودتها. عندئذ حاك في صدري شعور بعدم الارتياح. أنا لم أكن وحيدة في الغرفة، فثمة مَن كان يراقبني؛ شخص لم يعلن عن نفسه.

صحت متسائلة: «هارلو؟».

وإذا بمنشفة تُلف حول عنقي. هرعت أصابعي نحو ما طوَّق عنقي لتنقذني من الاختناق. أخذت أضرب الماء فتناثر متحركًا في موجات عنيفة. وانسل من بين شفتَي صوت مكتوم، لكنه لم يكن عاليًا بما يكفي ليسمعه أحد، وينبهه إلى محاولة الاغتيال التي كنت أقع فريسة لها. آلمني حلقي ألمًا شنيعًا، وهامت سحب بيضاء على حافة بصري، لكن الذعر جعلني أقاوم بضراوة.

ثم تذكرت الشيء الوحيد الذي لم أنزعه عني قبل الاستحمام.

ضربت بيدي تحت الماء، وصعدت حاملة الخنجر الرفيع الذي كان راث قد أهداه لي. وبدَفقة أخيرة من التشبث بالحياة، دفعتُ ذراعي إلى الخلف. وشعرت بنشوة وحشية بينما انغرز النصل في جسد طري. شهق الدخيل، وأرخى الخناق عني.

خلال اللحظات التي حللت فيها المنشفة عن عنقي، واستدرت إلى الخلف، كان المجرم قد اختفى. ولم يكن ثمة دليل على حدوث أي شيء سوى كمية الدماء المدنسة التي لطخت الأرض حتى الباب. انتصبتُ واقفة في هدوء، وسحبت ثوبًا منزليًا، ثم استدعيت خادمًا ليذهب في طلب راث. طيلة ذاك الوقت كان قلبي يخفق بشدة دون هوادة. هنالك من حاول أن يقتلني. وأنا قد طعنته. ولا بد أن الطعنة جاءت في مكان حيوي كما يتضح من كمية الدماء المُراقة على الأرض.

لم أكن أشعر ولو بذرة من الندم. أو لعلني كنت بليدة الحس من أثر الصدمة فحسب.

ومع ذلك لم يغِب شيء واحد عن ملاحظتي. وبفضل لعنة إنفي التي أصابتني بها عقابًا على سرقتي كتاب التعاويذ، لم يكن في مقدوري ممارسة

السحر للدفاع عن نفسي ضد الهجوم. ولم أتمتع بأية قوة سوى الضربة التي سددتُها بالخنجر.

ظهر راث وسط غيمة من الدخان والضوء الأسود اللامع، والغضب العارم محفور في قسمات وجهه البارد كالجليد. قال: «هل أصابك مكروه؟».

أجبته: «كلا»، ثم أشرت نحو الدماء على الأرض، واستطردت: «لكن الحال مختلف بالنسبة إلى الجاني».

تفحصني راث أولًا، وتركيزه منصب على عنقي. حينئذ صار وجهه حانقًا، حتى إنني تخيلتُ أن حممًا حمراء مستعرة ستتدفق منه، وتزلزلت قواعد القلعة من جذورها.

سألني: «هل ترغبين في مرافقتي؟».

نظرت إلى يدي، وإلى الخنجر الذي كنت ما زلت أحمله، وهو ملطخ بالدماء. ربما جعلني ذلك ضعيفة، لكنني لم أستطع أن أجبر نفسي على مشاهدة ما كان راث على وشك أن يفعله. أومأت برأسي رافضة وأنا أتحاشى النظر إلى عينيه. وإذا كان هناك بيت للجُبن إذن لصرت ملكته المتوَّجة.

قال راث: «إنك شجاعة وقوية للغاية يا إيميليا ما دمت تعترفين بنقاط ضعفك هكذا». ثم مرر يده على وجنتي حتى ذقني، ورفعها نحوه في رفق لكي أنظر إليه، وأردف: «فالقائد الحقيقي يثق بالآخرين، كما تفعلين الآن تمامًا. فلا تشكّي في شجاعتك أبدًا، مثلما لا أشك أنا بها».

أرجع راث يده عن وجهي، فور أن وقع بصره على الدماء أخيرًا.

طاف حولها في هدوء، كوحش مهيب يحوم للإمساك بطريدته، ثم لم ينبس بكلمة أخرى حتى اختفى، وهو يمسك بالخنجر في يده، ويبدو كالهَوْل متجسدًا في لحم ودم.

وبالنسبة إلى مَن هاجمني في بيته أيًا كان، كان راث يجسد الرعب بكل ما تحمله الكلمة من معنى. ربما كانت الإلهات لتمنح الجاني موتًا سريعًا، لكن راث ما كان ليفعل دون ريب.

الثاني والعشرون

تناولت رغيف خبز من صينية عليها ما لذ وطاب من المخبوزات الطازجة، ووضعته على لوح التقطيع الخشبي الضخم. كان أمامي رأسان من الثوم، وكمية وفيرة من الريحان، وجبن البيكورينو، وكمكات بينولي الإيطالية، وزيت الزيتون. كان الطاهي على وشك الانتهاء حينما وصلت وأخبرني بأن راث أرسل في طلب هذه المكونات من عالم البشر من أجلي.

من الواضح أيضًا أنه اشترى بذورًا وزرعها في الصوبة الزجاجية بحديقة القلعة لكي أجد كل الأعشاب والخضراوات التي اعتدتها رهن إشارتي. ولقد ساعدتها لمسة سحرية، وعجَّلت بنضجها، وفقًا لقول الطاهي، حتى صار هناك الكثير منها في انتظاري أينما تجولت في الحديقة الداخلية. بحثت في صندوق الثلج، وانتقيتُ قطعة ضخمة مما بدا مذاقه كجبن الماعز، ثم ارتديت مريلة وجدتها معلقة على مشجب برفقة عدد لا يُحصى من المناشف النظيفة.

أشعرني الطبخ بالاسترخاء. فعندما أكون موجودة بين جدران المطبخ كانت متاعبي تتبدد، إذ لم يكن هناك سواي أنا والصحون والروائح الطيبة والأصوات والرضا عن إبداع صنف شهي من الطعام، ولا شيء غير ذلك. لم يكن به لا قتل ولا أحبة مفقودون، ولا أشخاص كاذبون أو كاتمو أسرار؛ داخله

لم أعرف شيئًا عن محاولات الاغتيال أو الزواج الناجم عن تعويذة خطأ. أحسست بالفرح والسلام، وكانت الطمأنينة هي الشعور الذي كنت في أمسّ الحاجة إليه في تلك اللحظة.

قطعت قمة رأس من الثوم، كاشفة عن كل الفصوص، ثم نثرت زيت الزيتون عليها، وغطيتها بعلبة من الصفيح، ثم وضعتها في الفرن لتَشوَى. وبعدئذ وجّهت اهتمامي إلى الريحان والصنوبر والثوم وزيت الزيتون.

عكفتُ على تقطيع وخلط وصب كل شغفي وطاقتي في الصلصة، في سبيل التخلص مما تبقى من أثر الليلة الماضية. ولم يكن ذلك إنكارًا أو هروبًا، وإنما فترة راحة مؤقتة كنت في أمس الحاجة إليها.

كنت قد انتهيت من فوري من إعداد صلصة البيستو الإيطالية حينما شعرتُ بوجوده. وأصلت العمل، في انتظار أن يتحدث. ولم أكن أعلم أكنت متلهفة إلى عثوره على من هاجمني، أم أنني رغبت فجأة في التظاهر بعدم حدوث شيء في تلك الليلة على الإطلاق. وبعدما مرت عدة لحظات، نظرت إلى الأعلى أخيرًا، وأنا أتساءل: «هل ثمة شيء تريد إخباري به؟».

استند راث إلى طرف الطاولة التي كنت أعمل عليها، وذراعاه وساقاه معقودة. كان مظهره يجسّد الهدوء والارتياح. ولاحظت أنه يرتدي قميصًا جديدًا، وكان شعره مبتلا بعض الشيء. قال: «ربما احتجت إلى بعض الأمور الضرورية، لكن ثمة الكثير مما أتوق إلى فعله».

قلت: «لن أعود إلى تلك الغرفة الليلة».

- «أنا لم أطلب منك ذلك». ثم مدد جسده، وتحرك حتى صار بجواري، وأومأ برأسه نحو رغيف الخبز، ثم استطرد: «هل يمكنني المساعدة؟».

نظرت إليه خلسة بطرف عيني، وقلت: «لم يتبقَّ الكثير، لكن يمكنك أن تصب لنا بعض الشراب، وأعتقد أن الشراب الأحمر سيكون لطيفًا».

- «حسنًا».

تركني، ثم عاد بعد لحظات، وفي يديه زجاجة وقدحان. فتّش في صندوق الثلج، وأخرج علبة توت أسود، وبعدما فتح الزجاجة، أضاف القليل من حبات التوت إلى كل قدح، ثم وضع قدحي بالقرب من حيث قطعتُ شرائح الخبز.

وضعت شرائح الخبز على ورقة خَبز، ونثرت زيت الزيتون عليها. وبعدئذ أدخلتها الفرن وضبطتُ المؤقت قبل أن أحتسي رشفة من الشراب. شرب راث باسمي، وعلى مُحياه نظرة تنم عن الرضا، ثم قال: «أتمنى أن نحتفل على الدوام بعد إراقة دماء أعدائنا».

تبسمت إليه من راء قدحي قائلة: «يا لك من همجي!».

قال: «لقد كنت تدافعين عن نفسك. وإذا كان الفخر يجعلني همجيًا، فليكن ذلك».

- «هل تعتقد أنني قتلته؟».

أخذ راث يحرِّك الشراب في قدحه وهو يركز نظره عليه، ثم قال: «وهل هذا يهمك؟».

أجبت قائلة: «يهمني بالطبع، فأنا لا أريد أن أضحى قاتلة».

- «الدفاع عن نفسك يختلف بالتأكيد عن الاعتداء والهجوم دون مسوّغ أو سبب».

- «أستنتج من رفضك الإجابة أنني قتلته بالفعل».

- «أنت لا تتحملين ذنب مقتل ذاك الشيطان يا إيميليا». ثم وضع راث قدحه وواجهني، وعلى وجهه تعبير جاد، واستطرد: «بل أنا». لم تكن الابتسامة التي علت وجهه دافئة أو ودودًا، وإنما باردة ومحسوبة، وغايتها التخويف وبث الرعب حينما أضاف: «هأنذا، جوهر الشر والخطيئة وأصلهما، فهل أنا الوحش الذي أخافك؟».

نظرت نحوه، وأمعنتُ النظر. لم يكن به ما يدل بوضوح على انفعالاته، لكن كان ثمة شيء في طريقة إلقائه السؤال جعلتني أفكر في ردّي بحذر وتأنٍّ. إنه لم يردني أن أراه وحشًا.

ولتلعني الإلهة، فأنا لم أره كذلك بالفعل. التقت نظراتنا وأنا أتساءل: «هل عاني؟».

أجابني: «ليس بما يكفي».

- «هل تمكنت من الحصول على معلومات منه؟».

هز راث رأسه نافيًا بينما قال: «لقد قُطع لسانه منذ وقت قريب. يبدو أنه هو من اختار ذلك، تحسبًا للإمساك به».

لا أدري أي جنون انتابني في تلك اللحظة، لكنني وضعت قدحي، وسرتُ حيث كان راث واقفًا في ثبات، منتظرًا ما سأقوله. وببطء، كما لو كنت أدنو من وحش مستعد للهجوم، أحطت خصره بذراعي وأسندتُ رأسي على صدره.

خلال عدة لحظات طويلة، ظل حابسًا أنفاسه. ثم لف ذراعيه حولي، وأراح ذقنه على رأسي. وبقينا هناك، يحتضن أحدنا الآخر، حتى دقت الساعة الصغيرة. وحتى عندئذ لم أبتعد عنه على الفور. لقد كان هذا الشيطان، هذا التجسيد الحي للخطيئة، أعمق كثيرًا من مجرد الوحش القابع داخله.

أفلت ذراعيَّ على مهل، ثم وقفت على أصابع قدميَّ، وطبعت قبلة بريئة على وجنته قائلة: «شكرًا لك».

دون أن أمنحه فرصة للرد، أسرعت إلى الفرن، وأخرجت الخبز المحمص والثوم المشوي. ثم وضعتهما على لوح التقطيع، وأضفت قطعة جُبن الماعز وصلصة البيستو. ثم تناولت صحنين صغيرين ووضعت سكين زُبد بجوار كل مكون كان على اللوحة. عندئذ ابتسمتُ وأنا أنظر إلى ما صنعته يداي، وكلّي سعادة بما أنجزته.

قلت: «سيكون عليك أن تخدم نفسك، لكن الأمر سهل». ثم أخذت شريحة من الخبز ودهنتها بالقليل من الثوم المشوي كالمربى، وأردفت: «بعد ذلك نغطيها ببعض جبن الماعز، وأخيرًا» - أضفت ملعقة ممتلئة من صلصة البيستو - «نضيف صلصة البيستو».

كان راث يراقبني وأنا أعمل، ثم تناول شريحة من الخبز المحمص وأعدَّه بنفسه كما فعلت. وتناول لقمة ثم نظر إليَّ قائلًا: «أعتقد أن هذا يعجبني أكثر من الحلوى التي أعددتها».

قلت وأنا أبتسم له: «يا له من إطراء رائع يصرِّح به ملك حلوى الكانولي! يمكن أن أضيف البيض المسلوق إذا كان قد تبقى منه شيء من الفطور أو الغداء. فيتوريا تحب...»

سكتُ فجأة، وتركت صحني جانبًا.

لمس راث مرفقي في رقة، فأعادني إلى الحاضر، وسألني: «ما الأمر؟».

قلت: «اشتقتُ إليها».

- «شقيقتك التوأم».

- «أجل، للغاية. أحيانًا، ولبضع لحظات، أنسى أنها فارقتني. ثم أستحضر كل ما مضى. فأجد جانبًا مني يرغب في النسيان بشدة، والجانب الآخر يريد أن ينفجر غضبًا. وفي النهاية تبدو الحال كأنني أخوض حربًا مع نفسي، غير قادرة على معرفة الجانب المنتصر».

- «ليست لديَّ خبرة شخصية مع الموت، لكنني أعلم أنه أمر طبيعي بالنسبة إلى بعض البشر».

- «إنني أتعجب من ذلك أيضًا». قلت ذلك وأنا أنظر إلى عينيه مباشرة، وتابعت: «لقد أضناني الحنق والغضب منذ مقتلها. وإن شدة هذه المشاعر لا تخيفني فحسب، وإنما ترعبني. إنني لم أكن كذلك يومًا. لكن الليلة ... الليلة عندما حاول ذاك الشيطان قتلي، لم أشعر بالخوف، وإنما بالغضب الشديد. كنت أريد أن أجعله يتألم. وأولى الأفكار التي راودتني بعد تلك الواقعة لم يكن الفزع، وإنما الحنق لأنني لم أتلقن السحر الأسود».

- «كان يجب أن تعلمك عائلتك من البشر كيف تحمين نفسك».

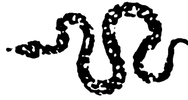
تنهدت بعمق. ربما كان ينبغي لي أن أطرح كل مخاوفي جانبًا. فبعد أحداث المساء، كنت في حاجة إلى التخلص من المشاعر الكئيبة من أعماق ذاتي.

قلت: «في بعض الأحيان يساورني القلق من أن إبليس ليس هو الملعون، وإنما أنا».

ظل راث صامتًا برهة، ثم قال متسائلًا: «لمَ تظنين ذلك؟».

- «لقد قُتلت شقيقتي، وتعرضت جدتي للهجوم، وجعل إنفي والديَّ رهينتين. ومع ذلك، ما الذي حدث لي؟ أقصد فيما عدا محاولة الاغتيال التي تعرضتُ لها الليلة». بحثت في وجهه عن إجابة، وأردفت: «ربما أكون أنا الملعونة، وكل من أحبهم معرَّضون للخطر. ماذا لو كنت أنا الشريرة؟ كنت أنا الآثمة البشعة، وعوقبت بالنسيان؟ ماذا لو أن الساحرات اللاتي قُتلن بدأن التذكر؟ ربما يتضح أنني أنا المتوحشة وأنا لا أعرف ذلك».

مكث راث صامتًا وقتًا طويلًا ما أثار القلق في نفسي. وحينما بدأت أشعر بأنني حمقاء لبوحي له بالكثير من مخاوفي، قال في نعومة: «أو لعلهن تدخلن جميعًا في أمور ما كان ينبغي أن يورطن أنفسهن بها. وأنتِ مَن تدفعين ثمن أخطائهن».



سالت بضع قطرات من شراب التوت الشيطاني على ذقني، ثم انسكبت على ثوبي عديم الأكمام، لكنني لم أتوقف عن احتسائه بنهَم من الزجاجة، ولو لكي أمسح وجهي. وبعدئذ تلاشى الإحساس السحري الذي تملَّكني. ووضعت الزجاجة وأنا أفكر في جدية في إلقائها عبر الطاولة. حينها بادرني راث بابتسامة متعجرفة.

كان راث قد أمر بوضع طاولة كبيرة مذهبة ومقعدين وثيرَين في قاعة الأسلحة. كان المقعدان شبيهين بكرسي العرش، ومزينين بأفاعٍ معدنية - ليست ذهبية ولا فضية تمامًا، وإنما بينَ بين - تشكل الإطار الخارجي لهما.

اكتست الطاولة المفروشة بصحاف ذهبية زاخرة بألوان الفاكهة والحلوى والقشدة المخفوقة فضلًا عن الأطعمة الناخرة الشهية. وكانت بعض الصحون ممتلئة عن آخرها حتى فاض ما بها، وانسكب على الأرض، في مشهد يجسد الإسراف الذميم عينه.

هززت رأسي قائلة: «يا له من سلوك مخزٍ!».

قال راث: «فليكن للجراء نصيب من الوليمة مثلها مثل الأمراء».

قلت متعجبة: «جراء! أتقصد كلاب الجحيم ذات الرؤوس الثلاثة تلك؟».

- «ليس عليَّ أن أذكركِ *بأنك* التي طلبت التدريب، فلتتوقفي إذن عن التهرب من الدرس».

- «ما دمتُ لا أفرط في الشراب، فما الذي سأتعلمه من هذا الدرس التافه. لا بد أن ثمة شيئًا أكثر فائدة يمكنك أن تعلمه لي».

- «فلتسمحي لي بأن أبذل جهدًا أكبر لأثبت وجهة نظري».

كان يجب أن تكون معرفتي بالأمير أفضل من أن أفترض أنه سيتساهل معي أثناء جلسة التدريب في الليلة التالية. وكان يبدو أنه يتلاعب بالشهوة والحسد والكسل بالقدر الأكبر، لكنه الليلة أراد أن يدربني على خطيئة الشراهة. فكل شيء، بدءًا من ملبسي والجواهر التي ازدنت بها، حتى الوجبة الفاخرة التي تناولناها والشراب الذي احتسيناه، كان ينطق بالإسراف والانغماس في الملذات.

كنت قد أرسلت إليه رسالة أطلب فيها أن نستأنف دروسنا. فبعد محاولة الاغتيال، صرت أكثر إصرارًا على حماية نفسي من الأمراء الشيطانيين. وكنت أبذل الجهد لأكتشف قيمة التحكم في الإفراط في تناول الشراب، وكيف ستساعدني هذه المهارة على تحقيق غايتي.

ملأ راث قدحًا ضخمًا وناولني إياه. وكانت تلك المرة الثالثة التي يفعل بها ذلك. وهذا دون أن أحسب زجاجتي شراب التوت الشيطاني اللتين تناولتهما بالفعل على مدار الساعة أو الساعتين الأخيرتين.

كانت مقاومة التأثير الشيطاني تضحى أكثر صعوبة، أو الشعور بتلك الوخزة الخفيفة التي دلّت على أن السحر كان يُسلّط عليَّ. تنفست بصعوبة وسط موجة الدوار، فأنا لم أمسي ثملة هكذا من قبل لكنني أدركت العلامات.

قال راث: «فلتحتسي هذا القدح حتى الثُمالة بأسرع ما يمكنك، ثم فلتصبي واحدًا آخر ولتفعلي الشيء نفسه».

طغا سحره على حواسي. فأطبقتُ أسناني، وركزت على مدى الضيق الذي كنت أعانيه. ابتسم راث ابتسامة عريضة، وهو ينظر إلى صحن به حبات توت مغطاة بالشيكولاتة. ثم اكتسحتني قوته.

أبقيت القدح بعيدًا لحظة أخرى مفعمة بالتوتر، ثم تجرعته بنهم.

دار رأسي وتشوشت رؤيتي. فمسحت فمي، وابتسمت كما لو كنت بلهاء، ثم صببت المزيد من الشراب. فاض القدح حتى تدفق الشراب على الأرض، فبدا خفاي الحريريان كما لو كنت قد خضتُ في مسرح للجريمة، لكنني لم أعبأ بذلك على الإطلاق.

كلما دفعني إلى المزيد من تناول الشراب، تفاقمت استحالة تركيزي على إرادتي الحرة، التي أدركت وجودها أخيرًا في غمرة فقداني الإحساس من فرط الشراب.

لقد كان بإمكان إخوته أن يدفعوني لاحتساء الشراب، ومن ثم فإن السكر البطيء سيجعل مقاومة تأثيرهم مستحيلة. وكلما فقدت السيطرة، صار من الأسهل عليهم أن يخترقوا دفاعاتي. وعلى أية حال كان لدى راث هدف محدد. فهو لم يكن يحاول أن يجعلني أواجه الشراهة فحسب.

اندفعت من مقعدي، وشققت طريقي نحو الجانب الذي كان الشيطان جالسًا فيه من الطاولة، والقدح الفارغ يتدلى بين أطراف أصابعي. لقد جعلني أرتدي ثوبًا فضيًا طويلًا شديد الفخامة مصنوعًا من الحرير. كان فاخرًا إلى حد البذخ. ولم أكن أرتدي أية ملابس تحتية وكان قماش الثوب كاشفًا. وفي ظل الشراب الذي انسكب على الجهة الأمامية من صدريتي، كنت أحس بأنني عارية لا أرتدي شيئًا. وساورني الشك في أنه خطط لذلك.

على الرغم من مظهري ذاك، حافظ رات على نظره دون أن يتجاوز عنقي إلى الأسفل؛ فلقد كان حينها السيد المهذب كعادته دائمًا. أو على الأقل عندما لا يكون مشغولًا باجتثاث الألسنة أو تعذيب القتلة المحتملين حتى الموت.

كنت أتقلد حول عنقي العديد من العقود الماسية الثقيلة ذات الأطوال المختلفة، فشعرت بأنني أحمل خمسة أرطال إضافية حول عنقي، كان ذلك شيئًا مبالغًا فيه، حتى إن إنفي كان سينزعج من مظهري بدلًا من أن يشعر بالغيرة.

ملتُ نحو رات وأنا أتطوح، وقربتُ وجهي من وجهه. وكنت أريد أن أقبِّله، ربما بعد أن أكسر زجاجة وأطعنه أولًا.

قلت له وأنا أظن أنني أبتسم له ابتسامة جذابة: «لقد جعلتني ثملة لغرض في نفسك، أيها الشيطان الشقي».

قال: «إن وقوعك تحت تأثير الخمر أو أية مواد أخرى سيقلل من قدرتك على الشعور بسحر أيٍ من أمراء الجحيم إلى حد كبير، وخاصة جلاتوني. إنه سيدفعك إلى أن تشربي رويدًا رويدًا حتى تفقدي السيطرة ثم يتلاعب بك كما يشاء». وصار صوته قاسيًا إذ أردف: «لا بد أن تدافعي عن نفسك».

كنت أحاول أن أركز انتباهي على الدرس، لكنني فُتنت بشكل ثغره وهو يتحدث، فمددت يدي ولمسته، عندئذ عبس رات قائلًا: «فلتركزي يا إيميليا».

قلت: «آه، أؤكد لك أنني أفعل، فأنا في *كامل* تركيزي الآن. تُرى هل أنا مفتونة، أم مسحورة؟» رفعت عينيَّ إلى الأعلى، فرأيت اثنين من رات، كلاهما عابس. أخذت أطرف بعينيَّ حتى بقي شيطان مزعج واحد فقط. أردفت متسائلة: «لماذا! لم تغوني؟».

كان من الصعب أن أتأكد، لكنني اعتقدت أنه سحب تأثيره.

قال: «إن كنت لا تستطيعين المقاومة تحت تأثير الشراب، إذن من الأفضل ألا تشربي أي شيء في يوم عيد الذئب. يمكنك أن تقبلي نخبًا، لكن تظاهري بأنك تحتسينه».

قلت وأنا أمسد تجعيدًا بين حاجبيه: «أنت تبالغ كثيرًا في قلقك. نونا تقول إن البخار المنبعث من المطبخ يحمي من التجاعيد؛ لذا سأظل أنا وفيتوريا شابتَين إلى الأبد. مثلك تمامًا».

- «باعتبار أنك لست بشرية، أتصور أن ثمة بعض الحقيقة في حديثك».

- «أنت لم تجب عن سؤالي، عن الإغواء». تطوحت بعض الشيء وأنا أقف على قدميَّ، فبدا حينها أن حضنه مريح. ووجدتني حينها أرتمي عليه. توتر راث لكنه لم يبعدني، فشعرت بالسعادة في أعماقي لهذا النصر البسيط. استطردت: «قالت فاونا إن البلاط كله يرغب في أن يعرف».

- «إن السيدة فاونا تثرثر كثيرًا. ربما عليَّ أن أصر على أن تزور أحد أقاربها البعيدين».

- «لا تلقِ بغضبك عليها، لقد كانت تنقل لي ما يقال فحسب. كما أنه من حقي أن أعلم أيضًا. ربما أنا أريدك أن تغويني الآن». اتكأتُ على كتفه، وأسندت ذقني على راحة يدي، وأنا أحدِّق إليه. لكنني أدركت بعد فوات الأوان أنني بدوت حتمًا مثل شخص مجنون وأنا أحدق بهذه الطريقة في موقف كهذا. استرسلت قائلة: «أتعلم، يعتقد البعض أن التجنب علامة من علامات الجبن؟».

قال: «أنا أدرك غايتكِ مما تفعلينه، ولن ينطَلي ذلك عليَّ». ثم أردف وقد صار أكثر تجهمًا: «إنني لَا أُغويك؛ لأنني لا أرغب حاليًّا في فعل ذلك. الأمر بهذه البساطة».

إذا كان قد طعنني بخنجر في قلبي لربما كان الألم أقل مما شعرت به حينها.

استدرت وجذبت صحن التوت المكسو بالشيكولاتة نحوي. ثم أضفتُ القليل من القشدة المخفوقة على التوت، ووزعتها بشوكة، لكنني أخفقت واشتبكت الشوكة بالصحن. فطارت حبة توت عبر الطاولة.

كان ذلك حتمًا بسبب حجمها الصغير وشكلها الكروي، وليس لأنني كنت ثمِلة.

حددت هدفي، وضيقت عينيَّ محدقة إلى الصحن، فراحت حبات التوت تنزلق. من الواضح أننا لم نكن على وفاق؛ ذلك أنني صوبت الشوكة نحوها مجددًا لكن حبة أخرى طارت بعيدًا، وأخذت أسب بحدة.

مد راث يده وتناول الشوكة من يدي، ثم غرزها في حبة توت مكسوة بالشيكولاتة وغمسها في القشدة المخفوقة.

رفع راث يده بالشوكة أمام فمي.

قال: «إذا نطقت ولو بكلمة واحدة مما يحدث، فأقسم أنني سأنتقم يا سيدتي».

قلت: «حسنًا. مع أنني لا أتوقع أنني سأتذكر أي شيء عن هذه الشهامة البالغة بحلول الصباح».

اتكأت على كتفه، وأرجعت رأسي إلى الخلف، منتظرة إياه لكي يطعمني الحلوى. وبعد ذرة من التردد فحسب، فعل ما كنت أنتظره. أقسم أن مذاق الطعام كان أحلى كثيرًا. شعرت بأنني إلهة رومانية مدللة، بينما راح يطعمني حبة توت واحدة في كل مرة.

قلت: «إنها لذيذة، حتى إنني لا أكاد أتذكر كلمة بالفعل مما كنا نقوله».

قال: «كاذبة». ثم اقترب مني، فاستبدت العاطفة بي، ولم أعد أميز الحقيقة من الخيال، لكن لا شك في أنني لم أعد ثملة. أردف راث قائلًا: «ومرة أخرى، وبصورة ما، هأنذا أكذب أيضًا».



الثالث والعشرون

غمرني راث بمشاعره الدافئة، حتى ذهلتُ عن كل ما يحيط بي، وبالطبع لم يصبح هناك مجال للاهتمام بتناول التوت المكسو بالشيكولاتة. راقني الاستسلام لانجذابي نحوه، وشعرت بالسعادة لأنه قد عبَّر عن مشاعره المتأججة نحوي.

لم أعد قادرة على إنكار عاطفتي نحوه، وقررت ألا أحاول ذلك مجددًا.

قال راث: «هل ثمة شيء تريدينه مني يا سيدتي؟».

قلت له: «ليس عليك أن تناديني بسيدتي عندما نكون وحدنا، فليس من حاجة إلى الاستعراض».

قال بصوت دافئ: «إن الفضول يراودني بخصوص ما شعرتِ به في تلك الليلة التي قضيناها في ممر الخطايا، فلتخبريني عنها».

- «لقد شعرت بعاطفة وانجذاب جارف نحوك».
- «وهل تشعرين بتلك العاطفة نفسها الآن؟».
- «أجل».

لم أدرِ إن كان حكمي صائبًا حينئذ أم لا، لكن كل ما شغل تفكيري هو أن نتم رباط زواجنا.

استسلمت إلى مشاعري، ولم أعد أرغب في التفكير في أي شيء آخر، سوى كوني حبيبة راث الوحيدة وزوجته المستقبلية التي تنعم بحبه إلى الأبد.

لكن على حين غرة، إذا براث يوقظني من أحلامي الساحرة، قائلًا: «لقد انتهى تدريبنا هذه الليلة».

هب واقفًا بحركة سريعة، فاستدرت نحوه وأنا أحدِّق إليه، كان التعبير على وجهه غامضًا أيما غموض. قلت له: «تدريب؟ أهكذا تصف ما شعرنا به من فورنا؟».

قال: «لقد طلبت مني أن أغويكِ، وأنا نفذت طلبك». ثم انحنى في أدب، وأردف: «والآن، فلتصبحي على خير».

الرابع والعشرون

«قال ماذا؟» هتفت فاونا متعجبة، وعيناها تتسعان على آخرهما. كانت تتأبط ذراعي وتتمشى معي في ممر مغطى. أردفت قائلة: «لعلك لم تسمعيه جيدًا، أو أخطأت في فهم ما يقصده. هذا ممكن، أليس كذلك؟».

قلت: «كلا، أنا واثقة مما قاله. كم أمقت هذا الشيطان». ثم تنهدتُ، فرأيت أثر أنفاسي في هواء الصباح قارس البرودة. وحينئذ كان ضيقي طاغيًا على شعوري بالحرج. وبعد ما حدث في قاعة الأسلحة، لم أرَ راث بقية الليلة.

بدا الاستياء على وجه صديقتي، لكنها أمسكت لسانها عن سب راث. واصلنا التنزه عبر واحد من الممرات الطويلة المغطاة بالحواجز التي أحاطت بالقلعة. وكان الحراس يومئون لنا بالتحية من أماكن حراستهم على طول السور بينما مررنا بجوارهم. وبمجرد أن صرنا بعيدتين بما يكفي اقتربت فاونا مني قائلة: «ربما قال ذلك فقط؛ لأنه كان غاضبًا من رؤيتك وأنت مستسلمة لعواطفك هكذا».

- «أشك في هذا، فهو لم يكن غاضبًا».

- «أراهن بكل ما في بيت جريد على أنه ندم على صده لك، وظل يفكر بك طوال الليل».

على الرغم من الثقة التي شعرت بها في الفترة الأخيرة في التعبير عن مشاعري دون خوف، فقد احمر وجهي خجلًا من الجرأة التي ناقشت بها فاونا مثل تلك الأمور الشخصية.

كانت فاونا قد زارتني في الصباح الباكر، ونجحت في استدراجي لمعرفة ما كان يضايقني قبل حتى أن أرتدي عباءتي المخملية. لم تخجل فاونا أو يرف لها جفن من التحدث في أمر انجذابي إلى راث هكذا، ما من شأنه أن يسبب الصدمة أو الفضيحة في موطني، واكتفت بإطلاق ضحكة عالية.

قالت فاونا: «ربما لم يرد أن يبادلك العاطفة في قاعة الأسلحة، فأنت ستصبحين زوجته وهو بالتأكيد حريص على حمايتك من الأعين المتلصصة».

قلت في غيظ: «أظنه لا يعبأ بذلك، فهذا العالم ليس محافظًا كعالمي».

- «في الواقع، لقاءات الأحبة العلنية نادرة باستثناء بيتَي لاست وجلاتوني. لا أنكر أن الأمراء الآخرين لا يخفون مُجونهم في بعض الأحيان، مثل جريد وبطانته الفاسدة، لكن ليس إلى حد ما يحدث في البيتين اللذين ذكرتهما تحديدًا. كما أن سموه ربما لم يردك أن تفصحي عن مشاعرك وأنت تحت تأثير الشراب. ولعله لم يكن متأكدًا من حقيقة مشاعرك؛ لذا أقدم على صدك قبل أن تفعلي شيئًا تندمين عليه لاحقًا».

شعرت بالإحباط ينمو في صدري بينما قلت: «لكنه بتصرفه ذاك لا يوحي إليَّ بأنه يرغب في أن يتم رباط الزواج».

- «لا أظن ذلك يا سيدتي، فهو يميل نحوكِ دون شك».

توقفت فجأة عن الحديث. ولم تكن لديَّ فكرة عن سبب انزعاجي حينئذ بهذا القدر. فبغض النظر عن مشاعري في الليلة السابقة، كنت لا أزال غير راغبة في إتمام زواجنا، ولذلك ينبغي ألا أستاء من فكرة أنه لا يرغب في ذلك بالمثل. خاصة أن ثمة العديد من الأمور الأخرى التي ينبغي أن تشغل بالي. ومثل عيد الذئب الذي كان يقترب سريعًا.

حاولت أن أطرد الانزعاج من خاطري، وواصلت المَسير بصحبة صديقتي نحو البرج، وقلت لها: «كفانا حديثًا عن الأمراء، فأنا لا أريد أن تسمعنا سيدة اللعنات وتبلغ راث بما نقوله».

قالت فاونا ضاحكة: «أجزم لك بأن هذا لن يحدث أبدًا».

- «أظن أن العداء بينهما ليس حديث العهد».

- «أجل». قالت فاونا ذلك، وهي تجرنا إلى جانب الطريق، ثم تلفتت حولها، وأردفت: «تزعم الشائعات أن هذا العداء ضارب بجذوره في القِدم، بل يعود إلى قرون خلت. ويقول البعض إن ابنتها قد لُعنت ولم يحرك الأمير ساكنًا لإنقاذها».

- «هل ابنتها تسكن القلعة؟».

- «لا أحد يعلم. لكن ثمة أقاويل بأن سموه نفاها من هذه الحلقة. ولو بعض الوقت على الأقل. ومن الممكن أن تكون سيدة اللعنات قد أعادتها وأخفتها في مكان ما بالقلعة».

لسبب خفي اقشعر بدني، وتذكرت الأنين الذي انبعث من أسفل تمثال المرأة والأفعى. لكنني لم أستطع أن أتصور راث وهو يعاقب أي أحد بنفيه عميقًا تحت الأرض. وربما سيطر عليَّ هذا التصور؛ لأنه لم يفعل ذلك حقًّا.

على الرغم من أنني كنت أعرف سيدة اللعنات مجرد معرفة سطحية، لم أستبعد احتمال قيامها بشيء كهذا. خاصة أنه كان بدافع الحماية لا العقاب.

لعل المخلوق النائح المسكين الذي سمعته لم يكن سوى ابنتها المفقودة. وإذا كانت السيدة قد أعادت ابنتها وحبستها في مكان ما، فما السبب يا تُرى. لقد ازداد فضولي حينها لأعلمه. كان راث يعلم كل شاردة وواردة في حلقته؛ لذا راودني الشك في قدرة سيدة اللعنات على الاحتفاظ بسر كهذا خافيًا عليه مدة طويلة. ما دل على أنها كانت تخفي ابنتها عن أمير آخر.

عندئذ طاف بخاطري شك جديد. لقد كانت هذه القصة شبيهة بقصة أخرى كنت قد سمعت بها. قصة بطلتاها هما لا بريما ستريجا وابنتها. فقد

قيل إن الساحرة الأولى لعنت إبليس؛ لأن ابنتها أحبته، ولأنهما رفضا الابتعاد أحدهما عن الآخر.

تُرى أكانت سيدة اللعنات والسموم هي نفسها الساحرة الأولى؟

وإذا كانت هي لعنت إبليس، فأنا أريد أن أعرف لِمَ كانت تقيم في قلعة راث، وهي تنتحل شخصية غير شخصيتها الحقيقية. لا بد أنه يعلم هويتها الفعلية، ما يعني أنه على علم أيضًا بما فعلته بشقيقه، وهذا يفسر كراهيتهما القديمة أحدهما للآخر. إذن لمَ يريد هو أن يحفظ سرها، إلا إذا كانت تعلم أحد أسراره؟ وإذا كان الأمر كذلك، فلا بد أنه سر غاية في الخطورة إلى الحد الذي يجعله يعقد صفقة مع واحدة من ألد أعدائه.

في ظل ما فعله لإنقاذي، لم يبدُ أن ما استنتجته ضرب من الخيال.



فتحت سيليستيا الباب قبل أن أنهي الطرقات قائلة: «ابنة القمر والسيدة فاونا». أخفيتُ ابتسامتي لتخيلي غضب راث إن علم أنها فتحت بهذه السرعة. ثم تابعت بقولها: «كيف يمكنني أن أخدمكما؟».

قالت فاونا: «لديَّ بضعة أسئلة عن اللعنات».

قالت سيليستيا وقد بدت على وجهها معالم السرور: «على الرحب والسعة، لقد أتيتما إلى المكان المناسب، تفضلا بالدخول».

سرتُ إلى داخل غرفة البرج، ففاجأتني رائحة الأعشاب والزيوت الزكية التي ذكرتني بنونا ماريا وهي تعِد شموع التعاويذ في مطبخ عائلتنا الصغير. حينئذ بذلت الجهد لأتغلب على غصة الحنين إلى الوطن. *لقد كانت أسرتي في أمان.* وأنا سأنهي ما بدأته وأعود لأصنع ذكريات أكثر بهجة بصحبتهم. وسيكون ذلك قريبًا.

جذبت نفسي من الماضي إلى الحاضر، فرأيت سيليستيا وهي تروح وتجيء عبر أنحاء الغرفة، وتُبعد الكتب والأواني عن المقاعد، لتفسح المكان لنا لتجلس حول طاولتها التي تقوم بعملها عليها. وبينما كانت تفعل ذلك، رُحتُ ألاحظ ما فاتني في زيارتي الأولى.

كان لدى سيدة اللعنات أشياء أكثر غرابة وإثارة للفضول في مجموعتها عما شاهدته من قبل. فمن الأوعية المغطاة بالفلين المملوءة بالأعين المُغمضة، إلى السلال الزاخرة بمناقير الطيور ومخالبها، وريشها. وكان ثمة أوانٍ تحتوي على مراهم ودهانات من شتى الأشكال والألوان.

كانت هناك جمجمة طائر منحوتة عليها طلاسم سحرية موضوعة على قمة كومة من الكتب ذات أغلفة جلدية.

ولاحظت ما لفت انتباهي، وأومأت ناحيته وهي تقول: «إن الغربان ترمز إلى العديد من الأشياء. كالموت والشفاء والخصوبة والحكمة».

قلت وأنا أقترب من الجمجمة، لكن دون أن ألمس النقوش أو البقايا، وسألتها: «وماذا عن الطلاسم؟» فإذا كانت هي الساحرة الأولى، فربما تكون هي من سحرت الجماجم وأرسلتها لي. لم أكن واثقة مما إذا كانت تحاول المساعدة، أو أن نظريتي خطأ على نحو فادح. ربما تكون صاحبة الشخصية التي زعمَتها بالفعل، وأنا مَن أحاول تجميع قطع أحجية لا تتناسب بعضها بعضًا على الرغم منها. استطردتُ قائلة: «هل هي تُحيي الجمجمة؟».

رمقتني سيليستيا بما بدا أنه شك، وقالت: «كلا». إذا كانت هي الساحرة الأولى، فلا بد أن تكون قد أنجبتها إلهة. لم أكن متأكدة مما إذا كان بإمكانها أن تشعر بالانفعالات مثلما يفعل راث، لكنني بذلت جهدي لأبقى هادئة، وأردفَتْ: «إنني أتلقاها عندما أتأمل في الجمجمة. فأحفر ما يريدني الغراب أن أراه. إن الرموز الغامضة يمكن أن تكون حليفًا قويًا لمن يجري السحر في دمائهم».

تململت فاونا في قلق، بينما انتقل بصرها إلى الأوعية التي تتحرك داخلها قوى غير مرئية في أقصى الغرفة. فنظرتُ إلى السيدة مجددًا، وهمست بصوت خافت: «هل بإمكانها أن تعزز مورد السحر؟».

أجابت سيليستيا: «بالنسبة إلى الساحرات، أجل. أما بالنسبة لمن يمثلن المورد فكلا. إن الرموز الغامضة تنبع في الأصل من جوهرهن».

قلت: «أولئك اللاتي ... تقصدين الإلهات».

أومأت سيليستيا إيجابًا، وعلى وجهها نظرة حادة بينما راحت تتفرَّس في وجهي.

وفقًا إلى أساطير نونا، الإلهات هن المورد الأصلي لقوانا السحرية، التي تنتقل عبر الزمن من خلال ذرية الساحرة الأولى.

أمعنتُ النظر في المرأة ذات الشعر الفضي المشوب بالبنفسجي الفاتح. وكان وجهها ذا تجاعيد خفيفة، لكن لم يكن هناك ما يشير إلى عمرها بوضوح. وكانت فاونا قد ذكرت أن عداوتها مع راث تعود إلى قرون سحيقة، ما يعني أنها خالدة على الأرجح. كذلك لم يغب الظل الأرجواني في شعرها عن انتباهي. لقد كان يماثل لون وشمي عندما كنت مع راث، وكذلك عندما رأيت الهالة اللامعة المحيطة بالبشر.

لم أدرِ أكانت الإثارة أم الخوف هو الذي يتدفق في عروقي حينها.

قلت: «إذن لو استخدمت الساحرة الرموز الغامضة في تعويذاتها، فستزداد فاعلية هذه التعويذة».

ردت قائلة: «هذا صحيح».

وجَّهت نظري إلى فاونا، التي كانت تحدق إلى إحدى القدور حينذاك، وتساءلت: «هل من الممكن لأي أحد أن يسحر جمجمة ويرسل رسالة؟ ربما أمير من أمراء الجحيم أو ساحرة ما».

قالت: «كل شيء ممكن؛ أما إذا كان مرجحًا فهذا شيء آخر. ذوو العلم بالرموز الغامضة يمكن أن يفعلوا مثل هذه الأمور». أفسحت سيليستيا المجال

لي لكي أجلس، وأردفت: «هل كانت هناك أية رموز منحوتة على العظمة؟» أومأتُ إيجابًا، فقالت: «إذن أشك في أن أميرًا شيطانيًا شيطاني أو ساحرة هي المسئولة عن ذلك. على الأرجح مَن فعل هذه الفعلة هو شخص أقرب كثيرًا من المورد».

شخص مثل الساحرة الأولى. حافظت على إيقاع أنفاسي مستقرًّا، إذ لم أرغب في لفت انتباه أي أحد إلى حالتي الانفعالية المضطربة. فإذا كانت سيليستيا هي نفسها الساحرة الأولى وابنتها قد لُعنت، فهذا يعني أن زوجة إبليس الأولى لم تمُت على أية حال. وإذا كانت حية بالفعل، فأنا كنت محقة قطعًا فيما يتعلق بقتل الساحرات على جزيرتي لسبب آخر.

سبب لا يمتُّ بصلة لبحث إبليس عن عروس.

بل كل ما له علاقة بالانتقام.

اقتحمت فاونا أفكاري التي كانت تذرع رأسي جيئة وذهابًا قائلة: «سيدة إيميليا، ألن نعود إلى القصر؟».

أجبتها: «بلى». ثم استدرت لأواجه سيدة اللعنات، وقلت: «لديَّ سؤال أخير فحسب. إنه عن شجرة اللعنة. لقد قيل لي إنها تمنح ما هو أكثر من الأمنيات، ألا وهو المعرفة. فكيف يمكن للمرء أن يظفر بالمعرفة، بدلًا من أن يحقق أمنية أو يحصل على تعويذة؟».

صوبت فاونا انتباهها نحوي كأنه سهم، لكنني تجاهلته. وعندئذ قطَّبت سيليستيا ما بين حاجبيها قائلة: «انقشي الاسم الحقيقي لمن تريدين معرفة المعلومات عنه على جذع الشجرة. ثم لتأخذي ورقة واحدة من الشجرة. ولكن فلتحذري وأنت تقومين بذلك؛ إذ إن الأوراق سهلة الكسر كالزجاج. وحينما ترغبين في معرفة الحقيقة، اكسري الورقة في وجود الشخص الذي نقشت اسمه».

أخذت أفكر في الساحرة الأولى، وفي الأساطير والخرافات التي كانت تُحكى لنا. فوجدت أن أيًا من تلك الأساطير لم يذكر اسم الساحرة الأولى.

فسألتها مجددًا: «ماذا لو أنني لم أكن متأكدة من اسم الشخص الحقيقي؟ تُرى هل سيَفِي لقبه بالغرض؟».

قالت: «إن للأسماء قوتها *الحقيقية*. أما الألقاب فهي *استعراض* للقوة. وهي تُمنح أو تُسلب وفقًا للأهواء، بينما الأسماء ليست كذلك». عندئذ ابتسمت سيليستيا ابتسامة أثارت أعصابي، ثم أضافت: «هل هناك شيء آخر *يا سيدتي*؟».

عبَّرت طريقة قولها لـ«يا سيدتي» عن مقصدها بدقة بليغة. فلم تكن «*سيدة*» سوى لقب شكليّ؛ شيء يُمنح ليس له معنى خارج هذا العالم. أما اسمي فهو شيء مختلف تمامًا. وباستثناء اسمي الأول، أنا سأكون أميرة أو سيدة رفيعة المقام هنا فحسب. أما على جزيرتي، فسأظل إيميليا ماريا دي كارلو ما دمت لم أتزوج. واسم عائلتي فقط هو الذي سيتغير بالزواج، أما اسمي الأول فلا يمكن أن يتغير مطلقًا.

أجبتها قائلة: «كلا، شكرًا لك. لقد كنتِ موردًا ثريًّا بالمعلومات».

الخامس والعشرون

وضعت كتابًا آخر على الأرض في رفق. كان الملاذ الآمن، أو بالأحرى الجنة مقارنة بجحيم راث في الأسفل، يبدو كما لو أن عاصفة هوجاء قد عاثت بأرففه الملونة بألوان الطيف فسادًا. أخذت مجلدًا عتيقًا آخر وتصفحته بحرص حفاظًا على صفحاته الواهية.

كانت جميع الكتب في هذه المكتبة مكتوبة باللغة اللاتينية؛ لذا فهمت معظم محتواها. ولكن حتى هذا لم يساعدني كثيرًا.

«الدماء والعظام».

كان هذا كتاب سحر آخر، لكنه سبَّب لي خيبة أمل جديدة. ذلك أنه لم يحتوِ على أي ذكر للساحرة الأولى، لكن هذا الأمر يمكن أن يرجع إلى عدم معرفتي باسمها الحقيقي. في باليرمو، كان راث قد قال شيئًا يشبه «الساحرة الأولى، كما تسمينها»، ما عنى أن هذا ليس الاسم الذي كان أمراء الجحيم يعرفونها به؛ لذلك إذا لم أستطع التوصل لشيء قريبًا، فسأضطر إلى سؤاله. وهو الأمر الذي كنت أفضل تجنبه لعدة أسباب. أولها هو أنه لو كان يعلم أن لا بريما هنا، وقد وفر لها ملجأ، إذن لأعاق جهودي في سبر أغوار هذا السر على الأرجح.

بحثت في الكتب عن سيليستيا، لكن لم يكن هناك أي خبر عن سيدة اللعنات والسموم، أيضًا. وسواء أكانت معالجة ملكية أم من تضطلع بدَسِ السموم، كنت أعتقد أنه لا بد من وجود كتب في البلاط تذكر شيئًا عنها. إما عن إنقاذها لأرواح، أو سلْبها من الأجساد التي تسكنها.

لكن لم يكن هناك أي شيء.

لم يكن لها أثر خارج غرفة البرج. وما كان ذلك سوى دليل آخر على أنها ربما كانت شخصا آخر غير الذي ادعته.

جلست على الأرض، وأطراف ردائي منبسطة حولي. كان رداءً جميلًا باللونين الأزرق الداكن والذهبي، وصديريته مُطَرزة بالزهور. كان أنيقًا يليق بسيدة تنتمي إلى البلاط الملكي الشيطاني، ومريحًا ما مكّنني من أن أمكث ساعات جاثيةً على ركبتيَّ في ركن مظلم في المكتبة، لأبحث عن إجابات عن أسئلتي.

تصفحتُ سجلًا رفيعًا بعض الشيء ومملوءًا بالملاحظات والمخططات. كان يتحدث عن الشياطين الذين جاءوا من مصادر غير طبيعية. لم يكونوا شياطين أقل عددًا، ولكنهم أقرب إلى بني البشر. فهذه المخلوقات تراوحت بين كونها بشرًا من حيث المظهر، وكونها مزيجًا بين عالم الطبيعة والبشر. وتوقفت عند إحدى الصور. كان شكل المخلوق بشريًا، لكن جلده كان عبارة عن لحاء شجرة، وذقنه ليس سوى طحالب، وأصابعه وأطرافه على شكل أغصان ذات أطوال وأقطار مختلفة.

كانت الصورة التالية لشاب ذي مجموعة ضخمة من قرون الأيائل. وأظهرت أخرى امرأة ذات أذنين مدببتين وقرنَي كبش التفا حتى وصلا إلى كتفيها.

أما الملاحظات، فقد تحدثت عن التعاويذ والرُّقى التي أخطأت مسارها، فحولت حياة البشر إلى جحيم. ذلك أنهم نُبذوا في عالمهم وطُردوا منه، فانتهى بهم المطاف إلى هنا، حيث يستطيعون أن يهيموا في العالم السفلي دون الخوف من الاضطهاد والملاحقة.

وطبقًا للكتاب، تشتت معظم هؤلاء عبر أنحاء المملكة، وانتهت بهم الحال في الأراضي الخالدة نحو الشمال الغربي، وسلسلة جبال شرقية تسمى الجبال عديمة الرحمة.

لفتت ملاحظة معينة انتباهي.

المخلوقات التي تعرضت لخوف بدائي غالبًا ما تكون متعطشة للدماء. إنها تسعى إلى الحياة، وليس هناك رمز للحياة أعظم من القلب.

قلت في نفسي: «يا له من شيء رائع!» لقد كان هؤلاء نسخة من مصاصي الدماء في هذا العالم.

وضعت ذاك السجل المصور جانبًا، وتصفحت كتاب السحر التالي، وأنا أرهف أذنيَّ لألتقط أي صوت يأتي من عند المدخل. لم يكن به سوى صفحات من الملاحظات الخاصة بالتعاويذ، والمعلقات السحرية، والرُّقَى. وضعت الكتاب فوق كومة الكتب العالية بجواري. ثم تزحزحتُ، وأسندتُ ظهري على الأرفف.

مهما حاولت أن أتوقف عن تخيُّل تلك المخلوقات، وهي تقيم مأدبة من القلوب، لم أستطع إبعاد صورة جسد أختي الممزق المشوه عن مخيلتي.

ذات ليلة في باليرمو، قال راث إن زوجة برايد قد انتُزِع قلبها من صدرها أيضًا. وذكر كذلك أن الساحرة الأولى استخدمت أفظع أنواع السحر الأسود لكي تسلب قوى ابنتها، لكن هذه الفعلة أسفرت عن عواقب لم يكن من الممكن التنبؤ بها.

ماذا لو لم يكن قلبها المفقود جزءًا من طقوس القتل؟ وماذا لو كان ذلك إحدى العواقب التي سبَّبتها لا بريما؟ ربما كان طريقة أيضًا لتحريرها من أية قيود بشرية. عندئذ تذكرت صورة مبهمة لنونا وهي تقول شيئًا مثل هذا. إذا كانت ابنة لا بريما لُعنت ولم تُقتل، فربما كانت هي الوحش الذي يجول في الأنحاء ينتزع قلوب الساحرات ويفترسهن.

ربما كان ما يحركها هو الرغبة في الانتقام من أمها، وذلك على حساب إنسانيتها التي ربما قد سُرقت منها عندما انتُزعت قواها منها. وإذا كان إبليس هو حبيبها الأبدي، فمن الجائز أن تكون قد فقدت صوابها، وقتلت أية عرائس محتملات سوف يأخذن مكانها.

أو لعل المسألة تكون بالبساطة التي زعمها السجل المصور - إذا لم تعُد تمتلك إنسانيتها، فلعلها اشتاقت إلى القلوب التي تمثل كل ما فقدته.

حدثت نفسي قائلة: «ربما هناك احتمالات شتى والقليل للغاية من الإجابات القاطعة».

وقفت وأرجعت كتفَيَّ إلى الخلف. والآن ما دمت بمفردي فإنني نويت أن أعود إلى سيدة اللعنات وأواجهها بشكوكي مباشرة. وإذا كانت هي الساحرة الأولى حقًّا، فلا أظن أنها ستلحق بي الأذى. ولا بد عن وجود سبب ما وراء إرسالها الجماجم المسحورة، لكن هذا السبب ليس تخويفي. ربما كانت يمكنها إخباري بالمزيد عن مرآة القمر الثلاثية، وتمنحني أية أفكار عن المكان الذي يمكنني أن أعثر عليها به، سواء هي أم مفتاح الإغواء.

تلمَّست الغمد الخفي المثبَّت على فخذي. فإذا حاولتْ أن تؤذيني، فهيهات أن أستسلم دون قتال.

جعلني التلهف أقف خارج غرفة البرج التي تسكنها سيدة اللعنات خلال ما بدا كأنه مجرد لحظات عابرة. ولكن خيبة الأمل جعلتني أعض على شفتيَّ، بينما رحت أجذب الورقة التي كانت معلقة على الباب، وأقرأ الرسالة التي كُتبت على عَجل.

ذهبت من أجل تحضير تعويذة

كان من المستحيل الجزم بما إذا كانت تمني ما كتبته حرفيًا أو ضمنيًا. وما إذا كانت ستعود في غضون بضع دقائق، أو أنها ذهبت للبحث عن تعويذة. لم يكن ثمة ما يشير إلى المدة التي يمكن أن يستغرقها ذلك، لكن من الصعب عودتها قريبًا؛ لذا أخذت أتجول خارج البرج حتى بدأت الثلوج تتساقط، وأجبرتني على العودة إلى القصر.

لم أكن قد سرت سوى خطوتين في الدهليز المؤدي إلى جناحي حتى سرت في جسدي قشعريرة الإدراك المفاجئ. وكان راث متكئًا على باب جناحي ونظره مثبت على وجهي. ازدردت غصة الـ... أيًا كان الشعور الذي انتابني حينها، وقطبتُ حاجبي كما فعل هو مرات لا تُحصى من قبل. فأنا لم أكن رأيته أو تحدثت معه منذ آخر جلسة للتدريب. وزيارته لم تكن محل ترحيب على الإطلاق.

توقفت بعيدًا عنه، وتساءلت: «كيف يمكنني مساعدتك؟».

قال: «أتيت إلى هنا لأطرح عليك السؤال نفسه».

لم يوضح أكثر، وأنا لم أكن في مزاج يشجع على ممارسة أي لعبة *فلتسأل راث ألف سؤال، ولتحصل على إجابات محبطة*. تحركت نحو باب جناحي، وأنا أتوقع أن يتنحى راث جانبًا، لكنني تنهدتُ بعمق عندما لم يتزحزح من مكانه. فعقدت ذراعيَّ وانتظرت.

سواء من منطلق الشعور بإصراري، أم محاولة إعادة رسم خطة معركته بعيدة المدى، غيَّر راث خطته قصيرة المدى، وقال: «إن المكتبة في حالة عارمة من الفوضى».

قلت: «إنك تبالغ بعض الشيء. ثمة القليل من أكوام الكتب المبعثرة في قسم واحد منها، وأنا سأرتب كل شيء هذا المساء».

- «أنت تبحثين عن معلومات عن الساحرة الأولى».

- «إنني مهتمة بمعرفة تاريخي، وهي جزء منه».

عندئذ اكفهر وجهه. لم يكن يرعد ويبرق، ولكنه أنذر بالعاصفة لا محالة، بينما قال: «كاذبة».

رددت قائلة: «إن ما أبحث عنه ليس من شأنك».

قال: «بل كل ما يدور داخل هذه القلعة من شأني، وخاصة أنت».

- «أنا لا أتدخل في خطتك؛ لذا أتوقع المعاملة نفسها منك».

- «حتى إن جئت لتقديم المساعدة؟».

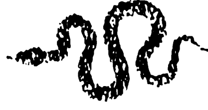
- «بعد درسنا الأخير، أحسست بأنك تريد أن أتولى شئوني بنفسي من الآن فصاعدًا. وأعني ذلك حرفيًا».

انصرف انتباه راث بعيدًا، وبدا كما لو كان يعيد في مخيلته عرض لقائنا في قاعة الأسلحة، وهو يشجعني على التودد إليه قبل أن يصدني. وعندما أعاد نظره نحوي، لم تكن هناك أية لمحة من المشاعر التي كانت تشغله من فوره. كان شاردًا وبارد الشعور. فشعرت بأن جدارًا يعلو بيننا شيئًا فشيئًا، ولم أستطع أن أحدِّد ما إذا كان الذي داخلي هو الارتياح أم شعورًا آخر.

قال: «إننا سنغادر إلى بيت جلاتوني بعد ثلاث ليالٍ. فلترسلي إليَّ إن أردت أن تتدربي قبل هذا الوقت».

التفت ليغادر لكنني هتفت: «حسنًا، فلتقابلني في قاعة الأسلحة عند منتصف الليل. سأحصل على درس واحد أخير قبل بدء الألعاب الحقيقية».

فليلعنني إبليس!



وصلت إلى قاعة الأسلحة قبل موعدنا بنحو نصف الساعة. وكنت أريد أن أمهِّد الأجواء لدرسنا، ومع كل لحظة تمر كانت دقات قلبي تتسارع. لمحت انعكاسي على درع لامعة معلقة على الحائط، فاطمأننتُ إلى أنني ما زلت أبدو متماسكة من الخارج، بغض النظر عن الفوضى التي كانت تعصف بأعماقي.

حاولت أن أنفُض القلق والتوتر عن كاهلي، وتحركت إلى وسط القاعة.

عند منتصف الليل بالضبط، خطا راث إلى داخل القاعة وتوقف بالقرب من الباب الذي انغلق محدثًا صليلًا ذكَّرني بصوت سيف يُستل من غمده. وكان صوتًا ملائمًا للمعركة التي كانت على وشك أن تنشب بيننا.

تأمل راث في ردائي - كان عبارة عن صدرية سوداء تكشف عن كتفيَّ، ومطرزة بأزهار ونباتات من الخرز، وتنورة رقيقة ذهبية داكنة مفتوحة من ناحية واحدة إلى ما بعد ركبتي بقليل.

توقف نظره عند حذائي. وكان الحذاء مصممًا خصيصًا لهذا الثوب، وكنت متأكدة إلى حد بعيد من أن الأمير الشيطاني سيُعجب به مثلي تمامًا.

كان حذاء عالي الكعبين ذا أفعى سوداء لامعة تلتف حول ساقي من كاحلي وحتى فخذي. وامتد لسان الأفعى لكنه كان شبه مختف أسفل ثوبي.

إذا كان راث يريد أن يراه كله، فلا بد من إزاحة الثوب. لقد كان الحذاء مستلهمًا بعض الشيء من التمثال المنتصب في الحديقة.

قال راث: «سوف نتدرب الليلة على...»

قاطعته قائلة: «سنتدرب على الكِبر». ثم ابتسمتُ حينما لاحظت أن ملوِّن شفتَي الأحمر الغامق جذب انتباهه. درت في بطء في مكاني، وأنا أقول: «لقد صممت ذلك من أجل درسنا وأنا سعيدة بالنتيجة. إنها المرة الأولى التي أبتكر فيها شيئًا من خيالي من أوله لآخره».

قال راث: «إنه جميل».

قلت: «أعلم». وطرفت بعيني فضحك راث ضحكة مكتومة، ثم أردفت: «إنه مثالي».

- «أرى أن غرورك في ذروته بالفعل ما يجعلك في أتم الاستعداد للدرس».

عندئذ لمعت عيناه بوميض خبيث يوحي بالخطر بينما استطرد: «فلنبدأ إذن».

- «فلترني أسوأ ما لديك يا صاحب السمو، فأنا على أُهبة الاستعداد».

في هذه المرة كان سحره مثل الخرزة الصغيرة التي تتدحرج بين كتفَي، وتتزلق على ظهري فتغمرني بشعور سار. كدتُ أستسلم لهذا الشعور، لكنني تذكرت في اللحظة الأخيرة أن أطرحه بعيدًا، وأن أركز انتباهي على بناء حائل بين التأثير الشيطاني وبيني.

استنشقتُ نفَسًا عميقًا، وامتلأ صدري بالزهو والفخر. ذلك أنني كنت أقاوم سحر راث، دون أي قدر من الجهد. لا شك أن مقاومة الكِبر كانت أسهل اختبار خُضته حتى الآن.

رميتُ راث بنظرة تفيض غرورًا، حيث كان واقفًا، ونصفه يقبع في الظلال. لم يتقدم ولو خطوة واحدة إلى داخل الغرفة، بل ظل بجوار الباب، يبدو مستعدًا للفرار. إذن فقد حان الوقت ليشعر بالاضطراب. فكلما كان موجودًا بالقرب مني في الفترة الأخيرة كنت أشعر كما لو أن عالمي قد انحرف عن محوره بصورة جنونية.

قلت: «سيتحتم عليك أن تحاول بقوة أكبر. فلقد صرت ماهرة للغاية في مقاومتك».

قال والاستمتاع يلمع في عينيه: «أحقًا؟ تبدين كما لو كنت مغرورة بعض الشيء».

هززت كتفيَّ دونما اكتراث قائلة: «ليست مسألة غرور، وإنما صدق. لقد كنت معلمًا مقبولًا بما فيه الكفاية، لكن ها هي التلميذة تفوقت على أستاذها.

أنا أتقبل رغباتي وأرحِّب بتحدياتي. ويراودني خوف عابر من الخسارة؛ لذا أعتقد أن إخوتك يجب أن يقلقوا».

- «أهكذا إذن؟».

- «أجل بالطبع. ليس هناك ما هو أخطر من امرأة تمتلك مصيرها بين يديها، وليست مضطرة إلى الاعتذار لكائن من كان». عندئذ رمقته بنظرة خاطفة، ثم أردفت: «أعتقد أنني قوية؛ لذلك فأنا قوية بالفعل. أليس هذا هو المبدأ الذي تحيا به؟ حسنًا، أنا أعلم يقينًا أنني قوية. وأعلم أن القوة تنبع من مصادر عدة، وأنا أتمتع الآن بالعديد من الأسلحة في ترسانتي يا صاحب السمو. في الواقع، بإمكاني أن أمتلكك الآن إن أردت. وحينها ستصبح عاجزًا على غير العادة».

- «يا لك من متعجرفة مغرورة. وإن صورة الذات لديكِ متضخمة للغاية».

قال راث ذلك وهو يعد تلك الصفات على أصابعه، ثم استطرد: «أنت محقة، فلا يبدو أنك تحت تأثير الكِبر والغرور مطلقًا».

- «أتعلم ما الذي أعتقده أيضًا؟ أعتقد أنك ترغب في قرارة نفسك أن تكون ملكًا لي. على الأقل في ... جوانب معينة».

سرتُ بخطوات ثابتة متمهلة في تمايل عبر القاعة. فانزاحت تنورتي على الجانبين كاشفة عن الأفعى الملتفة حول ساقي.

إذا كان راث يريد درسًا، فسألقنه واحدًا لن ينساه طيلة حياته.

دفعته نحو الحائط، وابتسمت بينما مررت إصبعي على صدره. يا له من شيطان مخادع، فقد كانت مشاعره قد تحركت نحوي بالفعل. نظرت إلى عينيه مباشرة لأستشف رد فعله بينما تماديتُ في التلاعب بعواطفه.

حينئذ تلاشى السحر الشيطاني الذي كان يسلّطه عليَّ، كما توقعت تمامًا. لقد كشفت طباع راث عن نفسها في طيّات الدروس، وأنا كنت أراقبه من كثب، وأتعلم كل ما يمكنني تعلمه حتى حينما كنت عاجزة عن مقاومة تأثيره. ولقد لاحظت أنه لم يستخدم السحر قط عندما كانت الأجواء تصير رومانسية بيننا.

قال: «إيميليا».

كان توسلًا أكثر منه تحذيرًا. والآن، ما دام تأثيره قد زال، فقد حان الوقت ليبدأ درسنا. واصلتُ إغواءه، وكان هو ممزقًا بين الاستسلام لمشاعره والحفاظ على سلوكه المهذب. وفجأة تراءت أمامي رؤيا تكاد تكون حقيقية، إلى حد التحير بين الواقع والخيال. وللحظة عابرة، صرت في مكانين في الوقت ذاته.

كان ثمة أنغام خافتة تنساب من الكمان والبيانو، صوتها يتردد عبر الجدران. وكنا قد تسللنا معًا بعيدًا عن أصوات حفل صاخب قادمة من الدهليز. وكانت الظلال تخفي راث عن ناظريَّ، لكنه سرعان ما وجدني، وتدفقت مشاعرنا نحن الاثنين دونما اعتراض منه.

وعلى حين غرة، ناداني راث، فأعادني إلى الحاضر مرة أخرى. ولم تراودني رؤيا كتلك قط، ولم أجد تفسيرًا لها. وكان ثمة شيء بها يختلف عن سحر هذا العالم.

لقد بدت كأنها ذكرى.

لمس راث وجنتي في رفق، وقال بصوت هادئ: «إيميليا...»

قلت «أنا ...»

خطوت مبتعدة عنه، مانحة كلينا مسافة كنا في أمس الحاجة إليها، وأخذت أفكر في كلماتي التالية بعناية. وكنت أشعر كأن الواقع يتفلّت من بين أناملي. وحينها تسلل القلق إلى ملامحه؛ لذا بذلت قصارى جهدي لأستعيد شعور الزهو والكِبر ذاك مجددًا، ولأطوّعه لصالحي.

نظرت إلى راث فوجدته لم يعد يشعر بأي انجذاب نحوي. فمن الواضح أنه لاحظ تشتتي وارتباكي.

ابتسمت إليه قائلة: «يبدو أن درسنا قد انتهى».

وقبل أن ينزلق قناعي، استدرت على عقبيَّ، وانطلقت خارجةً من الغرفة. كان شيئًا غريبًا يحدث، ويبدو أنه يحدث كلما كنا أنا وراث في لحظات رومانسية.

إذا كان ما يراودني مجرد ذكريات، وليست أوهامًا من نسج هذا العالم ... فمعنى ذلك أنني ربما اكتشفت سرًّا آخر من أسرار راث، غير أنني لم أعلم كيف كان أيٌّ من ذلك ممكنًا.

لكنني كنت عازمة على اكتشاف حقيقة الأمر.

السادس والعشرون

تساقطت ندف الثلج كأنها تلهو في خُبث خارج نافذتي،

وراح الصقيع يزحف متراكمًا على ألواح الزجاج، وكأنه نباتات الشتاء المعترشة. جلست على عتبة النافذة العريضة أتأمل ذاك العالم المكسو بالثلوج التي ما برحت تتساقط. وكان الليل يهبط سريعًا، ناشرًا ظلاله الزرقاء القاتمة على كل ما يحيط بي. وها قد جاء ومضى يومان منذ رأيت أمير هذه الحلقة للمرة الأخيرة. لقد كنت أتجنبه بعد تلك الرؤيا، إذ كنت غير واثقة مما إذا كانت ذكرى أم وهمًا. لا بد أنها كانت تجربة من اختلاق هذا العالم، لكنها بدت حقيقية إلى درجة تجعل التخلص من أثرها صعبًا.

لم تكن سيدة اللعنات والسموم قد عادت بعد، وأنا لم أُرد أن أُسر إلى أي أحد بما رأيته وشعرت به. كنت آمل أن تتمكن من صنع شراب غازي سحري، أو أن تعلم أي سحر يحرر أسر الحقيقية داخل أعماقي.

إذا كانت الرؤيا مجرد ذكرى، فهذا يعني أنني جئت إلى هذا العالم من قبل. وراث وأنا ... لم أستطع أن أدرك كيف تظاهر في باليرمو بعدم معرفتي. فقد مرت عليّ لحظات هناك تعجبتُ فيها من معرفته تفصيلات لم أبُح بها مطلقًا. مثل مكان إقامتي واسمي. وكنت قد أرحتُ نفسي باعتقاد أن الأمر

له علاقة بما ظننتُ أنها تعويذة انبعاثه - ففي تلك الليلة التي هاجمتنا فيها الحيَّات، اخترق كل منا أعماق عقل الآخر لحظات معدودة.

تُرى أكان هذا ما يحدث في الوقت الحاضر؟ من الجائز أنني كنت أرى ذكرياته، وأشاهده بصحبة رفيقة أخرى. ربما كنت أرى العالم من خلال عينيها، وأعيش ذكرياتها مرة أخرى. أنا أعلم جيدًا أن الشياطين يستطيعون أن يمتلكوا الناس، لكنني لم أسمع قط عن ساحرة تفعل الشيء نفسه. ولكن عند هذا الحد الذي وصلت إليه، لم يعد ثمة شيء يثير دهشتي.

كنت قد قضيت معظم اليومين الأخيرين في محاولة اكتشاف كل المعاني التي يمكنني التوصل إليها. ولم أستبعد أية نظرية باعتبار أنها سخيفة، ودونتُ كل فكرة راودتني؛ بدءًا من التفكير في احتمال أن يكون راث هو نفسه برايد، إلى اعتبار أنني الساحرة الأولى، وقد لُعنتُ بالنسيان عقابًا على ما اقترفته يداي.

بعد برهة، شرعت التفاصيل في التشوش والاختفاء من مخيلتي ما أثار حيرتي على نحو أكبر. فلم أستطع تذكُّر ما إذا كنت قد رأيت وجه راث حقًّا، أم أن ذلك كان مجرد خداع.

تذكرت أن الغرفة كانت مظلمة أثناء الرؤيا، وأن الأصوات نبعت من حفل بعيد، لكنني لم أستطع تذكُّر صوت حبيبي. وما إذا كان مرتفعًا أم همهمة فحسب. وماذا لو لم يكن راث هو نفسه مَن كان بصحبتي في الرؤيا

تنهدتُ فرسمت أنفاسي غيمات على زجاج النافذة. ذلك أن الوضع تعقَّد ولم يُحل. وعندما أصل إلى الحفل الليلة ربما أتعرف على الحبيب بناءً على تلك الذكرى. وإذا رقصنا معًا، فهل سيحرر ذلك الذكريات الخفية العميقة؟

هبطت عن حافة النافذة، وألقيت نظرة على الملاحظات التي استنتجتها من حديث الجمجمتين المسحورتين. *الماضي، الحاضر، المستقبل، فلتكتشفي الحقيقة*. وكنت قد تصورت أن هذه الكلمات تلمّح إلى مرآة القمر الثلاثية التي كان إنفي يبحث عنها. لكنني شككت الآن فيما إذا كانت توحي بما هو أكثر من هذا.

هل كانت تلك الرؤى جزءًا من الماضي الذي عشته، أم من مستقبلي؟ وإذا كانت صورًا من المستقبل، فلعلها ذات صلة بالنبوءة؛ أي الجزء الذي يمكن أن أصحح من خلاله خطأ فادحًا.

حينما كنت تحت تأثير لاست، راودني هذا الانطباع بالاختيار والتوازن. بأنني قادرة على لعن الجميع، أو إعادة شيء ما إلى نصابه التسليم، لكن ترى ما هذا الشيء؟

أخذت أعود بالذاكرة إلى عروس إبليس الذبيحة. هل يمكن أن يكون الوقوع في الحب هو مفتاح التخلص من اللعنة؟ من السطح بدا الأمر سهلًا، لكنه لم يكن كذلك في جوهره. وسيتحتم عليَّ أن أتيَّم بحب برايد. ولكي أحقق ذلك، سيكون عليَّ أن أفسخ خطبتي من راث من أجل المصلحة.

حدثت نفسي: «فلتساعدني الإلهة، فسيكون هذا كارثة».

إن برايد سيحضر الحفل. وإذا كان هو الحبيب الغامض في رؤياي، وإذا كانت الرؤيا جزءًا من الماضي لا المستقبل، فمن الجائز جدًا ألا يستطيع أي منا إنكار الرباط القوي بيننا، وهذا ما أخافني.

إذا كان ما رأيته هو الماضي - فإنه يعني أنني كنت زوجة برايد بالفعل. وربما لفك اللعنة سيكون عليَّ أن أحبه مجددًا منذ البداية، دون أية ذكريات بيننا.

إنها نظرية عجيبة للغاية، لكنها يمكن أن تكون صحيحة. وربما يكون ذاك هو السبب الحقيقي وراء عدم دعوة برايد إليَّ للذهاب بي إلى حلقته. ولعل المسألة أعمق من خطبتي العرَضية من راث.

دون معرفة ما فعلته، ربما أكون قد كسرت قلب برايد، ولعنتهم جميعًا بسبب اختيار الأخ الخطأ. وسيفسر ذلك أيضًا كراهية راث عندما استدعيته في المرة الأولى، وطلب أن أعكس التعويذة قبل أن يفوت الأوان.

أيقظتني طرقات على الباب الخارجي من أحلام يقظتي، فقلت: «ادخل».

انحنت هارلو سريعًا في أدب، ثم رفعت حقيبة ثوب إلى الأعلى قائلة: «سينتهي الإسكافي من حذائك قريبًا. فهل ترغبين في أن أجهز الثوب من أجلك؟».

أجبتها: «أجل. من فضلك».

في خضم كل همومي وأفكاري، فقدتُ الإحساس بالوقت تمامًا. سيكون علينا أن نسافر إلى بيت جلاتوني خلال ساعة. وكان هذا المساء هو بداية الليلة الأولى من ثلاث ليالٍ مخصصة لعيد الذئب، الحدث الذي كنت أفضّل أن أتجنبه لولا المعلومات التي كان يُحتمل أن أجمعها هناك. لكن مجرد التفكير في انتزاع أكبر مخاوفي هناك جعل دقات قلبي تتسارع ثلاثة أضعاف وتيرتها.

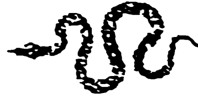
في البداية قلقت من أن يتمثل خوفي الأكبر في انكشاف مهمة انتقامي السرية. والآن يمكن أن يكون خوفي متعلقًا بالمخلوق النائح أسفل التمثال، أو هلاك عائلتي على أيدي أعدائنا، أو عدم عودة قواي السحرية إلى الأبد، أو احتمال سرقة ذكرياتي مني كذلك، وأن تكون الحياة التي أحياها ليست سوى كذبة.

ظل الخوف الأكبر من بين كل تلك المخاوف يحوم كطائر مشئوم ينذر بالموت والهلاك.

لم أستطع التوقف عن التفكير في أنني كنت عروس إبليس، وأنني لم أُقتل - وإنما لُعنت بالنسيان. تبللت راحتا يديّ من أثر التوتر. لكن لا يمكن أن يكون ذلك الخاطر صحيحًا.

ومع ذلك، ظل هذا الهاجس يسيطر عليّ طيلة الوقت الذي كنت أستعد فيه لحفل الليلة الاستهلالي. وسواء أكان صحيحًا أم لا، إن لم أستطع أن أدفن الخوف داخلي، فسينكشف لكل أعدائي ورعاياهم. ولن يكون الموقف مخزيًا فحسب، بل سيدل على أنني لم أترك الماضي وراء ظهري حينما بعث روحي، وأنني كنت أخطط بحماس لتدمير أحدهم.

إذا كان الأمراء الشيطانيون يشكون من قبل في دوافعي للقدوم إلى هنا، فستتأكد أفكارهم. وأنا لم أكن أرغب في معرفة ما ينوون فعله من أجل الأخذ بثأرهم.



هبطتُ الدرَج، منتصبة الظهر ومرفوعة الرأس. كنت أتوقع رؤية فاونا وأنير، لكن الأمير راث كان منتظرًا، في كامل أناقته، وتركيزه مثبت عليَّ. لم أختر أن أرتدي ثوبًا بلون بيته الرسمي المميز. ومع ذلك لم يبدُ منزعجًا من ردائي المخملي الأحمر، ولا من التصاقه بانحناءات جسمي قبل أن ينسدل حول قدمي.

في الواقع كدتُ أتعثر بينما كنت أهبط عندما لاحظت لون قميصه. كان لون التوت الأحمر القاني يطل من بين طبقات معطفه الأسود وسُترته السوداء ذات الذيل الطويل. لا بد أن هارلو أو الخياطة قد منحته معلومات عن الزي الذي سأرتديه.

وصلت إلى الدرجة السفلى، ووقفت على مهل. كان حذائي على هيئة الأفعى كالذي ارتديته منذ بضع ليالٍ، لكنه كان ذهبيًا داكنًا هذه المرة بدلًا من اللون الأسود. وكان هذا هو التكريم الوحيد الذي قدمته إلى بيت الخطيئة الذي كنت أعيش بين جنباته. وبغض النظر عن صحة أي من نظرياتي، ففي ظل هذا الواقع، وهذه الصورة من ذاتي، شعرت بالارتياح في هذا المكان. فلم تكن ثمة فائدة من إنكار توافقي مع خطيئة الغضب أكثر من أية خطيئة أخرى.

بادرته الحديث قائلة: «حسنًا، كيف أبدو؟».

اكفهرت نظرة راث منذرة بوعد آثم، بينما قال: «أشك في عدم معرفتكِ الإجابة».

قلت: «لكنني أريد أن أسمع ثناءك».

- «إنك تبدين تجسيداً حيًّا للمتاعب».

- «يا له من ثناء عظيم من أحد الأشرار». تجولت ببصري عبر البهو الفارغ. وخيم الصمت بيننا، ما ساعد على تفاقم توتري. وكلما حاولت أن أبعد نظرياتي عن رأسي، ازدادت سيطرتها على مخيلتي، لكنني أردفت: «أين فاونا وأنيرا؟».

- «لعلهما وصلا إلى بيت جلاتوني الآن».

- «من سينضم إلينا أيضًا؟».

- «لا أحد». قال ذلك، ثم بسط ذراعه نحوي، وتساءلت إذا كان يعلم أنه يجسّد المتاعب بالمثل، بل الإغواء أيضًا. لكن إذا كان برايد هو بطل رؤياي، فلربما يصبح راث أيضًا مجرد ذكرى جميلة قبل انقضاء هذه الليلة. انقبض قلبي لهذه الفكرة. وحينئذ استطرد راث: «سنستقل عربتي الليلة؛ إذ من الوقاحة أن نصل إلى الحفل عن طريق سحر التخطي».

تأبطتُ ذراعه الممدودة لي، ومضينا في طريقنا إلى الخارج عبر الأبواب المزدوجة.

في الخارج كانت العربة تنتظرنا، وعلى سقفها بعض الثلوج التي بدت كالسكر المطحون. كانت أحلك من الليل، وبها نقاط ذهبية. لم يكن ثمة سائق إنما الخيول فحسب.

تساءلت: «هل أنت من سيقود العربة؟».

أجابني: «كلا، قوتي هي التي ستوجهها».

- «هل سحر التخطي وقح، لكن تسيير العربة بقوة السحر ليس كذلك؟» أومأتُ برأسي متعجبة، وتابعت: «حتى لو عشت ألف عام، فلن أفهم تلك الآداب الشيطانية السخيفة».

صهلت الجياد الأربعة فاحمة السواد، فقد كانت أعينها الحمراء هي العلامة الوحيدة على أنها ليست كجياد عالم البشر. شرع راث يتفحص ألجِستها، وانزعج قليلًا عندما عضه واحد من خيول الجحيم.

أخذت نفَسًا سريعًا. لقد كنت مخطئة؛ إن أعينها لم تكن الشيء الوحيد المختلف فيها. ذلك أن أسنانها البراقة المعدنية بينت أنها أكثر ضراوة من الخيول العادية. عندئذ أقدم جواد الجحيم على عض راث مجددًا، وبإصرار أشد.

قال راث: «فلتهدأ يا مَوت».

قلت: «فلتمنحيني القوة أيتها الإلهة». ثم نظرت إلى الأحصنة الثلاثة الأخرى، وأضفت: «لعل أسماء الجياد الثلاثة الأخرى هي مجاعة، ووباء، وحرب». أكدت ابتسامة راث ذلك بينما نظر نحوي ورأسه يميل على كتفه، فأردفت: «لا أستطيع أن أصدق أنك أسميتها تلك الأسماء، ومع ذلك فلا يوجد ما هو غريب في هذا المكان».

سار راث إلى حيث كنت منتظرة على مهل، ثم ساعدني على ركوب العربة، وهو يقول: «ربما يوجد ما هو أعمق بكثير من مجرد حملها لهذه الأسماء».

استقر راث على المقعد المخملي أمامي، وعلى وجهه تعبير متعجرف، بينما تجاهلت المعلومة التي ذكرها من فوره. وبرقة خاطفة على السقف، انطلقنا في طريقنا.

أحدثت العجلات ضجيجًا بينما ارتطمت بأحجار الطريق، لكن الصوت والشعور بالارتجاج خف بفضل المقعد الوثير والسجاجيد المخملية السميكة. لم أستقل في حياتي عربة بمثل تلك الرفاهية والفخامة. فقبل رحلتي مع المبعوثة، كان أقرب ما جربته في السفر هو عربة قديمة يجرها حصان واحد.

عندئذ قطّبتُ حاجبيّ. ما كان يمكن أن يكون ذلك صحيحًا فبعد النزول من إحدى السفن، كان علينا أن نسافر بالعربة لزيارة صديقة نونا في شمال إيطاليا. لكنني لم أستطع أن أتذكر بالضبط كيف وصلنا إلى هناك.

قال راث وهو يتفرس وجهي: «يبدو أنك تحاولين حل لغز معقد».

رفعت كتفي قائلة: «أعتقد أن أعصابي متوترة».

سألني: «بسبب الخوف الذي سيُكشف في الحفل؟».

- «الخوف، وهذه المحنة برُمتها. مقابلة بقية إخوتك، والرقص».

ظل راث صامتًا برهة، فاعتقدت أنه لم يكن يتوقع هذه الصراحة، وأنه لا يعرف ما يجب عليه قوله. وأخيرًا، مال نحو الأمام قائلًا: «لن يصيبك أي مكروه، لن أسمح بذلك».

قلت: «ربما يكون إخوتك هم الذين يجب أن تقلق حيالهم».

- «إذا كانوا من الغباء بالقدر الذي يجعلهم يثيرون حنقك، فإنهم يستحقون أن يكتووا بنيران حماقتهم».

بادرته بابتسامة قائلة: «وأنت ما زلت تغمس الكبريت في الوقود طيلة الوقت».

- «إن الغضب والحنق هما الخطيئتان اللتان اخترتهما. حقًّا إن طبعك يعجبني».

بعد مرور بعض الوقت في صعود وهبوط عدد من القمم الجبلية، توقفت عربتنا فجأة. نظر راث إلى الخارج، ومرة أخرى اكتسى وجهه بذاك القناع البارد القاسي.

قال راث: «ها قد وصلنا»، مد يده نحو المقبض لكنه توقف. كانت عضلاته مشدودة خلف حُلته الأنيقة المُحكَمة على جسده. هز رأسه مرة واحدة واستطرد: «إذا وجدت أنك في حاجة إلى شريك، فسأرقص معك».

قبل أن أتمكن من الرد، كان قد فتح باب العربة، ومضى خارجًا منها. بدت يده من وسط الظلال وهي ممتدة في انتظاري. منحتُ نفسي لحظات لأستجمع ذاتي؛ فأنا لم أكذب على راث حيال سبب توتري، لكنني لم أبُح بكل الأسباب التي تقف وراء خفقان قلبي. كانت فرصة التحدث مع جميع أمراء الجحيم على وشك أن تُتاح لي، ويُرجح أن واحدًا منهم هو من خطط لمقتل شقيقتي.

وخلال الأيام القليلة التالية كنت إما سأربح وإما سأخسر الكثير. وإذا كان قاتل أختي هنا، ما كنت لأجزم بما إذا كان سيحاول انتزاع قلبي من بين أضلعي أنا الأخرى.

وإذا اضطررتُ إلى خوض معركة دفاعًا عن حياتي، فعلى الأقل سيكون راث بجانبي.

أحكم أصابعه حول أصابعي بينما ترَجلتُ من العربة، وتوجهت نحو بيت جلاتوني، الذي كان هائل الحجم وذا تصميم متميز. يبدو مزيجًا من الشرفات الرومانية المفتوحة ذات النوافذ العالية المقوسة، وأبراج العصور الوسطى. وقد بُني على سفح جبل منحدر، فبدا منبثقًا من قلب إحدى الحكايات القوطية الخيالية.

قال راث وهو يرافقني بينما صعدنا عدة درجات وتوقفنا مباشرة خارج مدخل القلعة الضخم: «فلتستعدي، إن فجور أخي لا حدود له».

لم تسعفني الكلمات بينما سرنا إلى داخل بيت جلاتوني. لم يُخف أمير هذه الحلقة - أمير الشراهة - الخطيئة أو الرذيلة التي يُنَصَّب أميرًا عليها.

فور دخولنا بهو الاستقبال الفسيح، حُيينا بأكثر مشهد مُشين رأيته يومًا.

كان ثمة طاولة بحجم أربع أسِّرة ضخمة تجبر الضيوف الراغبين في دخول القلعة على الالتفاف حولها. ولم تكن الطاولة مغطاة بالطعام والشراب، وإنما بالعشاق، وفي أوضاع فاضحة بدائية لم تمر بخيالي ذات يوم، ولم يكن بين هؤلاء أية مشاعر وإنما الشهوة الحيوانية فحسب. عندئذ تدفقت الدماء في وجهي الذي احمر خجلًا مما شاهدته حينها.

قال راث بصوت خشيض جعلني أرتعد: «إن أخي يستمتع بصدمة الضيوف فور وصولهم. ورعاياه يكونون في قمة السعادة للمشاركة في رذائله المفضلة. فالعشاق هنا يرغبون في أن يراهم الآخرون، وينغمسون في الشهوات مثلهم، لكن الوضع لن يظل هكذا في البيت كله».

لم تفلح يد راث التي ربتت ظهري في تحريك قدميَّ المغروزتين في مكانهما، إذ تساءلت: «هل تأثير جلاتوني سيجعلني أفعل مثلهم؟ أمام أعين الجميع؟».

قال راث وهو يتتبع نظرتي، وعلى وجهه تعبير غامض: «كلا».

تفحصت وجه الشيطان الواقف بجواري دون أن ألفت نظره فوجدته غير متأثر تمامًا بكل المناظر المُخزية المحيطة بنا. ربما كان ينظر إلى الأثاث، لكن ذلك لم يكن يحتاج سوى نظرة عابرة. أما أنا فأشحت بوجهي بعيدًا في اشمئزاز.

قلت له: «كيف يمكنك أن تكون متأكدًا؟ لقد نجح لاست في التأثير عليَّ. وكذلك إنفي. أنا على يقين بأن أخاك قادر على جعلي أفعل ما يرضيه، أيًا كان، مع الشخص الذي يريده. ربما لم تكن دروسنا كافية. لعل...»

رد راث: «فلتلتقطي أنفاسك. لن يمسك أحد بسوء ما دمنا هنا يا إيميليا. سيكون ذلك بمنزلة إعلان حرب، ونحن مجتمعون هنا جميعًا بناءً على السلام المؤقت بيننا. أنت تنتمين إلى بيت راث. وإذا نسوا ذلك فسيكون من دواعي سروري أن أذكّرهم».

كانت نظرة واحدة على ملامحه القاسية كفيلة بالتيقن من وعده. لم يراودني شك في أن هذا الأمير سيردع من يمد يده لإيذائي ويمزقه إربًا. كنت راغبة في تلك القوة. أردتُ أن أحصل على الأمان بيدَي أنا وكدت أقسم أنني فعلت ذلك ذات مرة. ربما هذا هو سبب حقدي عندما قابلتُ إنفي للمرة الأولى وسلّط قواه ضدي. لقد كنت متلهفة على القوة لكي أحمي نفسي وأحبَّتي.

تحوَّل انتباهي مجددًا نحو المناظر المشينة. وكان جلاتوني يريد أن يصدم ضيوفه، ويثير أعصابهم. لكن معظم هؤلاء الضيوف كانوا من هذه المملكة، ومن المرجح أن يكونوا قد شاهدوا الكثير من هذا الفجور. كلا، لم يكن هذا المشهد موجهًا إلى جميع ضيوفه. لقد كان يقصدني أنا تحديدًا. ولكي ينال من عزيمة الضيفة البشرية قبل أن تدخل قاعة الرقص بوقت طويل.

وها هو كاد ينجح.

فمهما حاولت التخلص من تجاوز ما رأيته من فوري، كانت طريقة التفكير البشرية التي تراهم آثمين لا تفتأ تتسلل داخلي. وظلت مشاعر الصدمة

والخجل تحاصرني، فضلًا عن الخوف من الفضيحة ونقًا للمنظور البشري. وقبل كل شيء، كنت قلقة مما سيعتقده الآخرون.

كفى. لقد اكتفيتُ من الوقوع فريسة لمخاوفي القديمة. فتقدمت نحو الطاولة، وغمست إصبعي في صحن من القشدة المخفوقة، ثم التفتُ نحو راث ببطء ولعقت القشدة. لم يكن تعبيره ينُم الآن عن الضجر أو عدم الاكتراث. بل تتبع كل حركة أقوم بها كما لو كان يسجلها في ذاكرته.

عندئذ ظهر نادل، يحمل صينية عليها كئوس شراب رفيعة.

ابتسمت لراث ابتسامة عابرة ماكرة، وتناولتُ كأسًا من شراب التوت الشيطاني البرّاق بينما قلت له: «في نخب الفضائح».

دون أن أنتظر رده، درتُ على عقبَي ومررت بجوار طاولة العشاق.

عندما دخلت قاعة الاحتفال بعيد الذئب، وأذاع المنادي اسمي، أقنعتُ نفسي بأنني الأكثر هيبة في القاعة.

السابع والعشرون

لم يكن أمير الشياطين كما كنت أتوقعه ألبتة. فلم يكن جاثمًا على عرشه، ولم يبدُ عليه الضجر البارد، أو تتضح منه الغطرسة الملكية. ولم تظهر عليه علامات الخطر أيضًا. فيما عدا الوعيد الذي بثَّه في القلوب.

كان واقفًا، وعلى جانبيه نساء ذوات أجساد بضة، بالقرب من نافورة تفيض بالمشروبات الروحية، وعلى فمه الجذاب ابتسامة غامضة. مال الأمير ليهمس بشيء في آذان رفيقاته جميعًا، فانطلقت ضحكاتهن الماجنة المفعمة بالوعود الآثمة.

رفعت أحد حاجبيَّ، بينما راح الأمير يداعب أجيادهن. لقد كان خليعًا حتى النخاع، وبدا أنهن كن يعشقنه لهذا السبب.

لم يكن طويل القامة مثل راث، لكنه كان عريض المَنكبَين، ونحيل الردفَين، ودلَّ عرض فخذيه على جسده الرشيق المختفي وراء حُلته السوداء.

احتوى شعره البني المنتفش بعض الشيء على خصلات ذهبية وحمراء تظهر مع انعكاس الضوء، مع أن الظلام لم ينجلِ سوى لحظات عابرة. اعتمر جلاتوني تاجًا برونزيًا مُرصعًا بجواهر متعددة الألوان. وكانت عيناه العسليتان مشوبتَين بدرجات متلألئة من الأخضر والذهبي والبني؛ جميعها تتنافس على السيطرة، وتزهو بجمالها المتفرد.

وكانت عيناه هاتان مصوبتَين الآن، حيث وقفت أنا وراث، وأحد حاجبيه مرفوع في فضول.

قال: «أخي! فلتقابل أحدث صديقاتي، دروسيلا ولوسيندا. لقد كانتا ترويان على مسامعي أمتع قصة».

رد راث: «أجل، لا شك في هذا». لم يبدُ أن انعدام كياسته أدهش أحدًا غيري. وضع يده على ظهري وأردف: «ها هي زوجتي، إيميليا دي كارلو».

انتقل نظر جلاتوني نحوي. وبدا أنفه كما لو كان قد كُسر مرة أو مرتين، لكن هذا العيب جعله أكثر جاذبية. رمقتني بنظرة عميقة، وومضت في عينيه شرارة من الخبث بينما قال: «بل زوجتك المنتظرة على حد علمي».

قاطعتُ الحديث قائلة: «معك حق، فأنا لم أقرر بعد قبول رباط الزواج».

تقدم جلاتوني تاركًا رفيقاته، ولف ذراعه حول كتفي راث قائلًا: «أتسمع هذا الكلام يا أخي؟ لا يزال باب الأمل مفتوحًا أمامي إذن».

قال راث: «فلتطلق أنفاسك نحوها دون إذنها، وستشق جسدك إلى نصفين». ثم تناول كأسًا من شراب التوت الشيطاني من على صينية عابرة وارتشفه، في مشهد يوحي بالثقة والرقي، وأردف: «لقد طلبت منها بالفعل أن تمتنع عن العنف أثناء زيارتنا، لكنني لو كنت مكانك لتجنبت إثارة غضبها».

تبادل الشقيقان نظرة مُطولة. لقد دخل راث وفرض قواعده في بلاط أخيه الملكي. تمامًا مثلما فعل في بيت إنفي. وكان من العجيب أن جلاتوني لم يفعل شيئًا سوى أن رفع حاجبه كرد فعل على وقاحة راث، بينما قال: «إذن، فأنت مشاكسة صغيرة».

قلت: «في بعض لحظات التألق يا صاحب السمو».

عندئذ أطلق ضحكة مدوية.

ثم مال إلى الأمام، وتحدث كأنه يهمس، ولكن بلهجة جادة كما لو كان يبوح بسر خطير: «فلتحكي لنا كيف جذبتِ اهتمامه. إن حب راث للغضب لا يخبو سعيره، مع أنه لا يتمادى فيه مطلقًا. ما يثير دهشة الجميع وحيرتهم». لم يرد راث ابتسامة أخيه، وهو ما نجح فحسب في إسعاد أمير هذه الحلقة بصورة

أكبر، بينما قال: «ربما ستفاجئنا جميعًا يا أخي العزيز. ولعل هذا هو العام الذي ستطلق فيه العنان لنفسك أخيرًا، وتعيش حياتك وفقًا لتوقعاتنا. فلتنتهز الفرصة، وتستمتع ولو مرة واحدة».

قال راث: «حري بك أن تكون ممتنًا لكوني أضع قيودًا على متعتي يا أخي».

- «حسنًا، سيبدأ الصيد عند الفجر، ويمكنك أن تجهز جوادًا من جياد الجحيم، وتحرر روح المحارب داخلك». ثم نظر إليَّ والمتاعب تطل من عينيه، بينما أردف: «وأنت أيضًا يا سيدة إيميليا، دعينا نرَ ما إن كنت تتعطشين لسفك الدماء».

رددت قائلة: «أنا لا أمتطي الجياد».

قال جلاتوني وعيناه تفيضان بالاستمتاع: «حقًا؟ إذن فعليَّ أن أبقى برفقتك. وبينما ينخرطون هم في المتاعب، أنا واثق بأننا سنجد طريقة للتسرية عن أنفسنا».

أيًا كان التهور الذي كان يطل من عيني جلاتوني حينها، فقد تلاشى في لحظات، وحلت محله نظرة باردة تنم عن الكراهية. تتبعتُ نظرته، فدُهشت إذ وجدت أنها لم تكن موجهة إلا لسيدة نبيلة حسناء. كان شعرها الأزرق الفاتح مصففًا وفقًا لطريقة السيدات الإنجليزيات الراقيات، وكان ثوبها الأنيق مقفولًا حتى عنقها.

كانت ترتدي قفازين من جلد الجدي وصلا إلى ما بعد مرفقيها، وارتسم الاشمئزاز على وجهها بينما حدَّقت النظر إلى صاحب البيت، واخترقت نظرتها القاعة. مالت نحو رفيقتها، وهمست بكلمات جعلت المرأة النبيلة الأخرى تطلق ضحكة مكتومة.

اكفهر مزاج جلاتوني أكثر فأكثر، وقال: «معذرة، ثمة ضيف غير مرغوب فيه بيننا».

ودون أن ينبس بكلمة أخرى، أسرع نحو السيدتين الضاحكتين.

التفتُّ إلى راث مستفسرة: «ما الأمر؟».

قال: «إنها صحفية من الجزر المتنقلة. ونادرًا ما يكون في جعبتها شيء جيد لتقوله عن العائلة الملكية في هذا العالم. وغالبًا ما كانت قاسية خاصة مع جلاتوني».

عدت بذاكرتي إلى العشاق على الطاولة، وقلت: «أرى أنها لا تستمتع بمشاهد الانغماس في إشباع النزوات الشائعة هنا».

- «بل على العكس، لقد وصفت حفله الأخير بأنه عادي للغاية ومتوقَع وممل».

- «لا أصدق أنك حفظت كل أوصافها تلك».

- «كثيرًا ما كرر أخي هذه الكلمات، فعلقت بذاكرتي. لقد كان جلاتوني في ذروة الغضب آنذاك. ومنذ ذلك الحين وهو يسرف في مظاهر الفجور في حفلاته».

- «إنه يريدها أن تتراجع عما قالته».

- «أجل، دون شك، من بين أشياء أخرى أيضًا».

لم أستطع فعل شيء سوى التبسم، وقلت: «تعَد الكراهية محركًا قويًا للغرائز في بعض الأحيان».

رد راث وهو ينظر إلى ثغري نظرة عابرة: «أجل، معك حق. أتريدين أن تتجولي في حدائق المتعة أم تأوين إلى جناحك؟».

تذكرتُ ما قالته فاونا عن حدائق الفسَق تلك، فتقلصت معدتي من التوتر. فإذا تسللنا أنا وراث الآن، فسأضيّع فرصة مقابلة باقي عائلته.

فضلًا عن أنني لم أكن واثقة بأن وجودي معه وحدي وسط هذه الأجواء المفعمة بالإغواء كان فكرة صائبة.

أضاف راث بهدوء، كما لو كان راث قد قرأ أفكاري: «سيظهر برايد في الحفل التنكري غدًا. وسيأتي - أمير الكسل - قبل احتفال الخوف مباشرة. أما جريد وإنفي فسيصلان متأخرًا هذا المساء».

تساءلت: «وماذا عن لاست؟».

أجاب راث: «أعتقد أنه هنا منغمس في ملذاته، فبينما يميل إلى أن يختلس مشاعر السعادة لكي يعزز قوته، فإنه يشارك في الإغواء عندما يُتاح له. فهذه الحفلات تغذي خطيئته على عدة مستويات».

ألقيت نظرة نحو الشرفة، حيث فُتح بابان على مصاريعهما وهبت نسمة باردة حاملة معها ندف الثلج من الباحة الخارجية. فأبصرتُ النجوم الضئيلة مرتعشة الضياء سابحة في الفضاء.

رأيت حينها أن الذهاب إلى مخدعي هو القرار الأمثل، ومع ذلك وجدت نفسي أقول: «فلنمضِ في جولة سريعة عبر الحديقة».



كما هو متوقع، كانت فكرة جلاتوني المتمثلة في إقامة حديقة للمتعة تعبِّر عن ذلك حرفيًا. فقد سرنا بجوار العشاق الذين لا تكاد الظلال تخفيهم عن الأنظار. وبذلت قصارى جهدي لأبقي انتباهي مُركَّزًا على الممر الممتد أمامنا والمضاء بنور المشاعل، دون أن أجرؤ على النظر نحو الظلال بالقرب من السياج.

وبدا رث غير عابئ بما يجري كعادته دائمًا.

سألته: «هل تجولت في هذه الحدائق من قبل؟» لكنني ندمت على السؤال من فوري.

أجاب وهو ينظر إليَّ من جانب عينه: «أجل، فأنا دائمًا ما أستكشف الأماكن الغريبة لأتيقن من عدم وجود تهديد خفي».

قلت والانزعاج بادٍ عليَّ: «بالطبع، فمن الواضح أن الأخطار تحدق بهذا المكان من كل جانب».

اقترب رات، وخفض صوته: «كتهديد الجيوش الخفية، والضيوف غير المرحَّب بهم، واللقاءات السرية بين البيوت المتآمرة. فثمة الكثير الذي يمكن أن يحدث في خفوت النور يا سيدتي».

«إنه مُحق». قالها لاست - أمير الشهوة - وعلى وجهه ابتسامة ماكرة، بينما قطع طريقنا وهو يرفع ذراعيه فوق رأسه كاشفًا عن بشرته الذهبية فوق سرواله. نهشتني عينا ذاك الأمير فاحمتا السواد، ثم قامتا بتنحيتي دونما اكتراث، بينما أردف: «مرحبًا مرة أخرى، أيتها الصغيرة العزيزة».

قلت: «لاست». ومع أن ثمة صوتًا في أعماقي حثَّني على الهرب، بقيت ثابتة. تحفزت كل حواسي في انتظار اللمحة الأولى من تأثيره الساحق. أردفت قائلة: «كنت أود أن أقول تسعدني رؤيتك مجددًا، لكن...»

رفعت كتفيَّ دون أن أكمل كلامي.

قال لاست: «سيكون عليَّ أن أعالج هذا الأمر فيما بعد». ثم التفت إلى أخيه. ولم تنطوِ نظرته على أي غضب أو تلميح بالانتقام. وعلى قدر ما أتذكر، في المرة الأخيرة التي تلاقيا فيها، غرز رات خنجرًا في صدره. قال لاست: «أريدك في كلمة، وحدنا».

تردد رات قبل أن يومئ بالموافقة. ثم وجَّه حديثه لي: «سأمر على غرفتك لاحقًا. إلا إذا كنت ترغبين في أن أصحبك إلى هناك الآن».

قلت، وأنا أهز رأسي في امتنان لمنحه العذر لي لترك لاست والتخلص من سطوته المزعجة: «كلا. أنا على ثقة بأنني لن أضل طريقي إلى هناك».

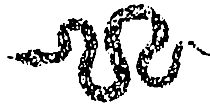
أومأ رات، لكنه لم يتحرك ليتبع أخاه. وشعرت بنظرته تتابعني حتى انعطفت عند الزاوية. وفي منتصف الطريق التالي، ظهر أحد الخدم. لا شك في أن رات هو من رتب هذا اللقاء. قال الخادم: «أيتها السيدة إيميليا، اسمحي لي بأن أوصلك إلى جناحك».

بعد أن استقرت بي الحال في غرفتي - التي كانت باللونين الأزرق الفاتح والفضي، وتفيض بذخًا وفخامة - انتظرت جالسة على طرف سريري، لما

بدا كأنه ساعات طوال. كنت أرهف السمع متأهبةً لطرقات راث الخفيضة على بابي.

لكنني لم أسمعها مطلقًا.

في البداية، ساورني القلق من أن يكون لاست قد أصابه بمكروه انتقامًا لما دار بينهما في باليرمو. ثم تسلل قلق آخر إلى جوارحي. إننا مقيمان في بيت يعُج بالفجور، وربما استمال ذلك، راث كي يستسلم لأهوائه.



حديقة الثلج الفضي،

البرج الجنوبي الشرقي، عند الفجر.

ارتدي ثوبًا ساحرًا.

وضعي قناعًا.

أخذت أحدّق إلى الرسالة التي وصلتني بعد منتصف الليل. كانت مكتوبة على ورقة زرقاء فاتحة وبالحبر البلاتيني - وكانت الورقة مصقولة وفاخرة.

لم يكن هناك ما يدل على هوية المرسِل، أو ما الذي سأواجهه إذا قبلت الدعوة، أو البلاء الذي يمكن أن أجرَّه على عالمي المعقد بالفعل بما يكفي. والخط لم يكن لراث، الذي لم يظهر بعد.

انطلاقًا من فخامة الورق والحبر، تصورت أن جلاتوني هو من أرسل الرسالة، لكن لم يزل الاحتمال قائمًا بأن أيًّا من الأمراء الآخرين هو من أرسلها.

ارتداء ثوب «جذاب» يمكن ألا يكون كناية شيطانية.

أمعنتُ التفكير في الخيارات المتاحة أمامي. فوجدت أن بإمكاني تجاهل الرسالة. ولا ريب في أن هذا كان أكثر الطرق أمانًا. فبعد محاولة الاغتيال في بيت راث، لم أكن لأبالغ لو خشيت من أن تكون فخًا.

ففي ظل اجتماع الجميع عند الفجر لبدء الصيد، سأكون وحيدة ومعرضة للخطر. إذن أيًّا كان الذي أرسلها، لا بد أنه يعرف أنني اخترت عدم الذهاب مع الآخرين.

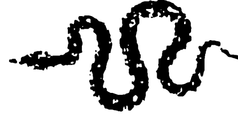
والشخص الوحيد الذي علم ذلك - باستثناء راث - هو جلاتوني.

وإذا كان ملبسي له أهمية هكذا، فربما يدل ذلك على أنها حفلة سرية؛ حيث تكون الأقنعة ضرورية لإخفاء هوية الحضور. لكنني لم أعتقد أن إقامة حفل سري تنظمه جهة مجهولة أمر مألوف في العالم السفلي.

لكن الآن تنهدت لأنني لا أستطيع رفض أمر يمكن أن ينطوي على فرصة لاستجواب أمير من أمراء الجحيم دون وجود راث أو تدخله.

طويت البطاقة، طرفًا على طرف، وأنا غارقة في التفكير. إن مجرد دعوتي إلى المقابلة في حديقة الثلج الفضي لا تعني أنني يجب أن ألتزم بهذا المكان. على الأقل ليس في البداية.

على مهل تفتّق ذهني عن خطة. كانت هناك شرفة فسيحة خارج قاعة الرقص في البرج الجنوبي الشرقي فيها سلم يُفضي إلى الحدائق. عزمتُ على أن أصل مبكرًا، وأنتظر في أحد الأركان المظلمة هناك. اندفعتُ من السرير، وارتديت على جناح السرعة رداءً أنيقًا يوحي بالغموض.



خرج جلاتوني إلى الشرفة الخاوية، وفي قدحه البلوري بعض الشراب. وكان ثمة دورق أسفل ذراعه الأخرى. كان الوقت مبكرًا للغاية على احتساء الشراب، لكن لم يبدُ أنه أوى إلى السرير. وقد كان شعره أشعث، وسترته مجعدة بعض الشيء، كما لو أنه لم يذق طعم النوم طيلة الليل، وحتى انبلاج الصبح. ويبدو أنه لعب دور الفاسق بامتياز.

تجرع رشفة كبيرة من قدحه. فقد بدا أن جميع الأمراء يستمتعون بالشراب بالقدر نفسه، لكن الكميات التي يتناولونها كانت متباينة.

انكمشت في الظلال بصورة أكبر، وراقبت اقترابه فيما أسبلت رموشي وأنا أحبس أنفاسي لكيلا يكتشف وجودي. كما لو أن صوت تنفسي الخافت سيعلن عني.

«لا أستطيع أن أقرر ما إذا كنت مسرورًا أم شاعرًا بالإهانة».

انتفض جسدي كله لافتضاح أمري بهذه السرعة. فمددتُ يدي باحثةً عن خنجري، واسترخيت فور أن شعرت بثقَله المعتاد في قبضة يدي. وعندئذ خطوت نحو ضياء قبيل الفجر الخافت.

لم تعد هناك جدوى من الاختباء الآن.

مكثتُ في صمت حتى يواصل الحديث. فمن الواضح أنه كان يرغب في هذا اللقاء بمفرده. ولعله يريد أن يبهرني بالكلام الذي أعدَّه مسبقًا.

اتكأ جلاتوني على السور الحجري، وهو يلقي نظرة على الحديقة التي تعج بالانحلال الخلقي أسفل منه. كانت الأزهار الفضية مكسوة بالصقيع اللامع، فبدت كالألماس.

قال جلاتوني: «ربما ستفلح خطتكِ بامتياز».

قلت: «أية خطة؟».

- «الفوز بالصيد. ففي خلال خمس دقائق ستنطلق القلعة عن بكرة أبيها من الإسطبلات». وضع القدح على السور العريض أمامه، ثم أشار إلى السطح المظلم البعيد. كانت التلال المكسوة بالثلوج ممتدة حتى التقت بغابة دائمة الخضرة. أردف قائلًا: «إن الناس نادرًا ما يلاحظون ما بين أيديهم، خاصة عندما يطمحون إلى الحصول على شيء آخر».

- «لا أظن أنني أفهم قصدك».

التفت ببطء لينظر إليَّ، وعلى وجهه تعبير ينم عن الانزعاج الزائف، بينما قال: «ربما كان عليَّ أن أذكر بعض التفاصيل المهمة في الإعلان. مثل جائزة الفوز بالصيد».

حاولت عدم إظهار الهلع على وجهي، فأنا لم أعتقد أنه أكثر من مجرد رياضة ريفية معتادة. قلت: «لم أكن أعلم بوجود جائزة».

قال جلاتوني: «الجائزة والفريسة. يمكن أن يرى البعض أنهما متماثلتان». كانت ابتسامته منعمة بالنيات الشريرة إذ استطرد: «يختار المضيف الفريسة في كل موسم للدماء. ويعرف المشاركون ما يطاردونه في الإسطبلات فقط، قبل انطلاق الصيد مباشرة».

عندئذ تجمد الدم في عروقي، وقلت: «قال راث إنه لا توجد قرابين في أية مرحلة من الحدث الذي سيستغرق ثلاثة أيام».

قال: «أنا لم أذكر شيئًا عن القرابين. كل ما قلته هو أنه سيجري اصطياد أحد أو شيء ما». وراح يتفرس فيَّ بدقة شديدة، أكثر مما ظننته ممكنًا في ظل كمية الشراب التي احتساها، ثم واصل وهو يطرف بعينيه: «لا أحد يقتل الفريسة المختارة، فنحن لسنا وحوشًا».

تساءلت: «لمَ أردتني أن أرتدي قناعًا؟».

- «لأرى إن كنتِ ستلبين طلبي». قال ذلك وهو يهز كتفيه، كما لو أن ذلك سبب بديهي. حينها شعرت بالرضا لأنني قررت ألا أرتدي قناعًا. أردف جلاتوني: «هل أخبرك أحد لمَ تسمى هذه المناسبة بموسم الدماء».

أجبت: «كلا، لكنني متأكدة من أنها ستكون قصة شائقة».

- «إذا فاز بالصيد شيطان أو نبيل ذو منزلة أدنى، يكون لديه الخيار لاحتساء إكسير الحياة».

- « أتقصد الدماء؟».

تقلصت معدتي حينما أومأ جلاتوني برأسه إيجابًا. لقد اعتادت نونا إخبارنا بأن الأشرار يشربون الدماء. والآن بت أعلم من أين نبعت تلك الشائعة. سألته قائلة: «ماذا إن فاز أحد من ذوي الدم الملكي؟».

قال: «لدينا الحق في انتقاء الجائزة التي تروق لنا، إذا صوَّت أربعة منا على الأقل بالموافقة عليها. لكن تناول إكسير الحياة ليس السبب الوحيدة وراء اسم موسم الدماء. فالفائز بالصيد يحدده أي أحد يسفك الدماء الأولى. ويختار المشاركون كمية الدم المُراق، وكيف يريقونه. سواء بالمخالب، أو بالنصال، أو بالسهام، أو بالأسنان». ثم نظر مجددًا نحو الإسطبلات. حينئذ دوَّى صوت طلقة نارية في الهواء، فارتعدت فرائصي بينما قال: «أجل، إنهم وجدوا بنادق الجليد. لو كنت مكانك لأعدت التفكير في الانضمام إلى الصيد الآن».

- «لقد أخبرتك بأنني لا أمتطي الخيل».

- «يا للأسف. فهذا العام سيصطادون تنينًا جليديًّا. إنها مخلوقات شرسة هائلة الحجم». ثم صرف انتباهه عن المبنى البعيد، ونظر إليَّ مجددًا وتابع: «أما بالنسبة إلى ركوب الخيل فسأعيد التفكير في الأمر. لقد وجدت أن أجسادنا تسترجع أحيانًا ما تخفق عقولنا في استرجاعه».

أشاح جلاتوني برأسه، ثم دخل قلعته مجددًا، تاركًا إياي أتأمل كلماته الأخيرة. دوَّت طلقة أخرى كالرعد، تلاها صوت اندفاع جماعي، وإذا بالأرض ترتج تحت قدميَّ. فثار إحساس ما في دمي.

قبل أن أتمكن من إقناع نفسي بعدم المحاولة، رفعت أطراف ثوبي، وركضتُ نحو الإسطبلات.

الثامن والعشرون

خارج الإسطبلات، رأيت فرسًا ذات لون بنفسجي فاتح تطأ الثلج بحوافرها المعدنية المدببة قبل أن تصوِّب عينَيها الزئبقيتين نحوي. شعَّ الذكاء من هاتين العينين الزائغتين بينما اقتربتُ في بطء من فرس الجحيم الهائلة تلك. كان ثمة هلال فضي يتلألأ فوق جبهتها، وحفنة من النجوم متناثرة على جسدها من الخلف وكأنها كوكبة سماوية.

اقتربت منها قائلة: «ألستِ رائعة الجمال أيتها الفتاة؟ لا أعرف ما اسمك، لكن عليَّ أن أناديك باسم ما. ما رأيكِ في تانزي؟».

ابتسمتُ بينما هزت الفرس رأسها في قبول.

لم تدُم السكينة والهدوء سوى لحظات؛ إذ دوَّت الصيحات على البُعد، وتلاها صخب مزلزِل. أدركت أن صاحب الصوت هو تنين الجليد الذي تحدث جلاتوني عنه.

كان من الواضح أن الصيد على أشُده، لكن اهتمامي به لم يكن كاهتمامي بحاجتي المتفاقمة لامتطاء الفرس، ونهب الأراضي المثلجة بأقصى سرعة ممكنة.

قفز قلبيَ كطبول الحرب. فامتطاء الخيل والعدو سريعًا عبر هذه التضاريس الوعرة من شأنه أن يكون أمرًا خطرًا، لولا حَدوات الفرس المسننة.

ربتُّ خاصرة تانزي في ثقة، وأنا أعلم بصورة ما أنها لن تقبل بتصرف أقل من هذا من الشخص الذي منحته شرف اعتلاء سرجها. ويا له من سرج جميل - فقد كان أسود لامعًا؛ لذا بدا كأنه حبر متجمد.

كان ثمة جراب صغير مثبت على جانبها؛ لذا! لا بد أن جلاتوني كان قد جهزها للانطلاق.

وضعت إحدى قدميَّ في الركاب، وأرجحتُ جسمي للأعلى، وأنا راضية لارتدائي جورب سميك أسفل ردائي. كان اختيار الجلوس وإحدى ساقي على أحد جانبي الفرس غير لائق تمامًا، لكنني شككتُ في أن أحدًا في العالم السفلي سيرى هذا كما يراه بنو البشر.

أحكمت وضع فخذيَّ حول الفرس، بينما تأهبتُ للانطلاق. حركت لساني بصوت مجلجل، ثم شددتُ اللجام. لم يكن عليَّ أن أحث الفرس الرائعة أكثر من ذلك. فقد عدَت تانزي بعيدًا عن الإسطبل هابطة على تل منحدر، وازدادت سرعتها أثناء الهبوط، بدلًا من الإبطاء.

استنتجت من أصوات الحوافر المكتومة التي تضرب الثلج أن جماعة الصيد كانت خلفنا، سواء في الغابة أم على أطرافها مباشرة. ولم تكن ثمة قواعد تحتِّم عليَّ المشاركة في الصيد، لكنني لم أرِد أن يعثروا عليَّ هنا، ويحثوني على الانضمام إليهم.

رسمتْ أنفاسي غيمة أمامي، بينما ملتُ إلى الأمام وأنا جالسة، وخفق قلبي بشدة مع كل ضربة من حوافر الفرس. انحرفنا حول قلعة جلاتوني، وتحوَّل الانحدار البسيط إلى جُرف حاد. تطاير شعري المسترسل خلفي بينما اجتاحتني الرياح الشديدة قارسة البرودة. اغرورقت عيناي بالدموع، لكنني لم أستطع أن أطرف، ولم أتمكن من منع نفسي عن الوقوف وقدماي في الركاب، بينما راحت الفرس تندفع هابطة على الجبل. عندئذ تراءت ذكرى في مخيلتي... شعرت بما لو أنني كنت هنا من قبل، أسابق الريح وأمتطي الخيل كمحاربة في أرض المعركة.

نسيت أمر الصيد، وعيد الذئب، وجمع الأمراء الذين يعدون بالقرب مني. لم تكن لديَّ فكرة إلى أين كنت ذاهبة، لكن ثمةٍ شيئًا كان يناديني، وكان عميقًا في دمائي. لقد هتف بي لكي أتذكر، لكي أبعد الأفكار وأفسح المجال للمشاعر؛ المشاعر فحسب.

صهلت تانزي كما لو كانت تؤكد هذه المشاعر. كما لو كانت تريدني أن أتذكر أن هذا ما خُلقنا من أجله؛ هذا الشعور بالحرية التي لا حدود لها، وكسر القيود إلى غير رجعة. وكل ما كان يهم هو الأرض التي أخذنا ننهبها نهبًا، والدماء التي تدفقت في عروقنا.

بينما كنا في طريقنا نحو تل مهيب، أبصرتُ حقلًا من الورد الأسود كبقعة حبر وسط الثلوج. فخففت من سرعة العدو، وأخذت بزمام تانزي إلى جانب التل البرَّاق. ومن هناك رأيت أن المساحة الداكنة لم تكن صلبة. لقد كانت عبارة عن ملايين الأزهار السوداء النامية من قلب الثلوج. أوقفتُ تانزي وترجَّلتُ عن ظهرها. فرأيتُ أوراق الورد موشاة بنقاط فضية اللون.

أسَرَني جمال الورد، فقطفت واحدة، لكنني فوجئتُ عندما خُلع الجذر كله بسهولة. تلألأت الجذور الفضية العجيبة، ثم جفَّت على الفور أمام ناظريَّ. تُرى أكان ذلك سحرًا أم نبتة جهنمية ما؟ أردت أن أتفحصها لاحقًا وأرى ما يمكنها فعله أيضًا. فاجتثثتُ حفنة من الأزهار ودسستها في جراب جلدي صغير معلق على السرج.

صهلت تانزي، وأخذت تضرب الأرض بحوافرها تعبيرًا عن ضجرها من توقفنا لاقتطاف الزهور. لذا دون أن أنظر خلفي نحو الحقل المتموج، امتطيتُ الفرس مجددًا، وعدونا بسرعة أكبر من ذي قبل. وكنت مستغرقة تمامًا في الجانب الحسي من الجولة، وفي قوة الهواء البارد الذي يرتطم ببشرتي، ويكاد يسحب أنفاسي، إلى حد أنني لم ألحَظ القلعة الشاهقة أمامنا. ولم أدرك أننا تجاوزنا خطًا حدوديًا غير مرئي.

لم أدرك الخطأ الذي ارتكبته إلا عندما طوقتنا فرقة من الحراس، تُشهر سيوفها نحونا، وتصيح بي لأتوقف. لقد اقتحمت أراضي أمير آخر دونما

دعوة. تراجعت تانزي إلى الوراء، ثم تهاوت إلى الأرض وهي تضرب بقدميها بينما راح أحد الحراس يسكت الآخرين، ويهتف بأمر واضح موجه لي.

«فلتترجلي، وتركعي على ركبتيك».

قلت وأنا متمسكة باللجام بشدة: «يبدو أن ثمة سوء فهم. لقد كنت أتجول في أراضي الأمير جلاتوني ولم أنتبه إلى توغلي بعيدًا».

قال الحارس: «قلت ترجلي، واركعي على ركبتيك».

تقدم الحارس الذي تكلم من وسط الآخرين. كانت خوذته الحديدية التي تكشف عن وجهه ذات جناحين فتاكين على كلا الجانبين. وعلى قمتها حيث انحنت على جبهته كان ثمة مخالب ذهبية محفورة بالمعدن.

لاحظت أن هذه الهيئة لا يتشاركها أي من الحراس الآخرين؛ لذا كان من الواضح أنه قائد هذه الفرقة. وسرعان ما ظهر صف آخر من الحراس خارجًا من القلعة، وسهامهم مشدودة في أقواسها.

لم أكترث بهم كثيرًا، إذ ركزت على التهديد الأكبر.

أخذت أتفرَّس في ملامح قائد الحرس، محاولة ترسيخها في ذاكرتي تحسبًا لتدهور الأوضاع واحتياجي لتذكُّر التفاصيل عند فراري. انسدل من تحت مقدمة خوذته شعره الذهبي اللامع. وكانت بشرته التي سفعتها الشمس خالية من أي عيب سوى ندبة فضية باهتة تقطع شفتيه المتغطرستين على نحو مائل.

لم أتبين لون عينيه من مكاني، لكن ما كان من الممكن نسيان قسوتهما ألبتة.

أخذت تانزي تشهق، وتراجعت إلى الخلف بينما تقدم الحراس خطوة أخرى، وقرَّبوا صفوفهم. فإذا ترجلت الآن، فسأندم لا محالة.

مددتُ قامتي، وتحدثت بلهجة آمرة: «أطالب بأن أتحدث مع أمير هذا البيت. لقد وقع خطأ ما».

قال القائد: «فلتترجلي قبل أن يخترق سيفي أحشائك».

قلت: «فلتلمسني، وأعدك بأن تلاقي ما هو أكثر من حنقي». كانت الابتسامة التي بذلت جهدًا لأرسمها على شفتي خبيثة كسلاحه. أردفت قائلة: «إن مشاهدة الأمير راث - أمير الغضب - وهو يشقك نصفين ربما تستحق العناء. وأنا أشك في أنه سيتساهل مع من يجرؤ على إيذاء خطيبته».

ومضت المفاجأة في نظرته قبل أن يتحكم في ملامحه.

قال: «فلتسامحيني، لكنني لا أتذكر أنني تلقيت خبرًا عن دعوتكِ إلى أراضينا». ثم اقترب مني رافعًا سيفه بمحاذاة قلبي، واستطرد: «ما يمنحني الحق في إبعاد التهديد عن أراضينا بالطريقة التي أجدها مناسبة. والآن ترجلي عن هذه الفرس اللمينة أيتها الأميرة».



إذا كنت سأركز على الجانب المشرق في هذا الموقف شديد السوء، فسأجد أنه من حسن الحظ أنني لم أقيد بالأصفاد، وأحبس في زنزانة. ما حدث هو أنني تم اقتيادي إلى غرفة استقبال فاخرة، وحُبست داخلها على الفور في ظل تمركز حفنة من الحرس المُدججين بالسلاح عند الأبواب والنوافذ. تجاهلت نظراتهم الباردة، وألقيت نظرة متمعنة على الغرفة.

كانت الأرضية والجدران الرخامية البيضاء تتلألأ على نحو مبهج في ضياء الشموع المرتجف. وأحاطت بي قطع الأثاث الحريرية - المُذهبة والمزينة بما يضاهي قصر ملك الشمس الشهير في فرنسا. جلستُ على طرف أريكة من الديباج بلون اللؤلؤ، وأصابعي تتوق إلى الإمساك بخنجري الخفي. لم ينبس أحد ببنت شفة، ولم يكن ثمة شعار ملكي على زيهم العسكري، ولا أي شيء يشير إلى البيت الملكي الذي اقتحمته دون قصد.

وحتى لو كنت رأيت شعارًا، ما تمكنت من التعرف على أي واحد غير شعار الضفدع المُتوَّج الخاص بجريد. كنت أعلم علم اليقين أنني لست في بيت

رات، أو إنفي، أو جلاتوني. وعلى حد ما أذكر تقريبًا جميع الأمراء الشيطانيين السبعة ينبغي أن يكونوا الآن في مقر الاحتفال بعيد الذئب. وربما يكون هذا هو السبب وراء عدم معرفة الحراس التصرف اللائق في حال وجود أحد الدخلاء. وأحد الجوانب المشرقة في هذا الموقف المأساوي هو أنني وجدت مهربًا من الصيد.

أخذت الساعة الإمبراطورية المزخرفة فوق رف المدفأة تصدر أصواتًا مع كل ثانية. كان القائد قد اقتادني إلى هنا ثم غادر، وهو يغمغم ببعض الأوامر للحارسين الواقفين على جانبي الباب. ولقد رمقاني بنظريهما قبل أن يهزا ذقنيهما تصديقًا على ما قاله أيًا كان. مر ربع ساعة. ولا شك في أن أحدًا في بيت جلاتوني سيلاحظ غيابي، باعتباري ضيفة الشرف. وسيأتي رات للبحث عني لا محالة.

مضت ساعة كاملة في بطء شديد. ثم تلتها ساعة أخرى فيما بدا أبطأ وقت مر في التاريخ. ومع ذلك لم يظهر أمير يحمل خنجرًا ليحررني.

إذن، حان الوقت لأكون أنا البطلة وأنقذ نفسي.

تنحنحتُ قائلة: «لمن هذا البيت الملكي؟».

ساد الصمت.

لم يتحرك أحد قيد أُنملة، أو يرف له جفن. كما لو أنني لم أتكلم ألبتة. فاسترخيتُ في مقعدي ثانية. مضت ساعة أخرى، وحينما كدتُ أُجن، انفتح الباب محدثًا صريرًا. حجب أحد الحراس رؤيتي، وكانت الأصوات خافتة بحيث لم ألتقط أية كلمات من الحديث. ثم أومأ الحارس، ثم أغلق الباب.

عندئذ وقف أمامي وعلى وجهه تعبير بارد وهو يقول: «انهضي».

تيبست ركبتاي بينما قلت: «إلى أين سأذهب؟».

أجاب الحارس: «إن سموه أطلق سراحك».

قلت: «لا أفهم ... ألا يريد أن يتحدث معي؟».

أسفر وجه الحارس عن ابتسامة ساخرة قائلًا: «من الأفضل لك ألا تسألي عن رغباته؛ إذ أظن أنها ستجلب لك الكوابيس».



كانت رحلة العودة إلى بيت جلاتوني باردة وبائسة.

لم أستطع أن أتخلص من الشعور بالتوجس والتشاؤم الذي سيطر عليَّ كظل جاثم على روحي. وبدت تانزي منزعجة بالقدر نفسه. كانت تتحرك بصعوبة وحوافرها تنغرز بوحشية في الثلج كما لو لم تستطع الابتعاد عن البيت الشيطاني الملعون بالسرعة الكافية. صعدنا الجبل ثم عدونا بأقصى قوة نحو الجانب الجنوبي للقلعة. وجدتُ جلاتوني متكئًا على السور خارج الإسطبلات، وعلى كتفيه شملة زرقاء فاتحة ترفرف مع النسيم. راقب اقترابنا، وهو يرفع أحد حاجبيه.

قال متسائلًا: «أوقع حدث مثير؟».

ترجلتُ عن الفرس، وربت جانبها قائلة: «ما الذي تنشغل به الآن؟».

قال: «في الوقت الحالي؟» ثم نظر إلى ساعة جيب، وقال: «عليَّ أن أرافقكِ إلى جناحك. سيبدأ الحفل التنكري خلال بضع ساعات. ولقد كادت جولتكِ القصيرة أن تؤخر مخططنا».

جولتي القصيرة التي أسفرت عن حبسي. قبل أن أتمكن من السخرية منه وجدته أمامي، وخنجره يلمع بينما قطع الجراب الجلدي الصغير من سرج تانزي.

قال وهو يخرج زهرة ويرفعها إلى الأعلى وجذورها تلمع بينما تمايلت في النسمة الخفيفة: «هذا ... إنه جذر يسبب النعاس، قادر على البطش بأعتى الملوك كذلك. ترى ما خططكِ الشريرة لهذا المساء؟».

قلت: «لا شيء».

قال وخيبة الأمل بادية عليه: «أحقًا؟ إن في حوزتكِ نبات يخشاه معظم الأمراء، وأنتِ لا تفكرين في مكائد ماكرة لاستغلاله ضدنا؟» ناولني جراب

جذور النعاس، ثم تابع: «فلتحيكي خططًا أكثر طموحًا يا عزيزتي. ولتطلقي العنان للجانب الخبيث من ذاتك».

قلت بنبرة عذبة: «الآن، بعدما أطلعتني على سر هذه النبتة، سأتأكد من استغلالها على النحو الأمثل».

رد جلاتوني: «عظيم. فلنستعد الآن لبعض الفسق والمجون».

التاسع والعشرون

كان ثوبي المرصّع بحبات اللؤلؤ فخمًا إلى حد البذخ، بل كان ثقيلًا أيضًا، حتى إنني أقسم أنه كاد يبلغ ربع وزن جسمي. كان الجزء العلوي منه يحتوي على مشد خصر ضيق إلى حد أنني شعرت بأنني قد غُمست في ذهب سائل. وكانت الخرزات المعدنية مطرزة في سلسلة من التصميمات الهندسية التي تُبرز منحنيات جسدي، وكل قسم به مزيج من اللآلئ والخرز في تصاميم تجذب العين.

درتُ أمام المرآة، وأنا معجبة بالعمل المضني الذي بُذل في سبيل صنع ثوب كهذا.

أخذ الحرير الذهبي يتهامس مع بشرتي، وكان النصف السفلي المنسدل من الثوب مشقوقًا من المنتصف، إلى ما فوق ركبتيَّ ببضع أنامل، أما الجزء المطرز فكان من القماش الحريري البديع الأملس. وكان ثمة حزام ذهبي لامع مزخرف بالنباتات والأشواك لا مثيل له في الجمال والروعة.

أما قناعي فكان يعبِّر عن بيت راث تمام التعبير. فقد أُخبرت بأن الأمراء هم من يستطيعون فقط ارتداء أقنعة الذئب، أما بقية الحضور فهم أحرار في ارتداء ما يريدون.

كان القناع النصفي الذي أعددته أنيقًا؛ إذ كان ذهبيًّا داكنًا ذا خطوط من الحبيبات اللامعة المغزولة، فصار شبيهًا بجلد الثعبان. أما شعري فتركته منسابًا طليقًا، وأضفت بضعة مشابك ذهبية لكيلا ينسدل على وجهي. وكنت قد أتممت اللمسات النهائية من فوري عندما دخل راث الغرفة، وتوقف فجأة.

لم أستطع أن أُخفي الابتسامة الخجولة على شفتيَّ بينما أعدتُ الإبرة والخيط اللذين كنت أحملهما إلى صندوق أدوات الحياكة، وقلت: «أعتقد أنه مناسب».

رنت نظرته الثاقبة إلى القناع، وهو يقول: «أين عثرتِ على ذلك؟».

مددت يدي، ولمست المعدن البارد بأصابعي، قائلة: «الرجل المهذب يعلِّق على جمال رفيقته، ولا يسألها أين وجدت القناع».

قال راث متسائلًا: «وهل أنت رفيقتي الليلة؟».

احتوت نبرة صوته على لمحة من الإغواء. لكنني شعرت بأنها تخفي وراءها مسحة من التوتر. حاولت ألا أفكر في مكان وجوده ليلة أمس، ولماذا لم يمر على غرفتي على الرغم من وعده بذلك. لم تكن لديَّ فكرة عما كان لاست يريده، لكنني استطعت أن أخمن ما يسعى إليه، وما يدفع أخاه نحوه. حينئذ شعرت بانقباض مفاجئ يشبه الألم.

رفعت كتفي قائلة: «أنت ستصحبني إلى هناك. ولست متأكدة بمَ أسميك أيضًا. لكن إذا أردتني أن أجرِّب، فلربما أبتكر بعض الأوصاف التي يمكنك الاختيار من بينها».

قال: «ليس لديَّ شك في هذا الأمر».

عبرت صراحة عن إعجابي بحُلته - التي كانت سوداء وذهبية وذات صديرية تشبه جلد الثعبان كذلك، فضلًا عن أنها من المعدن كلها، مثل الدرع ذات الحلقات - ثم قلت له: «هل تتوقع خوض معركة؟».

أجاب: «فقط إذا طلبتِ مني أن أحارب الخُطَّاب».

سألته: «أين قناعك؟».

مد ذراعه قائلًا: «فلتستمتعي بغموض الأمر».

- «إنني على وشك أن أخضع لشرف انتزاع أكبر مخاوفي أو أسراري من مهجتي، لذلك فإن الاستمتاع بأي شيء هذا المساء يبدو بعيدًا كل البعد عن الواقع. لذلك أود أن أعرف ما يجب أن أتوقع حدوثه بالضبط في كل فقرة هذا المساء».

- «مأدبة العشاء هي الفقرة الأولى، وأنا واثق بأنك ستجدينها ممتعة».

دون تقديم المزيد من التلميحات، صاحبني راث إلى الأسفل عبر مجموعة مذهلة من الدرجات، ثم إلى بهو يعُج بالضيوف المقنَّعين الذين يحتسون الشراب من أقداح رفيعة، ويثرثرون بأصوات خافتة. كان الجو العام أكثر هدوءًا الليلة، وإن لم يكن أقل سحرًا.

لاحظ جلاتوني وصولنا، تحسس بيديه مرة واحدة، ثم قال: «فلتتوجهوا جميعًا إلى قاعة الطعام، ولتتفضلوا بالجلوس. فالحفل على وشك البدء».

قادني راث إلى مكانينا، وسررتُ لرؤية فاونا وقد جلست بجواري. وكان أنير في الناحية المقابلة لها، لكن كانت هذه هي نهاية حظوظي الطيبة. عندئذ تهادت السيدة ساندرا، وهي تشع كضوء الشمس، لكن مزاجها تحوَّل إلى عاصفة هوجاء عندما وقعت عيناها عليَّ.

قلت: «مرحبًا يا سيدة ساندرا».

أطبقت فكَيها، فأدركتُ على الفور الفخ غير المقصود الذي نصبته لها. ففي وجود راث، كانت مضطرة إلى مناداتي بلقبي، فقالت: «مرحبًا يا سيدة إيميليا».

انسل إنفي إلى القاعة، وجلس في المقعد المقابل لراث - بجوار السيدة ساندرا التي ما زالت تشع ضياءً - وعلى وجهه ابتسامة ذات مغزى.

قبل أن يتمكن من إزعاجي بما كان يحيكه، وبدا جليًا في نظرته، دخل كبير الطهاة إلى القاعة، ثم قال: «انعموا مساءً يا سادة وسيدات وأسراء العالم السفلي. إن فكرة قائمة طعام الليلة تدور حول النار والجليد. أي أن كل صنف من أطعمة عالم البشر سيمثل هذين العنصرين المختارين بصورة أو

بأخرى. طبقنا الأول هو سلطة الفريزيه التي تمثل الجليد. وستعلمون السبب على الفور».

ظهر حشد من الخدم وهم يحملون صحونًا وضعوها أمام كل ضيف في الوقت ذاته. وتلاشى حينئذ قلقي من السيدة ساندرا؛ إذ لم أستطع أن أرفع عينيَّ عن الطعام. كانت الخضراوات مرصوصة على شكل دائرة على آنية خشبية، فيما يشبه عُش طائر على شجرته.

وحول الخضراوات نُثرت قطع من الجبن وجوز البقّان. أما في الوسط فوُضع قالب على هيئة بيضة بلون الياقوت مملوء حتى نصفه بسائل ما. لم تكن مجرد سلطة وإنما تحفة فنية مصنوعة بشغف. لقد كانت إبداعًا عبقريًا فريدًا لم أرَ مثيلًا له من قبل.

سعدتُ حينما رأيت أنني لست الوحيدة التي لم تمسك بأداة من أدوات المائدة بعد، انطلاقًا من عدم الرغبة في إفساد هذه اللوحة الفنية القابلة للأكل.

قال أمير الشراهة وهو ينقر على قالب البيضة: «إنها صلصة الفراولة المجمدة». كُسر القالب وسالت منه التتبيلة، ثم راح يقلّب قطع الجبن والجوز المفتت على الخضراوات الورقية، فخلطها جميعًا مع التتبيلة. فعل الجميع مثله، وسرعان ما عجَّت قاعة الطعام الفسيحة بالثرثرة الصاخبة.

كان راث يراقبني، وابتسم بينما كسرت بيضة الصلصة وأنا غاية في الإعجاب بالطبق، ثم قال: «أرى أنك تمرِّين بوقت شنيع».

قلت: «أجل، إنه مرعب». وعلى الرغم من الانتباه المتطفل الذي شعرت به آتيًا من الجهة المقابلة من المائدة، بادلت راث التبسم، وأردفت: «إنه أجمل من أن يؤكل».

توافقت قطع النعناع المقطَّعة بدقة، والبصل الأحمر المقشر، بالإضافة إلى الشمر، مع الخضراوات اللاذعة على الوجه الأكمل. وفور أن انتهينا من تناول السلطة، سرعان ما رفع الخدم الصحون، ليفسحوا المجال للطبق

الشهي التالي. وكما لو كان قائد فرقة موسيقية والطعام هو فرقته، ظهر كبير الطهاة مجددًا، وهو يعلن في فخر عن طبقه التالي.

قال: «طبقنا الثاني لهذا المساء يرمز إلى النار. فالشمعة مصنوعة من دهون الخنزير. وبينما تحترق على مهل ستتحول إلى صلصة لتغمسوا فيها شرائح اللحم مع كرنب بروكسل المقشر المشوي وجبن البارميزان».

مال النُدُل ليشعلوا شموع دهن الخنزير بتناغم ونظام. وحث جلاتوني الجميع على احتساء الشراب ومراقبة الشموع وهي تنصهر. لكن إنفي - الذي بدا ضجِرًا من هذه المشاهد المتكلفة - التفت إلى الشيطان الجالس بجواره متسائلًا: «هل ثمة أخبار عن النجمات السبع؟».

قال الشيطان: «لا شيء جديد يا صاحب السمو. تقود كل الدلائل إلى الغابة».

انتبه راث إلى أخيه، فقال بينما يحتسي شرابه: «أتُراك تسعى إثر الحكايات الخرافية مجددًا؟».

رد إنفي وعلى وجهه ابتسامة خبيثة: «أنت تثير دهشتي يا أخي العزيز. فعندما أصبح الأقوى على الإطلاق، هل ستستمر في السخرية مني؟ أم ستنحني لملكك الجديد؟».

اختلست السيدة ساندرا نظرة ماكرة إلى الأمير الجالس بجوارها.

أما أنا فأطبقتُ شفتيَّ، محاولة أن أمنع الأسئلة من التدفق. حينئذ انحنى أنير على المائدة، وفي عينيه وميض ينُم عن الرغبة في إثارة المتاعب، قائلًا: «إن القوة بمنزلة العملة هنا. فالبشر يجمعون الثروة، وملوكنا يفعلون الشيء نفسه بالسحر».

تساءلتُ: «هل يستطيع الشياطين الأدنى منزلة خلع الأمراء عن عروشهم؟».

قال أنير: «كلا. فهم دائمًا ما يحكمون حلقاتهم. إنه اختبار لمن يتمتع بالقوة الأكبر فيما بينهم. يمكنك تسمية ما يحدث بخصومة الإخوة».

رددت: «إذن، فإبليس هو لقب يمكن أن ينتقل بين عدة حكام؟».

تجهَّم الأمراء الجالسون بجوارنا، لكن أنير لم يعبأ بهم، وواصل قائلًا: «ليس دائمًا. إنه يؤثر بصورة أو بأخرى في عصور مختلفة على الأرض. ويمكنك أن تري عبر العصور أيًّا من الأمراء السبعة كانت له القوة والتأثير الأكبر على عالم البشر. وذلك في شكل الحروب والأطماع والفساد الأخلاقي. ومع ذلك»، كان همسه آنذاك غير هادئ مطلقًا: «لا يمكنني أن أتذكر عصرًا ساد فيه الحسد والحقد».

عندئذ ضرب إنفي بقدحه الطاولة صائحًا: «فلتنتبه لكلامك أيها البشري».

رد أنير: «وإلا ...»

وقبل أن يتشاجرا، ظهر كبير الطهاة مجددًا، وصوته يتردد عبر القاعة: «الطبق الثالث هو الأكثر تفاعلًا. أطلب منكم أن تضعوا شرائح اللحم المتبلة النيئة على الفحم، وتقلِّبوها سريعًا على الجانبين. وفور أن ترفعوا اللحم عن الفحم، انثروا فتات الجبن الأزرق المجمد عليه».

تحرك راث على يميني، لكي يلفت انتباهي. وكان نظره موجهًا نحو الباب؛ حيث كان جريد قد دخل من فوره، وانحنى في أدب. كان يرتدي حُلة برونزية، وعيناه وشعره يتوافق كل منهما تمامًا مع درجة لون المعدن الذي بدا مخلوقًا منه. كانت نظرته الحادة لا تزال توحي بالخطيئة، كما لو لم يكن معتادًا الأبهة الزائفة كإخوته.

أومأ جريد لراث إيماءة خفيفة قبل أن يجلس عند الطرف المقابل للمائدة، وهو يقول: «أعتذر عن التأخير. لا تقاطعوا فقرات الحفل من أجلي».

غمغم جلاتوني: «فلتجلس في صمت. أيها الطاهي! فلتحضر لنا الطبق التالي».

لم أُضع فرصة الاضطرابات العائلية التي شغلت راث، وملتُ لأهمس في أذن فاونا: «هل سمعتِ يومًا عن النجمات السبع؟».

قالت: «آه، أتعنين الأخوات السبع. أجل بالطبع. فلقد سمع بهن الجميع هنا. في الأساطير القديمة كن يظهرن للمسافرين الذين يتعرضون للمآزق،

وهيئاتهن تشبه الظلال. يزعم البعض أن رؤيتهن نعمة، لكن الأغلبية ترى أنها نقمة».

تساءلتُ: «لماذا؟».

أجابت: «إذا قاطعت دورانهن السماوي، فثمة احتمال أن يسحبن وينسجن خيط المصير الخطأ. وأحيانًا ما تكون عواقب هذه التدخلات فورية، وفي أحيان أخرى تستغرق عقودًا من السنوات حتى تظهر».

- «يا له من أمر عجيب! إذا كن ينسجن خيوط المصير، فلا بد أنهن قادرات على استدعاء الماضي، وعلى رؤية الخيوط التي غزلنها بالفعل».

رمقتني فاونا بنظرة قلقة، لكنها أومأت إيجابًا، فواصلتُ قائلة: «إذن، إن كان باستطاعة أحد أن يعرف مكان الأشياء المفقودة، فلابد أن يكون من الأخوات السبع».

حذرتني فاونا: «إيميليا لا يمكنك أن تسعي في طلبهن. فالسؤال عن مخلوق حي من شأنه أن يدمر كلًا من الماضي والمستقبل».

قلت: «لا أنوي أن أسأل عن مخلوق حي، بل عن جماد».

- «أيًا كان ما تخططين له، فلتتوقفي عنه. إنه لأمر شديد الخطورة».

سواء أكان خطِرًا أم لا، لقد عزمتُ على أن أعثر على غازلات المصير الغامضات. لقد ذكرت إحدى الجمجمتين المسحورتين «النجمات السبع» و«الخطايا السبع». ولقد خمنت حينها على الفور أنها تقصد الشياطين السبعة، لكنني لم أكن أعرف حينذاك معنى النجمات السبع. والآن صرت على يقين بأنني أعلم. ولقد ذكر الشيطان الذي سأله إنفي في بداية العشاء شيئًا عن غابة ما.

تدفق الحماس داخلي. فعندما زرتُ إنفي، قصد أن يخبرني بغابة الدماء. وحينها لم أدرك قط سبب رغبته في إخباري بأسطورة شجرة اللعنة. لكنني شرعتُ الآن في الشك في أنه كان يلمِّح إلى شيء آخر.

كما أن اختياره موضوع الحديث هذا المساء لم يكن من قبيل المصادفة. لقد أرادني إنفي أن أبحث عن الأخوات السبع. وأنا أتحدى بالضرورة أن هذا

الأمر له علاقة بالأشياء المسحورة التي كان يسعى خلفها؛ كمفتاح الإغواء، ومرآة القمر الثلاثية. وأيًا كان السبب، فلا بد أنه يظن أنه ستتاح لي فرصة أفضل لجمع المعلومات منهن. وبغض النظر عن دوافعه، فأنا كنت في أمسِّ الحاجة إلى تلك المعلومات.

حاولت أن أتذكر الخريطة التي كنت قد رأيتها في بيت إنفي. تمكنتُ بالفعل من رؤية الغابة، لكنني لم أستطع تذكر موقع بيت جلاتوني بالنسبة إليها.

قلت مستفسرة: «أين تقع غابة الدماء من هنا؟ لقد قال الأمير إنفي إنها ليست جزءًا من أية أراضٍ ملكية، لكن على المرء أن يجتاز تلك الأراضي لكي يصل إليها».

أجابت فاونا متأملة: «من هنا؟ سيكون الطريق الأسرع عبر حلقة برايد».

جلتُ ببصري عبر المائدة الطويلة. فرأيت راث وجريد وإنفي وجلاتوني. ولم أرَ سلوث، لكنني تذكرت ما قاله راث عن تسلله قبل احتفال الخوف. احتسيت شرابي، وأطلقت العنان لناظريَّ لكي يجولا عبر الجانب الآخر من القاعة. فرأيت لاست يتكلف الابتسام لي من الطرف البعيد من الطاولة في الجانب الخص بي، ويلوِّح بإصبعه في حركة ساخرة.

تجاهلته، ثم تساءلت بصوت خفيض: «هل وصل إبليس بعد؟».

خيَّم الصمت إذ توقفت الأحاديث. وتجمدت الأيدي التي تحمل أدوات المائدة والأقداح في منتصف الطريق نحو الأفواه. ربما أكون قد تفوهت بتعويذة توقِف الزمن. وكان من الواضح إذن أن السؤال عن إبليس من المحظورات.

حينئذ اخترق صوت كبير الطهاة القاعة الصامتة قائلًا: «ها هو طبقنا الأخير. لدينا مزيج من النار والجليد معًا. وهو الكريم بروليه، الذي جرى طهوه على النار بينما أنتم جالسون على مقاعدكم، والمُزين بحبات توت العلِّيق المجمدة ومسحوق أوراق النعناع».

بمجرد أن غادرنا كبير الطهاة لنستمتع بالحلوى، شعرت بأصابع دافئة تملّس على معصمي، رفعت عينيَّ نحو وجه راث، فقال لي: «فلتراقصيني الليلة».

وقف كما فعل بقية الأمراء الحاضرين. واندفع الخدم لكي يسحبوا مقاعدهم قبل أن يختفوا مجددًا إلى الظل. سألت راث: «إلى أين تذهب؟».

أجاب: «حان وقت ارتداء الأقنعة».

أكمل جلاتوني: «وخلع رداء الكياسة والتهذيب. أراك في الحفل التنكري».

الثلاثون

لا ريب في أنه أمير الجحيم ذاك كان متمرسًا في استضافة حفلات لا يمكن نسيانها.

وأيًا كان المنظور السلبي الذي سترى تلك الصحفية الحفل من خلاله، فقد كان مسليًا وباهرًا. وكانت قاعة الرقص التي دلفت إليها أنا وفاونا منغمسة في الانحلال حتى الثمالة. وفي عالم البشر كان يُعتقد أن خطيئة جلاتوني تقتصر على الشراهة والنهم للطعام، أما هنا، في الحلقات السبع، فقد كانت تعبِّر عن الشراهة المطلقة والانغماس في الملذات بصورها كافة.

ما كان الحفل الافتتاحي ليلة أمس سوى لمحة مقتضبة فحسب لمدى ما يمكن أن يصل إليه جلاتوني في تطبيق خطيئته المختارة. وكانت الأقداح المصنوعة من الألماس تسكب شراب التوت الشيطاني اللامع على الطاولات والصِّحاف المرصعة بالجواهر. وتدلَّت من الأعمدة المقوسة المحيطة بقاعة الرقص أكثر من دزينة من النجف البلوري.

وحول تلك الأعمدة كان ثمة أكاليل من الزهور المُطعمة أوراقها بالبلور الصافي. وبدا المشهد كله كقصة خيالية شتوية نحن أبطالها. وكما لو أن الجليد مصنوع من الألماس بدلًا من الماء. وحينما التقى ضوء الشموع

بالبلورات والأحجار الكريمة، بدا كأن اللهب قد حُبس داخل الجليد. وهكذا تجسدت فكرة جلاتوني الخاصة بتقديم طعام الليلة في أعظم صورة.

قلت: «إن هذا...»

لكن فاونا قاطعتني فيما يشبه الصياح: «انظري! هناك».

كانت أصناف الحلوى - المُذهبة بالتبر القابل للأكل والمصممة على هيئة وحوش خيالية، كتنانين الجليد المجنحة، والخيول أحادية القرن الجميلة، وكلاب الجحيم ثلاثية الرؤوس - منتصبة في ارتفاع مساوٍ لطول قامات الضيوف. كانت بديعة تأسر الألباب، ولكنها لا تفتح الشهية في الوقت ذاته. ويبدو أن الضيوف لم يجدوا غضاضة في هذا المشهد؛ إذ إنهم التهموا خاصرة الحصان أحادي القرن، وانغمسوا في الكعكة المحشوة بالتوت التي كانت تشبه الدم على نحو لا يناسب ذوقي تمامًا. جذب انتباهي طبق زاخر بالفواكه المغطاة بالشيكولاتة، والمكدسة بارتفاع يماثل تلك، التي أعدها راث لي في الليلة نفسها التي اختبرني فيها حبال الخطيئة.

جُلت بناظريَّ عبر أنحاء القاعة، باحثة عنه وعن الأمراء الآخرين. لكن لم يكن أي منهم قد وصل إلى هذه الفقرة من الحفل بعد. والتفتُّ خلفي لألقي نظرة على حلوى التنين الجليدية متسائلة: «من فاز بالصيد؟».

أجابت فاونا: «أعتقد أنه صاحب السمو، إذ بدا عليه أنه مصمم على الفوز بأي ثمن».

- «أحقًا راث هو من فاز؟».

- «أجل». أمسكت فاونا بمرفقي كما لو أنها تمنع نفسها عن الاندفاع، وأردفت هامسة: «انظري إلى هناك. إن الشائعات حقيقية. لديه غرف للقاء العشاق».

وكما لو كنا فراشتين منجذبتين نحو لهب الغواية، انجرفنا نحو تلك الغرف الفاضحة. وكانت مصطفة على الجانب الغربي من قاعة الرقص، وضوء الشموع الخافت يرتجف من داخلها، والستائر مربوطة بأناقة كاشفة عن اللقاءات العاطفية لكل عابر بالقرب منها.

تشبثت فاونا بذراعي في قوة، وحملقت من وراء قناعها ذي ألوان قوس قزح كلما مررنا بجوار غرفة من تلك الغرف. ومن حسن الحظ أننا كنا نرتدي أقنعة؛ إذ لم أستطع أن أمنع نفسي من الشعور بالخجل.

شعرتُ بالحرارة تشع من وجهي، وعلمت أنه قد صار بالضرورة أقرب إلى اللون القرمزي خجلًا. لكن لم يبدُ على فاونا رد الفعل نفسه.

فجأة، رحت أفكر في راث. وحاولت ألا أدع الشكوك تغرز أنيابها في أفكاري مجددًا.

لم أكن أعبأ بما فعله، أو من قابله ليلة أمس. لكنني أخذت أوبِّخ نفسي في أعماقي. ولو كان راث موجودًا لسخر منيّ بسبب كذبي الصارخ.

قبل أن أتمكن من التمعن في مشاعري بشكل أكثر عمقًا، خيَّم صمت غريب على الحفل التنكري كأنه حوصر بفرقة من الجنود. دققت النظر في قاعة الرقص، باحثة عن سبب هذا التغير المفاجئ. وعندئذ حبست أنفاسي؛ إذ أبصرتُ ستة أشخاص مهيبين يرتدون أقنعة الذئاب، وقد ظهروا من أركان القاعة. كانوا فارعي القامة وصامتين ومفزعين.

كان ثمة شيء ما يطل منهم وهم يقفون معًا، حتى إن معاركهم ومؤامراتهم الباطنة نُسيت بينما صاروا وحدة واحدة مخيفة. ولم يعد هناك مجال إلا للمواجهة أو الهرب. وحتى سادة الجحيم وسيداته بدوا مستعدين للفرار.

خيَّم التوتر على الحشد.

ركزت انتباهي على أضخمهم حجمًا، بينما تقدَّم إلى الأمام. حتى تحت القناع الذي يغطي وجهه، كنت أستطيع التعرف على تلك الخُطى الواثقة أينما كانت. إن راث لم يكن يسير ببساطة داخل أية غرفة، وإنما يمشي بخطى واسعة، ويهيمن على الأجواء. كان يفعل ذلك بكل ثقة وثبات بينما يضمحل ويتلاشى الجميع من حوله تاركين إياه ساطعًا كالشمس في قوتها وحيويتها.

التف الأمراء في بطء حول الحشد، كما لو كانوا يسوقون الجميع، وخطونا أنا وفاونا إلى الخلف مع جميع الموجودين، وأضحت المسافة تضيق بيننا

مع كل خطوة نخطوها. ثم حينما صار الجميع قريبين من المَرقص، التفت الأمراء وراحوا يراقبون السلم.

رفعت عينيَّ عن راث، وانتظرت. وبحركة متناسقة بديعة، شق أمير منفرد طريقه هابطًا على الدرج الفسيح، ويداه موضوعتان في جيبيه، وحذاؤه يلمع كالأحجار الكريمة وسط ضوء الشموع المرتجف. وعبر المسافة الواسعة، استطعت أيضًا سماع وقع خطواته الخافت بينما يطأ النعلان الجلديان الأرضية المرمرية.

اقتربت فاونا قائلة: «إنه برايد ... أمير الكبر».

راقبتُ الأمير المَهيب وهو يمشي الهوينى مخترقًا الحشد الغفير. ومثل الأمراء الآخرين، كان يرتدي قناع الذئب الذي غطى وجهه كله عدا شفته السفلى وذقنه. وكان قناعه مزيجًا من الذهب والفضة، ومبهرجًا لكنه أنيق في الوقت ذاته. لم يوجِّه نظره نحو أحد معين، ولم يعبأ بمن حيّوه أو انحنوا له بينما مر بجوارهم. وكان شعره كستنائيًا ذا خيوط ذهبية مغزولة به، وقصيرًا من الجانبين طويلًا عند القمة على نحو عصري أنيق، ولم تكن ثمة خصلة واحدة عشوائية.

لم تحتوِ حُلته ذات الذيل الطويل ولو على تجعيدة واحدة.

كانت الحلة كُحلية وفضية اللون، ولم يتجه برايد إلى الظل، ولكنه وقف منعزلًا بعض الشيء، كأنه أراد للحضور أن يتذكروا من هو ملكهم.

لم أكن أدرك أنني لا زلت أحبس أنفاسي، وأحدق إليه مستغلة الأمان الذي يوفره قناعي، حتى أطلقتها.

كان إبليس يقف على بُعد مسافة قليلة مني؛ إبليس الذي تزدريه وتبغضه كل المخلوقات تقريبًا. وإذا كانت القصص حقيقية، فها هو الملاك المتمرد المطرود من الجنة أمام ناظريَّ.

لكنه صار ملكًا على الشياطين. ونتيجة إفساد الخطيئة إياه، ومن منطلق وحشيته، بات يحكم أحط القاطنين في كل مملكة. اصطدمت نظرته الفضية بنظرتي، وامضة كشهاب يخترق السماء بسرعة البرق. حينئذ سرت رعدة في

أوصالي. فإن لم أُخطب مصادفة لراث، وإن لم يقبل هو الرباط، لكنت الآن أحدق إلى عيني زوجي.

تفرّسني برايد بداية من قناعي حتى أخمص قدمي، وقد أمال رأسه جانبًا. انتابني شعور مريع بأنه يُقيّمني، ويفكر في الطريقة المثلى لإظهار مهاراته بينما ينال من فريسته. وإذا كان راث يذكرني أحيانًا بالنمر المحبوس في قفص، فقد كان برايد أسدًا ذا لبدة ذهبية.

كان كلا الأميرين ضاريًا فتاكًا. لكن واحدًا فقط هو من كان قادرًا على الامتزاج بالليل، والضرب بقوة وسرعة تحت جُنح الظلام، ثم الانسلال بعيدًا دون أن يُعثَر له على أثر. وأبعدت انتباهي عن إبليس، ورحتُ أبحث عن راث. لكنه كان قد اختفى.

«مرحبًا يا سيدة الانتقام».

تردد صوت قائل هذه الكلمات الخفيض الأجش بعض الشيء في أذنيّ. فبذلت قصارى جهدي لكيلا أُظهر مفاجأتي وتوتري. وتمنيتُ ألا يكون قد لاحظ الشيء الذي أخفيه على جسدي. والتفت نحو الأمير الواقف بجانبي على مهل، وأومأت إيماءة بسيطة برأسي بينما قلت: «مرحبًا يا صاحب السمو». ذلك أنه لم يكن مَلكًا عليّ، ولم يخبرني أحد بأنني مضطرة إلى الانحناء له.

قال برايد: «هلا تشرفينني برقصة معي؟».

غرزت فاونا أسنانها في شفتها السفلية، وكادت تقفز فعليًا على باطن قدميها وهي تومئ لي بقوة لتشجعني على القبول.

قلت: «أنا...»

قال: «أنتِ ماذا؟» ثم جال ببصره عبر القاعة، وفي عينيه ومضة تنم عن سعة المعرفة. تراجع الحشد إلى الخلف كأنهم مذعورون من وقوع بصره عليهم. فخلت ساحة الرقص على الفور. أردف برايد متسائلًا: «هل هنالك شخص ما كنتِ تودين الرقص معه أولًا؟ إن كان الأمر كذلك، فلنجعله يندم على أنه لم يطلبك للرقص قبلي».

رددت قائلة: «سأرقص معك، لكن تأكد أنه ليس ثمة دافع خفي وراء موافقتي».

قال: «أجل، بالطبع».

بقي مسرورًا بينما جذبني نحو ساحة الرقص، وبدأت الفرقة الموسيقية عزف مقطوعة فالس على الفور. ولعدة لحظات، مكثنا صامتَين. أخذ يدور بي بسلاسة في جنبات القاعة، وحينئذ كدت أفقد أعصابي لرقصي في العلن بينما راح يقودني عبر خطوات انسيابية. كان لطيفًا ويشبه ألماسة براقة مغلفة بالذهب الأبيض النقي.

أو لعل ذلك ما أرادني أن أعتقده، وهو في الحقيقة ليس سوى سيف بتار شُحذ في الجحيم، ويفتك كالخطيئة. بينما رقصنا معًا، وصرنا أكثر قربًا، انتظرت أية ومضة من الذاكرة تدل على أنه هو الحبيب الذي كان معي في رؤياي، لكن لم يبدُ أن روحي قد تعرفت عليه.

اقترب مني قائلًا: «إذا كان قناعي يعجبك إلى هذا الحد، فلتنتظري حتى أخلعه».

قلت: «أؤكد لك أنني لا أنظر إلى قناعك يا صاحب الجلالة. صدقًا أحاول أن أعثر على مجموعة جديدة من القرون أو الأنياب».

عندئذ لمعت عينا برايد بينما رد: «بإمكاني أن أكون مرعبًا، فقط عندما أريد».

- «أنا على يقين بذلك، لكن ليس كشخص أعرفه».

- «أهو راث؟» ارتخى فمه بينما جُبت قاعة الرقص بعينيَّ بحثًا عنه، وكأن مجرد نطق اسمه كافٍ لاستدعائه. ثم استطرد برايد: «أنا لست معتادًا رفيقات في الرقص على هذا القدر من الجمال، يفكرن في أخي بينما هن بين يديَّ».

لم أستطع أن أمنع نفسي من الضحك علانية أمام إبليس، إذ قلت: «أنت مغرور للغاية».

قال: «إن الغرور إحدى سمات عائلتنا الشهيرة. مع أنني أؤكد لك أن لهذا الغرور مسوغاته القوية».

- «ليس أمامي سوى أن أثق بكلامك يا صاحب السمو».

واصلنا الرقص، وسط رفقاء آخرين انضموا إلينا، وكانت خطواته ثابتة وانسيابية بينما أخذ يجول بي مرة تلو أخرى. وحتى بعد درس راث المفاجئ، كنت لا أزال قلقة من أن أخطئ في الخطوات، أو أن أطأ قدميه، لكن براعته كانت كافية لتتغلب على أخطائي. وكان جزء مني يشعر بخيبة الأمل. فإذا كان هذا الأمر قد سار بصورة فظيعة، فلربما صار خوفي الأكبر الآن.

قلت: «إن أمير الغضب جاد تمامًا مقارنة ببقيتكم».

قال برايد: «إن هذا ما يتقنه - فهو يتفوق في الحرب وإقامة العدل. وكلاهما أمر جاد. وهذا هو سبب عدم رغبة أي منا في إزعاج نفسه بأمور الحكم الصعبة». عندئذ قطبت جبيني، بينما أردف: «إن هذه المملكة كانت لتفكك نفسها لولا إخضاعه إياها عن طريق الخوف».

قلت: «لا أظن أنني أفهمك».

أخذ برايد يؤرجحني معه في دوائر حتى استطعت رؤية راث متكئًا على عمود رخامي. كان قناعه مرفوعًا إلى الخلف، وعيناه لا تفارقان كل خطوة نخطوها، وكل دورة ساحة الرقص .

على ما يبدو لم يكن مسرورًا أو غاضبًا، لكن تراءى شيء في مُحياه جعلني أعتقد أنه ... يشعر بالغيرة. أنزل برايد يده ومسد ظهري، ولا شك أنه فعل ذلك عن عمد لمضايقة راث. وعندئذ وطئتُ قدمه، فابتسمت في داخلي بينما انتفض.

قال برايد: «إن راث العزيز هو رُمانة الميزان؛ فدونه ننجرف نحو الدمار الساحق. راث هو التجسيد الخالص للعدالة غير المتحيزة لطرف دون آخر. ويهابه الجميع لأنه لا يتردد في تنفيذ الأحكام، وإنفاذ العدالة على من يستحقون العقوبة. وإذا كان عليه أن يرسل أحدًا إلى سجن اللعنة، أو ما يضاهي الجحيم بالنسبة إلى البشر، لا يكون ذلك بسبب جُرم عادي».

حتى الآن، لم يتحدث أحد عن أرواح البشر التي كانت تُرسل إلى هنا، لكنني تساءلت: «أين يقع هذا السجن؟».

قال: «من الرائع أن تعتقدي أنني سأخبرِك. هل سألتِ راث؟».

كنت شبه واثقة بأنه قال شيئًا عن جزيرة قبالة الساحل الغربي. فأجبته قائلة: «كنت أظن أن هذا من صميم دورك».

- «إن القواعد تكون أكثر إمتاعًا عندما تُكسر». ثم رفع كتفه، وأردف: «والتفويض يعَد جزءًا من الحكم أيضًا، أليس كذلك؟».

قبل أن تتسنى لي الفرصة للإجابة، دار بنا عبر القاعة سريعًا مجددًا، وكانت حركاته انسيابية ورشيقة، لكن لا يمكن الفكاك من طغيانها. من منطلق إدراكي عدم رغبته في التحدث عن السلطة مجددًا، قمت بتغيير خططي. وانتظرت حتى صرنا بعيدين عن الأزواج الآخرين، ثم قلت بهدوء: «أنا أعرف أنه شأن خاص، لكنني أردتُ أن أقدّم التعازي لك».

شعرت ببرايد يتوتر. وشككت في أنني كنت سأشعر بهذا لولا أننا كنا نرقص، ولهذا السبب تحديدًا أردتُ أن أتطرق إلى هذا الموضوع ونحن في ساحة الرقص.

استرسلت حينما ظل صامتًا: «إن فقد أحد الأحبة لهو لون شنيع من ألوان الألم، لا أتمناه حتى لألد أعدائي».

قال: «على الرغم من يقيني بأنني وإخوتي مُدرجون على قائمة من تعدّينهم أعداءً، فإنني سعيد لسماع هذا منك».

كان كلامه صحيحًا جزئيًا فقط، لكنني لم أُصوبه. أثناء الجولة التالية حول ساحة الرقص، انزلق قناعه إلى الخلف، كاشفًا عن ثغره. فرأيت ندبة مائلة صغيرة غائرة من شفته العليا وحتى أسفل شفته الدنيا مباشرة. كنت قد رأيتها من قبل، فتمنيت أن يظن أن تسارع خفقات قلبي ناتج عن الإيقاع المتصاعد للرقص.

كنا ننساب بالقرب من حافة المرقص، مقتربين من ركن خفي وراء سلسلة من نباتات السرخس المزروعة في أصص خزفية. وفور أن خطونا

بالقرب منه، جذبته إلى تلك البقعة الظليلة، بعيدًا عن الأعين المتلصصة. ولم أتمكن من رؤية وجهه بوضوح، لكنني سمعت أنفاسه الحادة بينما دفعته نحو الحائط، وأدنيت شفتيَّ من أذنه.

دون الحاجة إلى المزيد من التشجيع، خلع قناعه، وألقاه أرضًا، ثم شرع في رفع قناعي، مخطئًا في إدراك طبيعة وضعنا الحالي، ومتخيلًا إياه شيئًا آخر.

وهو رد الفعل الذي كنت أتمناه.

قلت: «إن أخاك يعتقدك فاسقًا، وأنك تعاقر الخمر، وتدمن العشيقات إلى حد عدم الاكتراث بأي أمر على قدر من الأهمية». عندئذ تراجعت بما يكفي لأتفرس فيه. فرأيت أن القلق بدأ يتسرب إلى ملامحه. حينئذ أضفت: «ومع ذلك كنت تقود حراسك حول أراضي بيت برايد صبيحة اليوم، دون أن تبدو ثمِلًا على الإطلاق».

قال وهو يتصنع الارتباك كممثل محترف: «أستميحك عذرًا؟» لاحظت حينها أنه لم يجب عن سؤالي مباشرة، لكي يتجنب الكذب. ثم قال: «إنني هنا للتقبيل لا الاستجواب. وإذا كنتِ مهتمة بالتحدث، فبوسعي أن أجد موضوعات أكثر تشويقًا».

قرَّب فمه من ثغري، فأوقفته بضربة من راحة يدي على صدره.

قلت: «فلتسمح لي بالتحدث بوضوح أكبر يا صاحب الجلالة. لا تقف أمامي متظاهرًا بأنك لا تتذكر أنك الشخص الذي جعلني أترجل عن فرسي. لماذا حبستني رهينة في بيتك طوال تلك المدة؟ هل لتخفي عدد الحراس الذين يجوبون أراضيك؟».

قال: «لا يمكنك أن تتوقعي مني أن أكشف مثل تلك المعلومات لبيت آخر».

– «حسنًا. لكن لتُجب عن هذا السؤال من أجلي. لمَ تُوهم الآخرين بأنك ثمِلٌ على الدوام تقريبًا، وبأنك متكبر على عكس الحقيقة؟».

– «كمسألة مبدأ، نادرًا ما أكشف عن وجهي الحقيقي لأي أحد. ومن الحكمة أن تفعلي الشيء نفسه».

تجمدت نظرتي على الندبة؛ إذ شككت في أن يكون هذا السبب الوحيد لرغبته في الاختفاء. فتساءلت: «أنت، لم تظهر في دار العبادة في تلك الليلة، الليلة التي أمسكت فيها بأنتونيو. هل كان ذلك بدافع إخفاء هويتك؟».

- «أليس من الواجب ألا تسألي عن اللعنة؟».

إنها خطة مراوغة شيطانية مألوفة؛ تتمثل في الإجابة عن سؤال بسؤال آخر. قلت له: «أعلم أن ميلادي يُعَد إيذانًا بنهاية لعنتك؛ لذلك لا بد أن لديك أسبابًا أخرى للاختباء».

عندئذ اندلع غضبه. إذن، أصابت ضربتي لكبريائه هدفها. قال: «أنا لم أكن أختبئ، بل كنت مشغولًا بأمر آخر».

- «حسنًا، على الرغم من تأكدي من إمكانية استمرار المراوغة في الحديث إلى الأبد، فأنا لم أنفرد بك من أجل ثرثرة فارغة».

- «إذن فلننتقل إلى الجزء الممتع». مرر برايد يده على جسدي حتى توقف بالقرب من فخذي، عندئذ قطَّب حاجبيه مردفًا: «ترى ما الذي لدينا هنا؟».

أجبت: «إنه خنجري». وتبسمت بينما رفع يده عني فجأة، واستطردت: «ها هو الجزء الممتع. سأعبُر أراضيك مرتين وفي الوقت والتاريخ الذي أختاره، دون أي تدخل منك، أو من رجالك، أو أي أحد من رعايا بيت برايد أو هذه الحلقة».

- «ولِمَ ينبغي أن أوافق على هذه الصفقة؟».

- «لأنني على علم بأحد أسرارك».

- «إن مواهبي العاطفية ذائعة الصيت».

لم تكن سخريته سوى محاولة أخرى للمراوغة. إذن، فقد ضيَّقت الخناق عليه، وها هو يبتسم لكي يخفي انزعاجه. ولقد تظاهر بعدم الاكتراث ببراعة.

- «لن أخبر إخوتك بجذر النعاس. فأنت لديك ولا ريب ما يكفي منه لتهزم جيشًا عن بكرة أبيه. ويبدو يا صاحب السمو أنك تريد بشدة أن تحتفظ بتلك المعلومة لنفسك. على عكس مواهبك العاطفية التي تتفاخر بها».

كانت نظرته قاسية وحذرة. واختلجت عضلة في فكه بينما أومأ برأسه موافقًا، وقال: «حسنًا».

قلت: «عليك أن تكون أكثر تحديدًا».

قال: «بإمكانك أن تعبري أرضي مرتين دون أي إزعاج من أي أحد ينتمي إلى حلقتي. وفي المقابل لن تخبري أخي بجذر النعاس». ثم أردف وهو يحدق إليَّ في غضب: «أهذا يرضيك؟».

- «أكثر مما يمكنك تخيله يا صاحب السمو».

تسلل الشك إلى ملامحه؛ إذ إنه ارتكب من فوره خطأ فادحًا.

التفتُّ وخطوت إلى خارج ركننا الصغير، لكن لم يمر وقت طويل قبل أن يستقبلني أمير آخر. وكان قناع إنفي قد أُزيل الآن أيضًا، ولمعت عيناه الخضراوان بينما راح يحدق إليَّ قائلًا: «لعبة جيدة يا ساحرة الظل. أميران بحجر واحد».

قلت: «هل أنت ثمِل؟».

قال: «ليس من أثر الشراب». وابتسم ابتسامة أظهرت غمازتيه، ثم أردف: «لقد جئت لأرافقك يا ضيفة الشرف. فقد حان الوقت لتروي ظمأنا بأكبر مخاوفك. ولا يمكنني أن أصف لك مدى تعطشي المفاجئ له».

الحادي والثلاثون

رأيت فاونا وسط الحشد المزدحم، كانت بشرتها الداكنة قد صارت شاحبة إلى حد كبير أسفل قناعها. وتلفتت صديقتي حولها كما لو كانت تحاول العثور على طريقة لتشتيت هذا الجمع وإيقاف هذا الكابوس قبل أن يبدأ. كان أنير يقف بجوارها، ووجهه يتوهج بالغضب الذي يجعله لائقًا تمامًا ببيت الخطيئة الذي ينتمي إليه.

بدا أنير متأهبًا لجذب سلاحه، الذي كنت أعلم أنه مخفي تحت ردائه المسائي، والدفاع عني على طريقته. وكانت نظرته الجادة تتوعد من يجرؤ على إيقافه بملاقاة غضبه الهادر. كان هو وفاونا يعلمان جيدًا أنه لا مهرب من الاختبار الذي سأخوضه، لكنهما لم يكونا راضيين عنه، وقد عزما على جعل الأمر صعبًا على الأمراء. ومع ذلك القلق الشديد الذي كان يسري داخلي، رفع تعبيرهما عن صداقتي من روحي المعنوية.

جذبت نفسي بعيدًا عن ذراع إنفي التي كان يقدمها لي، وتلفتُّ حولي، باحثة عن راث. فقد كنت في أمس الحاجة إلى هدوئه المألوف لكي تهدأ أعصابي. درتُ على عقبَي، وأنا أبحث وسط الأكتاف والرؤوس عن قامة الأمير الشيطاني الفارعة. وبالطبع، لم أعثر له على أثر مجددًا.

لم ألمح لاست أو جريد وسط الحشد أيضًا. أما سلويث فلا بد أنه كان موجودًا - فمنذ برهة كان ثمة سبعة أمراء يرتدون أقنعة الذئاب - لكنه بدا غائبًا بالمثل، أو يتسكع في مكان ما. ربما كانت هناك قاعة للألعاب يجتمعون فيها. كان جزء مني يرغب في اقتحام جميع غرف القلعة بحثًا عنهم، حتى أعثر عليهم. لكن هذا كان المُحال عينه. ولعلها كانت نعمة ألا يشهد جميع الأمراء السبعة خوفي الأعظم، وهو ينكشف على رؤوس الأشهاد.

انسل برايد من الركن الذي عقدنا فيه صفقتنا، ومشى على مهل نحو أحد الأعمدة، تاركًا إياي لأخوض هذه المحنة بمفردي، وهذا التصرف لم يدهشني ألبتة.

قال إنفي وهو حتى لا يحاول إخفاء الحماس في صوته: «هيا، فلتسمحي لي بتقديمك إلى رئيس الاحتفالات».

تبعته مخترقة الحشد الذي انقسم لكي نمر، وضربات قلبي تخفق مع كل خطوة تقرّبنا من منصة جرى إحضارها إلى القاعة، كان ينتظرنا شيطان ذو بشرة زرقاء وعينين حمراوين، يحمل في يده خنجرًا بغيضًا. كانت معجزة أن فؤادي لم يقفز من صدري حينها. وعندئذ رفعت طرفي ثوبي المرصّع، بينما صعدت على الدرجات لكي أقف بجوار الشيطان. أومأ برأسه إيماءة واحدة، ثم رفع الخنجر فوق رأسه، مستعرضًا الرموز السحرية المنقوشة عليه، فهاج الحاضرون فور أن رأوا ذلك المشهد.

قال رئيس الاحتفالات: «دون الكثير من الكلام، إن لم تكن هناك أية اعتراضات، سوف نطلق الخوف الأعظم من أعماق ضيفتنا». ثم مد يده نحوي مستطردًا: «أيتها السيدة إيميليا، فلتتكرمي وتعطيني رسغك؛ إذ لا بد أن آخذ قطرات قليلة من دمك لكي يعمل السحر».

عندئذ اندلع الهلع في كل ذرة من جسدي، ولم يستطع نظري أن يتجاوز البقع البيضاء الصغيرة الطافية أمام عينيَّ، بينما رفعت ذراعي ببطء، فطيلة حياتنا عكفت نونا ماريا على تعليمنا الحفاظ على دمائنا من الأعداء. وها أنا

أقف الآن وأفرط في دمي بكامل إرادتي دون مقابل، مانحةً إياه الخنجر ذا الرموز السحرية ليسلب أسراري.

مددتُ ذراعي في ثبات، وأنا أقاوم الميل لشده والفرار بعيدًا.

وما يُحسَب إلى رئيس الاحتفالات أنه لم يعبِّر عن الفرح أو الانتصار، وإنما بادرني بنظرة متعاطفة وهمس قائلًا: «إنها مجرد شَكَّة عابرة، وسينتهي الألم سريعًا».

شعرت بالنصل كأنه جليد على بشرتي. لكن الهلع سيطر عليَّ. لقد كان هذا يحدث بالفعل. وأغمضت عينيَّ بقوة، وأنا أدعو الإلهات في صمت لكي...

وفجأة هتف صوت عميق: «توقف، أنا مَن سأضحي بسر من أسرار مُهجتي».

ابتعد حد الخنجر عن جسدي على الفور. ففتحتُ عينيَّ، ورحت أُقلِّب بصري بين رئيس الاحتفالات والحشد المجتمع. والتفت الجمع كله في اللحظة نفسها، وهم يحدقون إلى الشيطان الذي تحدث، والصدمة باديةً على وجوههم. أما أنا فتتبعتُ نظراتهم حتى وجدته.

كان راث واقفًا وذراعاه معقودتان، ونظره مثبت عليَّ.

قال رئيس الاحتفالات: «مع كل احترامي يا صاحب الجلالة، لا يمكنك أن تخضع بنفسك ...»

رد راث: «لقد فزت بالصيد، وأنا أطلب ذلك باعتباره جائزة لي».

أخذ رئيس الاحتفالات يهز رأسه كما لو كان يفكر مليًّا، ثم قال: «أنا ... أنا لا أعتقد أن ذلك ممكن دون أن تتكبَّد ثمنًا فادحًا».

قال راث: «أنا أعلم الثمن جيدًا».

راقبتُ راث وهو يشق طريقه عبر الممر، ثم صعد على سلم المنصة، وأنا غير مصدقة ما يحدث. هل كان يخشى أن تكون للكشف عن أكبر مخاوفي عواقب أخطر من الكشف عن حقيقته؟ لقد درَّبني راث على تحمل تأثير الشياطين، لكنه لم يبدُ قلقًا مطلقًا من هذا الجزء من الحفل. تُرى هل كان عازمًا منذ البداية على أن يخوض هذه المحنة بدلًا مني؟

لقد كانت لديه خططه، لكن لم يكن لديَّ ما يرشدني لاستنتاج غايته.

دون أن يرفع راث عينيه من عليَّ، خلع سترته وشمَّر عن ساعده الأيسر. عند رؤية الحشد لوشمينا المتطابقين، سرت همهمة بين أفراده، ومن ثم بدا من الواضح أن بعضهم لم يكن على علم بخطبتنا.

من وجهة نظرهم، كان التودد إلى أحد الأمراء شيئًا، وعقد رباط سحري للزواج به شيئًا آخر تمامًا. وربما ظنوا أن شهامته غير المتوقعة لم تنتج إلا من تعويذة سحرية من نوع ما. لم يستطع رئيس الاحتفالات سوى أن يحدِّق إلى الأمير الشيطاني فاغرًا فاه. حينئذ شككت فيما إذا كان هذا الأمير قد قدَّم عرضًا كهذا من قبل. حتى إنني لم أستطع أن أصدق ما يحدث أمام ناظري. أيُعقل أن يتطوع راث - الشيطان الذي يقدِّر أسراره أكثر من أي أحد آخر - بالبوح بأحدها هكذا؟

وبالنسبة إليَّ، لم أعُد تصرفه هذا - أمام أعين جميع أعدائنا -إعلانًا عن الحب، لكنه كان قريبًا من هذا.

أخيرًا، أبعد راث انتباهه عني، وقال لرئيس الاحتفالات: «فلتُحضر الخنجر».

تحسس رئيس الاحتفالات الخنجر في ارتباك؛ إذ كان من الواضح أنه غير مرتاح لغرزه في أحد حكام الجحيم قائلًا: «أنا ... قبل أن نبدأ، علينا أن نحصل على تصويت إخوتك على منحك هذه الجائزة».

حينئذ برز برايد فجأة من جوار العمود الذي كان متكئًا عليه، وعيناه الفضيتان تضيقان محذرتَين، بينما قال: «فليكف هذا. إن ما يحدث ممل للغاية. بالتأكيد ثمة جائزة أكثر تسلية يمكنك أن تطلبها. أنا أرى أن الأسرار مُضجرة». وراح يحدِّق إلى أخيه في تحدٍّ، ثم أردف: «ربما تتخذ تضحية هذا العام شكل لقاء محرَّم بين عاشقين. وأنا على ثقة بوجود متطوع يرغب في لقاء ضيفة الشرف. وهكذا سيكون باستطاعة أخي أن يختار جائزة أخرى».

حوَّل الشياطين المجتمعون نظرهم في وجَل من راث إلى ملكهم، وهم يحبسون أنفاسهم.

«كلا».

هكذا جاء رد راث بصوت أكثر برودة من الجليد. وعندئذ نظر نحوي، ربما ليرى ما إن كانت الفكرة قد أثارت إعجابي، وقد تسرع هو في الرد. تصورتُ أنه إذا كنت قد وافقت على لقاء برايد، كان راث سيتراجع، ولن ينبس بكلمة احتجاج، بغض النظر عن مدى مقته ذلك.

ويا له من مقت! فعندئذ انزلق قناع اللامبالاة عن وجه راث، ولم يرتده مرة أخرى.

قال إبليس وعلى وجهه ابتسامة خبيثة، بينما وجَّه راث نظرة حذرة نحوه: «يبدو أن هناك سوء فهم». بدا على برايد التباهي والرضا لأنه ألقى بالطعم المثالي، وأوقع راث في فخه الحقيقي؛ إذ أردف قائلًا: «لم أقصد اقتراح تقديم خدماتي. فبما أن السيدة إيميليا خطيبتك، أظن أنه ينبغي أن تكون أنت الوحيد المقرَّب منها يا أخي».

تيبستُ مكاني إذ خطر على ذهني إتمام زواجنا. وكان برايد يعلم ذلك. لم يبدُ أنه منزعج من الفكرة؛ بل بدا كذلك أنه يستعجل زواجي بأخيه. ما بيَّن أنه لم يكترث يومًا بالعقد الذي وقَّعتُ عليه، وأنني لم أكن مخطوبة له يومًا ما، إذن ما الذي كان يحدث بحق النيران السبع؟ إذا كانت لعنة إبليس قد كُسرت بميلادي أنا وفيتوريا، فلمَ كذب الشياطين بشأن العرائس؟ لم أكن قادرة على فهم ذلك.

إنفي، الذي كان متجهم الوجه لتدخُّل راث، ومقاطعته فعاليات كشف خوفي، اشرأبَّ عنقه فجأة ليشاهد ما يحدث.

عندئذ نظر راث نحوي، ووجهه خالٍ من أي تعبير، فيما عدا توترًا خفيفًا في العضلات المحيطة بفمه. وكانت تلك هي الإشارة الوحيدة عن عدم رضاه عن تحوُّل الأحداث.

أيًا كان ما رآه في وجهي، فقد قال بنبرة قاسية عندما خاطب أخاه مجددًا: «انتقِ خيارًا آخر أو تراجع، ودعنا نصوِّت على إتمام الحفل».

قال برايد بتثاقل: «لقد أخبرتك. لقد مللت من الأسرار؛ لذا حان الوقت لتقليد جديد. وأنا واثق بأن ضيفتنا ترغب في الموافقة».

أومأ برايد إلى جلاتوني. فحك أمير هذه الحلقة يديه إحداهما بالأخرى قائلًا: «في الواقع، أحب كسر القواعد. لديك خياران، إما أن تلتقيا كعاشقين في واحدة من الغرف الزجاجية هنا». وعندئذ وقف جانبًا، وبحركة مسرحية متكلفة جذب حبلًا ذهبيًا، فأزاح الستائر عن مخدع فارغ تضيئه الشموع، ثم أردف: «أو...»

قاطعتُه، فأثرتُ دهشة الجميع بمن فيهم أنا: «أو في جناحك الملكي».

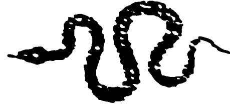
قال راث مندهشًا: «جناحي أنا؟»، وراح يحملق إليَّ بينما أومأت إيجابًا، وقال: «ليس علينا أن نغير القواعد يا إيميليا. فإذا أردتُ أن أطالب بكشف الخوف كجائزة لي، فسأفعل لا محالة».

قال جلاتوني، وعلى وجهه ابتسامة عريضة، بينما دوَّى غضب راث عبر قاعة الرقص: «ذلك فقط إذا حصلت على ما يكفي من الأصوات. ربما تكون قد فزت بالصيد حقًا، لكن هذه لم تعُد جائزتك لتطالب بها. إننا نغيِّر تضحية ضيفة الشرف. وهي قد اتخذت قرارها. وبإمكانك أن تختار الجناح الملكي، أو الغرفة الزجاجية، أو الأفضل من كليهما، هو أن تتما المهمة هنا، أمام أعيننا».

أدلى إنفي بدلوه في الحديث، وابتسامته البريئة للغاية تدل على أنه كان يستخدم الخطيئة التي يتربع على عرشها للسخرية من أخيه: «ذلك إلا إذا أردت أن تتنحى عن تلك المهمة ليتطوع شخص آخر للقيام بها. وأنا أضم صوتي لصوت جلاتوني. فهو صاحب البيت».

قال راث «كلا». قالها بصوت ينم عن عدم وجود مجال في حلقة الجحيم تلك لتحويل حياتنا الخاصة إلى مشهد يتفرج عليه الرائح والغادي، وعن أنه سيعلنها حربًا إذا أقدم إخوته على أية مناورات.

لم يفقد جلاتوني أعصابه، حتى إنني لم أستطع أن أحدد ما إذا كان غاضبًا أم سعيدًا كما هو دائمًا، بينما قال: «سيعقَد اللقاء بينكما في جناحك الملكي». ثم صفَّق مرتين، ونادى: «يا رئيس الاحتفالات. فلتُتم المراسم».



أخذ راث يذرع الجناح الملكي الهادئ جيئة وذهابًا، كأنه وحش هائج محبوس في قفص. ولم يهم ما إذا كان هذا القفص عبارة عن مخدع فخم مزوَّد بالشراب المثلج والفواكه المغطاة بالشيكولاتة والثريات البلوَّرية وأغطية السرير الحريرية، فضلًا عن خطيبته التي تتمنى رضاه.

حتى إن لم يكن قد عرض كشف أحد أسراره ليحافظ على أسراري، لكنت سأظل مُتَيمةً به. لقد حان الوقت للتوقف عن الكذب على نفسي. إن التوقف عن التظاهر بأن ما يجذبني نحوه هو إغواء هذا العالم ورباطنا فحسب. لقد كنت أريده هو؛ فشخصه المهيب هو من كنت أبحث عنه في كل قاعة مزدحمة. وحمايته هي التي كنت أرحب بها، وحتى خطيئته، كانت هي الأكثر توافقًا مع طبعي وميولي.

وبغضِ النظر عن ماضينا، والظروف التي أحضرتنا إلى هنا وإلى هذه اللحظة، معًا، فقد أردت وصاله.

لم يبدُ أن الأمير يبادلني الشعور نفسه؛ إذ إنه سار نحو المدفأة، واستند إلى الرف الذي يعلوها، وهو يراقب اللهب بينما يتحوَّل إلى اللون الفضي، ويتأجج أمام ناظريه. لم يكن قد تحدث في طريقنا إلى هنا، ولم ينظر إليَّ ولو مرة واحدة منذ أن دخلنا إلى جناحه.

ودون أن يلتفت لينظر إليَّ، قال: «لم يفت الأوان بعد لأفصح عن سر من أسراري بدلًا مما يطلبونه. ليس علينا أن نفعل ذلك. لقد وعدتكِ بأن يتاح لكِ

الخيار، وأنا أفي بوعودي. لن يصوِّت إخوتي ضدي، بغض النظر عما قالوه آنفًا».

قلت: «لكنني اخترت».

التفت نحوي أخيرًا، والغضب يتأجج على محياه، بينما قال: «إن انتقاء أحد خيارين كليهما مُر ليس باختيار».

قلت متسائلة: «وهل لقاؤك يعد خيارًا مُرًّا؟».

قال: «لا تهوِّني من الموقف».

قلت بجدية: «أنا لا أفعل ذلك. وأنا لم أرغب قط في أن أفصح عن أحد مخاوفي أو أسراري. لكنني لا أستطيع قول الشيء نفسه عن مشاعري نحوك».

تحوَّل نظره من عيني إلى ثغري، وهو يقول: «ليس الأمر هكذا».

قلت: «أليس هذا هو الاقتراح الأكثر رومانسية؟ لا يمكن أن ننكر أنه ليس كذلك. ومع ذلك لا يمكنني القول إنني لست راضية. وما دمت خبيرًا في الشعور بالعواطف والأكاذيب، ينبغي أن أعتقد أنك تعلم ذلك. لهذا لم يتبقَّ لي سوى أن أظن أنك منزعج؛ لأنك تشعر بأن خيارك قد سُلب منك». حينئذ مر برأسي خاطر آخر، فاستطردت: «أو لعلك لا ترغب في إتمام رباط زواجنا».

سألني: «هل هذا ما تظنينه؟».

أجبته: «إذا كنت قد زرت امرأة أخرى أمس ولا تريد أن تكون معي، فأنا أتفهم الوضع. وباستطاعتنا أن نعود إليهم، وسأخوض طقوس كشف الخوف. أنت لست مَدينًا لي بأي شيء».

أخذ راث يسير ببطء عبر الغرفة، بينما مكثتُ صامتة. عندئذ وضع يديه في رقة على ظهري، وجذبني نحوه، فسَرَت في جسدي رعدة خفيفة. وشعرت بمشاعره الصادقة نحوي.

قال بصوت جاد عميق: «أرأيت؟» طرق صوته أعماقي، فجعلني أكثر انجذابًا نحوه، ثم أردف قائلًا: «إنها ليست مسألة مشاعر يا إيميليا».

- «إذن، ما المشكلة؟».

- «فلتسميها أنانية. لكنني لا أريد أن تدفعك أية قوى خارجية لتصبحي زوجتي». رفع وجهي نحوه واسترسل: «عندما تقررين أن تجتمعي بي كزوجين، أريد أن يكون ذلك بمحض إرادتك، وأن تعرفيني تمام المعرفة».

- «لكنني أعرفك».

- «أحقًّا؟ أريد أن أسمعك تهتفين باسمي».

غيرتُ الموضوع على حين غرة قائلة: «لقد اشترط إخوتك وجود لقاء غرامي فحسب، ولم يذكروا صراحة أنه علينا أن ...»

أخذ يضحك بصوت مرتفع عندما احمرّت وجنتاي بينما لعنتُهم ولعنتُ الشيطان في صمت.

داعب راث وجنتيّ بأنامله في دفء. وتدفقت مشاعره المتأججة نحوي.

قال لي: «إنك غاية في الجمال».

وحينئذ اقترب أحدنا من الآخر أكثر فأكثر، ولم يعد من سبيل لمقاومة عواطفنا.

الثاني والثلاثون

بقيت بين ذراعي راث، دون أن يرغب أحدنا في الابتعاد عن الآخر. أخذ يتتبع وشمي بلمساته الحانية، فشعرت بما هو أعمق وأصدق من التعبير المادي عن الحب. لم أكن متأكدة من إدراك راث لعواطفه نحوي بصورة كاملة، ما عقّد الأمور على نحو أكبر.

حاولت أن أبدد قلقي بأي ثمن وأعيش تلك اللحظة بكل مشاعري.

وإذا براث يهمس في أذنيَّ: «أخبريني يا خطيبتي العزيزة، هل أنت واثقة بأنك تريدينني زوجًا لك؟ هل أنت مستعدة وراغبة في أن تقضي حياتك إلى الأبد هنا، معي؟».

كان عقلي لا يزال يفكر، لكن أحاسيسي كانت منجذبة نحوه، وكان كل ما يحول بيني وبين إتمام زواجنا الآن هو مُهمتي فحسب، أما مشاعري فكانت ملكًا له على نحو لا يُصدَّق. وهكذا، وبعد جهد مُضنٍ أبعدت نفسي عنه، وهو لم يقاوم أو يغضب. لكن لتخفيف أثر رفضي وصدِّي إياه، قبَّلته قبلة بريئة، ثم قلت:

«ما رأيك في احتساء الشراب؟».

راح راث يراقبني بتمعن، لكن لم يبدُ على مُحيَّاه أي أثر لخيبة الأمل، أو الألم الناجم عن جرح رفضي إياه من فوري.

سرتُ نحو غرفة المعيشة حيث يوجد الشراب المثلج. وكان قلبي يخفق بشدة، فنظرت من وراء كتفي لأتأكد من أنه ما زال راقدًا على السرير، ثم تلوتُ صلاة سريعة لإلهة الأكاذيب والخداع، لكي تأخذ بيدي في هذا الطريق.

كنت قد منحتُ شخصًا أحببته وعدًا قبل أن أعرف راث. وكانت هذه هي اللحظة المناسبة لتجاوز هذا الأمر. بغض النظر عن كم الألم الذي اعتصر قلبي، وهو يتأهب للنكوص عن الوعد.

جذبتُ الغرض الذي كنت قد حكته في ثوبي، وكانت حركاتي واثقة وسريعة. وقبل أن أتراجع عن قراري، نثرتُ القليل من المزيج في قدح راث، ثم سكبت الشراب عليه، ووضعت تمثة من الفواكه المغطاة بالشيكولاتة في كل قدح. أخذت الفقاقيع تتصاعد حول المزيج غير المُرحب به الذي أضفته، ما يسر لي تحقيق ما أردت وهو إخفاء غدري.

عدت إلى السرير، فسررتُ لرؤية راث هناك كما هو، وعلى شفتيه الشريرتين ابتسامة توحي باسترخائه وخلوده للراحة.

لو كنت في حياة أخرى، ما ترددتُ في العيش في سعادة معه إلى الأبد.

قدمت إلى الأمير شرابه، ثم رفعتُ قدحي وأنا أقول له: «في نخب البدايات الجديدة. أتمنى لك أحلامًا سعيدة».

قطّب راث جبينه متعجبًا من الجزء الأخير من النخب. وربما لأنه تذكر أنه قال ذلك لي ذات مرة، لم يعلق، واكتفى بمس قدحه بقدحي، ثم احتسى الشراب كله في جرعة واحدة.

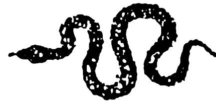
احتسيتُ شرابي، ورحتُ أعد في صمت. فارتطم قدحه بالأرض قبل أن أنتهي من رشفتي الأولى.

قال وأجفانه متثاقلة، وغضب إدراكه الخيانة يندلع في عينيه: «إيميليا». انخفضت فجأة درجة الحرارة من حولنا، ثم عادت إلى طبيعتها بينما راح يحارب عدوًّا غير مرئي بقوة قبل أن ينهار في بطء.

وهكذا لم يعُد شيطان الحرب القوي يمثل أي تهديد.

وضعتُ قدحي على المنضدة المجاورة للسرير، ثم مددت يدي لأمشط شعره بعيدًا عن جبهته. وأيًا كان السلام الذي عقدناه، لا شك في أنه سيتبدد فور استيقاظه. لقد كانت تضحيةً رغبتُ في تقديمها، لكن ذلك لم يسهّل الأمر عليَّ. طبعتُ قبلة على جبينه، لأتمتع باللحظة قبل أن أرحل.

قلت له: «أحلام سعيدة يا صاحب السمو».



كنت في تلك الليلة لصة من نوع مختلف، إذ تسللتُ عبر الدهليز من جناح راث إلى جناحي، ورحت أنسَل إلى الأماكن التي تخفيها الظلال، ثم أخرج منها مثل نشَّال يسرق محافظ النقود. زحفت إلى غرفتي، وهرعت إلى صندوق الأمتعة. أخرجت سروالي الجلدي المُوشَّى بالفراء، والكنزة الثقيلة، والجوارب التي كنت قد أحضرتها معي، ثم انتعلتُ حذاء طويل الرقبة، وتدثرتُ بعباءتي السوداء حول كتفَي، وكل ذلك في وقت قياسي. وأخيرًا ثبتُّ خنجري في الجراب على فخذي، وحرَّكته لأتأكد من ثباته.

في غضون لحظات كنت قد عدت إلى الممر مجددًا، ثم اندفعتُ هابطة من على درَج الخدم. ففي ظل الحفل الذي لم يزل صاخبًا، لم يكن ثمة أحد بالقرب من هذا الطرف من القلعة. أو ذلك ما كنت أرجوه.

كان قلبي يخفق محذرًا إياي، فاختلست النظر حول الركن، ورأيت بابًا مفتوحًا في نهاية المطبخ - كما توقعت تمامًا - وذلك للتنفيس عن حرارة نيران الفرن.

وعلى شفتَيَّ صلاة خاطفة لإلهة الأكاذيب والخداع، مررت عبر الدهليز، ثم أبطأت فور أن دلفت إلى المطبخ. ولم تكن لديَّ فكرة عن المدة التي سيظل فيها راث فاقدًا الوعي من أثر جِذر النعاس؛ وبخاصة في ظل قوته الهائلة، لم أتوقع أن لديَّ الكثير من الوقت. كنت أحتاج إلى أن أبتعد قدر الإمكان

كي لا يستطيع الإمساك بي قبل أن أعبر إلى أراضي برايد. وهكذا اندفعت عبر المساحة الرحبة التي تصل بين القلعة من الخلف والإسطبلات، دون أن أتوقف حتى وصلت إلى المدخل.

ألقيت نظرة على البناء من الخارج، وأنا أركز انتباهي على كل شاردة وواردة، بحثًا عن حركة أو إشارة وسط الظلام. لا بد أن سائسي الخيل قد خلدوا إلى النوم بعد أن انتهوا من رعاية الخيل إثر صيد الصباح. فتحت الباب قليلًا فحسب حتى أتسلل إلى الداخل، ثم اندفعت بمحاذاة مرابط الخيل حتى عثرت على تانزي. صهلت الفرسة مُرحِّبة بي، وضربت التبن بحوافرها الفضية.

قلت لها: «يا لك من فتاة لطيفة. إننا سنذهب في مغامرة».

وضعت السرج على الفرس سريعًا، وأنا ممتنة لتذكري الخطوات المناسبة لفعل ذلك من مشاهدتي هذه العملية في موطني. ثم قدتها إلى الخارج من لجامها، ومن كرم أخلاقها تحركت بخفة وهدوء خارجة من الباب الرئيسي، كما لو كانت تعلم أن التسلل خلسة أمر ضروري.

امتطيتها وأنا أقول: «فلتأخذيني إلى بيت برايد». ثم انطلقنا فور أن ربّتُّ خاصرتها، وأنا أردف: «سنزور غابة الدماء».

أخذت تانزي تعدو مخترقةً الليل، والثلوج تتناثر خلفنا، بينما حلّقنا فعليًّا فوق منحدرات أرض جلاتوني. تمسكتُ بالفرس بركبتيَّ، وأنا منطلقة أسابق الريح.

كل صوت هادر جعلني راغبة في الالتفات ورائي، من منطلق قناعتي بأن حراس القلعة انتبهوا وهبّوا في إثري. مررنا عبر تلال جذر النعاس، وعلى يميننا الضفة العليا لبحيرة النار، لكنني لم ألحظها من قبل.

هب الكبريت مع نسمة باردة، رافعًا خصلات من شعري، وناشرًا رعدة في أنحاء جسدي. لكنني حافظت على تركيزي على القلعة التي لاحت في الأفق، وأنا متيقظة للقاء حراس برايد. وكما لو كانت تانزي تأبى أن يأسرها أي جيش مجددًا، فقد ضاعفت من سرعتها، وحوافرها تنهب الأرض المتجمدة

نهبًا. اقتربنا من حدود أراضي برايد وتخطيناها، دون أن نتوقف، أو يوقفنا أحد.

حينئذ أطلقت صيحة فرح بهذا الانتصار البسيط.

فإذا لم تخُني ذاكرتي، سأعبر من حلقة برايد إلى حلقة إنفي. ولقد دُعيت بالفعل إلى أراضي إنفي، وهو لم يلغ هذا الإذن بعد. فإذا كنت محظوظة سأعبر تلك الأراضي، وأشق طريقي نحو غابة الدماء دون أن يمسني سوء.

بينما ركضنا كما لو كان إبليس يقتفي أثرنا، تزاحمت في رأسي كل الأفكار التي حاولت إخفاءها أثناء الحفل. وكان إنفي يسعى وراء الأخوات السبع. وتحدث عن شجرة اللعنة بينما كنت أتهادى في معرضه. ربما لم تكن لديّ معلومات محددة عن الغابة، لكن سيكون بإمكاني العثور على تلك الشجرة المميزة بفضل القصة التي روت أنها «عميقة في قلب الغابة».

كنت أرجو أن تقبع الكائنات الغامضة التي يمكن أن تساعدني على العثور على مفتاح الإغواء أو مرآة القمر الثلاثية بالقرب من الشجرة المخيفة. وعند تلك النقطة، ستكون أية معلومات تقدمها عن أي من الأغراض السحرية ذات فائدة عظيمة.

مررنا عبر أراضي إنفي دون متاعب. وما دام أمير هذه المملكة يثرثر بالتلميحات غير المباشرة في وجودي، فلم أعتقد أنه سيوقف سعيي عبر أراضيه. وبعد برهة قصيرة وصلنا إلى رافد النهر الأسود الأصفر الذي كان يشطر مملكة إنفي إلى شطرين، ويطل على غابة الدماء. أبطأت تانزي السير إذ كان ثمة عائق أمامها، وتحسست الأرض بأقدامها، وهي تفكر في القفز. أما أنا فكنت أتأمل المشهد الممتد أمامنا. وكان «غابة الدماء» اسمًا على مسمى؛ فحتى تحت جُنح ظلام الليل، رأيت أن لحاء الأشجار كان لونه قرمزيًّا قاتمًا.

عميقًا داخل الغابة، كانت غيمات الدخان تهيم كضباب شبحي مخيف. وحينئذ ساورني شك مرعب في أنه ليس ناتجًا عن النيران، وإنما أنفاس وحوش ضخمة تَجُوس في جنَبات الغابة القرمزية. أو لعلها كانت منبعثة

من بعض الشياطين الذين رأيتهم في سجلات البيوت الملكية؛ أولئك الذين يشتهون الأفئدة والدماء. وعندئذ أخذت نفَسًا ثم أطلقته ببطء.

قلت لتانزي: «هل أنت مستعدة للعثور على شجرة اللعنة يا فتاة؟».

هزت تانزي رأسها، ثم انقضّت على النهر الأسود. أبقيت عينيّ مفتوحتَين وحافظت على ذلك بقوة، بينما ارتفعنا في الهواء لحظات، وشعرت بأن معدتي تنقبض بشدة. في النهاية هبطنا على الأرض، لكن تانزي لم تنتظر لتلتقط أنفاسها؛ إذ هرعت عبر الغابة، وهي تتخبط وسط الأشجار والشجيرات.

كنت أتوقع أن يخيِّم الهدوء المريح للأعصاب. لكن في الواقع، ارتفع طنين فرقة من حشرات البق ما شتت انتباهي. ولو كان ثمة حيوان مفترس في الجوار لكان من المحال سماعه إلا بعد فوات الأوان. وكان من الواضح أن تانزي تدرك ذلك. ففرسي الجهنمية البارعة أخذت ترفع ذقنها، وتحوم حول أي عائق يظهر أمامها، وكلها إصرار على إيصال فارستها إلى مقصدها دون أن يصيبها أذى.

اندفعنا عبر مساحة خالية من الأشجار، وعند طرفها لمحت شيطانًا أخذ يحرِّك رأسه العملاق في الهواء، وكان ذلك كل ما رأيته؛ إذ تركناه خلفنا ولعابه يسيل. وكانت الأشجار القرمزية تومض، وألوانها تبرق سريعًا في عينيَّ كمئات الشهب التي تنزف الدماء منها. وعندئذٍ تشبثت باللجام بقوة أكبر، وأنا أشعر بكل خفقة من خفقات قلبي المتسارعة. فلا بد أننا كنا نقترب من وسط الغابة الآن.

بعد بضع دقائق من السير بصعوبة، توقفت تانزي فجأة.

هناك، في قلب بقعة كثيفة الأشجار في وسط الغابة القرمزية، كانت ثمة شجرة فضية وارفة. ها نحن قد وجدناها حقًّا. أخذت أحدق إليها وهلة لأستوعب ما أراه. وكانت هي شجرة اللعنة دون ريب؛ إذ إنها أعلى وأضخم من الشجر الآخر في الغابة، كما أنها مختلفة عنه في اللون. وفي ضياء القمر، كان لحاؤها الفضي يتلألأ مثل سيف هائل مغروز عميقًا في باطن الأرض. لقد كانت جميلة ومخيفة في آن واحد.

ترجلت عن ظهر تانزي، وربتُّه قائلة: «فلتبقي هنا ولتكوني منتبهة».

حكّت تانزي أنفها بكتفي، وكأنما توصيني بالشيء نفسه.

سرتُ نحو الشجرة، وخنجري في يدي. حينئذ كان كانت حشرات البق قد توقفت. وكان ثمة ضباب ينذر بالشر ينجرف فوق الأرض المتجمدة، خافيًا أي أثر لخطوات حديثة. وكانت الجذور بارزة كأصابع متعفنة لعمالقة مذبوحين. اقتربت لأتفحص أوراق الشجرة، فوجدتها شبيهة بأوراق شجرة البتولا المعتادة، لكنها كانت حالكة السواد وبها عروق فضية. ووفقًا للأساطير التي قرأتها، كانت حادة كالسيف وواهيةً سهلة الكسر كالزجاج.

«هل أتيت لطلب أمنية متعلقة بالانتقام؟».

درتُ على عقبي على الفور من سماع تلك الكلمات، فانزاحت قلنسوة عباءتي. أبصرت امرأة متكئة على عصا، وبعيدة عني ومختفية خلف الضباب بحيث لم أستطع رؤيتها بوضوح. ولم تكن تانزي موجودة في أي مكان.

أحكمتُ يدي على مقبض خنجري، واتخذت وضعية القتال في رشاقة كما علمني أنير، بينما قلت: «مَن هناك؟».

قالت المرأة الخفية: «بل السؤال الأمثل هو: مَن تكونين يا صغيرتي؟».

أجبت: «أنا شخص في أمس الحاجة إلى بعض المعلومات».

لم أتمكن من رؤية وجهها وسط الضباب، لكنني شعرتُ بأنها تبتسم بينما قالت: «يا له من أمر عجيب. إنني شخص لديه معلومات. ويتوقع الحصول على مكافأة في المقابل».

أمسكتُ لساني فور سماع تلك الكلمات، في محاولة لكبت اندفاعي المبدئي نحو أن أعرض عليها أي شيء تريده؛ إذ إن ذلك الأمر محفوف بالمخاطر في عالمنا، فما بالنا بهذا العالم الآثم. وقلت لها: «سأدفع لك سرًّا واحدًا من أسراري».

اقتربت مَن تخاطبني قائلة: «كلا». حينئذ انسدلت قلنسوة عباءتها مغطيةً وجهها بينما قالت: «أنا على علم بأسرارِك، بل أكثر منك كما أتصور. إنني أريد خدمة، تقومين بها في المستقبل وبإشارة مني».

فلتلعني الإلهة. إنها صفقة مريعة. أجبتها قائلة: «لن أرتكب القتل».

قالت: «إما تقبلين الخدمة أو ترفضينها، أظن أن كل شيء سيتوقف على مدى احتياجك إلى المعلومات. فلتعُدينه اختبارًا لشجاعتك. إذن، هل ستتسمين بالجرأة أم الخوف؟».

إن الجرأة يمكن أن تعني عدم الخوف في معظم الأحيان، لكنها تبدو تصرفًا أرعن لسبب وجيه. لم أكن مهتمة بأن أكون جريئة، بل مهتمة بالحذر واتخاذ أفضل قرار ممكن. وإذا كانت المرأة الغامضة تعرفني حقًا، أفضل من معرفتي نفسي، إذن فالخيار الأمثل هو قبول عرضها. ولتذهب العواقب إلى الجحيم مع روحي.

قلت: «موافقة».

قبل أن تخرج الكلمات من بين شفتيّ، كانت المرأة قد هاجمتني. حدث كل شيء في لمح البصر حتى إنني لم أشعر بالوخزة في ذراعي. لقد جرحتني. ورفعت عينيّ وأنا متأهبة للدفاع عن نفسي ضد أي هجوم آخر، لكنني تراجعت بينما جرحتْ راحة يدها، ووضعتها على جرحي.

همست بكلمة، ثم شق وميض قوي سماء الليل.

قالت: «هيا يا صغيرتي، فلتذكري أسئلتك».

قلت: «أريد أن أعثر على الأخوات السبع. هل هن هنا؟».

- «كلا. إنهن يسكن حيث لا يسود حُكم الخطيئة».

- «تلك ليست إجابة».

- «في الوقت المناسب سوف تفهمين».

أطبقتُ أسناني، ثم قلت: «أريد أن أعرف ما حدث لشقيقتي التوأم. لقد قُتلت، وأرغب في معرفة البيت الشيطاني المسئول عن ذلك، إن كان أحدهم هو الذي يقف وراء تلك الفعلة».

- «لا تتوقعي العثور على إجابات تتعلق بلغز أي أحد آخر، بينما ما زلت لا تدركين كُنه لغز نفسك».

- «أليست هذه هي الغاية من حوارنا؟ فأنا لم أقبل صفقتك كي تضعي المزيد من الألغاز في طريقي. ها أنت لا تقدرين على إخباري بمكان الأخوات السبع، ولا بأمر شقيقتي. إذن بماذا يمكنك مساعدتي بالضبط؟».

- «إذا كنت تريدين أن تعثري على ما تبحثين عنه، لا بد أن تخوضي اختبار الشجاعة الخاص بي».

- «لم يكن هذا جزءًا من اتفاقنا».

- «بل هو كذلك. أنت الآن يا صغيرتي في قلب لغزكِ، ولتكتشفي أسرار ذاتك، لن تعرفي الإجابات المتعلقة بلغز أختك. وهذا أمر لا يمكنني إخباركِ به. فثمة بعض الحقائق التي يجب أن تسبري غورها بنفسك. فما الذي يزعجك أيضًا؟».

قلت كأنما هناك غصة في حلقي: «إنها قواي السحرية. لا أستطيع استخدامها».

- «لعلي أعلم وسيلة لكي تستعيدي قواك السحرية، وتعثري على إجابة يتوق قلبك إليها. إجابة ذات صلة بأميرك». وقفت المرأة فجأة أمام الشجرة، وأردفت: «أنت ترغبين في معرفة حقيقته؛ لذا انقشي اسمه على الشجرة، وانزعي ورقة منها».

رجعت بذاكرتي إلى القصة التي كنت قد قرأتها، فاندلع داخلي شعور مقيت كأن سكينًا تتلوى في أحشائي. ولا بد أن هذه المرأة التي لا يظهر منها شيء هي «العجوز»؛ إلهة العالم السفلي، ويا لها من إلهة مهيبة يُحسَب لها ألف حساب. قلت: «إذا فعلتُ ذلك وتوصلت إلى تخمين خطأ، فسيكون لذلك ثمن».

قالت: «إن الشجاعة الحقيقية لا بد لها والمخاطرة بثمن باهظ». كانت ابتسامتها الحادة هي الشيء الوحيد الذي استطعت رؤيته، لكنها لم تُفد بشيء في الحد من توتري. أردفت العجوز: «بعد أن تحفري اسمه الحقيقي وتأخذي الورقة، لا بد أن تفتتيها في وجوده. وإن كنت تتوقين كما تدعًين للحقيقة، فستعلمينها. أما إن لم تكوني كذلك...»

حاولت احتواء هجمة الرعب المتصاعدة. فإذا كنت محقة، وكانت هي إلهة العالم السفلي بالفعل، فالثمن سيكون الموت. وهي معلومة بسيطة أخفاها عني إنفي وسيليستيا. قلت: «لا أعلم يقينًا».

- «بل تعلمين من هو، لكنك تختارين أن تبقي في الظل، مستريحة في الظلام. ربما أنت، لا تخشين حقيقته، وإنما حقيقتك أنت. لعلك ترفضين أن تنظري إليه عن قُرب بسبب ما يكشفه ذلك عنك. إنه مرآتك. ونحن نادرًا ما نقدِّر ما يحدِّق إلينا. إن الاختبار الحقيقي ينبع من هنا يا صغيرتي. فهل أنت جسورٌ بما يكفي لمواجهة شياطينك؟ إذ لا يتمتع الكثيرون بالجسارة».

نظرت إلى وشمي السحري - ذلك الوشم الذي يروي قصتنا، قائلة: «لم يكن هذا هو السؤال الذي جئتُ من أجله».

قالت: «أعلم ذلك، لكنه السؤال الذي تخافين أن تطرحيه. لذلك أسألك مجددًا، يا ابنة القمر، من تكونين؟ ولا أسأل عمّن يكون هو».

- «أنا ... لا أعلم».

قالت وهي تضرب الأرض بقدمها، مبددة الضباب بحركتها المفاجئة: «خطأ. أخبريني من تكونين؟».

قلت: «لا أتذكر، لكنني سأكتشف ذلك بالتأكيد».

- «حسنًا، إنها بداية مبشرة». ثم أومأت إليَّ إيماءة تنم عن سعة المعرفة، وأردفت: «ما الذي ستفعلينه؟».

نظرت من وراء كتفي، فوجدت تانزي قد عادت من حيث أخفتها العجوز، بعينيها العميقتين الوقورتين. كان يمكن أن يكلفني هذا الخيار حياتي.

رفعت خنجري وغرزته في شجرة اللعنة، فقد قررت أن أحفر اسم راث الحقيقي في الجذع، وأفعل كما اقترحت العجوز؛ أي أواجه الحقيقة التي كنت أهرب منها.

وإذا كنت مخطئة في تقديري هذا... فسأدعو الإلهات، ألا ألحق بفيتوريا في قبر عائلتنا قبل أن تنقضي تلك الليلة.

الثالث والثلاثون

لم يكن راث في غرفته، ولا في مكتبته. وقد عرَّجت على شرفته، وكنت على وشك أن أذهب إلى بحيرة الهلال حينما قررت أن أمر على المطبخ.

كان آخر مكان أتوقع أن أعثر فيه على أمير الحرب، لكنني وجدته يقف هناك، وظهره نحوي، وفي يده سكين، يقطّع جبنًا صلبًا، ويضع القطع المكعبة الدقيقة على صينية كان قد ملأها بالفعل بأنواع شتّى من الفواكه.

قال دون أن يلتفت نحوي: «أنت لا تحتاجين إلى دعوة لتنضمي إليَّ يا إيميليا. إلا إذا كنت غير راغبة في صحبتي بالطبع».

قلت: «لقد كنت أبحث عنك. وأعتقد أن هذا خير دليل على رغبتي في صحبتك».

- «بعد أن خدرتني لكي تتسللي من سريري، كنت أتساءل إن تغيرت هذه الرغبة».

- « ليس لهذا الأمر علاقة بك».

واصل راث التقطيع، والسكين تضرب لوح التقطيع بعنف، ثم قال: «إن ما فعلته بدا شخصيًا دون ريب، خاصة في ظل ما جرى بيننا».

- «أنا...»

قاطعني قائلًا: «لست مضطرة إلى الدفاع عن نفسك».

- «لم أنوِ أن أدافع عن نفسي، بل كنت سأعتذر لإيذائك في سبيل تحقيق غايتي». وساد الصمت بيننا، ثم استطردت: «إلى متى بقيت نائمًا؟».

- «محال أنكِ تظنين أنني سأخبركِ بذلك».

- «كلا، لا أظن ذلك».

مشيتُ ببطء إلى حيث كان يعمل، وأبديتُ إعجابي بمهاراته في استخدام السكين. وكانت طريقته في رص الفاكهة وتقديمها رائعة أيضًا. كانت حبَّات التين مقطعة بدقة على شكل أرباع، وحبات التوت والعنب مكدسةً في أكوام تفتح الشهية. حتى إنه عثر على ثمرة رمان.

قلت: «لم أعتقد أنك تستمتع بقضاء الوقت في المطبخ».

قال وهو يهز كتفيه، ويركز على المهمة التي يقوم بها فحسب: «وكذلك أنا. لا أهتم كثيرًا بالخبز أو الخلط، لكن تقطيع اللحوم والخضراوات يشعرني بالاسترخاء بصورة عجيبة».

ابتسمتُ ابتسامة عريضة. فبالطبع يروق له هذا الجانب من الطبخ. وبدلًا من أعلّق على ما قاله أو أفسد اللحظة، التقطت شريحة من التفاح وتناولتها. كنتُ مترددة في قول ما أريده مباشرة، وقد علمت ذلك جيدًا. لكن ذلك كان في مصلحة اختبار شجاعتي.

قلت: «في بعض عقائد البشر، يقال إن التفاح هو الفاكهة المُحرَّمة».

توقف راث أقل من طرفة عين، لكنني كنت منتبهة إليه بشدة. ثم قال دون أن يرفع عينيه عما ينهمك فيه: «في ظل كونكِ قد نشأت بصحبة الساحرات، يدهشني أنك قضيت الكثير من الوقت في دراسة عقائد البشر».

انتقيتُ قطعة أخرى من الفاكهة، بينما رددت: «سمعتُ أيضًا أن فواكه التين والعنب والرمان تتنافس على كونها الفاكهة المحرمة».

- «أرى أنك شغلت الكثير من تفكيرك بالأطعمة المُحرَّمة».

قلت: «لقد زرتُ شجرة اللعنة». لكن راث ظل يقطِّع الجبن الشيدر بدقة على اللوح. درتُ حول الطاولة لأواجهه، ثم أردفت: «وعقدتُ صفقة مع العجوز. ثمة شيء قالته جعلني أفكر في الفاكهة المحرمة وأشجار الحكمة».

ابيضت أنامل راث، بينما أَحكم قبضته على السكين، وهو يقول: «ثم؟».

- «كنت أرغب في معرفة ما ألمّ بأختي، لكنها أصرَّت على أنني أحتاج إلى اكتشاف حقيقتي أولًا، وأن أواجه مخاوفي. وقالت إن جزءًا من حقيقتي سيُكشف إذا علمت من أكون حقًّا». عندئذ التقت عيناه بعينيَّ، فاستطردت قائلة: «أخبرتني بأن أحفر اسمك الحقيقي على الشجرة».

رد راث: «أرجوكِ قولي إنك رفضت فعل ذلك. إن العجوز أخبث من إخوتي».

هززتُ رأسي ببطء، ووضعت ورقة الشجرة السوداء ذات العروق الفضية أمامه. راح راث يحدِّق إليها، وبدا عليه كأنني أحضرت حية سامة إلى الغرفة. رفعتُ قبضة يدي لكي أسحق الورقة، لكنه مد يده بسرعة البرق والتقط يدي. جذبني نحوه، ووضع يدي على قلبه الذي كان يخفق بشدة.

قال: «سنعود إلى هناك، ونعقد صفقة أخرى مع العجوز».

ابتعدت بما يكفي لأنظر إلى عينيه مباشرة، وقلت: «أنت متوتر فحسب».

قال: «لقد حفرت اسمًا على شجرة تطلب الدماء مقابل الحقيقة». ثم أطلق نفسًا محبطًا، وأردف: «بالطبع أنا منزعج».

رفعت يدي الطليقة لألمِّس على وجهه. لم يكن هذا هو السبب الحقيقي الذي جعله متوترًا، وكلانا يعلم ذلك. وقلت له: «أنا أعرف من تكون».

قال: «أشك في ذلك كثيرًا».

كانت نبرة صوته تقول إنه إذا كنت أعلم حقيقته، ما اقتربت منه إلى هذا الحد، وما احتضنته كما كنت أفعل. لقد كان سره يرعبني، لكن من المحال أن أتجاوزه دون أن أميط اللثام عنه. وما كان ممكنًا أن أكتشف حقيقتي ولا ما حدث لشقيقتي التوأم في يوم من الأيام إن بقيتُ خائفة من الحقيقة. وكانت العجوز محقة. لقد كبرتُ وأنا معتادة الظلام، وقد ظللت حبيسته لأمد بعيد. أولًا على يد نونا، والآن بيدَي أنا. إذن قد حان الوقت لأنحِّي مخاوفي جانبًا، وأخطو نحو الضياء.

قبل أن يستوعب راث ما كنت أفعله، ركلتُ الطاولة بكل قوتي، فانقلبت رأسًا على عقب، فتناثرت الفواكه والجبن وتفتّتت ورقة الشجرة الملعونة وسط الركام.

أحاطني راث بذراعيه، وكأن باستطاعته أن يحميني من إيفاء شجرة اللعنة الثمن. لكنني لم أشعر بأية هجمة مباغتة من الألم، ولم أضعف أو أفقد الوعي. ولم أمت، بل لم أنزف الدماء كذلك.

احتضنني راث بقوة أكبر، وأنفاسه لاهثة.

تقاطرت الدموع في عينيّ فجأة، لكنني لم أسمح لها بالانهمار. فوقوفي هكذا، آمنة بين ذراعي راث كان يعني [illegible]، وأن العجوز أصابت مرة أخرى.

والآن بعد أن امتلكت الحتينة، لم أدرِ ما أفعله بها. وكنت أظن أنني مستعدة، وقادرة على التعامل مع كشف سره، والإعلان عنه. لكنني كنت مخطئة.

كرهت نفسي.

أطلقت نفَسًا مرتجفًا، وكنت أحتاج إلى لحظة لكي أستوعب ما اكتشفته من فوري. وشعر بي راث وأنا أتململ، فأرخى ذراعيه من حولي مترددًا، وتراجع تاركًا مساحة بيني وبينه كنت في أمس الحاجة إليها. لم يقُل شيئًا، وإنما انتظرني لكي أتحدث.

الدماء والعظام. كان ذلك مؤلمًا. لكنني مررتُ بالأسوأ، ونجوت.

بغض النظر عما سيحدث فيما بعد، سأتحمل هذا وأنجو منه بالمثل.

قلت: «حينما لم تلقِ بالًا للاسم الذي ناديتك به في دار العبادة، تعجبتُ من أنك لم تفعل شيئًا أكثر قوة». كفكفتُ دموعي، دون أن أنظر إليه، وأردفت: «تصرفتَ كأن الاسم لم يعنِ شيئًا، وكأنني أضايقك فحسب». ابتسمت وأن مطأطئة رأسي، ثم استطردت: «لأنه، طبقًا لنونا، لا يكشف أي أمير من أمراء الجحيم اسمه الحقيقي أبدًا لأعدائه».

شعرت باهتمامه وهو يميل عليَّ بشدة، لكنني كنت ما زلت غير قادرة على النظر إلى عينيه.

استرسلت قائلة: «أعلم أن الساحرات والشياطين أعداء. لكن ألا تحتوي قصتنا على ما هو أكبر وأعمق من ذلك؟».

قال راث: «إيميليا...»

قاطعته قائلة: «أنت الإغواء عينه». تمكنتُ أخيرًا من النظر إلى ذراعه، وأومأت نحو وشم الأفعى المتشابك مردفة: «الحية في الحديقة، تلك التي شجعت البشر على ارتكاب الخطايا».

جذبت نظري نحو الأعلى، حتى استقر على عينيه أخيرًا. وأمعنتُ النظر في كل ذرة منه. وتأملتُ وجهه، جسده، ووجوده كله، وتجسيده للسلطة الصارخة. والسيطرة والهيمنة، والإغواء. لقد كان هو الإغواء متجسدًا في لحم ودم.

كان التعبير المرتسم على وجهه مبهَمًا بينما وقف صامتًا. والآن، تمنيتُ أكثر من أي وقت مضى لو أستطيع أن أشعر بعواطفه، على الرغم من أنني شككت في أنه يشعر بعواطفي، ولذلك أصبح بعيدًا عني بهذا القدر. وصارت درعه مثبتة بإحكام في مكانه، وكان يحمي نفسه مني.

واصلت: «لا أدري كيف خدعت البشرية إلى أمد طويل هكذا، لكن كما قال إنفي، أنت الكاذب الأكثر براعة في العالم، يا *سمائيل*».

بدا أن اسمه الحقيقي قد سبَّب له التوتر. وبدا كأنه قد حبس أنفاسه منذ بدء حديثنا، ولم يطلقه سوى الآن فحسب. عندئذ قال: «أمير الظلام، وملك الأشرار. لقد أطلقت عليَّ أسماء عديدة، لكنني لست بكاذب».

تفرَّستُ في وجهه. ووجدتُ أنني كنت محقة. لقد عرفته منذ اللحظة التي لم تنل فيها الشجرة الثمن، لكن الحقيقة كانت عصّيةً على الاستيعاب. راث هو إبليس؛ ذاك الشر الذي يخافه العالم من أوله إلى آخره.

وأنا قد وقعت فريسة إغوائه بكل حماقة وغباء. فريسة لعينيه الذهبيتين المتأججتين وفطنته الحادة. ولاعتداده بمظهره وطريقة حمايته لمن يُظلهم في كنفه، ولاختياره العدل قبل الانتقام. إذن لا عجب من خلط عالم البشر

بين الأميرين بسهولة بالغة - لا شك في أن برايد وراث اشتركا في الكثير من الصفات.

تابعت حديثي: «كانت أمامك فرص كثيرة لتخبرني بأنك إبليس. بأنك مَن لعَنَته لا بريما. إذن هل ماتت زوجة برايد حقًّا، أم تُراها كانت زوجتك أنت؟».

رد قائلًا: «لم أكذب عليك قاصدًا».

قلت: «فلتتوقف عن إخفاء الحقائق وتزييفها».

- «على عكس برايد، لم أتخذ زوجة قط. لكن أجل، لعنتني الساحرة الأولى. شأني شأن جميع إخوتي. لكن عقوبتي على عدم مساعدتها كانت أشد وأنكى - لقد سرقت شيئًا غاية في الأهمية لي. شيئًا يمكنني فعل المستحيل من أجل استرداده».

خمنت وأنا أفكر في تميمتي قرن إبليس: «إنه قرن هاديس».

أنا لم أضيعهما. شعرت بالراحة على الرغم من كل شيء لغياب قواي السحرية على مدى الأسابيع القليلة الماضية. وكان شعوري آنذاك مناقضًا تمامًا لشعوري عندما استردهما للمرة الأولى. مع أن الشك راودني بأن للأمر صلة بإحساسي بالألم في بحيرة الهلال.

تذكرت قلقي من غضب إبليس من راث لسماحه لي باستعارة تميمة القرن في تلك الليلة. يا للحماقة التي من المؤكد أنني بدوت عليها في نظره!

قلت: «لقد كنت الوحيد الذي لم يبدُ عليه أنه يريدهما. ما يظهر على ما أعتقد أنك أردتهما أكثر من الآخرين، ولم ترِد أن تبدي اللهفة الشديدة ومن ثم تثير الشكوك».

قال: «إنهما جناحاي، وليسا قرنَين. لقد لعنتهما ساحرتك الأولى، وحولتهما إلى قرنين للسخرية من الأساطير البشرية، ثم أخفتهما عني». بدا مشدوهًا وسط ذكرى قديمة؛ ذكرى جعلت يديه تتيبسان على جانبي جسده. وعندما نظر إليَّ مجددًا، كان ثمة غضب بارد يشتعل في عينيه، بينما أردف: «ولكي أستعيدهما أحتاج إلى تعويذة في كتابها السحري».

- «ألديك جناحان؟». فلتساعديني يا إلهتي. اتضح لي حينئذ أن مجرد الشك في أمر ما مختلف تمامًا عن الحقيقة عندما تنكشف بوضوح.

- «بل كان لديَّ».

كان ثمة طوفان من الغضب والألم يتدفق في صوته. أراد جزء مني أن يأوي إليه، ويربت جرحه المعنوي الذي لم يندمل بعد. لكنني بقيت واقفة حيث كنت، أترنح من هول ما حدث.

لقد كان جناحاه هما ما يربطه بعالم الملائكة. العالم الذي تركه وراء ظهره. وكان من الصعب أن أصدق أن إبليس يحزن ويتحسر على شيء يربطه بالمكان الذي يكرهه؛ لأنه طُرد منه إلى الأبد.

أو لعل كل هذا لم يكن حقيقيًّا. ربما كانت تلك مجرد أساطير بشرية، خضعت للتحوير وشابتها المغالطات بمرور الزمن. فلم يبدُ راث شرًّا متجسدًا، ولا محترفًا بارعًا في الغواية. وباستثناء ... أنه اقتحم حياتي على مهل. وكذا قلبي. ألم يكن هذا دليلًا على الغواية؟ وعلى الخداع والتآمر المتأني؟

مد يده نحوي قائلًا: «إيميليا». لكنني انتفضت مبتعدة عنه، فسقطت يده بعيدًا، عندئذ أردف: «أستطيع الشعور بعواطفك الجوهرية، لكنني أريد أن أعرف حقيقة مشاعرك».

قلت: «أنت إبليس».

- «وكأنني نسيت لتذكريني».

- «لكن لوسيفر ... برايد ... أنا لا أفهم».

تنهَّد بقوة، ثم قال: «إن الخطيئة التي اختارها أخي تجعل إنكار كونه ملكًا على الشياطين أمرًا محالًا بالنسبة إليه. يفترض البشر أنه إبليس، ويمنعه كِبره من الاعتراف بالحقيقة. إنه سعيد فحسب بإشباع أنانيته. أما أنا فلا أكن مشاعر معينة تجاه لقبي الحقيقي. إنه مجرد مهمة في نظري؛ والتزام مُلقًى على عاتقي، لا أكثر ولا أقل. بل على العكس، انغماس برايد حتى أذنيه في الاستمتاع بالمكانة والمظاهر الفارغة، يتيح لي إتمام مهمتي دون تباه أو استعراض».

سألته: «هل ثمة شيء حقيقي مما حدث بيننا، أم كان إغواءً مقصودًا ومخططًا بدقة؟ لمحة من الحقيقة نُثرت على الأكاذيب؟».

رد وهو يضيّق عينيه: «فلتخبريني، عندما وافقت على الزواج ببرايد، وأنت تعتقدين أنه إبليس، هل كان يهمك الأمر حينها؟».

من تلقاء نفسها، طافت بخاطري ذكرى، فقلت: «في بحيرة الهلال، تلك الليلة التي... لقد ناديتني بملكتي».

- «لقد أتيت إلى هنا وأنت تظنين أنك ستصبحين ملكة على الأشرار. وهذا كله حقيقي. فإذا اخترتِ أن تتمي رباط زواجنا، فلن تصبحي ملكتي فحسب، وإنما الملكة على الجميع». تفرّس وجهي، وعلى محياه تعبير شارد بينما قال: «الشيء الوحيد الذي سيتمثّل هو الأخ الذي ستتزوجينه. إن الجميع في هذا العالم يعرف من أكون، ويعرف القلب الحقيقي. البشر فحسب هم من يفترضون العكس. لذا، أسألك مجددًا. هل يهم الآن حقًّا أن تعرفي من أنا؟».

- «فلتصدقني عندما أقول لك إنني غير متأكدة. إن ما حدث كثير عليَّ. فأنت إبليس؛ تجسيد الشر المطلق».

- «هل ترينني هكذا؟».

- «خارج حدود هذا العالم، هكذا تراك الدنيا بأسرها».

- «لا يهمني ما يعتقده الآخرون. ما يهمني هو أنتِ فحسب». عندئذ تراجع إلى الخلف وطأطأ رأسه. وكانت حركاته جامدة، بينما أردف: «شكرًا لك على صدقك. هذا هو كل ما احتجتُ إلى سماعه يا سيدتي».

ناديته: «راث، انتظر، أنا...»

لكنه تلاشى وسط غيمة من الدخان اللامع.

الرابع والثلاثون

«**أنا آسفة**». همست بهاتين الكلمتين في الغرفة الخاوية. كان الدخان لا يزال عالقًا في الهواء عدة لحظات بعد رحيل راث، لكنها لحظات بدتْ كأنها دَهر. حدَّقت إليه، وعيناي تحترقان ألمًا، وأنا أتمنى لو استطعت أن ألقي تعويذة تعيد الزمن إلى الوراء. لكن الأسهل نسيان ما حدث. أو الأفضل، نسيان اسمه الحقيقي، ولقبه، والألم الذي اعتصر فؤادي لمجرد التفكير في أن بعض، أو كل ما بيننا ليس سوى جزء من مخطط أكبر.

وقفت مستندة إلى إحدى الطاولات، أنظر إلى الفوضى على الأرض. لقد كانت تمثل حياتي؛ ففي كل مرة ظننتُ فيها أنني أقترب من حقيقة مقتل شقيقتي، ظهر أحد التعقيدات الجديدة التي تضاف إلى تلال المشاكل، ويشتتني بالبحث وسط المزيد من التشابكات.

ولولا تعقُّل اللعنة ودورها النشط في المحافظة على الأسرار، لكان من المستحيل أن أجمع قطع الأحجية معًا وأحل اللغز.

تسلل داخلي هَم قديم. فلقد كنت بدأت أؤمن بأنني أعيش ذكريات منسية، عادة بعد أو أثناء مقابلاتي العاطفية مع راث.

إن لم أكن الزوجة، فهل كنت الساحرة الأولى؟ كدت أقتنع بأن سيدة اللعنات والسموم هي الساحرة الأولى، لكن ذلك بدا احتمالًا أضعف الآن. ولم

يمكنني تخيُّل أن راث يحتفظ بهذه المرأة في الجوار وهو يعلم أنها هي من سلبته جناحيه.

تُرى هل كان العثور على الساحرة الأولى هو الدافع الحقيقي وراء جرائم القتل؟ ومن المنطقي أن يحاول من تعرَّض للسرقة أن يعثر عليها ويجعلها تدفع ثمن ما سرقته. وإذا كان أي من أمراء الجحيم قد فقد جناحَيه أو شيئًا في مثل قيمتهما، يمكن أن يكون هو مَن يقف وراء القتل.

إذا كنت أنا الساحرة الأولى، فستكون كراهية راث لِي في الليلة التي استدعيته فيها أمرًا منطقيًّا. حينها دعاني «مخلوقة»، وأقسَم أنه لم يقع فريسة لإغوائي قط عندما اعتقدتُ خطأً أن صفقات الشياطين تُعقد من خلال القبلات التي تصبح إدمانًا لهم.

حدثتُ نفسي في سخرية: «تهانيَّ لكِ يا إيميليا. ها أنتِ قد فقدتِ عقلكِ، بل صرتِ مصابة بجنون الشك».

لم يكن التحدث مع نفسي بصوت عالٍ ذا جدوى في تخفيف حدة هواجسي المتفاقمة بإصابتي بالجنون. فقد كدت أضحك بملءِ شدقي من مجرد الفكرة. ربما كنت أفقد كل إدراكي وشعوري بالواقع.

ربما كان هناك عقار يمكنني تناوله للتخلص من كل الذكريات والأفكار الحمقاء التي يعج بها عقلي، وتطهيره تمامًا ثم البدء من جديد.

تنهدتُ؛ إذ كانت الفكرة محض مُحالٍ لكن، ولِمَ لا؟ أظنها ممكنة. وهناك سيدة واحدة في هذه القلعة موهوبة في صنع الدواء والترياق. سيدة ربما تمتلك المهارات التي يحتاج إليها إبطال أية لعنة سُلطت عليَّ. وسواء أكانت هي الساحرة الأولى أم لا، فبإمكاني اللجوء إلى مساعدتها.

وهكذا هرعتُ إلى زيارة سيدة اللعنات والسموم، وأنا أصلي لجميع الإلهات اللاتي أعرفهن لكي أجدها في برجها.



بادرتني سيليستيا بنظرة مندهشة، بينما أسرعتُ متجاوزة إياها أشير لها بإغلاق الباب، وقالت: «ابنة القمر! ما الذي أتى بك إلى هنا؟».

قلت: «أتعرفين من أكون؟».

كان من الصعب أن أجزم إن كان ترددها ناتجًا من قلقها على سلامتي العقلية، أم كانت تفكر بحذر في الإجابة. قالت: «أجل يا سيدتي».

- «لا أقصد لقبي التشريفي. هل التقينا من قبل؟».

صار تفكيرها أكثر تمعُّنًا بينما ردت قائلة: «هل تناولت شيئًا غريبًا؟».

أخذت أجوب المكان في انفعال: «كلا. بل راودتني بعض الذكريات التي لم أشعر في البداية بأنها تخصني. والآن لست متأكدة تمامًا. هل هناك دواء يمكنك إعطاؤه إياه؟ شيء يكشف اللعنة أو يبطلها؟».

ذهبت إلى الطاولة الصغيرة والمقاعد حيث اعتادت أن تعمل، وقالت: «اجلسي». تبعتها واتكأت على طرف أحد المقاعد وأنا أهز ركبتي، بينما قالت: «أعطني يديكِ». ملتُ فوق الطاولة، وفعلت كما طلبت، فاستطردت: «في بعض الأحيان يكون النسيان نعمة».

أحطتُ يديها بيدَي واستقرت أطراف أصابعي على معصميها بينما سألتها: «هل تتحدثين من منطلق خبرتك الشخصية؟».

قالت: «أتحدث كامرأة تتمنى هذه النعمة».

- «هل أنا الساحرة الأولى؟».

ارتسم تعبير حانٍ على وجه سيليستيا، وقالت: «كلا يا صغيرتي».

سألتها: «إذن، هل أنتِ هي؟».

- «كلا».

تركتُ يديها وعدتُ إلى الوراء. لم يتسارع نبضها حينما طرحتُ كلا السؤالين. عندئذ واصلتُ حديثي: «أعترف بأنني استرحت بقدر بسيط فحسب. كلما عرفت المزيد عنها، لا أجدها شبيهة ببطلة رواياتنا».

- «كل الأشرار يتصورون أنفسهم أبطالًا. والعكس صحيح. وفي الواقع، ثمة شرير وبطل كامنان في أعماق كل منا، ويظهران وفقًا للظروف».

طُفتُ بناظري في أرجاء الغرفة المستديرة، وتوقفت عند الجمجمة المنحوتة، قائلة: «كنت أحاول أن أحل لغزًا، عن مفتاح لا يفتح قفلًا بالضرورة، وسبع نجوم وخطايا، وملاك الموت».

تنهدت سيليستيا تنهيدة عميقة قائلة: «أنت تبحثين عن مفتاح الإغواء. وأستطيع أن أقول لك يا ابنة القمر إنك وجدته بالفعل». وعندئذ ركزتُ انتباهي عليها مجددًا، فأردفت: «لو كنتُ مكانك، لأعدتُ التفكير. فبمجرد أن تطئي عتبة ذاك الطريق، لن يمكنك العودة عنه».

- «أيًّا كان من قتل شقيقتي كان يجب أن يفكر في ذلك». وقفت بينما استطردت: «هل مفتاح الإغواء هنا، في بيت راث؟».

- «إنه خطر. وينبغي عدم الاستخفاف بالأغراض المقدسة».

- «لكنه هنا».

زمت سيليستيا شفتيها، وكان ذاك بمنزلة تأكيد كاف لي. تذكرت حينها حديثي مع إنفي، عندما اعتقدت خطأ أن ثرثرته ناتجة عن تناوله الشراب في الليلة التي احتسينا فيها شراب الحقيقة. وقال وقتها إن المفاتيح لا تبدو كلها بالهيئة التي اعتدناها.

إن الدماء هي مفتاح إطلاق السحر الشيطاني على سبيل المثال. إذن ليست هناك حدود لما يمكن أن يطلق مرآة القمر الثلاثية في حقيقة الأمر. ومفتاح الإغواء يمكن أن يكون إكسير الحياة، على حد علمي. ومع ذلك ... كان ثمة ما يشغل عقلي.

إذا كان لدى راث غرض مقدس، وأراد أن يُبقيه خفيًّا، فليس هناك مكان أكثر أمنًا من أن يكون أمام عينيه مباشرةً. لكنه يجعل الأمر الواضح مشكوكًا فيه. مثلما فعل عندما ناديته باسم سمائيل للمرة الأولى في باليرمو.

شككتُ في احتفاظه بمفتاح الإغواء في مخدعه. ما دفعني إلى اعتقاد أن المفتاح كان في واحد من مكانين. إما مكتبته الشخصية، أو قاعة الأسلحة.

وقفت وأنا مستعدة للركض إليهما، وقلبهما رأسًا على عقب إن اقتضى الأمر ذلك.

تشبثت سيليستيا بكُم ردائي لكي تعوق خروجي قائلة: «إذا فعلتِ ذلك، فلتكوني مستعدة للعواقب التي ستخرج على سيطرتك».

قلت: «لكنني لا أسيطر الآن إلا على القليل بالفعل يا سيدة اللعنات. والشيء الوحيد الذي سيتغيَّر هو معرفتي الحقيقة».

تركت سيليستيا ذراعي وتنحت جانبًا. ولم أضيِّع أي وقت، بل هرعت إلى قاعة الأسلحة. وكنت أخشى بعض الشيء من وجود راث هناك، لينفس عن مشاعره بعد حديثنا. لكن القاعة كانت ساكنة وخاوية. أسرعت أفتش كل ركن، وأمرر يديَّ على كل غرض ذهبي، باحثة عن أية حجرة سرية، أو عن غرض يمكن أن يكون هو المفتاح.

توقفت عند الطرف الأقصى للقاعة بالقرب من فسيفساء الأفعى. ومثل المرة الأولى التي رأيتها فيها، كنت على يقين بوجود شيء مألوف بها ... أخذ عقلي يسابق الزمن، باحثًا عن ذكرى متعلقة بها.

أمسكت بجذور شعري ورحت أجذبها برفق محدِّثة نفسي: «الدماء والعظام. هيا، فكري».

كنت قد رأيتها من قبل. وأكاد أجزم بذلك بما تبقى من روحي. إذا استطعت فقط أن...

قلت فجأة: «يا لك من شيطان ماكر! إنك حاد الذكاء». وضعت يدي على فمي لأكتم صرخة الفرح، بينما أردفت: «ها أنا قد نِلتُ منك».



وقفت أمام مكتب راث، وأمسكتُ بثقالة الورق المنحوتة على هيئة أفعى.

أو ما ظننتها في البداية ثقالة ورق. ومن ثم قلبتها رأسًا على عقب، وتفحصت الحواف والتصميم الهندسي بنظرة جديدة. إنها يمكن بالفعل أن

تكون مفتاحًا. فمن حيث الشكل يمكن أن تلائم قمة مرآة يد تمامًا، ويفسر ذلك مشاركة إنفي هذه المعلومة.

دون دعوة إلى بيت راث، ما كان ليستطيع البحث في القلعة بنفسه. ذلك أن الظهور خارج القلعة في الحديقة برهة عابرة كان شيئًا، بينما التجول في مكتبة راث الشخصية هو شيء آخر تمامًا. لكن من المرجح أن يكون راث قد أمَّن القلعة من الداخل لكي يمنع إخوته من دخولها، وهذا بناءً على معرفتي به. لكن لم يهمني أي من ذلك.

ضممتُ مفتاح الإغواء إلى صدري، وأنا أشعر بأولى بوادر الأمل. لم أكن واثقة بسبب قلق سيليستيا الشديد من لمس غرض مقدس. فحتى الآن لم يُشعرني المفتاح إلا بالأمان والسرح فحسب. ذلك أنه بعد كل هذه المحاولات والإخفاقات، كان هذا أول نجاح حقيقتي. وأول خيط ملموس أسير على هُداه. الآن كل ما كان عليَّ فعله هو تحديد موقع مرآة القمر الثلاثية. وبعد أن صرت مُسلحة بالمفتاح، بدأت تختمر في ذهني خطة جديدة.

عدتُ إلى جناحي الخاص، وأخرجت دفتري وقلمي. فإذا تمكَّنت فحسب من فك رموز رسالة الجمجمتين المسحورتين، فسيصير لديَّ طريق أسير فيه.

الجمجمتان المسحورتان

الجمجمة الأولى: يعيش ملك الموت. الروح المنتقمة.
الاقتراب من الحرية. العذراء، الأم، العجوز. الماضي،
الحاضر، المستقبل، فلتكتشفي الحقيقة.
الجمجمة الثانية: النجوم السبع، والخطايا السبع، الأسفل
كالأعلى.

أخذت أنقر بالقلم على شفتي، وأنا أحملق إلى الملاحظات، وأود لو يظهر الحل من تلقاء نفسه. عندئذ أضحت رسالة الجمجمة الأولى أوضح بعض الشيء. كنت على يقين بأنها متعلقة بمرآة القمر الثلاثية وقدرتها على رؤية الماضي والحاضر والمستقبل.

أما رسالة الجمجمة الثانية، فهي التي عكفتُ على محاولة حلها. وفي ظل ما صرت أعلمه عن الأخوات السبع، وحقيقة اهتمام إنفي بالعثور عليهن، تساءلت...

أخذت نفَسًا عميقًا، إذ تفتق في ذهني خاطر جديد. فلو كان رات يحتفظ بمفتاح الإغواء في مرمى البصر، فلعله فعل الشيء نفسه مع مرآة القمر الثلاثية. ربما لم يستطع أن يخبرني بأي شيء عن اللعنة، لكنه حاول مساعدتي بطريقة خفية.

كانت خزانة إنفي تلائم مرآة يد. ولقد أُهديت لي واحدة قبل أن أذهب إلى زيارة بيت إنفي. وقد جعلني الأمل أتشبث بالمفتاح بينما هرعتُ إلى غرفة الاستحمام، ثم سحبت المرآة البديعة من حيث كنت قد وضعتها في دُرج طاولة الزينة. وكنت قد أُعجبت من قبل بالنقش على ظهرها، لكن لم أعتقد أنه أكثر من مجرد تزيين جميل.

بينما الحماس يتدفق في مهجتي، وضعتُ مفتاح الإغواء على ظهر المرآة، ثم أدرته. أو بالأحرى حاولت أن أديره. فالعثور على الوضعية المناسبة لم يكن سهلًا. غيرت وضعيته مرة تلو أخرى، وجربت عدة اتجاهات. وقلبت المفتاح وأمعنت النظر في الخطوط البارزة. فتبدد بعض الحماس؛ لأن الخطوط لم تبدُ متطابقة مع المرآة، لكنني أبَيْتُ الاستسلام بهذه السرعة.

بعد محاولة الطرق جميعًا للتوفيق بين الغرضين، أذعنتُ في النهاية إلى حقيقة عدم تطابقهما معًا.

عدتُ إلى سريري، وارتميت عليه، أعيد قراءة الملاحظات. وما احتجت إلى فعله لاحقًا كان العثور على الأخوات السبع، وسؤالهن عن مكان مرآة القمر

الثلاثية. وكانت الجمجمتان هما مفتاح اكتشاف مكانهن، فقط إذا تمكنت من حل أحجيتهما.

النجوم السبع، والخطايا السبع. الأسفل كالأعلى.

تنهدتُ، وأخرجت مع أنفاسي كل الإحباط والنظريات السابقة التي شغلت عقلي. فربما قالت العجوز شيئًا لم أنتبه إليه تمامًا. ورحتُ أركز على الحوار بيننا مستعيدة كلماتها المتعلقة بالأخوات السبع على مهل. *إنهن يسكُن حيث لا يسود حُكم الخطايا.*

هكذا كانت الحال. أخذت أتفرَّس رسالة الجمجمة الثانية مجددًا.

النجوم السبع، والخطايا السبع. الأسفل كالأعلى.

كنت مقتنعة بأن الخطايا السبع هي أسهل جزء في اللغز، لكن ذلك كان يمكن ألا يصح على الإطلاق. ربما كانت بساطة هذا القسم من مفتاح الحل هي ما يُراد إبرازه وتمييزه. كنت أظن أنه يشير إلى أمراء الجحيم السبعة. لكن ماذا لو كان يلمح إلى مكان ما يقع داخل الحلقات السبع؟ ومن الواضح أن عبارة «الأسفل كالأعلى» تشير إلى التوازن.

إن مفتاح الحل ربما يشير إلى المكان الذي تسود فيه الخطايا السبع جميعها على نحو متكافئ، حيث لا تهيمن خطيئة على أخرى. كما ألمحت العجوز بالضبط.

إنه ممر الخطايا.

وفؤادي يخفق بين جناحَي، ابتسمتُ وأنا أُخفض نظري إلى ملاحظاتي. لا بد أن ما توصلت إليه هو الصواب.

كانت الأخوات السبع في مكان ما بممر الخطايا، وساورني شعور بأن المرآة في حوزتهن. ويفسر ذلك استمرارهن في التجوال عبر هذا العالم، وهن متخفيَّات عن الأمراء. فإما أنهن كن سارقات مسحورات أو حافظات للسلام.

وبغض النظر عن الدور الذي لعبنَهُ من أجل الأمراء الشيطانيين، فإن خلاصي كان بين أيديهن.

على عَجلٍ حزمتُ حقيبة كتف - بها مفتاح الإغواء، وكتاب تعاويذ العجوز الذي سرقتُه من إنفي، وجوارب احتياطية، وفاكهة مجففة كنت قد أخذتها خلسة من المطبخ - وارتديت ملابس أثقل.

خلعت ثوبي، وارتديت سروالي الجلدي المؤطَّر بالفراء، والسترة ذات الأربطة، فضلًا عن العباءة المخملية. وانتعلتُ حذاءً ذا رقبة طويلة وصلت إلى فخذي، وأوثقت رباط الحقيبة، بينما هرعتُ نحو الخارج. توقفتُ بالقرب من الإسطبلات، إذ كان الشق الأناني مني يرغب في أخذ تانزي لترافقني، لكن لم تكن لديَّ فكرة عما كنت أبحث عنه، ولم أُرد أن أفقد أي شيء بسبب العدو السريع. وكان يجب أن أخوض هذه المهمة بمفردي.

قبل أن أشاور نفسي، أو ألفت انتباه أي متطفل من ساكني بيت راث، انطلقت نحو الحافة عند الطرف الخلفي لأراضي راث، ثم هبطت الجبل المنحدر. وفي زمن قياسي صرت فوق أرض شبه منبسطة مجددًا. نظرت خلفي، فوجدت الجبل الذي فتحه راث بكلمة هامسة شامخًا ومهيبًا كما أتذكره.

كنت أرجو أن أراه مرة أخرى قريبًا.

وصورة شقيقتي ماثلة أمامي، والإصرار يملأ فؤادي، شرعتُ في خوض رحلتي عبر الطريق الجبلي الوعِر الذي لا يرحم. لكنني كنت مُهيأة هذه المرة للتلاعب الخفي بعواطفي.

كما أنني كنت أعرف كيف أقاوم التأثير الشيطاني. وشعرت ببوادر هذا التأثير تسري على بشرتي باحثةً عن ثغرة لتغرز أنيابها داخلي. لكنني كشرتُ عن أنيابي في وجه هذا العالم. حتى بعد فقد قواي السحرية، لم أكن عديمة الحيلة؛ إذ امتلكت خنجرًا وعزمًا لا يلين اكتشفته في نفسي في الفترة الأخيرة.

حدثتُ ممر الخطايا قائلة: «فلتخرج أسوأ ما في جُعبتك».

كنت عازمةً على بذل قصارى جهدي دون شك. سرتُ بمشقة عبر الثلوج التي وصلت شيئًا فشيئًا حتى ما بعد ركبتيَّ، وبخطوات بطيئة ومترنحة. لم أفكر في البرد أو الجليد اللذين كادا يشتتانني، لكنني ركزت انتباهي على كل ما يحيط بي باحثةً عن أية لمحة من الأخوات السبع.

في المرة الأولى التي سرنا فيها هنا، كنت واثقة بأنني رأيت نساءً يستخدمن العظام كإبر للخياطة. أقنعتُ نفسي حينها بأن عقلي يخدعني، لكنني لم أكن أعلم بشأن الأخوات السبع. وإذا كن قد أظهرن أنفسهن لي حينذاك، فأرجو أن يفعلن ذلك مجددًا. خاصة الآن وأنا لم أعُد برفقة العدو.

بعد أن قطعت ثلث الطريق صعودًا على قسم هائل من الجبل، هبت عاصفة جليدية. فجذبتُ قلنسوة عباءتي للأعلى، وواصلتُ المَسير. أخذت نُدَف الثلج الصغيرة تضربني مرارًا وتكرارًا، كما لو كانت غاضبة من روح التحدي التي تملؤني. لكن هذا العالم كان مخطئًا؛ إذ لم يكن التحدي هو ما يدفعني إلى الأمام وأنا أتخذ الخطوة تلو الأخرى عبر هذا الجحيم، وإنما الحب.

لعل هذه الرحلة بدأت بالكراهية والرغبة في الانتقام، لكن في الأعماق، كان حب شقيقتي التوأم كامنًا على الدوام. وكانت نونا مُحقة؛ فالحب هو أقوى سحر على الإطلاق. ولن أمل من الاعتماد عليه واللجوء إليه. توقفت عن السير؛ إذ لفت نظري شيء لا يتكوَّن بصورة طبيعية على أية شجرة.

رحت أحدِّق إلى شجرة الأرز الضخمة، فشعرت بالدماء تتصاعد إلى رأسي حينما أبصرت نقشًا للرقم سبعة بالرومانية.

VII

قلت: «مرحبًا؟».

أمسكت بخنجري ونظرت حولي. لم تكن ثمة أصوات أو آثار أقدام، أو أية مؤشرات خارقة للطبيعة على وجود الأخوات السبع في الجوار. لكن رقم 7 كان محفورًا في جذع الشجرة ... ولقد تعلمت ألا أتغاضى عن العلامات أبدًا. وهذه العلامة كانت صارخة الوضوح.

دُرتُ حول الشجرة، دون أن أعثر على أي شيء غريب بها. وكانت متوسطة الحجم، إن لم تكن أصغر من بقية أشجار الأرز المحيطة. وهكذا أعدت الخنجر إلى غمده، وجثوتُ على ركبتيَّ، ثم حفرت في الثلج. لا بد من وجود شيء ما هنا.

بعد مرور عدة لحظات مؤلمة تجمدت فيها أصابعي، احتكَّت أظافري بالأرض المتجمدة. حاولت أن أخدش السطح لكنني لم أنجح إلا في كسر بعض أظافري.

وقفت وأنا أضع يدَي جانبي، محاولةً أن أتحكم في غضبي. لقد شعر ممر الخطايا بفقداني العابر للتحكم، وانتهز الفرصة للانقضاض عليَّ. وهكذا أطلقتُ العنان لخطيئتي المفضلة، وتأجج حنَقي، فصرخت لكن الثلوج المتساقطة كتمت الصوت وخنقته.

أطلقت كل مشاعري، إذ رحت أركل الثلج، وأجذب فروع الشجر، وأضرب الأرض. تجمعت قطرات العرق على جبهتي، ولم أستطع أن أسيطر على نفسي. حينئذ قرَّبت قبضة يدي من الشجرة، وسددت لها ضربة بكل قوتي وأنا أقول: «اللعنة!».

تمكَّن الألم من ذراعي كلها. لكن فور أن أصابني الفزع من منظر أصابعي النازفة، لم يعُد للغضب والرغبة في القتال مكان داخلي. اللعنة على هذه الرحلة العقيمة المليئة بالألغاز السخيفة و... على حين غرة خطرت لي فكرة، بينما تساقطت قطرات دمي على الثلج. قادني حدسي إلى وضع بضع قطرات على الشجرة، وسط رقم 7 الروماني. لم أمر ولو بلحظة تردد واحدة – وعلى الفور انفتح جذع الشجرة، كاشفًا عن عدة درجات مخفية داخله. سرتُ حول

الشجرة ثانيةً؛ إذ بدا مُحالًا أن يسع الجذع هذه الدرجات الضخمة، لكنني توقفت عن الاندهاش، وطرح التساؤلات، وحان وقت الإجابات.

تلوتُ صلاة للإلهات، وفور أن خطوت إلى داخل الجذع، أُغلق الباب الخفي ورائي، وأضيئت المشاعل. هممتُ باستلال خنجري مرة أخرى، لكن شعورًا فطريًا حذرني من عدم فعل ذلك. ولا أدري كيف علمتُ بهذا اليقين أنني لن أواجه عدوًا هناك. وفي الواقع، خشيتُ من أن ينقلب أي عمل عدائي أُقدم عليه ضدي. فلو أردتُ العثور على غرض مقدس، يجب أن أتحلى بالإيمان بأن كل شيء سيسير على ما يُرام.

تنهدت بعمق، وواصلتُ المُضي قُدُمًا. كان الدرج خشبيًا، على هيئة نصف دائرة، وملتفًا مع الجذع الضخم. تقدمت بخطى واثقة، والحماس والخوف يجيشان في عروقي كلما اقتربتُ من القاع. على المستوى الأرضي وجدت حجرة حجرية صغيرة في استقبالي، وفي وسطها قاعدة منفردة. وعليها أبصرت ما جئتُ من أجله. توقفتُ لأنهَل من جمال المرآة الساحر التي كانت معروضة فوق القاعدة. وكانت مصنوعة مما بدا مزيجًا من عرق اللؤلؤ وحجر القمر الخام، فكانت أبهى وأروع شيء رأيته في حياتي.

كانت تشع من باطنها. فوقفت أمامها، وأنا أكاد لا أشعر بالدموع التي كانت تنساب على وجنتيَّ، حتى سقطت القطراتِ على المرآة، فأصدرت أزيزًا. أنزلت حقيبة كتفي ومددت يدي نحوها فأضيئت الشموع فجأة في أنحاء الحجرة.

عندئذ ارتجفت سبعة ظلال كالأشباح في الضياء. لم تتحدث ولم تتحرك نحوي، بل مكثت ساكنة. إذن ها قد وصلت الأخوات السبع. لم يكن الخوف هو ما شعرت به، وإنما المهابة، شعرت بها في أعماق روحي. ولكني في الوقت نفسه أحسست بالألفة نحوهن.

قلت: «مرحبًا، أنا...»

«أمامك اختيار حاسم. فما تفعلينه هنا لن يمكنك إبطاله». كان هذا ما قالته سيليستيا التي ظهرت من الطرف الآخر للحجرة، وعيناها الغريبتان

تتلألآن كنجمتين. كان ينبغي أن أندهش لرؤيتها، لكن ذلك لم يحدث. أردفت: «إنني أعرض عليك فرصة أخيرة يا طفلتي. فلتذهبي من هنا».

قلت: «لا أستطيع».

رمقتني بنظرة متأنية، ثم ابتسمت. لقد رأيت تلك الابتسامة من قبل، شبه مخفية خلف عباءة، عميقة في قلب غابة الدماء. والآن فقط أصابتني الدهشة. أخذت أحدِّق إليها برهة، وأنا غير قادرة على تصديق الحقيقة الماثلة أمام عينيَّ. قلت: «أنت العجوز». أومأت إيجابًا، فتنفستُ سريعًا لأستوعب ما يحدث. استرسلت متسائلة: «وهل راث يعلم؟».

ردت العجوز: «ينبغي ألا نضيِّع الوقت في الحديث عنه. فأنا أريد استرداد ما لديَّ عندك يا ابنتي». ثم سارت نحو مرآة القمر الثلاثية، وراحت ترنو إليها في حب وإعجاب، بينما أردفت: «فور أن تستنهضي المرآة، أعيدي كتاب التعاويذ».

قلت: «أهذا فحسب؟».

أعادتني إلى الانتباه، وقالت: «كلا يا صغيرتي. بل هذا *كل شيء*».

لوَّحت سيليستيا بيدها نحوي، فشعرتُ بوخزة غريبة على بشرتي، كما لو أن خيوطًا غير مرئية قد قصت، وغُرزت في جسدي بتتابع سريع.

تأججت داخلي موجة من السحر، وغصتُ فجأة داخل مورد سحري، وأنا أكاد أصيح فرحًا عندما تجاوزت الجدار الذي انبثق داخلي.

بادرتني العجوز بنظرة تفيض معرفة وحكمة، وأشارت نحو الظلال. تحركت الظلال بعيدًا عن الحائط، وقدمَت إلى جوارها بينما قالت: «عندما تظفرين بالإجابات عن أسئلتك، تعالي واعثري عليَّ. فأنا أنتظر الثمن دون تأخير».

الخامس والثلاثون

هويتُ على الأرض داخل الشجرة المسحورة، وأخذتُ أقلّب صفحات كتاب التعاويذ، فأصدر الورق حفيفًا كأوراق الشجر الجافة. حينها ارتجفت أصابعي. سقطت ورقة لم تكن موجودة من قبل، فالتقطتها بحذر وقرأت الأسطر المكتوبة بدقة.

بعض الحقائق لا تمنح الحرية
التي تسعين وراءها. وبمجرد أن
تعرفيها لن تستطيعي التراجع
إلى الأبد. فاتقري بحكمة.

- س.

سمائيل. راث. كانت رسالته مشابهة لتحذير العجوز بصورة مخيفة، لكن بالنسبة إليَّ، لم يكن هناك مجال للتراجع أو التقدم حتى أضمن راحة شقيقتي وسلامها إلى الأبد، أيًا كانت العواقب. تتبعت حرف (س) الذي وقَّع الرسالة به، أي هويته الحقيقية التي لم يعُد بوسعي إنكارها.

لم أستغرب من عثور راث على كتاب السحر المسروق. فقد كان على أية حال يبحث عن تعويذة لاستعادة جناحيه الملعونَين. ومع ذلك، اندهشت من تركه كتاب التعاويذ بمفرده، حتى بعد استنتاجه أنني سآخذه من بيت خطيئته.

لقد علم بداهة كيف أن الحقيقة يمكنها أن تجرح وتؤلم مثلما تشفي وتعالج. لقد أريته ذلك. وأثبت هو من خلال أفعاله أنه ليس شريرًا كما تظن الدنيا بأسرها. لقد كان راث سلاحًا لإنفاذ العدالة يفتك بالجناة دون هوادة. كان جنديًا يتبع الأوامر التي يصدرها الواجب والشرف.

لم أتمكن من إخباره بأنني رأيت هذا. رأيته. لقد كان هو الميزان بين الصواب والخطأ. إنه لم يكن خيِّرًا ولا شريرًا؛ كان موجودًا ببساطة، تمامًا كما أخبرني ذات مرة.

ارتجفت الشموع بشدة، مُلقية بالظلال على أرجاء الحجرة المظلمة. وعندئذ اختفت العجوز والأخوات السبع، ليتركنني وحيدة للقيام بمهمتي.

تجاهلت الخوف الذي راح ينمو داخلي، ويسلب أنفاسي. ربما كان ناجمًا عن لقائي بإلهة حقيقية - وهو الشيء الذي لم أستطع استيعابه بصورة كاملة - أو لعله من تأثير هذه الحجرة التابعة تحت الأرض، لكنني لم أكن من النوع مفرط الحساسية تجاه الأماكن الضيقة أو السراديب. لقد رفضت أن أبدأ الآن. فقد كنت قريبة للغاية. قريبة من الحقيقة التي راوغتني طيلة كل تلك الشهور.

إذا سار كل شيء على ما يرام، فسأعلم أخيرًا ما حاق بشقيقتي في غضون دقائق فحسب.

تجمدتُ في مكاني. فربما تُريني مرآة القمر الثلاثية الدقائق التي سبقت مقتل أختي مباشرةً. أو الأفظع؛ فلعلي أشهد قتلها نفسه. إن رؤية جثمانها

الذي قُتل بوحشية بعد الجريمة أمر مختلف تمامًا عن رؤية ذلك وهو يحدث ارتعدتُ هلعًا.

حدثت نفسي: «فلتتحلي بالشجاعة». وجدت التعويذة التي كنت قد وضعتُ علامة عليها منذ بضع ليالٍ وتنهدت. أيًّا كان ما سأراه الآن، فها أنا سأعرف من الذي سلب حياة فيتوريا. أردفتُ: «الماضي، الحاضر، المستقبل، فلتكتشفي الحقيقة. فلتريني أمنيتي الأعظم الكامنة عميقًا في عقل الكون».

في البداية، مثلما حدث مع تعويذة الاستدعاء التي استخدمتها لإحضار راث، لم يحدث شيء. أخذت أحدِّق إلى مرآة اليد، وأنا أجذب أمنية قلبي الأعظم إلى مقدمة أفكاري. رأيت شقيقتي التوأم، للمرة الأولى خلال أشهر استطعتُ تخيلها بوضوح شديد. وسمعت ضحكتها المبتهجة، وشممتُ عطر الخُزامَى والمريمية البيضاء الذي كان يفوح منها، وأحسست بقوة حبها لي.

ارتجف الضياء في المرآة، وتبعته سحيبات مظلمة تدور كالدوامة، وكأنما عاصفة تتجمع داخل المرآة. وأصدر السحر أزيزًا عبر المعدن، فشعرت بالفزع لكنني تماسكت، وبذلت قصارى جهدي لعدم النظر بعيدًا أو إسقاط مرآة القمر الثلاثية؛ إذ كنت قد حملتها.

تواصلت العاصفة داخلها، وسمعتُ بعض الأصوات الهامسة. عندئذٍ تسارعت نبضات قلبي. أردتُ أن تنقشع العاصفة التي كانت تحجب الرؤية عني، لكي أرى شقيقتي.

ببطء، كما لو كان المشهد التُقط عبر وعاء عسل ثم سُكب على مهل، ظهرت غرفة. كانت هناك نوافذ داخل ركن منعزل. وفي الخارج، كانت الجبال ذات القمم الثلجية شامخة فوق الضباب. استغرقت لحظة لأتعرف عليها، لكنها بدت كالغرفة التي حبس فيها راث أنتونيو.

تحرك منظور المرآة إلى الخلف، ما سمح برؤية مساحة أكبر.

طرفت بعيني، بينما ظهر المقعد الجلدي الضخم بوضوح، وعليه البشري الذي قتل شقيقتي. كان مندمجًا في الحديث، لكن من تحدث معه كان خارج نطاق الرؤية. ثم سمعت صوت الشخص الآخر، فخفق قلبي.

«... أوامري جيدًا».

إنها *فيتوريا*. تجمدت الدموع في عينيَّ عندما أدركت أن ذلك لا بد أن يكون وهمًا. أنتونيو لم يكن يتحدث إلى أحد - ربما أُرسلت إليه جمجمة مسحورة. لم تكن لديَّ فكرة كيف بدا هذا الصوت قريبًا للغاية من صوت أختي الأصلي، خاصة أن صوت جمجمتي بدا مختلفًا بعض الشيء، لكنني كنت في أمسِّ الحاجة إلى أن تتحدث مجددًا. وبغض النظر عن كون الصوت باردًا كالمعدن ومقتطعًا، فقد كان أقرب صوت لأختي سمعته منذ أشهر.

توسلت الصوت في صمت لكي ينطلق ثانية.

أجيبت توسلاتي، ورأيتُ امرأة تسير على مهل نحو أنتونيو، ثم جلست على ذراع مقعده. كانت ترتدي ثوبًا من قماش رقيق ذي لون بنفسجي فاتح، بدا كأنه يبعث نسمة سحرية. وكان شعرها الداكن منسابًا على ظهرها في خصلات مموجَة، بينما تألقت بشرتها البرونزية. وبدت كأنها لوحة لإلهة رومانية بُعثت إلى الحياة. ومع ذلك كان ثمة شيء مألوف في طريقة جلوسها غير المتكلفة.

حدثتُ نفسي: «يا إلهاتي المقدسات. لا يمكن أن يكون هذا حقيقيًّا».

كانت المرأة نسخة طبق الأصل من شقيقتي التوأم. على الأقل في مظهرها الجانبي. التفتت كما لو أنها شعرت بحضور سحري غريب في الغرفة. عندئذ نظرت نحوي بعينيها البنفسجيتين الفاتحتين، لا البُنيتين كعادتها، أو نحو الشيء الذي شعرت بوجوده، أيًّا كان. لكن وجهها كان مألوفًا وغريبًا في آن واحد.

لقد كانت فيتوريا، لكن ذلك غير ممكن.

لم أستطع إدراك كُنه ما رأيته بأم عينيَّ. وانجرف عقلي رويدًا رويدًا نحو عواطفي، بينما رحت أتأمل الصورة التي تتراءى أمامي. لقد كانت فيتوريا في بيت راث، وبصحبة أنتونيو. لا بد أنها جاءت إلى هنا قبل مقتلها. لكن راث أقسَم أنه لم يعرفها ... وأنا لن أشك فيه ثانيةً. ما يعني أنها ليست صورة من الماضي؛ بل إنها من الحاضر أو المستقبل. إذن، بصورة ما، أختي على قيد الحياة. وعلى الأقل، في هذا العالم.

اغرورقت عيناي بالدموع مجددًا، تكاد تنهمر، لكنني حبستها، لكيلا أفقد ولو لحظة واحدة من المشهد الذي تعرضه المرآة السحرية. هزت فيتوريا التي ظهرت في المرآة رأسها، وهي ما زالت تحدِّق نحو السحر الذي أوجده حضوري. تذكرتُ دفتر مذكراتها، وكيف زعمت أنها قادرة على سماع الأشياء السحرية وهي تحدثها. ربما كانت مرآة القمر الثلاثية تثرثر معها الآن.

هتفتُ ملوحةً بيدّي: «فيتوريا! أيمكنكِ سماعي؟».

أبعدتْ نظرتها من ناحيتي، وركزت انتباهها على أنتونيو قائلة: «لقد حان الوقت، فهل أنت مستعد؟».

قال: «أجل». لم أستطع رؤية وجه أنتونيو، لكن بدا أنه كان لاهثًا. كما لو كان يعلم أنه في حَضرة شيء يبُث الروع في الأنفس. أردف قائلًا: «أتعهد بالتضحية بحياتي في سبيل خدمتك يا ملاكي».

ربتت فيتوريا رأسه ثم [illegible] قائلة: «فلتمهلني لحظة، ثم سننطلق».

صرخت: «كلا». إذا ك[illegible] هو الحاضر، فلن أفقد شقيقتي مرة أخرى. كدتُ أُسقط المرآة في أثناء محاولتي الوصول إلى زنزانة البرج. لكنني تمكنتُ من دسّها في حقيبتي، وانطلقت صاعدة السلم، وأنا أسابق الزمن حتى وصلت إلى باب جذع الشجرة.

اندفعتُ بسرعة وسط ظُلمة الليل. وانطلقت عبر ممر الخطايا وأنا أتعثر في الجذور والصخور التي لم ألحظها في المرةِ الأولى. واصلت بسرعة وقوة أكبر على الرغم من الجروح والرضوض التي أصبت بها. كان عليَّ أن أصل إلى بيت راث. وخلال وقت أقل كثيرًا مما ينبغي، وصلت واندفعت عبر الأبواب، وأنا راكعة لاهثة الأنفاس. فوجدت خنجر أنير مسلطًا على عنقي.

وضع أنير خنجره في غمده، وهو يمد لي يده قائلًا: «يا للهول، إيميليا، ظننتُ... هل أنتِ مصابة؟ لم يستطع راث أن يجدك في أي مكان».

سألته: «أين هو؟».

قال أنير: «إنك تنزفين».

لم أكترث ألبتة، وسألته مجددًا: «أين هو؟».

- «لقد غادر من فوره قاصدًا ممر الخطايا. إنه المكان الوحيد الذي لا يمكنه الشعور بوجودك به».

- «لا بد أن أصل إلى البرج الذي تقع فيه الزنزانة. فلتحضر راث. الآن».

غمغم أنير بكلمات غير مفهومة، ربما كانت لعنات أو مناشدة، لكن ما كان يمكنني التوقف. فلم يكن أمامي من سبيل لمعرفة ما إذا كان المشهد الذي رأيته يحدث في الحاضر أم المستقبل. لكن بحال أو بأخرى، إن أختي موجودة هنا، أو ستكون هنا، ولم أدرِ أأضحك أم أصرخ أم أنهار باكية.

صعدت الدرَج مسرعة، وظللتُ أصعد وأصعد، بطاقة وقوة لا نهاية لهما. ودون التوقف لاستجماع قواي، دفعتُ الباب فاتحةً إياه. قال راث إنه سحره بحيث ينفتح على يدَي، وبالفعل، تيقنتُ حينها أنه لم يكذب عليَّ.

صحتُ مُنادية بعد أن خطوت داخل الغرفة: «أنتونيو؟» كان ثمة شمعة تطلق دخانًا فوق الطاولة المجاورة للمقعد، كما لو كانت أطفئت من فورها، أو أطفأتها الحركة السريعة بجوارها. فحركتُ يدي نحو خنجري. ولم تكن الغرفة واسعة؛ فقط ما يسَع سريره وركن القراءة الصغير، بالإضافة إلى ستار يوفر له الخصوصية من أجل الاستحمام وقضاء الحاجة. أخذتُ أُحدِّق إلى الستار. لم يصدُر صوت من خلفه، فقلت: «مرحبًا؟».

سرى داخلي شعور بعدم الارتياح، بينما تقدمتُ ببطء نحو الستار، وأيًّا كان ما يقبع خلفه. أزحت الستار وأطلقتُ نفسًا مفعمًا بالإحباط.

هناك، بجوار إبريق وطَست، أبصرت جمجمة مسحورة أخرى. تسارعت خفقات قلبي، بينما اقتربت منها، وانتظرت، وجسدي متيبس لسماع رسالتها. دبَّت فيها الحياة فور أن خطوت خطوتي الأخيرة لأصير بجوارها مباشرة.

قالت: «*فلتأتِ إلى الجزر المتنقلة يا أختي. لدينا الكثير لنتحدث به عن إبطال ما تبقى من لعنتنا. الإجابات في انتظار وصولكِ. أراكِ على خير. والآن عليكِ أن تتنحي جانبًا*».

لم أفكر، ووثبتُ جانبًا، فانفجرت الجمجمة وتحولت إلى غبار لامع، دون أن تخلِّف وراءها سوى الرسالة التي تقشعر لها الأبدان التي ما برحت تتردد

في أذنَي. ثم تسمَّرت مكاني، وأنفاسي تتلاحق إذ رأيتُ المحال يصير حقيقة. لقد كانت شقيقتي على قيد الحياة.

فيتوريا حية.

أطلقت ضحكة جنونية أخذت تتردد في حلقي. فيتوريا بإمكانها أن تعود إلى المنزل. وبإمكاننا أن نعود إلى نونا، ووالدينا. ونستطيع أن نطبخ ونضحك ونعلّم بناتنا كيفية الطبخ في مطعم البحر والكَرمة. ستعود الحياة إلى مجراها من جديد. إذن ما زال أمامنا المستقبل الذي دائمًا ما حلمنا به، معًا. وإذا لم تتمكن من العودة إلى عالم البشر لسبب أو آخر، فسأمكث أنا هنا. فأيًّا كانت الظروف، فسنجتمع مجددًا قريبًا. ستكون فيتوريا هنا. إنني قد اشتقت إليها بقدر الدقائق والثواني التي مرت عليَّ دونها.

بمُضي الوقت أخذت الراحة والفرحة اللتان شعرت بهما تتحولان شيئًا فشيئًا إلى إحساس كئيب، بينما تلاشت صدمتي الأولى. لقد كانت فيتوريا هنا، بهذا القرب مني، ومع ذلك اصطحبت أنتونيو واختفيا دون أن تراني.

تركتْ جمجمة مسحورة محمَلةً برسالة. كما لو كانت مشغولة إلى حد عدم قدرتها على تكبُّد مشقة زيارة واحدة إلى جناحي. أو الانتظار حتى أصل إلى هنا الليلة، لا بد أنها شعرت بي. ومع ذلك رحلت. كأنني لا أساوي شيئًا، وكذلك قلبي الممزق أشلاء.

لقد قضيت *شهورًا* تائهة في بحر من الغضب المحتدم والرغبة في الانتقام.

شهورًا من الأسى والحنَق.

ومن الحزن والحداد.

كل هذا وأختي تحيا. حسنًا. فليكن سحرها الجديد القوي نافعًا إذن. لقد كانت شقيقتي التوأم تسحر الجماجم، ثم تتركها لتكون دليلًا مرعبًا. وبينما كان كل ما عليها فعله هو التسلل إلى غرفتي، كانت تتلاعب بي، وتحاول النَيل من عزيمتي.

وها هي كادت تحوّلني إلى وحش مفترس.

أخذت نفسًا عميقًا وأطلقته. فشعرت بالهواء كأنه نيران تحرق صدري. كل دروس راث عن السيطرة على عواطفي أمسَت الآن رمادًا تذروه رياح غضبي وثورتي. لقد كانت شقيقتي حية. وجاءت إلى أنتونيو؛ لتهاجمه، أو تجعله يدفع ثمن ما ارتكبته يداه.

بل على العكس، إذ بدا كأنه تلقَّى نعمة من السماء. لقد دعاها *ملاكه*. تمامًا مثلما ذكر ملاك الموت في ليلة دار العبادة. وكنت أعتقد أنه يشير إلى راث أو أمير آخر من أمراء الجحيم. وما دام لم يقتل فيتوريا، فهذا يعني أنه لم يتأثر قط بأي أمير شيطاني. فلم يكن بحوزتي دليل بعد، لكن راودتني شكوك جديدة.

الخداع. الأكاذيب. الخيانة.

كل الصفات التي كنت أنسبها إلى الأشرار صارت تنطبق على فيتوريا. لقد دبرت كل شيء - كما لو أنها مؤلفة مسرحية تنسج حكايتها الملتوية، وتوزع الأدوار على الممثلين المخدوعين، بمن فيهم أنا. لكنني لم أعُد قطعة شطرنج تحركها بيديها.

لا يهم ما إذا كانت غايتها النهائية هي فك اللعنة، إذ لا يحق لها أن تكذب عليَّ..وأن تُبقيني قابعة في الظلام. لكنني لم أعد مُتشحة بالظلال، إذ كنت أحترق وأتوهج غضبًا.

شعرت بيديَّ تؤلمانني، فنظرت إلى الأسفل، ورأيت الجروح الضئيلة في راحتَي من أثر الحفر بأصابعي بقوة إلى حد أنني خدشتُ بشرتي. حينئذ تنهدتُ، فأطفئتُ نيران الغضب أخيرًا.

اختمرتْ في ذهني خطة جديدة، أو اتجاه جديد. سأزور أختي الحبيبة بكل سرور، لكن لن أستطيع فعل شيء إذا ندمت سريعًا على دعوتها. إذن فقد آن الأوان لتقابل فيتوريا أختها الساحرة الثائرة القاسية التي أسهمت في خلقها.

درتُ على عقبيَّ متوجهة إلى الباب. فقد كانت الجزر المتنقلة في انتظاري. لكن ثمة شيئًا أخيرًا يجب فعله قبل الرحيل من بيت راث.



سرت على مهل عبر الدهاليز، وعقلي مشغول بالخطط والتدابير. فلم أعد أهتم بمن الذي بدأ تدبير هذه الألاعيب. الساحرات، أم الأشرار، أم شقيقتي، ومن بينهم كل الملعونين والمخلوقات المهيبة. إذا كانت أختي على قيد الحياة، فإن ذلك يُلقي بالشك على جرائم القتل التي حدثت قبل مقتلها المزعوم وبعده. هل قتلت الساحرات بالفعل أم أن ذلك كان جزءًا من مؤامرة أكبر تهدف إلى جمع قدر أكبر من القوة أو نقلها؟ لم تكن لديَّ فكرة عما سيجنيه «القتلة» الحقيقيون من ارتكاب جرائم قتل مزيفة، إلا إذا كانوا يرغبون في إشعال حرب بين العوالم، وليس مجرد فك اللعنة.

وأنا ما كنت لأسمح بنشوب الحرب. وبغض النظر عن مخطط أختي، فسأحمي عائلتي وعالم البشر أيًا كان الثمن.

مع كل خطوة خطوتها نحو جناح راث، كانت الصورة تتضح في مخيلتي على نحو أكبر. وهكذا اتخذت قراري. والشيء الوحيد الذي ندمت عليه كان الوقت الطويل الذي قضيته قبل أن أقرر المجيء إلى هنا.

طرقت على بابه، ونظرت حولي. كانت غرفة الاستقبال خالية، والنيران مُطفأة. كان من الواضح أنه لم يدخل جناحه طوال الليل؛ إذن لا بد أنه بدأ البحث عني بعد أن غادرت بوقت قصير. وذلك بعد أن شككت فيه وفي الخير الذي يزخر به قلبه وروحه. لقد كان يبحث عنّي.

خلعتُ عباءتي، وذهبت إلى مكان نومه، وأخذت زجاجة من شراب التوت الشيطاني من أحد الأرفف، ثم واصلت نحو شرفته. كان يستطيع أن يشعر بما يدور في خلدي هنا عن طريق وشمينا. ولم أشك كثيرًا في أنه سيعثر عليَّ قريبًا. فتحت الزجاجة، واحتسيتُ الشراب منها مباشرة، وأنا أرنو

إلى البحيرة. وفي تلك الساعة كانت المياه القرمزية تشبه بركة من الدماء المُراقة. وكان هذا نذير شؤم. لكنني، لمرة واحدة فقط، رحبت بهذا النذير.

هبَّ نحوي دخان أسود لامع حملته النسمات مع اقتراب ملك الشياطين، حينئذ تردد صوته الذي يشبه هزيم الرعد المكتوم في أذني، وهو يقول: «إيميليا».

التفتُّ على مهل، ونظرت إليه. كان الخطر يلوح في عينيه، فضلًا عن الغضب. لم يكن هو الغاضب وحده، لكن غضبي لم يكن موَجهًا نحوه؛ إذ إنه الوحيد الذي ساندني، وكان صادقًا معي. عندئذ توغلت في مورد قواي السحرية، وأطلقت كل الحنق والثورة اللذين كنت أكبتهما داخلي منذ أن رأيت شقيقتي. واستجابت قوتي لي دونما تأخير.

رفعتُ يديَّ، ونظرت إلى وجه راث بينما ظهرت زهرة مشتعلة على كل من راحتيَّ. لكن لم يظهر في عينيه وميض الدهشة. أطلقتُ سراح قواي وسمحت لهما بالاحتراق، فتحولت الزهرتان إلى اللون الأسود، ولم يتبق سوى الجمرتين الصغيرتين المحتضرتين باللونين الوردي والذهبي قبل أن تحمل الرياح الرماد بعيدًا.

كان راث يعلم بامتلاكي هذه الموهبة والقوة. ولم يفصح عن ذلك قط. أردت أن أعرف ما يعلمه عني أيضًا، والأسرار الأخرى التي ما زال عليَّ أن أكتشفها عن ماضيَّ.

لقد أخبرتني العجوز بأن أحل اللغز بنفسي. وهذا ما عزمت على فعله.

ربما كنت الساحرة الأولى حقًّا، بغض النظر عما قالته سيليستيا في غرفتها في البرج، وهذا الحجب لذكرياتي كان الثمن الذي دفعته مقابل استخدام السحر الأسود. ولا شك في أن هذا يفسر تحذير نونا لي من استخدام تعاويذ معينة.

كظمتُ غيظي بينما تذكرتُ كيف أنها جعلتنا نبارك تميمتينا مع كل اكتمال للقمر. تُرى هل كانت تعلم هويتي الحقيقية؟ لا بد أنها كانت تعلم. ولكَم آلمتني خيانتها!

ربما - على عكس ما زعمته نونا من أن فائدة تميمتينا تتمثل في إخفائنا عن إبليس - كانت تميمة القرن، أو بالأحرى جناحا راث، تستخدمان للسيطرة على قوانا، لا قواه. وإذا كان ذلك حقيقيًّا، فلعل راث أخذ تميمتي ليس فقط لمصلحته، وإنما لمصلحتي أيضًا. وما يؤكد ذلك هو أن قواي فُك أسرها منذ خلع التميمة.

تنهدت، وأنا أركز على السؤال الذي أردتُ أن أطرحه أولًا.

قلت: «منذ متى وأنت تعلم أن بإمكاني استدعاء النيران؟» زم راث شفتَيه. فهززت رأسي وضحكت بمرارة، بينما أردفت: «إن شقيقتي ما زالت تحيا. مع أنني أشك في أنك كنت تعلم هذا بالمثل».

أخيرًا ارتجفت المشاعر في نظـ[illegible] لكنه بقي صامتًا، ومتحفظًا كما لو أنني أثير الخوف. وأظنه كان محتفـ[illegible] مشاعره تلك.

قلت: «أريد إجابات».

ما كان يمكنني أن أنتظر أختي [illegible] على مسامعي الحقيقة من وجهة نظرها هي حينما أقابلها في الصباح. وكنت أريد أن أجمعها بنفسي. بدءًا من الآن. أخذتُ أتفرَّس راث. لقد أخبرني ذات مرة بأن أمعن النظر إلى أعدائي. وأن أبحث عن أي دليل على الصدق في أفعالهم. وهو لم يكن يتحدث، ولم يكن هذا معتادًا.

قلت: «من منطلق صمتك أظن أن اللعنة تقوم بدورها مجددًا. إننا نحوم حول أشياء لا تريدني اللعنة أن أعرفها». وقد لاح في نظرته بريق التصديق على كلامي، لكنه سرعان ما تلاشى. فأردفت قائلة: «إذا قبلت إتمام رباط الزواج، فأعتقد على نحو لا يمكنني تفسيره أن هذه الحال سوف تتغير. ربما لن تنحل اللعنة تمامًا بهذه الطريقة، لكن أتصور أن ثمة روابط أقوى من السحر الأسود. وليس هناك ما هو أخطر من الحب، أليس كذلك؟ فالناس يتحاربون من أجله. ويموتون من أجله. كما أنهم يشنون الحروب ويغدرون ويرتكبون الآثام كافة تحت اسمه».

لقد فهمت ذلك الآن. فأنا كنت مستعدة لارتكاب الفظائع لكي أثأر لشقيقتي التوأم.

برق في عينيه ما يشبه القلق، بينما قال: «إن المشاعر ليست حقائق».

قلت: «هذا رائع».

تبسمتُ على نحو مغوٍ. لقد كذب راث من فوره. وبأقصى ما يستطيع.

فلتذهب اللعنة إلى الجحيم، فهو ما زال يريدني أن أركَن إلى قوة اختياري. وأن أقبل إتمام رباط زواجنا دون أي تأثير خارجي يعوق إرادتي الحرة. ها هو أمير الصفقات يضيع فرصة الفوز السهل، وكل هذا يفعله من أجلي أنا؛ من أجلي على الدوام.

قلت: «فلتخبرني عن تميمتينا، أي جناحيك. أريد أن أعلم لمَ كانتا بحوزتنا أنا وفيتوريا حقًّا. هل للسيطرة على قوانا، أم كما زعمت عائلتنا؛ لكي نخفيهما عنك؟».

قال: «ليس لديَّ دليل، لكن أظن أن كلا الأمرين صحيح. أنا أيضًا كنت أتحقق من احتمال سحرهما لضمان نسيانك بعض الذكريات».

- «لقد جعلتني أرتدي تميمتي في بحيرة الهلال لتختبر ذاك الاحتمال».

أطلقت نفَسًا عميقًا بينما أومأ مؤكدًا كلامي. وعلى الأقل بدا الشعور بالذنب على محيّاه.

- «كنت أتمنى أن تزيل خصائص البحيرة المتعلقة بإظهار الحقيقة أية عوائق على عقلك. ولم أتوقع رد الفعل القوي ذاك الناتج عنها».

- «هل التميمتان تغلقان بوابات الجحيم حقًّا؟».

- «أجل».

في أعماقي، تنهدتُ في ارتياح. فعلى الأقل لم يكن كل ما أُخبرتُ به كذبة. وضعت يدي على صدره، وشعرت بخفقات قلبه المنتظمة بينما قلت: «لديَّ سؤال واحد أخير يا صاحب السمو». انتبه إلى هذا التواصل الرقيق بيننا قبل أن ينتبه لي مجددًا، فاسترسلت: «فلنتظاهر بأنه ليست هناك لعنة، ولا خطبة سحرية، ولا دوافع رومانسية خلقها رباطنا. فهل كنت ستختارني. لكي

أجلس بجوارك على العرش. لكي أكون ملكتك، وصديقتك، وموضع ثقتك، بل حبيبتك».

رد قائلًا: «إيميليا... »

قلت: «لقد خدعتني لأعقد معك صفقة بالدماء قبل أن أعبر إلى العالم السفلي. فهل تتذكر ما قلته؟» أقسم أن دقات قلبه اضطربت قبل أن تعود إلى إيقاعها السريع، بينما أردفت: «لقد أخبرتني بألا أعقد صفقات مع إبليس أبدًا، فما امتلكه مرة واحدة سيظل ملكًا له إلى الأبد».

رد قائلًا: «لقد كانت مبالغة بلاغية. فصفقة الدماء لا تعني الامتلاك».

- «ربما ليس من حيث المبدأ». أزحت يدي، وتراجعت إلى الخلف بينما استطردت: «لقد فعلت ذلك بهدف حمايتي. وتحسبًا لعدم قبولي رباطنا. لقد زعمت أنه ليس هناك أمير من أمراء الجحيم يتسم بالغباء الذي يدفعه إلى تحديك. وكانت تلك هي طريقتك السرية لمنحي فرصة التنصل من أي تعاقد مع أمير شيطاني آخر. ويدخل في نطاق ذلك اتفاق الدم الذي عقدته مع برايد. فهل أنا مخطئة؟».

- «كلا».

- «لا تُجِب الآن، لكنني أريد أن أعلم أصحيح ما قلته حينها».

- «عليك أن تكوني محددة أكثر. فلقد قلت الكثير».

- «إذن ما زلتَ لك أنت؛ ملكك».

بقي صامتًا. وكلماتي معلقة في الهواء بيننا، ثقيلة ومتحيرة، كنظرته تمامًا.

كسرتُ الصمت قائلة: «إذا كنت مكانك، فسأخبرك بأنك ملْكٌ لي. وبأنني أختارك زوجًا لي. وأنه ليس هناك أحد آخر أفضّل أن أواجه الشياطين معه، ولا أية روح أخرى أود أن أجوب الجحيم معها، سواك أنت. كما لا أريد شخصًا آخر غيرك يساندني ويرافقني حينما أسافر إلى الجزر المتنقلة غدًا».

ظل صامتًا لحظة مرت كأنها دهر، وبدا عليه أنه يزِن إخلاصي ويقارنه بمشاعره الخاصة، ثم قال: «وماذا إذا كنت لا أحتاج إلى أي وقت للتفكير في الأمر؟».

جزيل الشكر للإلهة.

تنفستُ الصعداء في هدوء ودخلت من الشرفة إلى حيث ينام، وأنا أنظر إليه ملتفتة بوجهي نحوه، بينما مررت بجواره، ولمحتُ في رضا الحب الذي يشع في عينيه. وأخيرًا، ارتضيته زوجًا لي، وبكل جوارحي، وقلت له: « إذن، أقترح أن نتم رباط زواجنا الآن يا صاحب الجلالة».

شكر وتقدير

إن تأليف هكذا رواية في ظل جائحة عالمية يُعد بالتأكيد تحديًا كبيرًا، وإنني لأعرب عن جزيل شكري وتقديري لمن سأتي على ذكرهم من الأشخاص الذين دعموني وشجعوني للمضي قدمًا في تأليف هذه الرواية.

ستيفاني جاربر - إنني ممتنة لك إلى الأبد على ساعات طرح الأفكار والنقاش بين المشاهد. والأكثر من ذلك، أشكركِ جزيل الشكر على صداقتنا التي تتخطى حدود النشر.

أنيسا دي جومري - صداقتنا وحبنا للكتب والطعام والرومانسية قبل كل شيء، هي الأفضل، مثلك تمامًا.

إيزابيل إيبانيز - إنني غاية في السعادة لأنك صرت صديقة عزيزة. أشكركِ على القراءة المبكرة وتقديم الملاحظات الرائعة، وحرفيًا على القيادة أميالًا إضافية من أجل زيارتي بصحبة الجميع (التحية لفريق الغداء: كريستين دواير، أدريان يانج، ستيفاني جاربر، وأختي كيلي!)

إلى أفراد عائلتي - أحبكم وأقدركم دون حدود. وأقدم شكري الخاص لأختي كيلي (متجر دوجوود لين) على القراءة المبكرة، وعلى استمرار إلهام متجرها لي بالعديد من التفاصيل في كتبي.

باربرا بويل، وكيلة أعمالي وصديقتي والبطلة المثابرة، في نخب عشر سنوات من الشراكة في جريمة النشر.

إلى فرق العمل في IGLA، وبارور الدولية وجراندفيو - ماجي كين، وإيرين جودمان، وهيثر بارور-شابيرو، وشون بيرارد، شكرًا لكم جميعًا على كل ما بذلتموه.

إلى فريقي الجديد في «كتب ليتل براون» للقرَّاء الصغار، وNOVL، لقد أحطتم هذه السلسلة بحماسكم وحبكم لتألق الشخصيات أكثر من وسم راث اللامع. بدءًا من الناشرين إلى فريق التحرير والتسويق والمكتبات والإعلان، وفريق الإنتاج الرائع، والفريق الفني، وأقسام المبيعات وحقوق النشر، أنا ممتنة لكم جميعًا على العمل الجاد الذي أنجزتموه من وراء الستار.

شكر خاص للمحررة ليز كوسنار على تبني القصة الرومانسية في هذا الكتاب، وفيرجينيا ألين على إعداد الخريطة المذهلة، وأفينا لينج وسيينا كونسول وسافانا كينيلي وستيفاني هوفمان وإيميلي بولستر وفيكتوريا ستابلتون وماريسا فينكلشتين وسكوت برايان ويلسون وفراسي شو وفيرجينيا لوثر ودانييل كانتاريلا وشون فوستر وكلير جامبل وكارين توريس وباربرا بلاسوتشي وكارول ميدوز وكاثرين توكر وأنا هيرلنج وسيليستي جوردون وليا كولينز ليبست وجانيل دلويز وإليس جرين وميشيل فيجيورو وراوية الكتاب الصوتي مرايس كالين وناشريَّ نيجان تينجلي وجاكي إنجل. إن نشر كتاب ليس بالعمل الهيِّن، ولقد أسهمتم جميعًا في جعل الخيال حقيقة إبان الجائحة.

كتُب جيمي باترسون - سأظل ممتنة على الدوام لهذا الفريق ولجيمس باترسون على كل ما قاموا به لمساعدتي على إصدار كتبي للعالم.

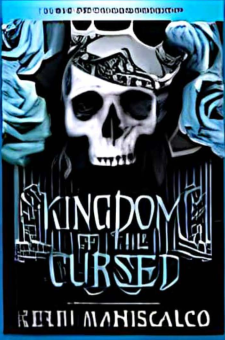
إلى عائلتي في المملكة المتحدة في مؤسسة هودر وستاوتون - مولي بأول وكيت كيهان ومادي مارشال ولورا بارثولومو وكالي روبرتسون وسارا كليي وإيمان كابل، وكلوديت موريس، والفريق كله، لقد كنتم أبطالًا، وإنني غاية في السعادة بأن الفرصة سنحت لي للعمل مع كل منكم.

إلى بائعي الكتب، وأمناء المكتبات، والشركات المستقلة، والمدونين، وصانعي المحتوى في إنستجرام، وبوكيش بوكس، وفيريلووت، ولايبراريا بوكس، ومعجبي بوكتوك الأحباء المتحمسين - أنتم صانعو السحر الحقيقيون. شكرًا لكم على مناقشة هذه السلسلة، وافتتاح قراءتها، وعلى كل الثناء الذي قدمتموه. وإنني أقدر جهود كل منكم أكثر مما تتصورون. وأرجو أن تجنوا ثمار السحر الذي أسهمتم في خلقه أضعافًا مضاعفة.

لمحة عن المؤلفة

نشأت كيري مانيسكالكو في منزل شبه مسكون في ضواحي مدينة نيويورك، حيث بدأ شغفها بالتراث القوطي. وفي وقت فراغها كانت تقرأ كل ما يقع تحت يديها، وتطهو كل أصناف الأطعمة بصحبة أفراد عائلتها وأصدقائها، تحتسي الكثير للغاية من الشاي بينما تناقش أمور الحياة الدقيقة مع قططها. كيري هي المؤلفة الأولى وفقًا لجريدتي نيويورك تايمز ويو إس إيه توداي، وذلك عن كتابيها الأكثر مبيعًا: رباعية جاك السفاح، ومملكة الأشرار. وهي تتطلع دائمًا إلى مشاركة المقتطفات والإعلانات التمهيدية على إنستجرام @KerriManiscalco. ولمتابعة الأخبار والتحديثات يُرجى الرجوع إلى kerrimaniscalco.com.


t.me/twinkling4



راث، شيطان الحرب الجبار وخائن روحي، تحول.
حدق كل منا في الآخر طويلًا.
لم أكن أريده أو أحتاج إليه.
يمكنني القول إنه قد يذهب إلى الجحيم مباشرة، لكن كنا لنفعل ذلك معًا.

إشادة برواية "مملكة الأشرار"

"الرواية مثيرة، وممتعة للحواس، حبكتها دقيقة ونهايتها المفتوحة مشوقة".

- كيركوس ريفيوز

"القصة لا يُستهان بها، إذ لا تستطيع تركها قبل الانتهاء منها.. إنها رواية مثيرة، وعجيبة، وتبث مشاعر خاصة في القارئ".

بوكليست

"رواية فانتازيا، وسحر، وشياطين، وجريمة قتل غامضة، ومتحولين. إنها بداية لسلسلة من الروايات التي ستجعل هذا الكتاب مفضلًا لدى الكثيرين".

سكول لايبراري جورنال







